الرجال الذين اخترعوا الدستور

صيف 1787



أفضل الكتب مبيعاً بحسب «واشنطن بوست»

دافيد أو. ستيوارت

ترجمة: أ. د. محمّد بو هلال و محفوظ العارم

صيف 1787

الرجال الذين اخترعوا الدستور

تأليف

دايفد أو. ستيوارت

المترجمان

أ. د. محمّد بوهلال

الأستاذ محفوظ العارم

مراجعة

أ. د. أبو يعرب المرزوقي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

صيف 1787/ الرجال الذين اخترعوا الدستور

دايفد أو. ستيوارت

KF4541 .H5812 2010
.Stewart, David O
صيف 1787 : الرجال الذين اخترعوا الدستور / تأليف دايفد او. ستيوارت؛ ترجمة محمد بو هلال، محفوظ العارم ؛ مراجعة أبو يعرب المرزوقي.ط.-1
أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
ص479 ؛ 17×24سم.
تدمك: 978-9948-01-613-7
1- الدستور - تاريخ - الولايات المتحدة الأمريكية. 2- القانون الدستوري - الولايات المتحدة الأمريكية. 3- السياسة - الولايات المتحدة الأمريكية - تراجم. أ-عارم، محفوظ. ب-بو هلال، محمد. ج-مرزوقي، أبو يعرب.

يتضمن هذا النص ترجمة الأصل الإنجليزي:
David O. Stewart
The Summer of 1787: The Men Who Invented the Constitution



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.cultural.org.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

المندوبون

نيوهمشاير

نيكولاس غيلمان، 32، تاجر

جون لانغدن، 44، تاجر

ماستشوستس

ألبردج جيري، 43، تاجر

ناثانيل غورهام، 49، رجل أعمال

روفوس كينغ، 32، محام

كالب سترونغ، 44، محام

كنّكتكات

أولفير ألسوورث، 42، محام

ويليام صموئيل جونسون، 60، محام

روجيه شيرمان، 67، محام

نيويورك

الإسكندر هاملتون، 32، محام

جون لانسنغ، 33، محام

روبرت يايتس، 49، محام

نيوجيرسي

دايفد بريلي، 42، محام

جوناتان دايتن، 26، محام

ويليام تشيرشل هوستن، 41، محام

ويليام ليفنستون، 64، محام

ويليام باترسون، 44، المحامي

بنسلفانيا

جورج كلايمر، 48، رجل أعمال

توماس فيتزيمونس، 46، تاجر

بنيامين فرانكلين، 81، مخترع

جيرد إنغرسول، 38، محام

توماس مفلين، 43، تاجر

الحاكم موريس، 35، محام

روبرت موريس، 53، رجل أعمال

جيمس ويلسون، 46، محام

دالاوار

رتشد باسيت، 42، محام ومزارع

غونينغ بدفور، 42، محام

يعقوب بروم، 35، تاجر

جون ديكنسون، 55، ا محام

جورج ريد، 54، محام

ميريلاند

دانيال كارول، 57، مزارع

دانيال أوف القدّيس توماس جينيفير، 64، مزارع

لوثر مارتن، 39، محام

[ص x] جيمس ماكهنري، 34، فيزيائي

جون فرانسيس مورسر، 28، مزارع

فرجينيا

جون بلير، 55، محام

جيمس ماديسون، 37، مزارع

جورج مايسون، 62، مزارع

جيمس ماكلارغ، 41، فيزيائي

أدموند راندولف، 34، محام

جورج واشنطن، 55، مزارع

جورج وايث، 61، محام

كارولينا الشماليّة

ويليام بلونت، 38، مزارع

ويليام ر. دايفي، 31، محام

الإسكندر مارتن، 47، تاجر

رتشد دوبز سبايت، 39، سياسي

هاغ ويليامسن، 52، فيزيائي

كارولينا الجنوبيّة

بيرس بتلر، 43، مزارع

شارلز بينكني، 29، محام ومزارع

شارلز كوتسوورث بينكني، 43، محام ومزارع

جون راتلدج، 48، محام ومزارع

جورجيا

أبراهام بالدوين، 33، محام

ويليام فيو، 39، محام

ويليام هوستون، 32، محام

ويليام بيرس، 48، تاجر

الولايات المتّحدة سنة 1787

ولايات نيوأنجلاند («الشرقيّة»)

نيوهمشاير

ماستشوستس

رودآيلند

كنّكتكات

الولايات الوسطى

نيويورك

نيوجيرسي

بنسلفانيا

دالاوار

الولايات الجنوبيّة/العاملة بنظام العبوديّة

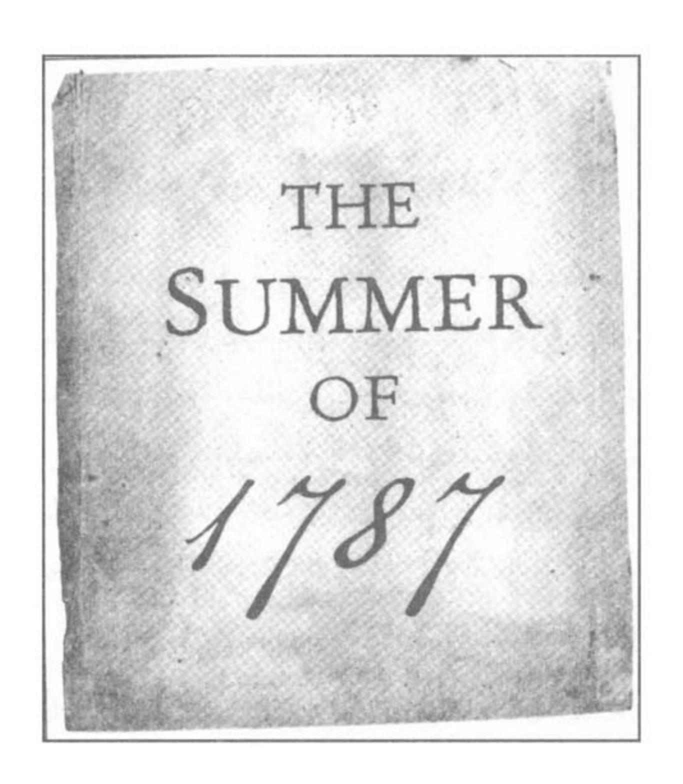
ميريلاند، فرجينيا

كارولينا الشماليّة

كارولينا الجنوبيّة

جورجيا

عدّها مندوبو المؤتمر الولايات الكبرى


THE
SUMMER
OF
1787

الفصل الأوّل

وفي ماونت فيرنون[1] كانت البداية

مارس 1785

بينما كان الثلج يتساقط في الخارج، انشغل جورج واشنطن بالتفكير مليّا في المشكلة مع جاره جورج مايسون. وفي غرفة الاستقبال الغربيّة حيث يستقبل آل واشنطن ضيوفهم، نار تدرأ عنهم برد الليل. كان كلا الرجلين يفضّل في المساء احتساء نبيذ «مديرا» (Madeira) العذب، وبذل العبيد بمنزل ماونت فيرنون ما في وسعهم من أجل أن يوفّروا لهما ما يريدان. وبصفتهما رجلين نذرا حياتهما للزراعة فقد استرسلا في الحديث عن البرد الذي قد يؤخّر زراعات فصل الربيع، وعن الطعوم التي أرسلها مايسون مؤخّرا من أجل تلقيح شجيرات الكرز بماونت فيرنون.

وعلى الجانب الآخر من المنزل انحدر المرج الواسع باتجاه نهر بوتوماك الذي ينساب برشاقة في خطّ متعرّج بين مريلاند وفرجينيا في رحلته من الجبال الغربيّة. وكان النهر هو المشكلة، فقد كانت الولايتان تتنازعانه، وجاء خلافُهما علامة على أزمة الولايات المتّحدة الجديدة التي ما انفكّت تتعمّق.

نال واشنطن، وكان يصغر ضيفه بسبع سنين، قدرا هائلا من التعب، خلال يوم واحد قضّاه على صهوة جواده يتابع سير العمل في مزرعته. غير أنّ مايسون لم يشعر إلا بالانزعاج المثير للأعصاب عقب يوم من الانتظار المملّ. كانا صديقين مدّة تناهز الأربعين عاما، وكانا

(1) Mount Vernon عقار كان يملكه آل واشنطن، وقد اتُّخذ مقرّا لإقامة جورج واشنطن أوّل رئيس للولايات المتّحدة. يقع المبنى على ضفاف نهر بوتوماك بولاية فرجينيا على بعد دقائق من العاصمة واشنطن. ويمثّل المبنى حاليّا احد المعالم التاريخيّة والسياحيّة المفتوحة أمام الزائرين على مدار العام (م).

يُمْضِيان أيّاما وليالي في بيت كلّ منهما. ومعا اصطادا الأيائل، وتكلّما في السياسة، واستضافا فرقا للرقص، وتقاسما استراتيجيّات الزراعة، وخطّطا لتطوير بوتوماك إلى مركز للتجارة. كان كلّ منهما زعيما محلّيّا، خدم عضوا في مجلس الكنيسة التابع لأبرشيّة «ترورو» وراعيا لمدينة الإسكندرية[1].

لقد قاد كلٌّ على طريقته التمرّدَ على بريطانيا العظمى. وفي سنة 1774 ترأّس واشنطن مؤتمر المقاطعة الذي تبنّى «قرارات فيرفاكس»[2] التي كان مايسون قد وضع مسوّدتها في قاعة الاستقبال ذاتها بماونت فيرنون. وأعلن مايسون فيها بعنف أنّ فرض القوانين البريطانيّة على الأمريكيّين من دون موافقتهم يمثّل انتهاكا لـ«امتيازات شعب حرّ وتعدّيا على حقوق البشر الطبيعيّة». وفي حين واصل واشنطن تجسيد الثورة الأمريكيّة من خلال زعامته الروحيّة والعسكريّة، لعب مايسون دورا أكثر محلّيّة عبر مجلس عموم فرجينيا.

وعبر سبل مختلفة بلغ كلّ منهما في حياته درجة جلبت له الكثير من المعجبين وعددا أقلّ من الأصدقاء. والآن يصف كلّ منهما نفسه بأنّه رجل متقاعد.

لقد ضخّم النور المنبثق من الموقد الفروق بينهما. كان واشنطن الرجلُ ذو البنية القويّة والمعروف بقدرته على كسر الجوز بيد ضخمة واحدة يجد متعة في الحياة المتحرّرة من أسر المكان وركوب المخاطر في ساحة القتال. ورغم بلوغه الثالثة والخمسين حافظ على رشاقة فارس وراقص ممتاز وقوّتهما. غير أنّ شيئا ما بداخله هو الذي جعله سيّدا حيثما حلّ. لقد كان بالتأكيد فرجينيّا شهما يتميّز باللطف والاستقامة، إلا أن غيره من الرجال كانوا كذلك. وبالقدر نفسه كانت له عيوبه التي منها «إدمانه على القمار... وشغفه بالبحث عن الثراء... وإتيانه أقذع أنواع الشتيمة والتجديف»، وكان له طموحه الذي لا يلين.

استمد واشنطن قوته من جمعه بينِ صفات متناقضة. فكانت «موهبة الصمت» عنده

---

(1) Alexandria: اسم عدد من المدن في عدد من الولايات الأمريكية (م).

(2) هي جملة القرارات التي اتّخذتها إحدى اللجان في مقاطعة فيرفاكس، فرجينيا، يوم 18 يوليو 1774. أكّدت تلك القرارات التي كتبها جورج مايسون أساسا رفضها ادّعاء البرلمان البريطاني علويّة سلطته على المستعمرات الأمريكيّة (م).

تضفي عليه وقارا وهدوءا. غير أنّه كان في الوقت نفسه يبطن بعبارة أحد المعجبين به «انفعالات لا يكاد بشر يقوى على تحمّلها». فمن شهد واشنطن مرّة في حالة غيظ لن ينساها قطّ. ولّد هذا المزيج من الانضباط الحديدي والرغبة الجامحة شخصيّة كارزميّة آسرة إلى حدٍّ دفع أحدهم إلى القول إنّ كلّ ملك في أوروبّا «سوف يبدو كخادم في غرفةِ فندقٍ، حين يقف إلى جانبه». وباعتبار واشنطن زعيما لتمرّد ناجح على أقوى إمبراطوريّة في العالم، أصبح أوّل مواطن في القارّة الأمريكيّة يتمتّع بصيت عالمي.



جورج واشنطن (فرجينيا)،
بإذن من أكاديميّة بنسلفانيا للفنون الجميلة، فيلادلفيا.
تركة السيّدة سارّة هاريسون
(مجموعة جوزيف هاريسون الأصغر)

كان مايسون وهو في الستّين من عمره، صغير الجسم منتصب القامة. وكانت له «عينان بنيّتان صافيتان» «وبعض الشيب» يعلو رأسه. وباعتباره رجل فكر تولّى تدوين بيان الحقوق

لولاية فرجينيا في أوائل شهر يونيو 1776. وحين قام توماس جفرسون بصياغة بيان الاستقلال في أواخر ذلك الشهر اقتبس مقاطع واسعة من وثيقة مايسون، لكنّ معظم الجهد الذي بذله الرجل الأكبر سنّا طواه النسيان.

وبعد إصابته بداء النقرس المؤلم واضطراره في الغالب إلى ملازمة مزرعته في غانستن هول غدا مايسون رجلا جلفا ميالا إلى السخرية في حين ظلّ واشنطن متحفّظا لبقا. وفي ما مضى كان يُنظر إلى مايسون باعتباره مرشدا لواشنطن الذي كان مراهقا حين التقيا أوّل مرّة، غير أنّ ذلك الزمن أضحى من الماضي البعيد. وأثناء الحرب ثارت ثائرة واشنطن حين علم أنّ الرجل الأكبر منه سنّا آثر القعود في فرجينيا بدل الإسهام في الجهد القومي. فكتب إلى مايسون: «أين هم رجالنا المقتدرون؟لم لا يبادرون إلى إنقاذ بلدهم؟ لعلّ هذا النداء يجد، يا سيّدي العزيز، صدى لديكم». غير أنّ مايسون، بسبب مرضه وترمّله وعشقه لأبنائه التسعة وإيثاره ببساطة البقاء قرب البيت، لم يبال بالنداء.

رغم ذلك كان واشنطن يعوّل على مايسون لمساعدته في المسائل الخاصّة. فحين نشبت الخلافات حول مزرعة ربيبته أو حول أموال ربيبه لجأ واشنطن إلى مايسون طلبا للعون. وقبل ذلك بأربعة أشهر فقط كان قد طلب من مايسون أن يُقرض أخاه جون واشنطن «أربع أو خمس أو ستّ مائة جنيه»، وهذا مقدار لا يستهان به. فإذا كان ثمّة شخص قادر على التحدّث إلى الجنرال باعتباره ندّا وصديقا فهو مايسون.

قبل أن يجلس الصديقان إلى الموقد ببضعة أيّام في ماونت فيرنون تلقّى مايسون رسالة من رجلين من مريلاند يذكران فيها أنّهما يتشوّقان للقائه في الأسكندرية. وقد أوردا فيها أنّ مايسون كان أحد أربعة مفوّضين عن فرجينيا يعتزم المريلانديّان التفاوض معهم بشأن النزاع بين الولايتين على مسائل التجارة والصيد وحقوق الإبحار في نهر بوتوماك. اندهش مايسون للأمر، فقد ذكرت الرسالة أنّ الاجتماع كان مبرمجا منذ أسابيع، غير أنّ الرجل الفرجيني لم يكن يعلم شيئا عنه أو عن تعيينه مندوبا.

كانت الاتّصالات سنة 1785 بطيئة، فقد جعل نظام المراسلات المتقلّب التراسل أمرا صعبا.

وكانت المسافات محبطة للعزائم حيث كان المسافرون يتخبّطون في طرق وعرة بانتظار قدوم مراكب لا يُعوَّل عليها. مع ذلك فإنّ أخبارا بهذه الأهمّيّة كان لا بدّ أن تصل إلى مايسون من ريشموند عاصمة الولاية. لقد حدس مايسون أنّ فرجينيا (أو بالأحرى الحاكم باتريك هنري) أهمل إخطار المندوبين بأمر تعيينهم وباجتماع الأسكندرية. وأملا في الحصول على أفضل النتائج، نجح مايسون في تدبّر مندوب آخر من فرجينيا (ألكسندر هندرسون (من دمفريز القريبة) والتحق بالمريلانديّين في فندق جادسباي بالأسكندرية. وبعد ثلاثة أيّام من الانتظار المضني لمقدم آخر فرجينيَّيْنِ تأكّد مايسون أنّهما لن يأتيا.

كان الوضع يبعث على الجنون. فلم يكن مايسون يملك حتّى القرار الذي يثبّت سلطته. أدرك أنّ الصراع على النهر ينبع من ميثاق مريلاند الذي أصدره الملك تشارلز الأوّل سنة 1632. لقد حدّدت تلك الوثيقة مريلاند باعتبارها ولاية تمتدّ إلى الضفّة القصوى من النهر، وهو ما غذّى خلافات مزمنة مع فرجينيا حول الرسوم والضرائب والصيد. وفي سنة 1785 اندلعت نزاعات مماثلة بين الولايات الأمريكيّة الثلاث عشرة المستقلّة ولكن غير الموحّدة بما يكفي. فقد تصارعت كونّكتيكوت وبنسلفانيا على الأرض، وتنازعت نيويورك ونيوهامشاير على فيرمونت ، كما هاجمت نيوجيرسي بعنف السياسة الضريبيّة لنيويورك على السفن. وقلّصت هذه النزاعات التجارة وكلّ أشكال النشاط الاقتصادي. لذا كان على هذه الولايات إذا كانت ترغب في تحقيق الازدهار الاقتصادي أن تتوقّف عن التنازع فيما بينها، وإن لم ترتق إلى مستوى أمّة.

وتقديرا من مايسون لأهمّيّة المشروع لجأ إلى واشنطن الذي كان شديد الاهتمام ويتمتّع بدراية جيّدة بالأمور. غير أن الجنرال لم يكن بحوزته غيرُ قرار من جمعيّة فرجينيا يوسّع من سلطات مايسون لتشمل التفاوض مع بنسلفانيا حول الولوج إلى نهر أوهايو. فلم تسلّط الوثيقة أيّ ضوء على المداولات مع مريلاند فيما يخصّ نهر بوتوماك.

كان مايسون وواشنطن يعتمدان في إدارة مزروعاتهما على النهر من أجل النفاذ إلى أسواق أوروبّا والولايات الأخرى. غير أنّ نظرة واشنطن كانت أبعد مدى. لقد تصوّر

بوتوماك طريقا رئيسيّا إلى الأراضي الواقعة على الجانب الأقصى من جبال أبالاش واصلا إيّاها بالجماعات القاطنة بالساحل الشرقي. تابع واشنطن هذه الرؤية خلال الأشهر الثمانية الماضية، وأمضى أسابيع في الفيافي باحثا عن أفضل طريق بريّة بين البوتوماك ونهر أوهايو. وبحلول شهر يناير 1785 كان قد أقنع مريلاند وفرجينيا بتأسيس شركة لتطوير النهر يكون هو على رأسها. بعدئذ باشرت الطواقم برفع الصخور من أعالي النهر في محاولة لإنشاء قناة للشحن.

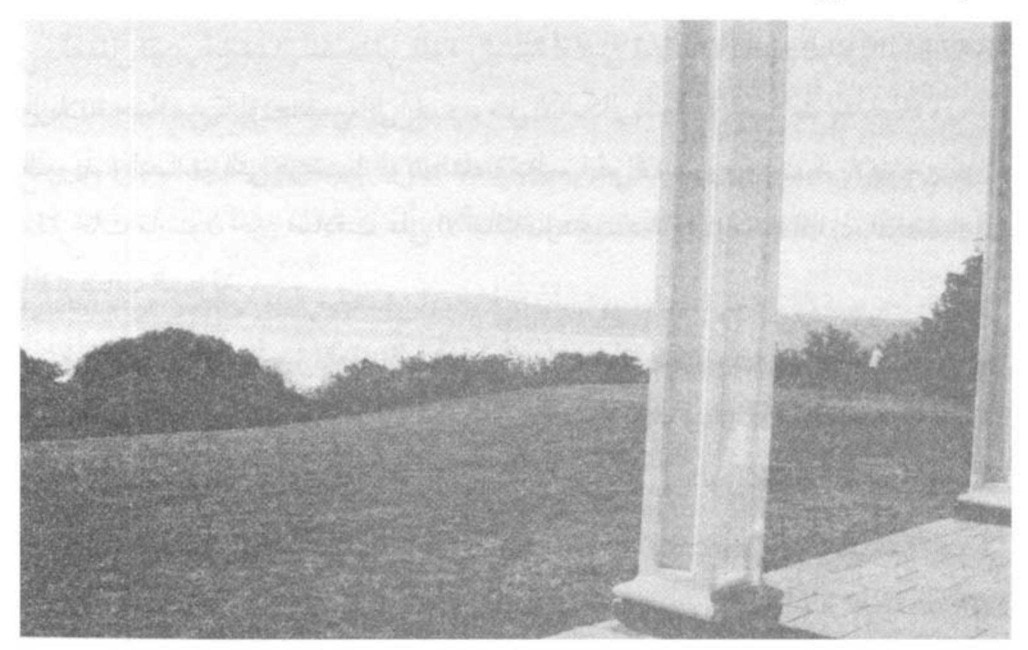
بعد أن انضمّ مايسون إلى مندوبي مريلاند بفندق الأسكندرية بقي واشنطن يراقب الوضع المحيّر حتّى إنّه تناول العشاء ذات مرّة مع المندوبين الكسالى. والآن، أي في الرابع والعشرين من مارس، أرسل واشنطن عربته لجلب مايسون إلى ماونت فيرنون. كانا يدركان وهما يجلسان معا في تلك الليلة المُثْلِجة أنّ وقت الانتظار قد ولّى. فإمّا أن يفاوض مايسون بنصف وفد يجهل تعليماته، أو أن يعود المريلانديّون أدراجهم. كان لا بدّ أن يقرّرا ما يتوجّب عليهما القيام به. فعقدا العزم على أن يستمرّ مايسون في العمل. فبالنسبة إلى رجال ساعدوا على انطلاق الثورة لا يمثّل افتقار مايسون إلى التعليمات حجّة لتضييع فرصة إنجاز شيء هامّ. وكما ذكر مايسون لاحقا: «جلب المريلانديّون معهم أكثر العروض وديّة وعبّروا عن أكبر رغبة في التوصّل إلى اتّفاق عادل وحرّ».

كان تأثير الجنرال محوريّا، ولكن بسبب «نشاطه واستعجاله» كاد يتمّ التخلّي عن عقد المؤتمر. وكان تشجيع واشنطن لا يقلّ أهمّيّة عن الحماية السياسيّة التي يوفّرها. فمن يقدر على تحدّي أعمال مايسون إذا كانت مدعومة من واشنطن؟

استدعى الجنرال كلّ المؤتمرين إلى ماونت فيرنون حيث يمكن للمندوبين أن يتداولوا في كنف ضيافته المريحة. فقد روي عن واشنطن أنّه كان «يرسل إليهم بعد العشاء قارورة الخمر بالمجّان تقريبا». وعلى الرغم من أن وجود خمسة ضيوف غير مبرمجين أمر مرهق لأيّ بيت، إلاّ أنّ آل واشنطن كانوا مهيّئين لأكثر من هذا الأمر. كانت هناك تسع غرف إضافيّة في مونت فيرنون. وفي سنة 1785 كان المنزل يوفّر الإقامة لضيوف الليل مدّة 235 يوما.

لم يشعر أيّ من مايسون أو واشنطن بالقلق لانتهاك موادّ الكنفدرالية، وهي الوثيقة التي بمقتضاها ارتضت الولايات الثلاث عشرة أن تصبح أمّة سنة 1781، منذ أربع سنوات خلت. لقد حظرت تلك البنود على أيّ ولايتين الدخول في أيّ اتّفاق من دون موافقة الكونغرس. غير أنّ تجاهل تلك الوثيقة التي كانت تفتقر إلى آليّات التنفيذ قد ازداد اتّساعا. فحسب موادّها لا تشتمل الحكومة إلاّ على الكونغرس، ولا تتوفّر على سلطة تنفيذيّة ولا محاكم. والأسوأ من ذلك أنّ الكونغرس كان في ذلك الوقت (وكان يشار إليه بكونغرس الكنفدرالية) كثيرا ما يعوزه النصاب القانوني لاتّخاذ قرار رسمي، ونادرا ما توفّرت له الأموال لتمويل أيّ إجراء قد يتّخذه.

وبعد سنوات من النضال سعى خلالها الكونغرس إلى توفير الأجور والإمدادات لجنوده، اعتبر واشنطن هذا المجلس هيكلا «نصف جائع، وحكومة عرجاء تبدو كأنّها تمشي دائما على عكّازين وتترنّح في كلّ خطوة. ولم يكن ضعف المجلس الكنفدرالي بأيّ وجه حجّة لعدم التفاوض مع مريلاند.



منظر لنهر بوتوماك من الشرفة الخلفيّة من ماونت فيرنون

جلبت الأيّام الثلاثة التالية مزيدا من العوامل المناخيّة القاسية بما في ذلك تساقط الثلوج. ومع ذلك كان الجنرال يمتطي جواده كلّ يوم ويخرج لتفقّد غراسة أشجار الصنوبر. وداخل المنزل الفخم غمر المندوبين الشعور بالدفء، ونفثت تشجيعات واشنطن الحماسة في اجتماعاتهم. ومن ناحية أخرى وفّر المنزل الفخم من عليائه للمتفاوضين مشهدا بانوراميّا للنهر.

نصّ الاتّفاق الذي توصّلوا إليه في اليوم الرابع على أنّ بوتوماك «طريق رئيسيّة مشتركة» لمواطني الولايتين معا، وعلى أن تتقاسم الولايتان عائدات الرسوم المضروبة على سفن الشحن الأجنبيّة وحقوق الصيد وكلفة المنارات البحريّة. وعدت فرجينيا بعدم فرض مكوس على خليج شيزابيك ، وقد أدرك مايسون لاحقا أنّه لا يملك سلطة التفاوض على شيزابيك. لم يكن له بالتأكيد وللمندوب المرافق له أيّ تخويل لإجراء المداولات، بما أنّ مجلس فرجينيا كان قد اشترط حضور ثلاثة مندوبين على الأقلّ. وبسبب هذا «التخبط» كتب مايسون لاحقا لمجلس فرجينيا معبّرا عن أمله في أن يتمّ «الاستغناء عن الشكليّات» طالما أنّ العقد المتّفق عليه عقد جيّد.

تضمّن تقرير مايسون للمجلس فقرة رئيسيّة أوصى فيها بأن تصبح الندوة المشتركة مع مريلاند حدثا سنويّا لمراجعة مسائل أخرى، مثل الأشكال المتعدّدة للعملات المتداولة، ورسوم التوريد والتصدير التي فرضتها الولايات، وتنظيم الحوّالات. ووسّعت مريلاند من نطاق مقترحات مايسون حين صادقت على الاتّفاقيّة، ودعت ديلاوار وبنسلفانيا إلى الانضمام إلى المفاوضات السنويّة.

في مجلس فرجينيا أحيل العقد إلى لجنة ترأسها جيمس ماديسون أحد مندوبَيْنِ اثنَيْنِ عن فرجينيا، وهو الذي لم تطأ قدماه قطّ تراب الأسكندرية. وسوف يرى في العقد فرصة فريدة للأمّة.

كان ماديسون يصغر جارَيْهِ جورج واشنطن وجورج مايسون بجيل. وقد غدا وهو في سنّ الرابعة والثلاثين سياسيّا محنّكاً. فقد شارك في المؤتمر الدستوري لولاية فرجينيا سنة 1776 وفي المؤتمر الفيدرالي بعد تبنّي البنود في 1781. أعطى ماديسون، ذلك الرجل المتحفّظ القصير

القامة والذي يزن بالكاد مائة رطل، عن نفسه صورة متواضعة في قاعة الاستقبال. لم يتزوّج إلاّ عند بلوغه الثالثة والأربعين. بيد أنّه فيما يخصّ الشأن العامّ حاز تقديرا وتأثيرا يتجاوزان عمره الحقيقي بفضل ذكائه وكدّه.

عمل ماديسون في البداية مع الجنرال واشنطن سنة 1784، راعيا التشريع الذي سيطوّر بوتوماك الأعلى. ومن المفارقات أنّه رعى أيضا القرار الذي دعا مؤتمر ماونت فيرنون إلى الانعقاد رغم أنّه، مثل مايسون، لم يقع إعلامه قطّ بتاريخ انعقاده. وكان ماديسون قد طلب من المؤتمر ألاّ يعالج إلاّ النزاعات المتعلّقة بالنهر. الآن وبعد أكثر من سنة مضت تغيّرت الصورة واتّسعت الآفاق بالنسبة لماديسون. إذ غدا على قناعة الآن بأنّ الحكومة التي قامت على أساس تلك البنود ينبغي أن تتغيّر.

كان آل ماديسون مزارعين من حجم واشنطن ومايسون وإن كانوا دونهما ثراء. كان هناك أكثر من مائة عبد يعملون في مونتبلييه، وهو عقار يديره والد ماديسون في منطقة الهضاب الغربيّة. وفيما ولع مجاورو نهر البوتوماك بالفلاحة، قادت ماديسون رغباتُهُ إلى المكتبات والتشريعات القانونيّة حيث يمكنه تخيّل الفلسفات السياسيّة وتجربتها. لقد أنهى دراسته بمعهد نيوجيرسي (الذي أعيدت تسميته ببرنستون) في وقت قياسي دافعا بنفسه إلى ما يشبه الانهيار العصبي. وفيما تبقّى من حياته قادته مخاوفه الصحّيّة إلى حافة الوسواس، ومع ذلك فقد بلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما.

في أواخر سنة 1785 اعترف ماديسون بأنّ الولايات لن تستطيع البتة أن تنظّم حركة التجارة بمفردها بشكل عادل. فالولايات التي لديها موانئ نشطة لن تقاوم الرغبة في فرض رسوم على البضائع القادمة من الولايات المجاورة. وفي المقابل، ستردّ الولايات المجاورة الفعل بأيّ طريقة تقدر عليها. فعندما حاولت ثلاث ولايات من نيوإنجلند فرض تنازلات على البريطانيّين بتقليص التجارة معهم قوّضت كونكتكوت هذه الخطّة بتنمية تجارتها الخاصّة مع بريطانيا.

لا تستطيع إلاّ حكومة وطنيّة تنظيم التجارة بطريقة عادلة، غير أنّ المجلس الفدرالي كان

يفتقر إلى القوّة لفعل ذلك في ضوء تلك البنود. فقد تطلب تعديل البنود إجماع الهيئات التشريعيّة للولايات الثلاث عشرة، لكنّ ذلك الإجماع لم يكن يبدو ممكنا. ففي ربيع 1786 صوّتت اثنتا عشرة ولاية لصالح قرار يعطي الكونغرس سلطة فرض رسوم على الواردات. غير أنّ ولاية نيويورك نسفت ذلك الإجراء فورا. فكتب أحد الوطنيّين: «يتمنّى كلّ رجل كريم وطيّب أن تذهب نيويورك إلى الجحيم».

قضت واحدة من الأفكار المتداولة بالدعوة إلى مؤتمر الولايات بغرض كتابة ميثاق جديد للحكومة. فقد تبنّت الهيئات التشريعيّة في نيويورك وماساتشوستس قرارات تقترح مثل هذا المؤتمر، ولكنّ هذه المقترحات ظلّت حبرا على ورق.

خلال زيارته لماونت فيرنون في أكتوبر 1785 تساءل ماديسون إن كان تقرير مايسون حول ندوة ماونت فيرنون سيمهّد الطريق لمثل هذا المؤتمر. وقد شجّع واشنطن الفكرة مثلما كتب لماديسون بشغف: «إمّا أنّنا شعب متّحد أو أنّنا لسنا كذلك. في الحالة الأولى دَعُونا نتصرّف في كلّ الأحوال كأمّة. فإن لم نكن أمّة فلنتوقّف عن لعب مسرحيّة هزليّة والادّعاء بأنّها حقيقة».

بُعيد ذلك كتب ماديسون لواشنطن: إنّ فرجينيا قد تدعو الولايات الأخرى إلى الاجتماع والنظر في «لزوم تعزيز سلطة الكونغرس على التجارة». وأضاف: إنّ مثل هذه الخطوة «تبدو وكأنّها انبثقت طبيعيّا من مؤتمر ماونت فيرنون». وبحلول 21 يناير 1786 تحقّق هذا الأمر. فقد طلب مجلس فرجينيا من الولايات الأخرى أن ترسل مندوبيها إلى أنابوليس في أوّل يوم اثنين من شهر سبتمبر للنظر في إقرار «نظام موحّد لأنشطتها التجاريّة»، وعيّن المجلس ماديسون واحدا من خمسة مندوبين عن ولاية فرجينيا. بعد ثمانية أشهر حلّ ماديسون بفندق جورج مان في عاصمة مريلاند، لكنّه لم يجد إلاّ مندوبَيْنِ فقط. أسرّ ماديسون بهواجسه إلى شقيقه الأصغر: «ليس هناك شيء أسوأ من شؤوننا الفيدراليّة... الأموال لا تأتي إلى خزانة الدولة... التجارة في وضع بائس والولايات تهرول بجنون بحثا عن الأوراق النقديّة». بعد بضعة أيّام انضمّ إليه ألكسندر هاملتون من ولاية نيويورك، وهو من المدافعين منذ زمن بعيد عن مبدأ

تعويض البنود. غير أنّه لم يصل إلى أنابوليس سوى اثني عشر مندوبا عن خمس ولايات. فلا أحد قدم من نيوإنجلند (التي كانت تسمّى في ذلك الوقت بـ«الولايات الشرقيّة») أو من الجنوب العميق (ولايتي كارولينا وولاية جورجيا، وحتّى مريلاند، الولاية المستضيفة، لم ترسل أيّ مندوب.

فكّر المندوبون الاثنا عشر إلى أنابوليس، أثناء حديثهم في فندق مان حيث كان ثمن الغرفة شلنا لليلة الواحدة، في العودة إلى بيوتهم من دون عقد المؤتمر. ثمّ نظروا في الأمر مليّا، فقد كانوا وطنيّين شجعانا، وكان نصفهم سيُمضي على الدستور بعد عام من ذلك الوقت. لم يكن عددهم يسمح فعلا بالذهاب قُدُمًا، غير أنّهم رفضوا رمي المنديل. وبالجرأة نفسها التي أبداها مايسون وواشنطن خلال السنة السابقة قرّرا أن يلعبا ورقة المؤتمر مرّة أخرى، هذه المرّة: الضعف أو لا شيء.

احتاج الرجلان إلى ذريعة للقيام بهذه الخطوة، ووجداها في التوجيه الذي أعطته نيوجيرسي لمندوبيها بتناول المسائل التجاريّة «ومسائل أخرى هامّة». كانت مشكلات الأمّة أبعد من أن تُختزل في القضايا التجاريّة. فقد استغلّت دول أخرى ضعف أمريكا، واحتلّ البريطانيّون حصونا في الغرب، ورفضوا التعامل تجاريّا مع الأمريكيّين. أمّا الإسبان فقد أغلقوا نهر مسيسيبّي دون الأمريكيّين. وفي البحر الأبيض المتوسّط استولت الحكومات البربريّة على سفن أمريكيّة واستعبدت طواقمها. ليس هذا وقتا لأنصاف القرارات. لم لا يُعقد مؤتمر يتناول كلّ نقائص الحكومة الوطنيّة؟

وضع هاملتون مُسَوَّدَةَ نداءٍ ملتهب من أجل مؤتمر جديد تولّى أديسون وآخرون تلطيف عباراتها. فأشارت الصيغة الأخيرة التي تميّزت بالاتّزان إلى «حالات الإرباك التي تميّز الوضع الحالي لشؤوننا الوطنيّة». وحثّت الولايات على إرسال مندوبين إلى مؤتمر فيلادلفيا في «شهر مايو القادم» بهدف «ابتكار ما يرونه ضروريّا من الشروط الإضافيّة التي تجعل دستور الحكومة الفيدراليّة متلائما مع متطلّبات الاتّحاد». اجتمع المندوبون متأخّرين بأسبوع، ثمّ رفعوا الجلسة في اليوم الثاني.

وأثناء العودة إلى بيوتهم أدرك المندوبون إلى أنابوليس أنّه لا بدّ أن يفعلوا الكثير لإنجاح مؤتمر فيلادلفيا. كان لا بدّ من إدراج مساندين أقوياء في القائمة، ولم يكن أحد منهم أكثر أهمّيّة من الجنرال المتقاعد في بوتوماك. لقد دشّنت المداخلة القويّة لواشنطن بداية المسار لإنقاذ المفاوضات الفاشلة في ماونت فيرنون. كان السؤال الأكبر هو التالي: هل بلغت الأمور درجة من السوء بالنسبة إلى الولايات حتّى تضع مصالحها الضيّقة جانبا وتنشئ حكومة وطنيّة قويّة؟ كانت الأحداث الرهيبة المتفجّرة في وسط ماساتشوستس ستقنع عديد الأمريكيّين بأنّ الظروف هي في أدنى الحالات بذلك القدر من السوء.

سوف يتّضح أنّ الجهد الذي بُذل من أجل إنشاء حكومة جديدة –وهو جهد انطلق بجدّ حين جلس صديقان قديمان أمام موقد بماونت فيرنون واختارا المرور إلى العمل دون سلطة تسندهما– كان شاقّا. إنّ التغيير، لاسيما الجوهري منه، أمر مضن دائما، ولا يمرّ دون أن يترك ضحايا. وفي هذه الحالة كانت الضحيّة هي صداقتهما.

الفصل الثاني

دماء على الثلج

شتاء 1778

كان البرد قاسيا. قطعت العربات المجرورة بالخيول نهر كونكتكوت الشاسع فوق طبقة سميكة من الثلج. وكان ألفان من الأمريكيّين المتمرّدين يزحفون عبر ما يناهز أربعة أقدام من الثلج نحو سبرينغفيلد في ماساتشوستس. كانت الضيعات التي مرّوا بها صغيرة وكادحة ولكنّ أهلها وفّروا لهم المأكل والمشرب بسخاء. وقد كان المتمرّدون أنفسهم فلاّحين في أغلب الأحيان، ولم يكونوا جزءا من أيّ تنظيم عسكري رسمي رغم أنّ عددا كبيرا منهم خدموا في الجنديّة سابقا. كان بعضهم يحمل بنادق قديمة، ولم يكن بعضهم الآخر يملك إلاّ سيوفا وهراوات.

كانت الصحف تتحدّث عن «انتفاضة شايز[1]»، نسبة الى دانيال شايز ، أحد قادة التمرّد. كان شايز قد دُفع إلى الواجهة بسبب خبرته العسكريّة. و كان فخورا بأنّ قوّاته تجنّبت إلى حدّ ذلك الوقت المعارك في هذا التمرّد الغوغائي. ولم تكن شخصيّات أمريكيّة بارزة مثل جورج واشنطن وجورج مايسون تعرف أيّ شيء عن دانيال شايز، لكنّها بدأت تتعلّم.

كانت معنويّات الرجال مرتفعة. فهم يحاربون من أجل حقوقهم. التفّ بعضهم ببعض مثل كتلة واحدة في مواجهة الشتاء. ووضع بعضهم عساليج خضراء على قبّعاتهم رمزا

(1) دانيال شايز(1747–1825) جندي أمريكي وقائد تمرّد حمل اسمه في غرب ماساتشوستس أواخر 1786 وبداية 1787. وُلد في هوبكنتون، وخلال حرب الاستقلال حارب في فوج ماساتشوستس برتبة ملازم ثان من مايو إلى ديسمبر 1775. وأصبح نقيبا في فوج ماساتشوستس الخامس في يناير 1777. قام بتمرّد بعد الاستقلال، وعند فشله هرب إلى فيرمونت، ثمّ منح العفو الكامل. توفّي في سبارتا، نيويورك، في 29 سبتمبر 1825.

لتمرّدهم. كانت لديهم عديد الشكاوى. فقد كانوا يئنّون تحت وطأة «ديون قديمة ازدادت وطأتها بسبب ارتفاع الفوائد»، وفُرضت عليهم ضرائب ثقيلة جدّا، ولم يكن بحوزتهم سوى قليل من المال لسدادها. كان نظام المحاكم المُكْلِف يبدو دائما في مصلحة الدائنين، إذ هو يرهن أملاك الفلاّحين والتجّار. لم يكونوا كلّهم فقراء، ولكنّ الظروف كانت صعبة. فقد جُرَّ ثلثاهم قسرا إلى محاكم الدائنين، وواجهوا الإذلال وحتّى السجن. وَصَمَّتْ حكومةُ بوسطن النائية آذانها عن سماع شكواهم طيلةَ سنوات.

تحرّك المتمرّدون في ثلاثة صفوف تفصل بينها أميال عديدة. وأثناء تقدّمهم البطيء في «أسوأ شتاء خلال سنوات عديدة»— كان هدفهم مخزن الأسلحة في سبرينغفيلد. احتوى المخزن على مدافع وآلاف البنادق الجديدة المزوّدة بالحراب و1300 برميلا من البارود. قطع المتمرّدون الطرق إلى مخزن الأسلحة من ثلاث جهات، واستولوا على الحبوب واللحم من التجّار المحلّيين. وبحصولهم على الأسلحة من المخزن سيغدون قوّة يُحسب لها حساب. وفي إنذار أخير مرعب توعّد المتمرّدون المدافعين عن البنايات بأنّهم إذا لم يستسلموا «لن يعطوهم أمنا ولا أمانا» وتعهدوا بذبح كلّ أسير يُقبَض عليه في المعركة. وكان معظم الـ 1200 جندي المواجِهين لهم جيرانا لهم.

كان التمرّد قد بدأ منذ ستّة أشهر خلت، خلال صيف 1786، حين منعت حشود غاضبة من الفلاّحين المحكمة من الانعقاد في نورثمبتون (Northampton). كان تفكيرهم بسيطا: لا مرافعات قضائيّة تعني لا أحكام لصالح الدائنين، وبالتالي لا رهن لأملاك الناس.

في شهر سبتمبر حينما تجمّع المندبون في أنابوليس، أوقفت حشود أخرى سير المحاكم في وورسيستر (Worcester) وتونتون (Taunton) وغريت بارينغتون (Great Barringhton) وحتّى في كونكورد (Concord) التي رُوي أنّها كانت مهد الثورة. أغلق المَدينون الغاضبون المحاكم في نيوهامشير وكونكتكوت أيضا. وقد رفضت الميليشيّات مواجهة التمرّد في كلّ الولايات باستثناء ماساتشوسيتس، بل إنّ بعضها انضمّ إلى التمرّد.

وفي شهر أكتوبر اجتمع الكونغرس في مدينة نيويورك على مسافة 140 ميلا، وأذن

بتعبئة جنود فيدراليّين لاستعادة النظام في ماساتشوسيتس. وتجنّبا لإشاعة الجزع من التمرّد جاء في قرار الكونغرس أنّ الجنود سيُخمِدون تهديدات قبائل الشاوني (Shawnee) والبوتاوتامي (Potawatami) والشيبوا (Shippewa). لم ينخدع أحد بهذا، فخلافا لفلاّحي ماساتشوسيتس لم تكن تلك القبائل سائرة نحو طريق الحرب.

لم يكن مهمّا إلاّ قليلا أن ينخدع أحد بحيلة الكونغرس. فقد رفضت الولايات الثلاث عشرة دفع رواتب الجنود الفدراليّين. لذلك لم يتمّ تجنيد سوى القليل منهم، ثمّ أعيدوا إلى بيوتهم. وبعد أن اتّضح فشل الكونغرس قام أثرياء بوسطن بجمع التبرّعات لتأمين قوّة نظاميّة تَعُدُّ 4000 فرد. دافع وليام شابرد –وهو أحد قدماء المحاربين الثوريّين– عن مخزن الأسلحة بسبرينغفيلد بمعيّة قوّات نظاميّة أخرى. كان شابرد الذي أحيل هو نفسه على المحاكم بسبب ديونه، قليل التعاطف مع المتمرّدين. وقد كتب مرّة: «لقد أضعت ثمانية سنين من العمل الشاقّ كابدت أثناءها الصقيع دفاعا عن حياة زمرة من الأوغاد الملعونين وأملاكهم، وهم الآن يهدّدون يوميّا بقطع عنقي».

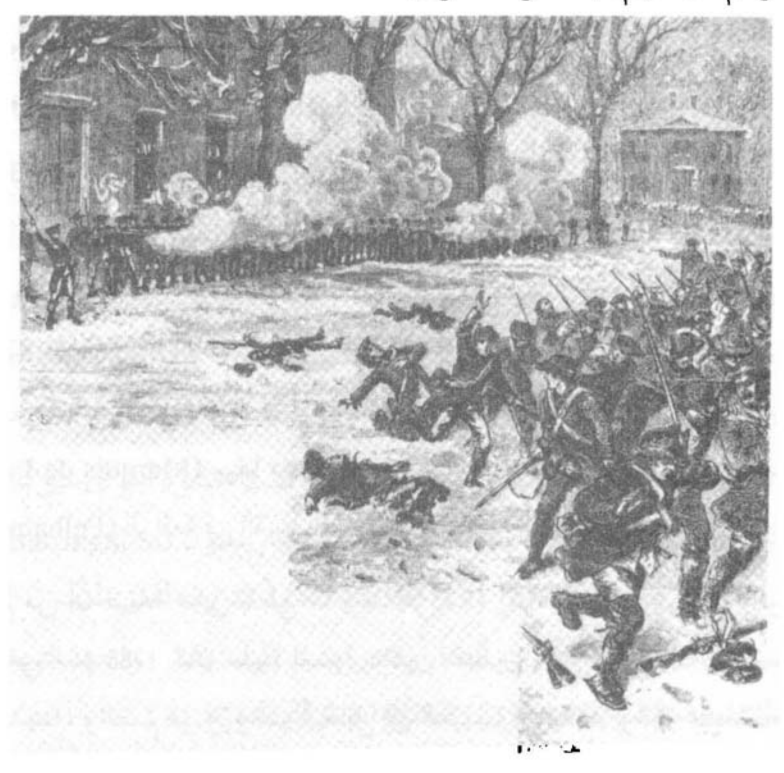
تزعّم دانيال شايز إحدى الفرق الثلاث المتمرّدة في ذلك اليوم المثلج من أواخر يناير 1787. وما يبعث على الاستغراب أنّ الرجل كان لا يُعرَف عنه إلاّ القليل، بما في ذلك مظهره الخارجي، فحين بدأت الحرب الثورية[1] انخرط فيها بشكل فردي. وقد كان يحارب في بنكرهيل (Bunker Hill) و سرتوغا (Saratoga) حين ارتقى إلى رتبة رقيب ثمّ نقيب. ويذكر قائد للفرق الحكوميّة أنّه كان «جنديّا شجاعا وطيّبا». وقد وهبه المركيز دي لافيات (The Marquis de Lafaiyette) سيفا ذهبيّا، لكنّ شايز باعه على الأرجح لسداد نفقات ضيعته في بلهم (Pelham) الواقعة في القسم الأوسط من المدينة التي انتقل إليها بعد الحرب.

بالرغم من أنّ ضيعة شايز تغطّي ما يزيد عن مائة أكرة، لم يكن الرجل أوفر رخاء من جيرانه. ففي سنة 1786 كان مدينا لعشرة دائنين مختلفين على الأقلّ. كان عضوا في لجنة السلامة بمدينته، وانضمّ هو وزوجته أبيغايل إلى الكنيسة الثانية للأبرشيّة عندما تأسّست سنة 1786. و حين بدأ التمرّد رفض شايز العرض الذي قُدّم له بتعيينه قائدا مقدَّما، ثمّ لان والتحق

(1) الثورة الأمريكية التي قاتلت فيها المستوطنات الأمريكية ضد بريطانيا العظمى ونالت استقلالها عنها (م).

بجيرانه. وقبل شهر فقط من قيادته المتمرّدين إلى مخزن الأسلحة في سبرينغفيلد احتجّ قائلا: «لقد كان الانخراط في هذه القضيّة دوما ضدّ ميولي». وذكر أنّه عندما ألحّ عليه أصدقاؤه: «لم أستطع مقاومة إصرارهم».

سار الهجوم على مخزن الأسلحة بشكل سيّء. فبالرغم من أنّ الجانبين كانا يضمّان محاربين قدامى كانت القوّات النظاميّة تملك المدفعيّة الثقيلة وأسلحة أفضل. وكان التنسيق بين المتمرّدين ضعيفا. لم تتقدّم إلاّ اثنتان من فرقهم، أي حوالي 1500 رجلا، نحو مخزن الأسلحة من جهة الغرب. ساروا على أرض منبسطة ومفتوحة. وشكّلت الفرق الحكوميّة خطّا دفاعيّا أمام مخزن الأسلحة وثكنات الجنود، وانتصبت المدفعيّة فيما بينها. بعث الجنرال رسلا يسألون المتمرّدين عمّا يريدونه، ويحذّروهم من أنّه سيطلق النار عليهم. ولكن لم يردع المتمرّدين هذا الهراء، وأمرهم ضبّاطهم: «تقدّموا تقدّموا».



معركة في سبرنغفيلد آرسنال

مرّت الطلقات المدفعية الأولى من فوق رؤوس المتمرّدين الذين «انبطحوا أرضا، ثمّ انتصبوا في مواضعهم من جديد بمجرّد مرور الطلقات».

واصل المتمرّدون قدومهم. وأخيرا أعطى شايز الأمر بإطلاق النار. دوّت المدفعيّة من جديد لتهوِي نيرانها «في مستوى الحزام». فرّ المتمرّدون وصيحات الغضب تتردّد في حلوقهم «جريمة قتل!». سقط أربعة مهاجمين وجُرح عدد أكبر بكثير. استسلم اللحم والدم للقذائف. مزّقت قذيفة ذراعَيْ مدفعيٍّ من القوّات الحكوميّة أساء تقدير مِصهر سلاحه، فتوفّي هو أيضا متأثّرا بجراحه. حاول شايز أن يوقف الهروب السريع لرجاله، لكنّهم لم يعيروه أيّ اهتمام. «لم تطلق طلقة واحدة من الجانبين».

طاردت القوّات الحكوميّة المتمرّدين خلال الأسبوع التالي. وفي إطار تصميمها على مفاجأتهم ليلة الثالث من فبراير تقدّمت القوات الحكومية تحت عاصفة ثلجية نحو بيترشام (Petersham) وهي تجهد الخطى عبر الكتل الثلجية «المرتفعة قدر نصف قدم». وحسب رواية جندي «أقبلت الرياح والثلوج في شكل أعاصير وتيّارات عكسيّة، واخترقت كلّ ملابسي وغمرت عينَيّ وأذنَيّ وعنقي وكلّ ما سوى ذلك».

كانت القوّات الحكوميّة منهكة ومتجمّدة من البرد. توقّفت في بيترشام على الساعة التاسعة صباحا ذات يوم أحد، وقد صُعِق المتمرّدون. ولمّا كانوا أقلّ عددا وغير مهيّئين تعهّد شايز ورجاله بضمان «دخول مسالم» للقوّات الحكوميّة إلى المدينة. تخلّى المتمرّدون عن مؤونتهم. وكان بعضهم لا يزالون يتدفّأون بنار الفطور حاملين معهم أسلحة ناريّة وسيوفا. «احتشدوا في طريق خلفيّة باتّجاه آثول (Athol)». وحلّت القوّات الحكومية محلّهم أمام مواقد المدينة.

عاد أغلب المتمرّدين إلى بيوتهم. أمّا القادة فهربوا إلى فيرمونت التي كانت تقودها حكومة مارقة تحدّت مزاعم نيويورك ونيوهمشاير السيطرة على المنطقة. لقد مات التمرّد بهروب قادته، ولكنّ العنف المتقطّع تواصل خلال شهر يونيو.

كانت لدى المنتصرين رغبة قليلة في الثأر. فقد شنقوا قائدَيْنِ أسيرَيْنِ لديهم وسجنوا عشرين

آخرين، و لكنّ أغلب المتمرّدين أفلتوا من العقاب. ومن فيرمونت كتب شايز عريضة يلتمس فيها العفو، وحصل عليه سنة 1789. فسلك طريقه إلى إسبارطة (Sparta) بولاية نيويورك حيث اشتغل في الفلاحة، ثمّ ظلّ يستخلص راتب تقاعده من الجيش حتّى وفاته سنة 1825.

رغم فشل المتمرّدين كان الوقع السياسي لحركتهم ضخما. فبعد عشر سنوات من بيان الاستقلال وقبل أن تمضي حتى أربع سنوات على الانتصار السلمي على البريطانيين، كان الأمريكيّون يذبّح بعضهم بعضا في ساحة القتال. جيران يحاربون جيرانا – وهو دليل لا يرقى إليه الشكّ على الفشل السياسي.

ثارت ثائرة المتمرّدين على حكومة يسيطر عليها تجّار أصرّوا على فرض ضرائب عالية لسداد ديون الدولة بسبب الحرب، ثم مُنحوا مقاعد في مجلس الشيوخ على أساس درجة ثراء كلّ مجموعة سكنيّة. لقد أطلق ذلك الغضب، الذي كان عظيما إلى درجة أنّه دفع بأزواج وآباء وأبناء وإخوة إلى شتاء ماساتشوستس القارس، البابَ للمراجعة الذاتيّة والشكّ.

كتب هنري نوكس من نيوإنجلند لواشنطن، وهو قائده الحربي السابق: إنّ التمرد «أحدث تغييرا هائلا في عقول الناس... وفيما يتعلّق بسلطات الحكومة فإنّ الجميع يقول إنّه ينبغي تعزيزها». أزعجت تقارير نوكس واشنطن، فاحتجبت من ذهنه أفكار مثل الانسحاب من الحياة العامّة والتفرّغ للفلاحة وتطوير بوتوماك كمَجرى مائي داخلي.

منذ التقارير الأولى عن التمرّد أحسّ الجنرال البطل بحزن شديد. فكتب في أكتوبر 1786: «إنّني أشعر بألم لا يوصف حين أرى السحب تغطّي أزهى صباح يطلع على أيّ بلد». وبعد أسبوع أصرّ واشنطن على أنّ تحرّكا حاسما كان ضروريّا: «إذا لم نُجْرِ بعض التغيير على عقيدتنا السياسيّة فإنّ البنية الفوقيّة التي رعيناها طيلة سبع سنين على حساب كثير من الدم و الثروة لا بدّ أن تسقط. إنّنا ننحرف بسرعة إلى الفوضى والاضطراب».

وحتّى قبل انتفاضة شايز كانت الأمّة المرتوقة الأطراف خلال الثورة قد بدأت تتفكّك. فلم يكن للحكومة الوطنيّة عملة ثابتة ولا قوّة عسكريّة ولا القدرة على تنظيم التجارة أو فرض الجباية.

وفّر شايز وجيرانه دعما حاسما للجهد الذي يستهدف إنشاء حكومة أمريكيّة جديدة. لقد اتّضح أنّ إحراز الاستقلال عن بريطانيا لم يكن سوى خطوة أولى باتّجاه التحوّل إلى دولة. وكما تنبأ جون أدامز، سيشكّل إرساء حكومة وطنيّة حقيقيّة «أعقد مهمّة وأهمّها وأخطرها وأدقّها».

كان الأمريكيّون بحاجة إلى التفكير مليّا في نمط الحكومة التي ستحافظ على استقلالهم وحريّتهم الثمينة. وكانوا بحاجة إلى حكومة تحافظ على وحدة الولايات وتطوّر الأراضي الغربيّة الشاسعة وتقود الأمريكيّين إلى موضعهم الحقيقي في العالم. وبعد أربعة أشهر من تقدّم الأمريكيّين في فوهة مدافع يشغّلها أمريكيّون آخرون اجتمع مجلس فيلادلفيا لتكوين حكومة جديدة. وبحركة ارتجاليّة ملهمة سوف يصنع مجلس فيلادلفيا أطول تجربة حكم ذاتي في العالم، أي طيلة اثنين وعشرين عقدا أو أكثر.

غير أنّ نتائج ذلك الاجتماع لم تكن مؤكّدة بالمرّة. ففي محاولة جاهدة للموازنة بين الاحتياجات ووجهات النظر المتناقضة للولايات الثلاث عشرة واجه المندوبون إلى المؤتمر مسائل جوهريّة، مثل الرقّ والحرّيّات الشخصيّة وكيفيّة بناء ديمقراطية فاعلة. حبس سكّان أمريكا أنفاسهم مدّة أربعة أشهر بينما كان المؤتمر منعقدا سرّا ليقرّر مصيرهم. فلو استطاعوا رؤية الفوضى والخلاف بين المؤتمرين لربّما فقدوا الأمل تماما.

الفصل الثالث

منزل يحترق

ربيع 1787

من قَبْلِ أن يقود دانيال شايز رجاله إلى فوهات المدافع سمّت أربع ولايات مندوبيها إلى مؤتمر فيلادلفيا. حشدت الدماء التي أريقت في حقول ماساشوسيتس الجليديّة زخما قويّا مؤيّدا للمؤتمر. فمن يسعه إنكار وجود الخطر حين يتقدّم آلاف الرجال في تمرّد عبر عواصف نيوإنجلند الثلجيّة؟ في أواخر فبراير صادق الكونغرس على ذلك الجهد. وفي مارس نقل ماديسون إلى توماس جيفرسون بفرنسا أن كلّ الولايات ما عدا ثلاثا قد انتقت مندوبيها إلى فيلادلفيا.

عانى واشنطن ممّا إذا كان سيقبل تعيينه مندوبا عن فرجينيا أم لا. وفي 28 مارس بعث إلى الحاكم إدموند راندولف بموافقة خجولة إلى حدّ ما على المشاركة في أشغال المؤتمر. اشتكى واشنطن من «آلام المفاصل في كتفي»، ومن وضعه الذي كان من السوء بحيث لم يكن قادرا على «رفع يدي إلى رأسي أو التقلّب في الفراش». لذلك وافق على حضور المؤتمر إذا سمحت حالته الصحّيّة بذلك وإذا لم يُسَمَّ مندوبٌ آخر مكانه، «الأمر الذي كان سيروقني كثيرا لو حدث».

بالرغم من أنّ القرار الذي اتّخذه واشنطن قد يبدو لنا اليوم لا مفرّ منه، كان اتّخاذه على الأرجح أمرا صعبا بالنسبة إليه. فعلى امتداد فصل الشتاء كان قد تحمّل موت أخيه ومرضه هو. وبعد تغيّبه عن ماونت فيرنون لثمانية أعوام إبّان الثورة أصبح قليل الرغبة في غياب مطوّل آخر. كانت الرهانات بالنسبة إليه عالية على نحو غير مألوف. فبصفته الرجل المتفوّق

في أمريكا، كان كلّ عمل علني يقوم به محلّ ملاحظة وتأويل. فلو بدا توّاقا إلى إعادة تشكيل الحكومة لرأى بعضهم في ذلك اغتصابا للسلطة. يقينا، كانت هيبته على قدر من العظَمة يصعب أن تزداد رفعة بمؤتمر ناجح، ومع ذلك يمكن للمؤتمر أن يلطّخها لو سارت أشغاله بشكل سيء.

ما كان العيب الرهيب في موادّ الكنفدرالية؟ حتّى سنة 1787 كانت تلك البنود سارية المفعول مدّة ستّ سنوات فحسب، هزم الأمريكيّون خلالها البريطانيّين ووجّهوا طاقاتهم إلى البحث عن السلام. هل كان يجب أن تؤدّي الأحداث الطائشة التي أتاها متهوّرو ماساتشوستس إلى إدانة البنود، خاصّة إذا أخذنا في الاعتبار اشتهار تلك الولاية بطباعها الشرسة؟ على بعد ثلاثة آلاف ميل عن باريس شاهد جيفرسون انتفاضة شايز بذهول ملاحظا أنّه كان التمرّد الأمريكي الوحيد خلال الأحد عشر عاما الأخيرة. فكتب: «لقد حرّم الله علينا أن نُمضي عشرين سنة دون أن نرى مثل هذا التمرّد. إنّ شجرة الحرّيّة ينبغي أن تنتعش من وقت لآخر بدماء الوطنيّين والطغاة، فذاك هو سمادها الطبيعي».

لكنّ جواب واشنطن القلق كان نموذجيّا على نحو أبعد مثلما عبّر عنه في سؤاله إلى ماديسون: «أيّ دليل على حاجة حكومتنا إلى الحركة يمكن أن يقدّمه المرء، أقوى من هذه الاضطرابات؟»، فبعد تمرّد شايز كان ضعف الحكومة باديا لعيان كلّ أمريكي. وكانت ضعيفة لأنّ ذاك هو ما كانت تريده الولايات الثلاث عشرة.

كانت الولايات لا تثق ببعضها بعض بسبب تواريخها وتقاليدها الخاصّة. فقد وجد النيوإنجلنديّون والجنوبيّون خطاب كلّ منهما أجنبيّا. وخلال الحرب ضدّ بريطانيا اتّجهت الجيوش من باقي البلاد إلى التكتّل لإظهار العداء الجماعي تجاه النيوإنجلنديّين والاستياء من «ديمقراطيّتهم السطحيّة» و«محدوديّتهم الأخلاقيّة».

وكانت المصالح الاقتصاديّة للمناطق متباينة تباينا واسعا. فنيوإنجلند تعتمد على الملاحة والصيد. وتزرع الولايات الوسطى (نيويورك ونيوجيرسي وديلاوار وبنسلفانيا) الحبوب ولديها صناعات ناشئة. وفي الجنوب كانت الزراعة المعتمدة على الرقيق تحتاج أسواقا

لتصدير التبغ من مريلاند وفرجينيا، وتصدير الأرزّ والنيلة من ساوث كارولينا. وكانت كلّ ولاية تفصّل نظامها الضريبي وفق اقتصادها الخاصّ. فقد كانت الولايات الجنوبيّة تفضّل التجارة الحرّة، بينما تستخدم الولايات الشرقيّة رسوم التصدير لحماية صناعتها.

وقد اتبعت التقسيمات السياسيّة خطوط الفصل بين الجهات. فكتب جنوبي في يناير 1787 بامتعاض أنّ «اليانكيز» يعارضون أن يكون رئيس كونغرس الكنفدرالية من نورث كارولينا. وأكّد أحد مندوبي المؤتمر «الاتّساع الترابي الضخم الذي سيكون تحت سلطة حكومة حرّة واحدة»، ولاحظ أنّه يجد «أنماط سلوك السكّان وطرق تفكيرهم في عدّة مناطق من أمريكا مختلفة على نحو يقارب اختلافها في عدّة أمم أوروبّيّة».

من المؤكّد أنّ بعض الأمريكيّين اقترحوا حلّ الكنفدرالية. فقد تناولت الصحف الجنوبيّة بصورة مباشرة فكرة تقسيم البلد إلى أربع أمم –الشرقيّة والوسطى والجنوبيّة وترانز–ألّيغني (Trans-allegheny). وكان مندوبو المؤتمر من ماساتشوستس وبنسلفانيا يتوقّعون انقسام البلاد.

وفي أغسطس 1786 كتب جيمس مونرو (الرئيس المقبل) من المؤتمر إلى نيويورك: «من المؤكّد أنّ اللجان المجتمعة في هذه المدينة مكوّنة من رجال من الشرق وآخرين من نيويورك للخوض في موضوع فصل الولايات الشرقيّة الواقعة على نهر هادسن عن الاتّحاد وإنشاء حكومة منفصلة. وأضاف مونرو: «لقد جرى الحديث في هذا الأمر في ماساتشوستس دون تكلّف، ويفترض أن تكون الفكرة قد ولدت هناك». وخشي أيضا رجل من نورث كارولينا ألاّ تكون الكنفدرالية أكثر من «حفنة من الرمل» لا تقدر على منع حلّ الاتّحاد. وبعد ستّة أشهر استبق ماديسون التأييد الشعبي لـ«تجزئة الاتّحاد إلى ثلاث حكومات أكثر فعاليّة وحيويّة».

بالنسبة إلى واشنطن وماديسون كانت مشكلة البنود هي الولايات. لقد كان لها نفوذ مفرط فيما لم يكن للكونغرس إلاّ القليل. فاشتكى واشنطن قائلا: «إنّ تجاذب ثلاث عشرة سيادة للسلطة وتنازُعَها رأس الحكومة الفيدراليّة سيجلب عاجلا الخراب للجميع». وكتب هنري نوكس في الموضوع شاجبا أحد مندوبي المؤتمر: «إنّ أنظمة الدولة هي الشيء اللعين

الذي سيحرمنا من أن نكون أمّة... إنّ الحكومات الوضيعة هي مصدر التلوّث الذي سيلطّخ اسم أمريكا طيلة عصور طويلة، إنّها آلات محكوم عليها بأن تنتج الشرّ ولا تستطيع أن تنتج الخير، فلنضربها باسم الله والشعب».

وفي رسالة أعدّت في منتصف الطريق إلى مؤتمر فيلادلفيا كتب واشنطن مزمجرا بأنّ الولايات كانت هي «السبب الأوّلي لكلّ اضطراباتنا». وأضاف أنّ وضعنا الراهن هو بسبب «إصرار» الولايات على التشبّث بالسلطة «ضعفا في الداخل واستخفافا بنا في الخارج، وكفى بذلك مهانة».

لقد سلّط عجز الحكومة على كلّ أمريكي توأما من الآفات: المال الحرام والمال المشبوه المصدر. فخلال الحرب أصدر الكونغرس الملايين في شكل سندات ائتمان غير مضمونة سرعان ما تهاوت قيمتها إلى حدّ أنّ عبارةً مثل «لا يساوي كونتيننتال[1]» أصبحت من العبارات الشائعة. وبحلول يوليو من عام 1779 كان دولار أمريكي يساوي خمسة سنتات أو أقلّ. وفي 1780 كان الخروف يُشترى بـ 150 دولارا من العملة الورقيّة أو بدولارين من العملة الصعبة.

بما أنّ عملة الكونغرس كانت فاقدة للقيمة فإنّ الجنيه البريطاني، أحد بقايا العصور الاستعماريّة، بات هو العملة السائدة. وبعد أن لام ماديسون الولايات بقوّة سنة 1786 لإصدارها عملاتها الورقيّة الخاصّة اختار لها الجنيه الإسترليني عملة. ولكن كم كانت قيمة الجنيه الإسترليني؟ في فرجينيا كان يقدّر بـ 1,289 حبّة من الفضّة، أمّا في بنسلفانيا فكان يقدّر بـ 1,031 حبّة فقط.

من أجل تركيز عملة أمريكيّة سنة 1785، تبنّى كونغرس الفدراليّة الدولار الذي كان في الأصل عملة إسبانيّة. لكن كم كانت قيمته؟ لقد قدّرت ولايات نيوإنجلند وفرجينيا قيمة الدولار بستّة شلنات في الوقت الذي قدّرته ولايات وسط الأطلسي (Mid-Atlantic states) بسبعة شلنات وستّة بنسات. وضبطت نيويورك ونورث كارولينا قيمته بثمانية شلنات. أمّا

---

(1) عملة ورقية أصدرها الكونغرس القاري وكانت تتراوح إصداراتها بين سدس دولار وثمانين دولاراً(م).

ساوث كارولينا وجورجيا فاختارتا له قيمة أربعة شلنات وستّة بنسات. وكان يمكن أيضا إبرام المبادلات التجاريّة باعتماد الدبلون الإسباني (Spanish doubloons) أو الكارولاين البروسي (Prussian carolines) أو الموادورس أو اليوهان البرتغاليّين (Portuguese moidores or johannes).

سمحت هذه الفسيفساء النقديّة للولايات بالتودّد لمواطنيها بإصدار أوراقهم الماليّة الخاصّة والادّعاء بأنّ قيمتها مماثلة لقيمة النقود الذهبيّة أو الفضّيّة. وقد لام ماديسون بنسلفانيا ونورث كارولينا على «تزعّمهما هذه الحماقة»، وتبعتهما ساوث كارولينا ونيوجيرسي ونيويورك.

ذهبت رود آيلند في الموضوع إلى أبعد مدى بفضل حكومتها المسيَّرة من قبل أكثر القوى ديمقراطيّة في القارّة. فقد أصدرت الولاية 100,000 من الأوراق النقديّة التي أصبح قبولها واجبا بحكم القانون وعلى قدم المساواة مع الذهب. فكتب ماديسون عن هذه الولاية الصغيرة في اشمئزاز: «مُنعت الإمدادات من الأسواق، أغلِقت المتاجر، تتالت الاجتماعات الشعبيّة، وظلّت الولاية في حالة أشبه بالهيجان. وقد خشي الفرجينيّون من أن ينتج هذا «المال الوهمي» «الحرب والانتقام بين الولايات». لم تكن «الفوضى الماليّة» عبارة مفرطة القوّة في وصف الوضع. ففي وسطٍ انتشرت فيه عملات متنوّعة ذات قيمة مشكوك فيها مع نقص في العملة الصعبة، أصبح كلّ مواطن تاجر عملة، وانطوت كلّ معاملة على خطر التعرّض للاحتيال.

وفيما يخصّ موضوع السلطة السياسيّة لم يستطع الكونغرس إخفاء وهنه. فقد كان البريطانيّون –وهم الذين لم يتلطّفوا بقبول إرسال سفير بدرجة كاملة– يرفضون التجارة مع الأمريكيّين بما في ذلك جزر الهند الغربيّة (West Indies)، وهو ما مثّل ضربة قاصمة للتجّار الأمريكيّين.

ثابرت بعض الولايات على رسم سياساتها الخارجيّة الخاصّة. فقد شنّت جورجيا، وهي جماعة سكّانيّة حدوديّة لا تعدّ أكثر من 50,000 نسمة، الحرب على الهنود الكريك (Creek Indians) دون تحقيق نجاح يذكر ولا أيّ انخراط من الكونغرس. وسادت الولايةَ الأحكامُ

العرفيّة، واشتُبه بإسبانيا التي كانت تُمسك بفلوريدا (Florida) أنّها تسلّح الكريك. وصدّقت فرجينيا بانفراد على اتّفاقيّة السلام مع بريطانيا، بينما تفاوضت مريلاند مع الحكومة البريطانيّة مباشرة على استرجاع سنداتها المودعة في بنك إنجلترا.

والأخطر من ذلك أنّ إسبانيا لم تسمح بأيّ تجارة أمريكيّة عبر مرفئها بنيوأورليانز معطّلة تجارة المستوطنين الغربيّين الذين كان عليهم أن يشحنوا بضائعهم عبر نهر ميسيسبّي. وطيلة عام حاول الكونغرس الكنفدرالي[1] أن يتوصّل إلى اتّفاق مع إسبانيا حول هذه القضيّة الأساسيّة، لكنّه انسحب من المحادثات لمّا أصرّ الإسبان على إغلاق النهر في وجه الأمريكيّين لمدّة خمس وعشرين سنة أخرى.

لم تُحترم الاتّفاقيّات التي أبرمتها الولايات المتّحدة من أيّ طرف. فلم تفتأ الجيوش البريطانيّة تحصّن القلاع حول البحيرات الكبرى بالرغم من أنّ معاهدة باريس تطلّبت انسحابها منها. وتجاهلت الولايات الأمريكيّة التزاماتها التي تضمّنتها المعاهدة نفسها في تعويض المستعمرات الموالية[2] عن أراضيهم المصادرة أثناء الثورة. وبالرغم من وجود معاهدة تضمن التسوية في المعاملة بين الخمور الهولنديّة والكونياك الفرنسي، فإنّ فرجينيا منحت المنتجات الفرنسيّة الأفضليّة. ومع أنّ سياسة فرجينيا كان يمكن تبريرها بالاستناد إلى اعتبارات جماليّة، فإنّها لم تكن طريقة مناسبة لشكر الهولنديّين على القروض التي أبقت سفينة الحكومة الأمريكيّة طافية.

لم يحسن الكونغرس الكنفدرالي الاحتفاظ بالسلام الداخلي، بدءا بفشله في تعبئة جيوشه لملاقاة رجال شايز المتمرّدين. وثمّة أمثلة أخرى. فقد طالبت تسع ولايات من ماساتشوستس ساوث كارولينا بأن تكون لها بحريّاتها الخاصّة. وأعلن المستوطنون الغربيّون مدينة فرانكلن ولاية جديدة، وانتخبوا حاكما لها. وتصرّفت فيرمونت كولاية حرّة موفّرة ملاذا آمنا لشايز ورفاقه وسط إشاعات تقول إنّه يمكن أن يلتحق بكندا باعتبارها

(1) هو الهيئة الحاكمة للولايات المتّحدة الأمريكيّة من 1 مارس 1781 إلى 4 مارس 1789. كان يضمّ مندوبين عيّنتهم الهيئات التشريعيّة للولايات، وكان الوريث المباشر للكونغرس القارّي الثاني (م).

(2) هي المستعمرات البريطانية التي بقيت موالية للحكم البريطاني خلال الثورة الأمريكية (م).

جزءا من الإمبراطوريّة البريطانيّة.

وكانت كونكتكوت قد طالبت في 1776 بوادي وايومنغ البنسلفاني، مسمّية إيّاه ويستمورلاند كاونتي، مقيمة به محاكم، ومستقبلة ممثّليها في الهيئة التشريعيّة لكونكتكوت. وقد خسرت الولاية دعوى في امتلاك هذه الأرض رفعتها أمام لجنة وطنيّة عام 1782، ولكنّ الصراع انفجر بعد سنتين عندما تحرّكت بنسلفانيا من أجل تثبيت نفوذها على الوادي. ومكافأةً لها مُنحت كونكتكوت المحميّات الغربيّة الواقعة فيما يسمّى الآن بأوهايو الشماليّة.

وماذا عن التجارة، هذه المسألة التي أدّت إلى إبرام ميثاق فرجينيا–مريلاند؟ كانت الولايات التي تتمتّع بمرافئ مزدهرة، وهي ماساتشوستس ونيويورك وبنسلفانيا وساوث كارولينا، مسرورة بفرضها ضريبة على كلّ شحنة ذاهبة إلى إحدى الولايات المجاورة أو آتية منها. ولأنّ هذه الولايات المجاورة كانت مجبورة على رشوة الولايات ذات المرافئ الجيّدة، لم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من الصرير بأسنانها غيظا. وقد كتب ماديسون لاحقا أنّ نيوجيرسي «الواقعة بين فيلادلفيا ونيويورك كانت تشبه برميلا خشبيّا يُطرق من طرفيه، وأنّ نورث كارولينا الواقعة بين فرجينيا وساوث كارولينا تشبه عليلا ينزف من كلتا يديه».

وعلى وجه الانتقام، أنشأت نيوجيرسي مصالحها الجمركيّة الخاصّة، وفرضت ضريبة على المنارة المخصّصة لمرفأ نيويورك بساندي هوك، ورفضت مدّ كونغرس إحدى الكنفدراليات بالأموال لأنّه لم يمدّ إليها يد المساعدة. فلم يكن بمقدور أيّ ولاية أن تعترض على سياسات بريطانيا التجاريّة ما دام الكونغرس لا يستطيع حماية التجّار الأمريكيّين من القراصنة البرابرة. وقد كتب روفوس كينغ، وهو عضو ناشئ بالكونغرس من ماساتشوستس سيترك بصمته في مؤتمر فيلادلفيا إلى جون أدامز يائسا: إنّ «اقتصادنا أفلس تقريبا» بسبب الغيرة بين الولايات.

كان نقص العائدات آخر إهانة للكنفدراليّة. فلم يكن باستطاعة الكونغرس فرض الضرائب، كان بمقدوره فقط أن يوجّه «طلبات» للحصول على الأموال من الولايات الثلاث عشرة. وقد عرفت تلك الطلبات ردودا متفاوتة.

في أغسطس 1786، وبعد التداول بشأن الإجراء الذي يجب اتّخاذه تجاه الولايات العشر التي لم تدفع مساهماتها الماليّة، أصدر الكونغرس «نداء» يستحثّها فيه على الدفع، وأرسل أعضاءً إلى مجالس الولايات لطلب التمويل. وبالرغم من أنّ الخزينة «أبانت عن أكثر الوجوه كآبة»، فإنّ طلباتها ذهبت أدراج الرياح. فلم تدفع ساوث كارولينا طيلة ثلاث سنوات شيئا، ودأبت نيوجيرسي وكونكتكوت على عدم الوفاء بالتزاماتها، ولم تدفع جورجيا قطّ.

وفي الحقيقة يعود نقص عائدات الحكومة جزئيّا إلى النقص الفادح في العملة. فقد كانت الحكومات تجمع عائداتها من الضرائب على الملكيّات وعلى الرؤوس. وفي غياب ما يكفي من العملة الصعبة المتداولة لن يقدر مواطنون أمثال المتمرّدين من أتباع شايز على أن يدفعوا، وهو ما يجبر حكومات الولاية إمّا على معاقبتهم لعدم الدفع أو على التفريط في العائدات. وقد قرّرت عدّة حكومات أن تترك عمليّات جمع الضرائب تهوي، وأن تتجاهل حاجة الكونغرس إلى الأموال. واختارت ماساتشوستس طريقا أخرى، فحثّت على التمرّد.

بدا الكونغرس أكثر ضعفا مع كلّ شهر. كتب ماديسون: «لم يقع إبداء أيّ احترام للسلطة الفيدراليّة. لم تستجب أيّ ولاية للطلبات، لاذت ولايات عديدة بالصمت، وجزمت أخرى بالرفض». إنّ حكومة لا مداخيل لها نادرا ما تستطيع أن تستمرّ في البقاء لمجرّد كونها حكومة. كان الكونغرس الكنفدرالي مدينا بعشرات الملايين من الدولارات في شكل ودائع وسندات باعها من أجل تمويل الحرب على بريطانيا. وقضت الديون المتفاقمة على قدرة الأمّة على الاقتراض مجدّدا.

إنّ عدم امتلاك الكونغرس لمقرّ رسمي رمز قوي لهشاشته. فقد فرّ من فيلادلفيا في يونيو من عام 1783 عندما طالبت وحدات متمرّدة من الجيش بأجورها وأبدت ميليشيّات الولاية بطئاً في توفير الحماية. وكانت برنستون، وهي أكبر بقليل من قرية صغيرة، المأوى القادم للكونغرس. وبعد نوبة قصيرة في أنابوليس أقامت الهيئة التشريعيّة الهاربة بترنتن (Trenton) مدّة من الزمن، مستقرّة أخيرا بمدينة نيويورك. إنّ التشرّد ليس هو العلامة المميّزة لحكومة عظيمة.

وُضِعت مسوّدة البنود التي استغرق الإعداد لها ستّة عشر شهرا من أجل ضمان بقاء الكونغرس في حالة ضعف واستمرار قوّة الولايات. وبكسر الأمريكيّين نير العبوديّة البريطاني رفضوا في أكتوبر 1777 إنشاء حكومة أخرى تكون أعلى من الولايات الجديدة. إلاّ أنّ إتمام المصادقة على البنود لم يتمّ حتّى بدايات 1781، وكان ذلك في الأغلب لأنّ مريلاند أبت أن تتحرّك قبل أن تتخلّى فرجينيا عن ادّعائها امتلاك معظم الأراضي الغربيّة.

أعلنت البنود عن اتّفاق «بين ولايات نيوهامشاير وخليج ماساتشوستس وورود آيلند» وغيرها، وهي ولايات دخلت في «رابطة صلبة من الصداقة المتبادلة». كما أعلنت عن احتفاظ كلّ ولاية «بسيادتها وحرّيّتها واستقلالها» تجاه كلّ قوّة «غير معتمَدة صراحة من الولايات المتّحدة». ونصّت فقرة من فقرات البنود تذمّرت منها الولايات الكبرى وهلّلت لها الولايات الصغرى على أنّ كلّ عضو في الكونغرس يتمتّع بصوت واحد.

كانت البنود بالتالي حصيلة اتّفاق بين الولايات الأمريكيّة، ولم تكن ميثاقا للحكومة من صنع الشعب الأمريكي. لقد كان الكونغرس الكنفدرالي كما وصفه حاكم فرجينيا إدموند راندولف «مجرّد جسم دبلوماسي مذعن دائما لرؤى الولايات».

انسجاما مع أوّليّة سلطة الولايات، لم تُرْسِ البنود أجهزة تنفيذيّة ولا محاكم. فكان الكونغرس يدير كلّ الشؤون العامّة عبر قانونه الأخرق: صوت واحد لولاية واحدة. قليلة عبر التاريخ وقصيرة العمر هي تلك الحكومات التي ازدرت الوظائف التنفيذيّة والقضائيّة أيّما ازدراء. وبالتأكيد لم تتبع أيّ ولاية أمريكيّة سنة 1787 ذلك النظام الغريب القائم على سلطة واحدة: فقد كان لكلّ ولاية نظام تنفيذي وقضائي، وكانت الحكومة القوميّة وحدها هي التي تفتقر إلى تلك الهيئات الأساسيّة.

إنّ السلطات التي يمتلكها الكونغرس فعليّا، وهي إعلان الحرب، والدخول في اتّفاقيّات، وضرب العملة واقتراضها، لا تمكن ممارستها إلاّ بموافقة تسع ولايات. ولأنّ التغيّب كان شائعا فإنّ حضور أغلب الولايات إلى الكونغرس لم يكن يتحقّق إلاّ نادرا. وتوفيرا لضمان أخير لتفوق الولاية لم يكن بالإمكان تعديل البنود إلاّ إذا وافقت جملة هيئات الولايات

التشريعيّة الثلاث عشرة، وهو شرط حَكَمَ بالفشل على محاولات تقوية الكونغرس على فرض المكوس أو تنفيذ شروط المعاهدات.

لقد عنى ضعف الكونغرس الكنفدرالي، مضافا إليه استحالة إجراء تعديلات على البنود، أنّ كثيرا من المندوبين يوافقون ماديسون وواشنطن في كون أمريكا تحتاج إلى حكومة جديدة «ذات طاقة». فقد رثى أحد مندوبي نيوإنجلند «الوضع المشوّش» للكنفدراليّة، في حين حذّر مندوب آخر من أنّ «شبح الحكومة الحالي يجب أن يتلاشى قريبا» إذا لم نحرّك ساكنا.

وبإلحاح من ماديسون كانت فرجينيا أوّل من أجاب النداء للمشاركة في مؤتمر فيلادلفيا. واحتلّ واشنطن غير الراغب في الحضور رأس قائمة مندوبي الولاية متبوعا بماديسون ثمّ جورج مايسون ثمّ الحاكم إدموند راندولف. وفي الجملة، عيّنت اثنتا عشرة ولاية أربعة وسبعين مندوبا إلى المؤتمر. وقد رفض زعماء رود آيلند الشعبويّون المشاركة في المؤتمر مدركين أنّ المؤتمر كان يعتزم إلغاء حقّهم في إصدار الأوراق الماليّة. ولم يأسف واشنطن على غياب رود آيلند بالرغم من اشتكائه من ذلك «التصرّف الفاضح للولايات، التصرّف الذي يبدو أنّه وسم كلّ مجالسها العموميّة الأخيرة».

لم يلتحق بمؤتمر فيلادلفيا بالفعل سوى خمسة وخمسين مندوبا معيّنا. ولم يتابع أكثر من ثلاثين منهم كامل الأربعة أشهر من المداولات. وكان من الأسماء البارزة التي حُذفت من قائمة المندوبين جون أدامز وتوماس جيفرسون اللذَيْن كانا وزيرين لدى بريطانيا وفرنسا على التوالي. وعلى الدرجة نفسها من الأهمّيّة لم يحضر بعض المعارضين لقيام حكومة قوميّة قويّة. وسوف يجعل غياب المدافعين عن حقوق الولايات، مثل صموئيل آدامز عن ماساتشوستس وباتريك هنري عن فرجينيا (والذي قال إنّه «يشتمّ رائحة الخديعة» في الدعوة إلى المؤتمر) الإجماع أيسر تحقيقا.

كان أغلب المؤتمرين قد خدموا الأمّة الجديدة سابقا. فقد وقع ثمانية منهم على بيان الاستقلال، وساعد خمسة عشر آخرون في وضع مسوّدة دساتير ولاياتهم، كما كان خمسة

وعشرون منهم أعضاء في الكونغرس القارّي (Continental Congress)[1] أثناء الثورة. وقد عمل ما يناهز الثلاثة أرباع منهم في الكونغرس الكنفدرالي منذ 1781. لذلك أدركوا من الوهلة الأولى الخيبات المتولّدة عن الحكم بمقتضى البنود. لقد دفع تميّز المندوبين بجيفرسون إلى الكتابة إلى أدامز متعجّبا: «إنّه فعلا مجلس لأنصاف آلهة».

غداة المؤتمر ارتسمت في ذهن كلّ من واشنطن وماديسون صور الانهيار والتدمير. كتب ماديسون: «إنّ النظام الحالي لا يملك ولا يستحقّ مدافعين عنه. وإذا لم توضع له دعائم قويّة جدّا فإنّه سيسقط بسرعة». بل كان الجنرال أكثر جزما، فذهب إلى وجوب تقوية الحكومة القوميّة في القريب العاجل، وحذّر من أنّ الوضع «يشبه منزلا يحترق، وأنّه سيتحوّل إلى رماد رغم توفّر أكثر أشكال الإطفاء المعهودة احتراما للقواعد».

وافق الرجلان على الحلّ. يجب أن تؤخذ السلطة من الولايات وتُعطى لحكومة قوميّة. ولتحقيق ذلك الحلّ كان على المندوبين أن يسبحوا في غمار مشاعر الغيرة لدى الولايات والمصالح الاقتصاديّة المتنافسة وصدام ذوات المندوبين الفرديّة. بالإضافة إلى ذلك كان عليهم أن يوفّقوا بين النموذج الثوري للحرّيّة وواقع العبوديّة التي كانت الأساس الاقتصادي لقُرابة نصف الأمّة. ودون إدراج أيّ خلل بنيوي في التصميم كان عليهم إنجازه بأكمله قبل أن تسقط الحكومة الراهنة أو تحترق.

(1) يمكن الإشارة إلى الكونغرس القارّي الأوّل الذي كان يتألّف من مندوبين لاثنتي عشرة ولاية اجتمعوا يوم 5 سبتمبر 1774 بفيلادلفيا للنظر في الخيارات المطروحة، بما فيها مقاطعة التجارة البريطانيّة وإرسال لائحة بالحقوق والتظلّمات إلى الملك جورج. أمّا الكونغرس القارّي الثاني فكان يتألّف من مندوبين عن ثلاثة عشرة ولاية اجتمعوا في 10 مايو 1780 بفيلادلفيا أيضا، وقد أدار هذا الكونغرس جهود الحرب ودفع ببطء باتّجاه إعلان الاستقلال (م).

الفصل الرابع

أنصاف آلهة ومغروورون يلتقون

مايو 1787

وصل جيمس ماديسون إلى فيلادلفيا في الثالث من مايو، قبل عشرة أيّام كاملة من وصول أيّ مندوب (باستثناء من كانوا يقطنون هناك)، وقبل أحد عشر يوما من البداية المقرّرة لانعقاد المؤتمر. عكس وصوله المبكّر كلاّ من شوقه وتعوّده طيلة حياته على التحضير الدقيق. ووفاء لعادته في الرفق بصحّته ما وجد إلى ذلك سبيلا، منح الفرجيني نفسه متّسعا من الوقت ليتعافى من آثار الرحلة الوعرة على العربة التي جلبته من نيويورك حيث كان يمثّل فرجينيا في الكونغرس الفيدرالي. وبالرغم من أنّ فيلادلفيا كانت أكبر مدن البلاد بسكّانها الأربعين ألفا تقريبا، فإنّ الإقامة فيها لم تكن هيّنة. فعلاوة على المؤتمر الفدرالي (هكذا كان يسمّى)، كانت المدينة تستضيف اجتماعا للقساوسة من مختلف أنحاء البلاد، وكانت فيها أيضا جمعيّة سينسيناتي (The Society of the Cincinnati)[1]، وهي منظّمة لضبّاط الجيش القاري يخشى البعض أن تكون في الحقيقة قوّة سياسيّة. كانت صحيفة «بنسلفانيا هيرالد» فخورة بالملتقى. فكتبت تقول:

(1) هي منظّمة تاريخيّة تأسّست سنة 1783 للحفاظ على المثل التي أنشأها ضبّاط الحرب الثوريّة في أمريكا وللضغط على الحكومة الأمريكيّة حتّى تفي بوعودها تجاههم (م).



جيمس ماديسون (فرجينيا)، بريشة تتشارلز ويلسون بيل

«هنا، وفي اللحظة ذاتها، تتداول الحكمة الجمعيّة لأمريكا في السياسات العامّة للإمبراطوريّة الاتّحاديّة، وينقّي مؤتمر للأساقفة ينابيع الدين ويوصلها إلى أرجاء العالم الأمريكي، واجتمع أولئك المحاربون القدامى الذين تحقّقت بفضل بسالتهم ومثابرتهم ثورة جبّارة، مرّة أخرى».

أقام ماديسون بفندق «مسز هاوس» في شارع «فِفْثْ آنْدْ ماركت» حيث كان الفرجينيّون المشتغلون بالشأن العام يقيمون غالبا. كان مكانا مألوفا أقام فيه ماديسون سنة 1783 خلال مدّة نيابته الأولى في الكونغرس الفدرالي، وقد كان الفرجيني الهادئ الجادّ قليل الإزعاج. وكما وصفه المعاصرين له: «كان سلوكه العادي بسيطا متواضعا دمثا غير مباه بنفسه نائيا بنفسه عن الحشود ممتنعا بحذر عن فعل أو قول أيّ شيء يَلفت النظر إليه». ومَنَحَهُ آخَرُ «سِمَةَ المفكّر التي لا تبعد كثيرا عن الرصانة والاكتفاء الذاتي»، ولكنّه وجد فيه أيضا «قليلا من ذلك الدفء القلبي».

خلال الأيّام العشرة التي سبقت وصول المندوب التالي تمكّن ماديسون من مراجعة مقالين كان قد كتبهما استباقا للمؤتمر العظيم. كان المقال الأوّل دراسة للجمهوريات والكنفدراليّات عبر التاريخ، بما في ذلك بلجيكا وسويسرا وألمانيا بالتوازي مع نماذج تقليديّة: اللوسيّون (Lycian) والأنفكتيّون (Amphyctionic). أمّا مقاله الثاني المسمّى «عيوب ماديسون»، وهو تنويه ساخر بفضائل المؤلّف التي لا يرقى إليها الشكّ، فكان جردا لاذعا لنقائص البنود. بلغت العيوب أحد عشر عيبا، وكان العلاج المناسب لها جميعا هو حكومة مركزيّة قويّة. كان الفرجيني شديد الوعي بخطر الإجراءات القمعيّة التي قد تتّخذها حكومات قويّة، مثلما فعل البرلمان البريطاني. لم يكن هدفه بناء حكومة قويّة فقط، بل حكومة تحترم حقوق مواطنيها أيضا.

في نظر ماديسون، يمثّل التوفيق بين القوى المتنافسة الوظيفة المركزيّة للحكومة. كتب قائلا: «تنقسم كلّ المجتمعات المتحضّرة إلى مصالح ومجموعات مختلفة»، بما في ذلك «المدينون والدائنون» و«الأغنياء أو الفقراء» و«أعضاء الطوائف الدينيّة المختلفة» و«أتباع مختلف الزعماء السياسيّين» و«سكّان مختلف المقاطعات» و«المتزوّجون والتجّار وأصحاب الصناعات». ويجب على الحكومة أن «تكون محايدة بما يكفي تجاه مختلف أصحاب المصالح والمجموعات لمراقبة المجتمع حتى لا يعتدي بعضه على حقوق بعضه الآخر».

أنجز ماديسون خلال تلك الأيّام العشرة التي قضّاها وحده أكثر من مجرّد الإعداد للمؤتمر القادم. فقد فرضت عليه المراسلات من بيته الالتفات إلى مسؤوليّاته باعتباره مالك عبيد. تُرى هل ساعد خدم وعبيد آخرون على هروب أنطوني، أحد الآبقين الذين أعيدوا إلى المزرعة؟ كان على ماديسون أن يقدّر الوضع عن بعد. كما أدّى زيارة للدكتور بنجامين فرانكلن رفيقه إلى المؤتمر والمنصّب حديثا رئيسا لبنسلفانيا. بسبب إحساس فرانكلن بثقل الواحد والثمانين عاما لم يكن يخرج إلاّ قليلا، لكنّه كان سعيدا باستقبال الضيوف في حديقته، وخاصّة تحت شجرة التوت المفضّلة لديه. ونظرا إلى علمه بالدور الصغير الذي لعبه الفرجيني في الدفع إلى المؤتمر، وبصلته بواشنطن، أحاط الرجلَ الأصغر سنّا بالتقدير الذي كان يستحقّه كلاهما.

وصل الجنرال واشنطن ثانيا بعد أن أمضى خمسة أيّام قطع خلالها مسافة 140 ميلا قادما من ماونت فيرنون على عربته الخاصة التي يقودها عبيده. كان تباين دخوله ودخول ماديسون الهادئ إلى فيلادلفيا صارخا. عند منتصف النهار من 13 مايو كان الجنرال في حانة «ويثيز إن» في تشستر جنوب المدينة يتغدّى مع رفاق سابقين في الجيش. مرّ الحفل بسرعة إلى تحيّة أدّتها فرقة «فيلادلفيا لايت هورس» وكانت مرتدية بأناقة سراويل بيضاء قصيرة ونعالا عالية وقبّعات سوداء فضّيّة. رافقت الفرق العسكريّة البطل عبر القنطرة المتحرّكة التي كانت تجسر نهر شولكيل. وأطلقت سَرِيَّةُ مدفعيّةٍ ثلاثَ عشْرَةَ طلقةً (بعدد كلّ ولاية) كتحيّة عسكريّة. ورنّت أجراس الكنائس واصطفّت الحشود على جانبي الطريق مهلّلة رغم ما أسمته صحيفة بنسلفانيا هيرالد بـ«حالة الطقس الرديئة». كان ذلك دليلا آخر –إن كانت هناك حاجة إلى دليل– على أنّه كان في متناول الجنرال أن يصبح قيصرا أمريكيّا.

مثل ماديسون، اتّخذ واشنطن لنفسه غرفا في مسز هاوس. ولمّا حطّ ركبه هناك لقي الخبيرَ المالي روبرت موريس وزوجتَه اللذَيْن لم يَدَعَاهُ يُنْزِلُ حقائبَهُ بنفسه. كان واشنطن قد اعتذر عن تلبية العرض الكتابي من عائلة موريس للإقامة عندها خلال المؤتمر، غير أنّها لم تقبل رفضه الشخصي، فَجَرَّتْ عائلةُ موريس الجنرال إلى البيت الواقع على مسافة قصيرة، مُشِيدَةً بأنبل رجل في المدينة. لم يمكث واشنطن هناك، بل سافر فورا لأداء واجب التحيّة للدكتور فرانكلن. خلال تلك الرحلة الممتدّة على طول أربعة مجمّعات مبان صافح واشنطن الفيلادلفيّين الذين هتفوا له وذُهلوا لرؤية الرجل ذي القامة الطويلة و المظهر الأخّاذ.

بالرغم من أنّ تدخّل عائلة موريس عنى أنّ ماديسون وواشنطن لن يناما تحت سقف واحد، فانّ الرجل المُجِدّ والأصغر سنّا لا بدّ أن يكون قد شعر برضى خاصّ عن زيارة الجنرال. وبفضل انطباق منزلة الأخير على استراتيجيّة ماديسون أنشأ الرجلان شراكة فاعلة ستؤدي إلى نجاح المؤتمر. وقد كان ماديسون يعوّل على استمرار هذه الشراكة حتى الصيف. لكنّ تحدّياتهما سوف تزداد لأنّ فيلادلفيا امتلأت بمؤتمرين كانت لهم رؤى مختلفة عن الأمّة التي سيقع إنشاؤها، وعن المصالح التي تتطلّب الحماية.

في الصباح التالي، يوم 14 مايو، قطع واشنطن وماديسون المسافة القصيرة مشيا إلى مبنى المجلس التشريعي لبنسلفانيا (يسمّى اليوم قاعة الاستقلال) لحضور الافتتاح المبرمج للمؤتمر. تقدّما بخطى واسعة تحت رذاذ خفيف رفقة ثلاثة فرجينيّين آخرين وصلوا للتوّ: جورج وايثي وجون بلير وجيمس ماكلورغ. كان وايثي –وهو في الحادية والستين من عمره– أوّل أستاذ قانون في أمريكا. ودرّب في معهد وليام أند ماري جيلا من الزعماء من بينهم توماس جيفرسون وجون مارشال وجيمس مونرو. كان من الموقّعين على بيان الاستقلال، وكان متحدّثا سابقا باسم مندوبي مجلس فرجينيا، وظلّ القاضي الأوّل لولايته من 1778 إلى وفاته سنة 1806. أما بلير، وكان في سنّ الخامسة والخمسين، فاشتغل إلى جانب وايثي في محكمة فرجينيا، وشارك في المؤتمر الدستوري لولايته. أمّا ماكلورغ البالغ من العمر واحدا وأربعين عاما فقد كان طبيبا وأستاذا بمعهد وليام أند ماري، وعضوا في المجلس التنفيذي لفرجينيا.

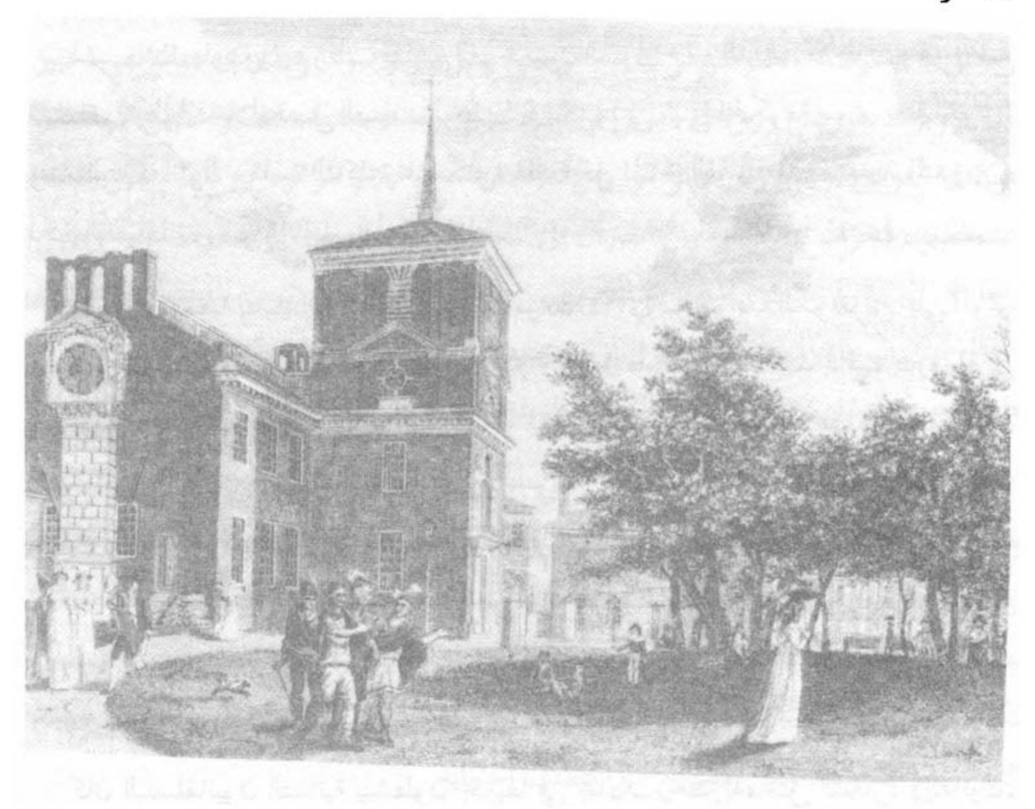
بسبب شتاء بارد وربيع رطب تقاسم الفرجينيّون الشوارع مع الذباب الأسود، وهو وضع سيتفاقم ويطول خلال فصل الصيف الرطب. لم يجدوا في مبنى الحكومة سوى بعثة أخرى، وهم البنسلفانيّون برئاسة الدكتور فرانكلن، فقد أجّل المناخ القاسي قدوم عديد المندوبين، لكنّ البنسلفانيّين منحوا المناسبة أهمّيّة خاصّة.

انتخبت جمعية بنسلفانيا مندوبيها في أواخر 1786، أي قبل موافقة الكونغرس على المؤتمر بشهرين تقريبا. ولأنّ بنسلفانيا كانت ثاني أكبر ولاية (بعد فرجينيا)، فقد كانت ضروريّة في أي جهد لإعادة بناء الحكومة. إنّ النظرة الكونيّة لهذه الولاية تنبع من تنوّعها السكّاني الذي كان يشمل المهاجرين الألمان والكويكرز والسود الأحرار. وبينما كان للفرجينيّين أسلاف متجذّرون في الولاية طيلة قرن أو أكثر، كان البنسلفانيّون الثمانية أكثر تنقّلا وتمدّنا. كان ثلاثة منهم مهاجرين: توماس فيتزيمونس من أيرلندا، وروبرت موريس من إنجلترا وجيمس ويلسون من سكوتلاندا. وقدم ثلاثة من ولايات أخرى: كونكتكوت (جاريد أنجرسل)، ونيويورك (الحاكم موريس الذي كان لا يزال يقيم هناك)، وماساتشوستس (فرانكلن).

كان البنسلفانيون الثمانية ينشطون جميعا في مجالات حضريّة، مثل التجارة والقانون.

فقبل أسبوع فقط ذهب ستّة منهم إلى الدكتور فرانكلن لحضور ندوة أشرفت عليها جمعيّة البحوث السياسيّة (The Society for Political Inquiries)، وتعلّق العرض بالتجارة الأمريكيّة والصناعة، وهي مسائل لا ترقى إلى مستوى الأولويّات عند مزارعي فرجينيا، ولكنّها مركزيّة بالنسبة إلى المستقبل الوطني.

خلال المؤتمر كان أكثر المندوبين بروزا من بنسلفانيا هم الذين اختيروا في آخر القائمة. فحين وقع التصويت في المجلس الولائي حلّ جيمس ويلسون والحاكم موريس وراء زملاء لهما أقلّ بروزا بفارق كبير. بينما أُسقط فرانكلن من الوهلة الأولى للاعتقاد بأنّه مريض إلى درجة لا تسمح له بأداء واجبه. وفي وقت لاحق أضيف اسمه إلى البعثة بالإجماع حين تبيّن أنّ صحّته تسمح له بإنجاز المهمّة. لقد حقّق كلّ من أولئك الرجال الثلاثة إضافة نوعيّة جديرة بالذكر.



دار الولاية، فيلادلفيا (و. بيرش وابنه، W. Birch and Son, 1800)

ما من أحد كان يستطيع أن يضاهي الدكتور فرانكلن على المسرح السياسي، بدءا بلقبه المشهود له عالميّا «الدكتور». يعود تاريخ هذا اللقب إلى الشهادة الفخريّة التي تحصّل عليها من سانت أندروز (St Andrews) بسكوتلاندا وقد أسندت أليه بفضل إنجازاته العلميّة (تماما مثل شهاداته التقديريّة من أكسفورد وهارفرد وييل ووليام أند ماري، وهو ليس أمرا سيّئا بالنسبة إلى رجل غادر المدرسة في سنّ العاشرة).

أثناء حضوره الأمسيات الدبلوماسيّة في باريس ألبسته غريزة التمثيل لباسا أمريكيّا محلّيّا وكلّلته بقبّعة من الحرير، وها هو الآن يتحدّى البساطة الأمريكيّة بالتنقّل على عربة بلّوريّة النوافذ من فرنسا، يجرّها أربعة مساجين أقوياء من سجن ولنات ستريت المجاور. وبينما كان د. فرانكلن يتقدّم عبر شوارع فيلادلفيا الجمهوريّة بعثت بدلته المزركشة بالأوسمة رسالة إلى بلده مفادها أنّ الشرف في أمريكا ينبع من الموهبة وليس من الولادة. غير أنّ اهتزاز العربة أثناء سيرها في الطريق لا بدّ أ ن يكون قد جلب الابتسامة لأولئك الذين مرّ بجانبهم، وللدكتور نفسه.

ببلوغه الحادية والثمانين من العمر كان فرانكلن يكاد يتساوى مع واشنطن في التنافس على الشهرة بين الأمريكيّين. ذلك أن مواهبه وإنجازاته عصيّة على الاختزال. فبعد بدايات متواضعة وجد النجاح كرجل أعمال ومخترع وناشر وعالم وكاتب ورجل دولة. لقد أنتج فضوله وروح الإبداع لديه مانعة الصواعق ومدفأة فرانكلن وأوّل قسطرة طُوِّرت في أمريكا. وسحرت روحه المرحة أجيالا بعد وفاته، حاجبة التحفّظ المعلن في علاقاته العائليّة والشخصيّة. لقد لاحظ أولئك الذين التقوه سنة 1787 التباين بين سمعته العملاقة ومظهره المتواضع. وبعبارة أحدهم، كان «رجلا قصير القامة بدينا متقدّما في السنّ».

كان أهمّ شيء بالنسبة إلى المؤتمر هو خبرة فرانكلن السياسيّة التي بلغت عقودا. فقبل ثلاثين سنة مضت كان قد كتب مسوّدة خطّة ألباني (Albany Plan) للوحدة لفائدة المستعمرات البريطانيّة الثلاث عشرة (لم يتمّ إقرارها قطّ). لقد عمل في كونغرس قانون الطابع (Stamp Act Congress)[1] لسنة 1765 وفي المجالس الثوريّة لسنوات 1774 و1775 و1776، وأعدّ في

(1) هو ضريبة في شكل طابع جبائي فرضها البرلمان البريطاني سنة 1765 على مستعمرات أمريكا البريطانيّة، =

تلك الفترة بيان الاستقلال. كما تفاوض على مسألة التحالف الحاسم مع فرنسا أثناء الثورة، وعلى اتّفاقيّة السلام مع بريطانيا بعد ذلك. ورغم شيخوخته وعجزه اللذين تسبّبا له في الغياب عن بعض الجلسات خلال الصيف، كانت موهبته في عقد التسويات ستساعد المؤتمر في أصعب أوقاته.

خلال الصيف كان لفرانكلن في عديد المرّات ما يقوله، لكنّه لم يشعر بالقوّة الكافية لإلقاء خطاب. وقد عوّل على جيمس ويلسون في قراءة ملاحظاته في تلك المناسبات غيرَ منزعِجٍ من إلقائها بلكنة ويلسون السكوتلنديّة المميّزة.

ولّما كان ويلسون مؤتمَنا على أسرار الدكتور وناطقا باسمه فقد رفع هذا بلا ريب من هيبته بالرغم من أنّ منزلته كمحام ورجل دولة كانت معتبرة أصلا. ولأنّه كان يشاطر واشنطن وماديسون الرؤية القائلة بأنّ الحكومة الوطنيّة يجب أن تكون أقوى، فإنّه سيلعب خلال المؤتمر القادم دورا أكبر بكثير مما توقّعه أيٌّ كان.

ولد ويلسون في عائلة تشتغل بالفلاحة في فايفشاير (Fifeshire) بسكوتلاندا، وتلقّى تعليما تقليديّا بجامعة سانت أندروز بعد حصوله على منحة دراسيّة. رسم له والداه الورعان مستقبلا كهنوتيا، ولكنّ الفتى الطّموح رمى بخطّتهما جانبا وأبحر إلى أمريكا في سنّ الرّابعة والعشرين. لقد منحته مواهبه مكانا يُغبط عليه في مكاتب المحاماة بفيلادلفيا لجون ديكنسون (الذي سيشهد المؤتمر مندوبا عن ديلاوار).

انغمس ويلسون في حياة البلد الذي تبنّاه ولم ينظر قطّ إلى الخلف رغم تذمّر أفراد عائلته الذين تركهم وراءه (كتبت أمّه قبل سنتين «إنّي أخجل من تصرّفك غير المبالي وغير الطبيعي تجاهنا»).

فاز ويلسون في انتخابات الكونغرس القارّي سنة 1775. كان مثقّفا مجتهدا، وازدهر نشاطه القانوني، وربح المعركة القانونيّة ضدّ كونكتكوت على أرض بنسلفانيا، ومثّل ملك فرنسا في

= وقد وقع رسمها على عديد الموادّ المطبوعة من جرائد ومجلاّت ووثائق قانونيّة وغيرها. ومثل كلّ الضرائب السابقة كان لا بدّ من دفع تلك الضريبة بالعملة البريطانيّة لتغطية نفقات الجيش البريطاني المتمركز في الشمال الأمريكي بعد حرب السبع سنين (م).

أمريكا. وساعد على تنظيم بنك شمال إفريقيا سنة 1781، ثمّ دافع عن البنك ضدّ الهجومات الشعبويّة. وبصفته عضوا في المجلس الكنفدرالي في ثمانينات القرن الثامن عشر، حاول من دون نجاح تعزيز سلطة هذا المجلس على فرض الجباية وقيادة ميليشيّات الدولة. كانت نقطة ضعفه التي تقاسمها مع واشنطن ومندوبين آخرين –كانت أشبه بالحمّى في حالة ويلسون– هي المضاربة على الأراضي الحدوديّة؛ وبالنسبة إلى ويلسون سوف تكون الحمّى قاتلة.

بقامته الطويلة ولباسه المتأنّق وبنيته القويّة وشعره البنّي المذرور على ذوق ذلك العصر، كان ويلسون يشيع حيويّة متناقصة ويوحي بقليل من العطف. كان يقود (بحسب عبارة أحد المؤتمرين) «لا بسحر بلاغته، ولكن بقوّة تفكيره». وقد جلبت له لكنته وسلوكه الرسمي التسمية التهكّميّة «جيمس دي كاليدونيا» (James de Caledonia). وصف أحد المحامين صوت ويلسون بأنّه «قوي ولكنّه ليس شجيّا»، وإيقاعاته بأنّها «معدّلة بشكل حكيم ولكنّها متصنّعة إلى حدّ ما»، أمّا عاداته السلوكيّة فكانت على الأرجح مهيبة «أكثر منها مقنعة».

وسجّل أحد كتّاب السيرة المبكّرين أنّ ملامح وجه ويلسون «ليست كريهة بالمرّة، وأنّها كانت أحيانا تعطي انطباعا بالصرامة بسبب ضعف بصره الشديد». وقد لاحظ أحد المعاصرين أنّه «كان يحدّق من خلال نظّاراته السميكة كما يفعل ماسح الأراضي من خلال بوصلته». وقال آخر إنّ «عربة الأسكتلندي الشاهقة» قد صُمّمت على هذا النحو لتمنع نظّاراته من الانزلاق على أنفه.

لم يضع أحد صلابة ويلسون موضع تساؤل. ففي سنة 1787 دافع ببسالة عن رجلين من الكويكرز ضدّ تهمة التواطؤ مع البريطانيين. وبسبب العواقب المطوّلة لذلك الجدل واعتراض ويلسون على مراقبة الأسعار أصبح هدفا لرجال الميليشيا المستائين نظرا إلى التضحيات التي قدّموها والربح الفاحش الذي حقّقه الآخرون. وعوض الهروب أثناء عرض عسكري للميليشيات سنة 1779 تحصّن ويلسون وبعض حلفائه في بيته. وانطلاقا ممّا أصبح يُعرف «بحصن ويلسن» انخرطوا في معركة بالبنادق، ويعتقد بعضهم أنّ الرجال الذين كانوا داخل المنزل هم الذين بدأوا فعلا بإطلاق النار. وقد كلّف ذلك المهاجمين حياة أربعة من جنودهم

والمدافعين عن حصن ويلسون حياة اثنين من رجالهم.

وفيما كان ويلسون رجلا مصمّما ومنضبطا، كان الحاكم موريس (لا علاقة له بروبرت موريس) كامل التوهّج والموهبة. لقد سمّي من قِبَل البعض بالفتى الطويل القامة، وكان وهو في سنّ الخامسة والثلاثين ينافس واشنطن قامة ومقاما، وثمّنت فيه المضيّفات ذلك الرجل الأعزب والمحدّث الساحر. ذكرت إحدى المعجبات أنّ موريس جعلنا خلال حفل زواج استغرق ثلاثة أيّام «في حالة ابتسام دائمة» (لا أجروٴ على القول: في حالة ضحك بالنسبة إلى كلّ الناس، لكنّك تستطيع أن تقرّ بوجود ذلك في الغرفة الخلفيّة)». كان موريس سعيدا لمشاطرته الناس آراءه في أيّ موضوع، ولم يكن يضيق بأيّ سخافة بالمرّة. ووجد رجل فرنسي سنة 1782 أنّ موريس كان «أكثرَ مَنْ التقيت من أهل فيلادلفيا شجاعة وجرأة»، لكنّه تكهّن «بأنّ تفوّقه الذي لم يبذل جهداً في إخفائه سيعيق احتلاله الدائم لموقع هامّ».

أصبح حضور موريس الجذّاب أشدّ إثارة بسبب الساق المصنوعة من خشب السنديان والمثبّتة إلى ركبته اليسرى. فمنذ سبع سنوات مضت كان قد فقد الجزء الأسفل من رجله في حادث عربة على بعد بضع تجمّعاتِ بناءٍ من قصر الحكومة. ونظرا إلى اشتهاره بالفسق، فإنّ العديد يعتقدون أنّ الإصابة حدثت أثناء هروبه من رجل غيور. وافترض معاصروه بأنّ فقدانه تلك الساق لم يحدّ من ولع النساء به.

يتخلّل غضب موريس الحكاية (يُحتمَل أن تكون مختلقة) التي أكّد فيها لهاملتون أنّ واشنطن العظيم لم يكن جدّيا كما كان يُعتقد في غالب الأحيان. وتقول الحكاية إنّ هاملتون اقترح على موريس أن يثبت موقفه بتوجيه ضربة وَدُودٍ لمؤخّرة الجنرال عند أقرب مناسبة اجتماعيّة. قام موريس بأداء واجب التحيّة الودّية التي جعلت الجنرال ينتقل بتحفّظه المعهود من درجة البرود إلى التجمّد، وهو ما أسعد هاملتون وأدهش موريس على الفور.

ولد موريس في وسط بالغ الثراء (يتذكّر الناس عقار عائلته باسم المنطقة الموريسيّة من البرونكس. وكان خلال المؤتمر يتكلّم أكثر من أيّ شخص آخر. ولاحظ أحد المندوبين أنّ موريس «يحيط نفسه بنور يسحر ويجذب ويشدّ مشاعر كلّ من يستمع أليه»، ولكنّه

يستطيع أيضا أن يكون «نزويّا ومتقلّبا». لقد برز باعتباره مهمازا متحمّسا وعوّاما متألّقا لبالونات اختبار، واعتبره بعضهم حادّا وبعضهم الآخر أخرق. وعندما اشتعل النقاش حول العبوديّة تميّز الأرستقراطي موريس عن كلّ المندوبين الآخرين.

لم يكن يوجد في اليوم الأوّل من اللقاء في قصر الحكومة بعد أن جرى حوار ودّي حول الرحلات والعربات شيء كثير يستحقّ الفعل عدا الانسحاب على أمل حضورٍ أفضل في الغد. إنّ وفود السبع ولايات التي يكتمل بها النصاب لن تستطيع الحضور لمدّة أحد عشر يوم آخر.

بلغ وفد فرجينيا قوّته القصوى بسرعة. فقد وصل الحاكم راندولف، وهو وريث عائلة بارزة، في اليوم التالي، أي في 15 مايو، والتحق بماديسون وماكلارك بفندق مسز هاوس. ورغم أنّه كان أصغر من ماديسون سنّا فقد اشتغل سابقا مندوبا للمؤتمر الدستوري لولايته وعضوا في الكونغرس القارّي خلال الثورة مدّعيا عامّا لولاية فرجينيا. وبعد يومين أكمل جورج ماديسون نصاب الولاية حين أقام مع ابنه في فندق «إنديان كوين» المجاور والذي كان أيضا ملك السيدة هاوس.



أدموند راندولف، فرجينيا

كان الفرجينيّون رمزا للأرستقراطيّة الزراعيّة في الجنوب ولطبقتها المحترفة. وكان بعضهم يعرف بعضا جيّدا، بدءا بماديسون وواشنطون اللذَيْنِ كانا جارين وصديقين طيلة حياتهما، وكان وايذي وبلير زميلين في سلك القضاء. درس ثلاثة منهم بمعهد وليام أند ماري في وليامزبورغ، بينما كان وايذي وماكلارغ في الجامعة. أمّا الأربعة الآخرون فقد كانوا يقطنون داخل أو حوالي تلك المدينة التي لم تكن تعدّ إلاّ بضعة آلاف ساكن. كان عقار ماديسون في مونتبيليه يقع بعيدا نسبيّا على الهضاب الغربيّة للولاية، لكنّه كان يشبه إلى حدّ كبير في تنظيمه كلاّ من ماونت فيرنون وغانستون هول. أمّا آل راندولف الآخرون فقد كانوا يملكون مزارع في كلّ أنحاء فرجينيا. وكان سبعتهم جميعا يملكون عبيدا.

استفاد الفرجينيّون من تأجيل افتتاح المؤتمر. كانوا يجتمعون كلّ صباح لبضع ساعات في فندق مسز هاوس، ويلتقون مرّة أخرى في قصر الحكومة على الساعة الثالثة ظهرا لتحيّة المندوبين القادمين. كتب ماديسون لأحد أبنائه الآخرين إنّ الجلسات الصباحيّة تهدف إلى إنشاء «تواصل مناسب للمشاعر» بين الفرجينيّين. وفيما بعد، أعطى ماديسون ذلك التفسير الأكثر صراحة الذي يقول إنّه «قد اتّضح لمندوبي فرجينيا من خلال الدور المبكّر والبارز الذي لعبته تلك الولاية في إنجاز المؤتمر أنّ المبادرة بخطوة عمليّة أمر متوقّع منهم». وقد استفادت مداولات الفرجينيّين من المناقشات المسائيّة في قصر الحكومة مع مندوبين من ولايات أخرى. ورغم أنّه لم تتوفّر أصداء عن تلك النقاشات الأوّليّة، فقد كانت فرصة مثاليّة لتقاسم الآمال والأفكار أثناء تحديد المواقع من القضايا ذات الأهمّيّة الخاصّة.

ابتهج جورج مايسون لتلك المحادثات غير الرسميّة. فكتب لأحد أبنائه: لقد وافقت «الولايات الأساسيّة» على ضرورة إحداث «تغيير شامل للنظام الفدرالي الحالي». وفي إضافة متبصّرة لاحظ أنّ التوافق العامّ لم يتضمّن «الولايات الصغرى»، وتنبّأ أيضا «بصعوبات جمّة» في إرساء حكومة وطنيّة قويّة مع «احتفاظ المؤسّسات التشريعيّة للولايات بقسط كاف من السلطة في الوقت نفسه». لقد فوجئ حين وجد أنّ مندوبي نيوإنجلند، رغم اشتهارهم بآرائهم الديمقراطيّة، كانوا «ضدّ القيم الجمهوريّة» تقريبا. وقد عزا ذلك إلى الكوارث غير

المتوقّعة التي واجهوها مع دانيال شايز ورجاله.

سجّلت الجلسات الخاصّة بولاية فرجينيا في فندق السيّدة هاوس البداية الحقيقية للمؤتمر. فباستفادتهم من تحضير ماديسون والحضور البليغ للجنرال، شكّل الفرجينيّون العمود الفقري لميثاق وطني. وبعد أن هيّأوا أنفسهم لتولّي القيادة في بداية المؤتمر لم يتوقّع الفرجينيّون السبعة كثيرا ألاّ يوقّع إلاّ ثلاثة منهم على الدستور النهائي.

ككلّ مداولات جماعيّة تضمّ عشرات من الناس كانت آليّات المؤتمر معقّدة. فقد لعب المؤتمرون الأدوار التي أمليت عليهم من قبل شخصيّات وأناس على علاقة بهم وبفعل قناعاتهم وسياسات الولايات التي يمثّلونها واقتصاديّاتها. دفع بعضهم، مثل ماديسون وويلسون والحاكم موريس، بأنفسهم إلى الواجهة، وألقوا خطبا كلّ يوم. أمّا الآخرون، مثل فرانكلن، فقد كانوا أكثر انتقائيّة في ملاحظاتهم، ولكنّهم مارسوا تأثيرا هامّا خارج الواجهة. كما ظلّ بعضهم، مثل بلير عن فرجينيا وجيرد إنجرسول عن بنسلفانيا صامتين لأربعة أشهر من دون أن يكادوا يتركوا أثرا على أنّهم كانوا هناك.

لم يبرع أحد في إسماع صوته مثل جون أدامز الذي كان آنذاك يؤدّي واجبه الدبلوماسي في لندن النائية. فبداية من 18 مايو وفي كلّ يوم جمعة بعده، خصّصت صحيفة بنسلفانيا ميركوري كامل صفحتها الأولى لمقتطفات ممّا نشر مؤخّرا لأدامز «دفاعا عن دساتير حكومة الولايات المتّحدة الأمريكيّة». كانت كتابات أدامز مستمرّة في الصدور كلّ أسبوع عندما انتهى المؤتمر في 17 سبتمبر، ولكنّ وقعها على المؤتمرين لم يكن أكيدا. قال ماديسون مستخفّا: «إنّ رجالا مثقفين لن يجدوا فيها شيئا جديدا». وأضاف: «يجد الرجال الذوّاقون عديد الأشياء التي تستحقّ النقد».

ورغم أنّ مساهمات هامّة قد جاءت من مندوبين عديدين بما في ذلك رجال التسوية الذين قدموا متأخّرين من كونكتكوت، فإنّ الفاعلين الرئيسيّين في المؤتمر تركّزوا في الفرجينيّين والبنسلفانيّين والبعثة الثالثة لتحقيق النصاب في فيلادلفيا: ساوث كارولينا.

وصل جون راتليدج من تشارلستون إلى فيلادلفيا في 17 مايو، وأقام مدّة قصيرة بمنزل

جيمس ويلسون في ماركت ستريب، وكان قد اشتغل مع ويلسون في الكونغرس الكنفدرالي. انتقل الشابّ تتشارلز بينكني إلى فندق مسز هاوس في اليوم نفسه، ووصل عضوا الوفد المتبقّيان بعد أسبوع من ذلك على متن نفس السفينة: الجنرال تتشارلز كوتسوورث بينكني مع زوجته والرائد بيرس بتلر برفقة زوجته وبناته الأربع.

كانت مجموعة ساوث كارولينا متشابكة القرابة والنسب. في البداية كان آل بينكني أبناء عمّ، ولم تكن تلك سوى بداية الارتباطات. فقد تزوّجت شقيقة زوجة الجنرال بينكني من شقيق راتليدج، في حين كانت زوجة الرائد بتلر ابنة عمّ للأختين اللتين تزوّجتا الجنرال بينكني و شقيق راتليدج. كان الرجال الأربعة كلّهم يملكون مزارع في «لو كاونتي» مستخدمين عمّالا عبيدا لزراعة الأرزّ وأشجار النيلة. وباستثناء بتلر كانوا كلّهم محامين، وقد درس كلّ من راتليدج و الجنرال بينكني الحقوق في لندن. ورغم شبكة علاقاتهم الضيّقة جاء الكارولينيّون إلى فيلادلفيا للعمل بشهيّة، وسوف يمارسون نفوذا أكبر من حجمهم.

كان راتليدج قائدهم. فقد كان هذا المحامي، وهو في الثامنة والأربعين من عمره، قريبا من مركز الشؤون الأمريكيّة منذ قانون الطابع الذي أمضى عليه الكونغرس سنة 1765. كان محاميا مهيبا أثناء المحاكمات، «وربّما كان أنجح محام في المستعمرات الأمريكيّة»، وكان يصل أحيانا إلى حدّ الغطرسة. ورغم أنه لطيف بما فيه الكفاية حينما يريد ذلك، لكنّه لم يلعب لعبة الجنوبي المهذّب. واشتكى بعضهم من أنّه كان يقاطعهم بشكل مفاجئ إلى درجة الفظاظة. ورغم نجاحه في قاعة المحكمة، قدّر العديد أنّه لا يعدو أن يكون محاميا متوسّطا: «مفرط السرعة في مداخلاته العامّة لدرجة لا تسمح بوصفه بالخطيب المحبوب».

حين التقى جون أدامز براتليدج سنة 1774 لم ير في الجنوبي السريع الكلام «حدّة في العين ولا عمقا في المحيّا. لا شيء من العمق وحدّة الذكاء والإشعاع والتوهّج عند رؤيته أوّل مرّة». وعلى الأرجح وصف آدامز رتلدج بعبارات تنطبق على إياغو، إحدى شخصيّات شكسبير، قائلا إنّه يحتفظ «بروح من التحفّظ والتخطيط العدواني والمكر» (والمحزن أنّ راتليدج لم يترك أيّ أثر عن انطباعه الأوّل عن أدامز). كان تصلّب راتليدج الحادّ واضحا حين ألحّ على

أن يطلق مجلس كارولينا العنان لمندوبي الولاية لاتّخاذ أيّ عمل ضروري في المجلس القارّي سنة 1774. وقد ردّ المعترضون بقولهم: ما الذي سيحدث لو اتّخذ أولئك المندوبون القرار الخاطئ في المعركة مع بريطانيا؟ وكان ردّ راتليدج: «اشنقوهم».

أقرّ أدامز نفسه ضمنيّا في تقويمه الحذر بقوّة شخصيّة راتليدج. كان ذا قامة طويلة وشعر طويل بنّي وطبع وقور، وكان يفضّل خطابا «قويّا وحجاجيّا يوصلك بسرعة إلى الغاية المستهدفة باندفاع قوي». وكان باعتباره حاكما لولاية ساوث كارولينا خلال فترة حرب الاحتلال البريطاني يسمّى «الدكتاتور». وباعتباره قاضيا خلال السنوات التي تلت، كانت «المحكمة وهيئة المحلّفين والحضور يرتعدون أمامه».

مالت ملاحظات راتليدج في المؤتمر إلى عدم التنميق وإلى الاختصار، إلا أنها كانت موقّتة بذكاء. وقد تولى في أحيان كثيرة بعرض القرارات في القضايا الجوهريّة أو بتدعيمها. كان قوّة ثابتة ومقنعة، يعمل على أفضل وجه في قاعة المحاضرات وقاعات اللجان والحانات. وكان عضوا في خمس لجان أثناء الصيف، وقد ترأّس أهمّها، وهي لجنة التفصيل[1] التي أنتجت أوّل مسودّة للدستور الأمريكي، وقد عُدّ ذلك أمرا غريبا في عديد الأمكنة.

إحدى عشرة سنة من العمر كانت تفصل بين ابنَيْ العمّ من عائلة بينكني اللذَيْن كُتب على اسمَيْهما أن يظلاّ محلّ خلط عبر التاريخ. قاد كلاهما فِرقا أمريكيّة، ولكنّهما أنهيا فترة الثورة في معسكرات السجون البريطانيّة. وكان ابن العمّ الأكبر الجنرال تتشارلز كوتسوورث بينكني محبوبا باعتباره سيّدا كريم الأخلاق. وقد احتفظ بعلاقات وديّة مع زملائه الشماليين. وصفه مندوب ماساتشوستس بكونه «أذكى مخلوق حيّ»، وأضاف: «يزداد حبّي له كلّما التقيته». فشل الجنرال بينكني مرّتين كمرشّح فدرالي للرئاسة، وقد تضمّنت مساهماته في الدستور مقاطع كبيرة يدافع فيها عن العبوديّة.

كان قريبه المتّقد نشاطا والمعروف اختصارا بتتشارلز بينكني منخرطا بعمق في عمليّة كتابة الدستور. كان تتشارلز يغمز بمنكبيه أحيانا، ومثلما يظهر من كنيته التي تُطلق عليه في

(1) في 24 يوليو 1787 عيّن المؤتمر الفدرالي لجنة من خمسة أعضاء وضع على رأسها جون راتليدج من ساوث كارولينا لإعداد مسوّدة الدستور. وظلّ المؤتمر منعقدا من 26 يوليو إلى 6 أغسطس بانتظار تقرير هذه اللجنة.

بعض المناسبات: شارل السفيه، حرّف عمره حتّى يتمكّن من الادّعاء بأنّه أصغر مندوب (وهو تميّز كان يملكه جوناثان دايتن مندوب نيوجيرسي البالغ من العمر ستّة وعشرين عاما، فهو يصغر تتشارلز بثلاثة سنوات). ولسوء حظّه، تمّ اكتشاف كذبته.

حين كان تتشارلز في الكونغرس الكنفدرالي سنة 1786، ترأّس «اللجنة الكبرى» التي كانت تعدّ التعديلات على موادّ الكنفدرالية، ولكنّه كان أيضا من المساندين الأوائل لفكرة مؤتمر وطني يصوغ ميثاقا جديدا للحكومة. وقد قال في خطاب ألقاه في مارس 1786: إنّ مثل هذا المؤتمر هو «العلاج الوحيد الحقيقي والجذري لمساوئنا العموميّة».

وصل الشابّ تتشارلز إلى فيلادلفيا حاملا مسودّة دستور، وهو أمر لم يكن ماديسون نفسه قد حاول فعله. عرض تتشارلز مسودّته على كلّ مندوب يقبل بالوقوف طويلا لرؤيتها، وأصرّ بعد ذلك على أنّها نموذج للدستور.

أطلق هذا الادّعاء الأخير انتقادات حادّة من العجوز ماديسون، ووصل الأمر حتّى إلى اتّهام تتشارلز بأنّه كان «إسفنجيّا منتحلا». لقد حجب بحثه عن المجد مساهماته الحقيقيّة خلال المؤتمر.

أمّا آخر الكارولينيّين الجنوبيّين المعروف لدى العموم بالرائد بتلر فقد قدم إلى أمريكا كضابط في الجيش البريطاني خلال الستّينات من القرن الثامن عشر. لقد أقنعه زواجه بسيّدة محلّيّة بالالتحاق بأولئك الذين كان قد أرسل من أجل ترويضهم. ومثلما كان الحال مع الجنرال بينكني، تركّزت مساهمات بتلر في فيلادلفيا على مسائل العبوديّة، وإن كان قد لفت الانتباهَ إليه من خلال حماسة خطابه. فقد لوحظ، أكثر من أيّ شخص آخر، أن تعليقاته «خلافيّة» أو «اعتراضيّة» وأحيانا «حامية» و«واثقة» مرّات و حتّى «ملتهبة».

حين تقاطر المندوبون إلى فيلادلفيا، التقوا وجوها مألوفة لديهم. كان بعضهم يعرف بعضا من خلال الخدمة في الحرب، فقد ارتدى تسعة وعشرون منهم الزيّ العسكري أثناء الثورة، وعمل العديد منهم لفترات متزامنة في الكونغرس القارّي والكونغرس الكنفدرالي منذ سنة 1781. وكان لتسعة منهم على غرار ويلسون مقاعد متزامنة في ذلك الكونغرس خلال صيف

1787. وكانوا في معظمهم يتقاسمون بعض الأنشطة: كان خمس وثلاثون منهم محامين، وثلاثة عشر شخصا يعملون في التجارة، واثنا عشر يملكون أو يديرون مزروعات يشغّلها العبيد. وكانت لحوالي 24 مندوبا ديون عموميّة معتبرة (وأحيانا خطيرة).

كانت المدينة التي استقبلتهم مدينة دنيويّة. وكانت السفن تملأ ميناء فيلادلفيا الواقع على نهر ديلاوار وهي تفرغ شحناتها القادمة من الخارج وتنزل طواقمها. وككلّ مدينة في ذلك الوقت، لم تكن جنّة أركاديّة (Arcadian paradise)[1]. «فقد كانت رائحة القمامة الكريهة وفضلات الحيوانات والأوساخ الملقاة ليلا تنبعث من الشوارع والأزقّة». ولا بدّ أنّ مياه الآبار «كانت ملوّثة بشكل خطير». فقبل بضع سنوات من انعقاد المؤتمر، اشتكى أحد الفيلادلفيّين من أنّ «الكلاب الميّتة والقطط والطيور الداجنة وزبالة الأسواق هي من أنظف الأشياء التي يمكن أن نجدها في الشّوارع. كانت الحيوانات الميّتة: الخيول والأبقار، تُترك لتتعفّن في الأماكن المقفرة». والتهمت الخنازير الطليقة بعض الفضلات الملقاة في الشارع. فليس غريبا إذن أن يشرع الجنرال واشنطن في التنزّه على صهوة فرسه كلّ أحد في الريف. وفي يوم الأربعاء 23 مايو تسلّل خفية في نزهة دامت نصف أسبوع مع ماديسون وجون راتليدج وبعض من الآخرين رغم أنّه كان يخرج منفردا في عديد الأوقات.

كان لفيلادلفيا سمعة سيّئة جدّا بسبب الأمراض. فقد ضربت الحمّى الصفراء سنتي 1747 و1762، كما انتشر وباء مدمّر سنة 1793. وقد رفض مندوبان على الأقلّ أحدهما من كونكتكوت والآخر من مريلاند حضور المؤتمر خوفا من العدوى. كتب مندوب كونكتكوت «الذي لم يصب أبدا بداء الجدري» متحدّثا عن نفسه بضمير الغائب: «إنّه اعتلال سيكون شديد التعرّض إليه في المدينة... وهو لا يعتقد أنّه سيكون من الحكمة بالنسبة إليه أن يخاطر بحياته». وبحلول شهر أغسطس وصف إلبريدج جيري المدينة بأنّها «شديدة التعريض للمرض» فيما يخصّ الأطفال «الذين تُوفّي عدد كبير منهم».

وجد بعض الزائرين المدينة ثقيلة ظاهريّا. فقد بنيت على شبكة من الطرقات المستطيلة

(1) هي جنّة خياليّة ترمز إلى العيش الريفي الرغيد والراضي. اشتقّت تسميتها من إحدى المقاطعات اليونانيّة من العصر الكلاسيكي القديم (م).

صمّمها وليام بان حين تأسّست المستعمرة. كتب ألماني مشتكيا: «ليس هناك إلاّ شوارع كلّها متشابهة، أمّا المنازل المبنيّة بالآجرّ فهي بدرجة الارتفاع نفسها تقريبا، وصُمّمت حسب تخطيط قلّما يتغيّر». ورغم ذلك أعجب الزائرون بكثرة حنفيّات المياه العموميّة. ولمكافحة الجريمة أضيئت الطرقات بمصابيح تنار بزيت الحوت، وكانت الفرق الجوّالة تعلن عن الوقت وحالة الطقس.

طُرحت الجريمة وعواقبها في كثير من الأحيان أمام المندوبين، إذ كان سجن ولنات ستريت يقع وراء قصر الحكومة. ودأب نزلاء السجن على مناداة المندوبين المارّين مستعملين «لغة بلّينغزغايت» (Billingsgate language)[1]، مادّين «أعمدة قصب طويلة شُدّت أطرافها بقبّعات من قماش» لاستجداء الصدقات. إنّ مواطنا يرفض دفع الصدقات يطلق العنان «لأقصى اللعنات قذاعة وترويعا» ضده. وفي شهر مارس من سنة 1787 هرب ثمانية عشرة سجينا عبر جدران السجن ومن فوقها، ممّا أذهل السلطات البلديّة. وفي 12 مايو، أي في اليوم الذي سبق وصول الجنرال واشنطن، شنقت فيلادلفيا المدعو روبرت إليوت لقيامة بعمليّة سطو، وذلك قبل أن تصبح القوانين «أقلّ دمويّة». وقد تبيّن أنّ العقوبات الدمويّة نفسها كانت غير كافية لردع الجريمة. ففي آخر يونيو ذكرت صحيفة أنّ «وكر قُطّاعِ طرق» كان يهاجم المواطنين قرب «برود ستريت».

كانت أجراس المدينة أكثر رونقا. وتمتعت كنيسة المسيح (Christ Church) الواقعة في الشارع الثاني بأجراس تدقّ مجموعة كاملة من الدقّات. و«دائما ما يكون في فيلادلفيا شيء تقرع له الأجراس، لدرجة أنّها تبدو كما لو كانت مدينة إمبراطوريّة أو بابويّة». وتعلن أجراس المساء مرّتين في الأسبوع عن يوم السوق في التالي (الذي يقام يومي الأربعاء والسبت). وقد أثار السوق الممتدّ على طول مجمّعَيْ بناء مسقوفَيْن وسط المدينة دهشة الزائرين. فقد كتب فرنسي بعد عودته إلى بلاده: «كان كلّ شيء مسوًّى وفق ترتيب مثالي، متقنا ونظيفا مثل قاعة أكل». فحتّى اللحم الذي يبدو مقرفا في كلّ الأسواق الأخرى، له مظهر جذّاب».

---

(1) هي في الأصل كلام سوقي يُسمع غالبا عند مدخل سوق للأسماك بلندن يحمل هذا الاسم، يتميّز باشتماله على عبارات بذيئة وفاحشة، وقد كان شائعا بين سنتي 1645 و1655 (م).

تضمّنت المعروضات حيوانات الراكونَ والأوبوسوم وثعلب الماء ولحم الدبّ وسيقانه. كما جلبت محافظة الناس على النظام تعاليق إيجابيّة، فقد كتب أحد الضيوف: «يعتقد المرء أنّ هذه السوق هي سوق للأشقّاء».

كانت الحانات والفنادق قلب الحياة الاجتماعيّة في المدينة، وخاصّة بالنسبة إلى زائرين مقيمين لمدّة طويلة، مثل المندوبين. ففي سنة 1774، كان لفيلادلفيا حانة عن كلّ 140 ساكنا. وكانت الحانات الأفضل نوعا تمتلئ في صيف 1787، ممّا أجبر المندوبين على تقاسم الغرف. وصف مندوب عن ديلاوار فندق مسز هاوس بأنّه «مكتظّة جدّا، والغرفة التي أقيم بها الآن صغيرة إلى الحدّ الذي لا يتّسع لسرير ثان». كان بعض الذين يقاسمون النزلاء غرفهم غير مرغوب فيهم بالتأكيد. فقد سجّل مسافر بريطاني أثناء التسعينات من القرن الثامن عشر أنّ غرفته في فندق المدينة، (وهو من أفخر النزل في فيلادلفيا) احتوى على معذّبيه القدامى: «البقّ».

مع ذلك كان من الممكن الحصول على إقامة مريحة حقّا في فندق «إنديان كينغ» وفندق جورج وفندق «بانش أوف جرايبس». كان فندق «إنديان كوين» يتباهى بغرفه الست عشرة المعَدّة للمقيمين، إضافة إلى غرفه الأربع الواقعة في أعلى المبنى. وتحدّث زائر لذلك المكان سنة 1787 عن تلقّيه التحيّة من خادم يرتدي زيّا خاصّا متمثّلا في معطف وصدريّة وقميص. جلب الخادم مجلّتين لندنيّتين، وطلب له حلاّقا، وأتاه بطاس من الماء لإزالة غبار الطريق، وقدّم له الشاي.

والأمر الأشدّ وضوحا هو أنّ الحانات كانت توفّر الشراب. وبالرغم من أنّ تعوّد مندوب مريلاند لوثر مارتن على شرب الخمر بحماس قد جلب له انتباها خاصّا، فإنّ المندوبين لم يكونوا مختلفين عن الأمريكيّين الآخرين في حبّهم للجعة ذات المذاق الحادّ واللون الداكن، ونبيذ مديرا ومشروب الروم بانش وشراب التفاح المشبع بالكحول. كانت أنواع الشراب السائدة في ذلك الوقت تثير الدهشة. فعندما أقامت فرقة مدينة فيلادلفيا مأدبة عشاء على شرف واشنطن في نهاية المؤتمر، استهلك الحاضرون سبع «طاسات كبيرة» من الروم بانش

ومائة قارورة من النبيذ (مقسّمة بين خمر مديرة والخمر الأحمر الخفيف) وما يناهز خمسين قارورة من الجعة ومشروب التفّاح.

بعد أيّام صيفيّة تصبّب خلالها المؤتمرون عرقا كان من الطبيعي أن يجتمعوا في الحانات لإرواء عطشهم. وقد أنفق وليام صموئيل جونسن نائب كونكتكوت أموالا طائلة كمضيف في فندق المدينة. وكانت كثير من المضاربات السياسيّة تحدث في مثل تلك المناسبات. وتعكس مذكّرات واشنطن التي عُثر عليها اثنتي عشرة من تلك المناسبات على الأقلّ، لكن لم يبق أيّ أثر لمحتواها.

توطّدت عرى الصداقة بين أولئك المندوبين الذين كانوا يتقاسمون حانة واحدة للإقامة أو العشاء. كتب مندوب عن ديلاوار: إنّ مجموعة اتّخذت لنفسها «مائدة» في فندق المدينة كلّ ليلة باستثناء السبت. تلقّى قاضي قضاة بنسلفانيا دعوة عشاء ليوم 2 يوليو من «السادة أعضاء المؤتمر في فندق إنديان كوين»، وكان من بينهم جورج مايسون (وابنه جون) وبينكنيٌّ واحد ومندوبان من ماساتشوستس واثنان من نورث كارولينا.

واجه المندوبون صيفا طويلا بعيدا عن عائلاتهم وما تقتضيه من واجبات. فمن بين الثمانية والثلاثين مندوبا الذين كانوا في آن متزوّجين وليسوا من فيلادلفيا، كان أقلّ من عشرة مصحوبين بزوجاتهم. أجهد الفراق المندوبين وقريناتهم. فقد كتبت ابنة صموئيل جونسون: إنّ غياب أبيها قاد أمّها إلى «أفكار سوداوية دمّرت سعادتها وصحّتها». وبسبب شعور المؤتمرين بالتمزّق الناجم عن التزامات أخرى، وصل حوالي النصف منهم بعد بداية المؤتمر أو غادروا قبل نهايته أو انسحبوا في منتصفه.

ولكنّ ثلاثين منهم تمكّنوا من البقاء إلى نهايته كامل الصيف. وقد شهدوا بالفعل كلّ دورة من 25 مايو إلى 17 سبتمبر. كان أكثر من نصفهم من الوفود الثلاثة التي تزعّمت المؤتمر: مندوبو ساوث كارولينا الأربعة كلهم، وسبعة من مندوبي بنسلفانيا الثمانية، وخمسة من الفرجينيّين السبعة. فحتّى خلال القرن الثامن عشر كانت الزعامة تبدأ بإثبات الحضور.

ببلوغ الخامس والعشرين من شهر مايو أصبح النصاب أخيرا قريبا من المتناول. فقد

حضرت سبعة وفود ولائيّة. وبحصول تمثيل لأغلب الولايات ومندوبين فرديّين عن ولايتين أخريين، دعا المؤتمر إلى احترام النظام. ارتفع سقف التوقعات عاليا داخل القاعة وخارجها. فكتبت بنسلفانيا جورنال آند ويكلي أدفرتايزر: «إنّ كلّ شيء قد يكون هامّا بالنسبة إلى كرامة الشخصيّة الوطنية واستقرارها يعتمد على انعقاد هذا المؤتمر العظيم». وكتب هنري نوكس من نيوإنجلند: إنّ المؤتمر هو «الوسيلة الوحيدة لاجتناب أفظع الشرور». فيما لاحظ جورج مايسون بفخر أنّ الثورة «لم تكن شيئا قياسا إلى المهمّة العظيمة التي هي أمامنا الآن». وتنبض رسالة كتبها مايسون إلى ابنه الأكبر حماسا:

إنّ تأثير ما ستقترحه الحكومة الآن على سعادة وشقاء ملايين لم يُولَدْ بعضُهم بعدُ لأمرٌ على درجة من الضخامة لا يمكن استيعابها، وعلى وجه يستعصي على البشر إدراكه.

دفعت آفاق المؤتمر إلى نوع من الشعور بالغبطة التي يمكن تبيّنها من خلال وصف جيفرسون للمندوبين بأنصاف الآلهة. وبعد أكثر من أربعين عاما تواصل ذلك الشعور بالغبطة من خلال وصف توكفيل للمؤتمر بأنّه يحتوي على «أرفع المواهب وأنبل القلوب التي ظهرت في العالم الجديد». لقد التقى أعظم قادة الأمّة لمواجهة المشكلات الأساسيّة، وفي ذات السياق لخلق نموذج حكم ذاتي لكلّ الإنسانيّة. وبالرغم من أنّ عمليّة كتابة الدستور استهدفت في بدايتها حلّ الأزمات والاضطرابات فإنّها كانت أيضا فعل تفاؤل عميق وثقة بالذات.

مع ذلك كان المندوبون المجتمعون في فيلادلفيا بشرا بكلّ ما في جبلّتهم من قوّة وقابليّة للخطأ. فقد كان جورج مايسون، مثلا، أبعد ما يكون عن ذلك الرجل الحالم الذي يُتوهّم أنّه فوق الرجال الذين كتبوا الدستور. وبعد أن انفضّ المؤتمر كانت نظرة زملائه الفرجينيّين إليه صارمة على نحو خاصّ:

قال مايسون: قد تكون عُلِّمت احترام شخصيّات أعضاء المؤتمر الأخير. وقد تكون افترضت أنّهم كانوا كيانا مجمّعا من رجال عظام. ليس ثمّة أمر أقلّ صحّة من ذلك. فالذين قدموا من الولايات الشرقيّة (نيوإنجلند) أوغاد وحمقى. والذين قدموا من الولايات الواقعة

جنوب فرجينيا مجموعة حمقى ومجانين. والذين قدموا من الولايات الوسطى يلهثون وراء المناصب، ولم يكونوا قلّة.

سواء كانوا أنصاف آلهة أو حمقى ومجانين أو شيئا بين بين، فإنّ مستقبل الأمّة كان يقف تماما على كاهلهم.

الفصل الخامس

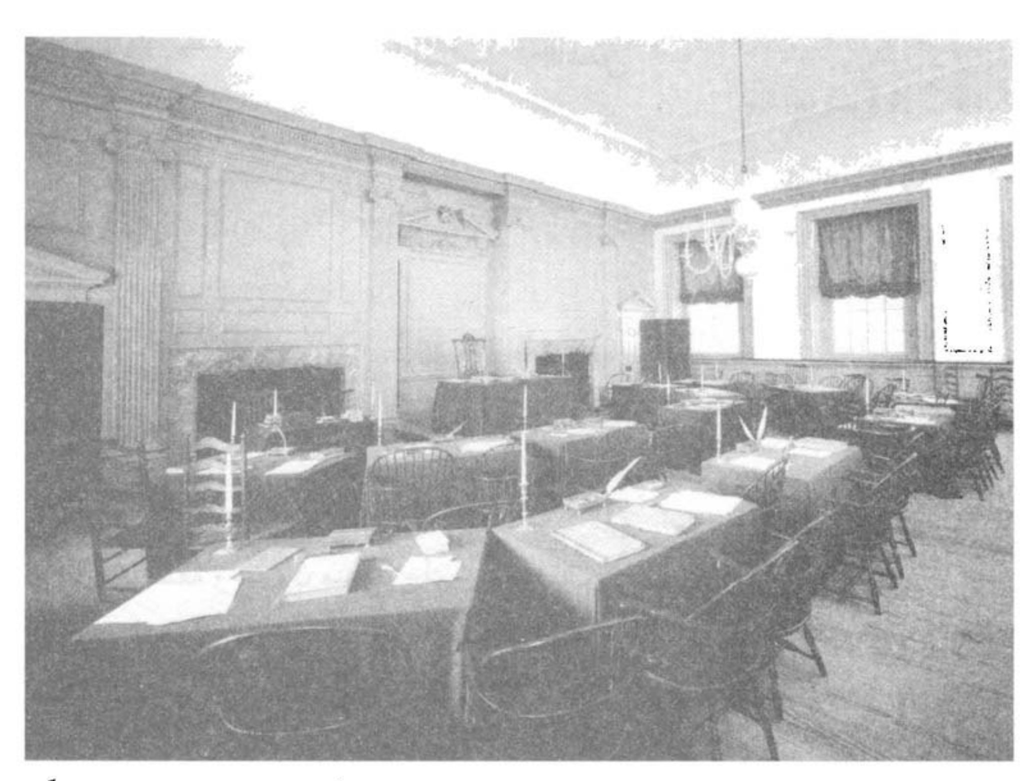
فرجينيا تقود

25 مايو –1 يونيو

تعرّض تسعة وعشرون مندوبا –أي زهاء نصف أولئك الذين سيشاركون خلال فصل الصيف– لهطول مطر متواصل في طريقهم إلى الافتتاح الرسمي للمؤتمر الفدرالي يوم الجمعة صباحا، 25 مايو. في اليوم الأوّل كانت أسبقيّة فرجينيا لا يرقى إليها الشكّ، وقد بدأت حين اختار المؤتمر رئيسه. اقترح روبرت موريس من بنسلفانيا ضيفه واشنطن الذي ليس له نظير. فوافق المؤتمرون بالإجماع. استجاب الجنرال بتواضع «مشتكيا من حاجته إلى مؤهّلات أفضل ملتمسا الصفح من المجلس عن أخطائه العفويّة التي قد يسبّبها انعدام الخبرة لديه».

توافق الرجل والدور الذي أوكل إليه توافقا تامّا. كانت قوّة واشنطن تكمن في حضوره القوي الذي هو شرط أساسي في الرئيس. لكنّ الأفضل من ذلك أنّ هذا الموقع جنّبه مقارعة الحجّة بالحجّة المميّزة للنقاشات بين المندوبين وهو عمل كان دائما يتجنّبه.

كتب ماديسون: إنّه من المهمّ أن تصدر التسمية عن مندوب من بنسلفانيا بما أنّ الدكتور فرانكلن، وهو من تلك الولاية، كان الوحيد الذي يمكنه أن ينافس على هذا الشرف. وبتأييده للمقترح واقتراحه أن يكون ذلك الاختيار بالإجماع قدّم جون راتليدج من ساوث كارولينا مزيدا من الدعم الجنوبي، وبشّر بدوره الريادي الشخصي خلال الصيف القادم.



منظر داخلي لقصر الاستقلال، الطابق السفلي، قاعة الاجتماعات، مشهد مأخوذ من زاوية شمالية غربيّة مطلّة على المكتب الرئاسي، تصوير روبن ميلّر، 2001.

تبع ماديسون الضئيل ذو الشعر المصفوف إلى الأمام بغية إخفاء انحسار شعره الجنرال إلى واجهة القاعة محتلاً مكانا أقلّ بروزا ولكن ذا دلالة مماثلة. ارتدى ماديسون اللباس الأسود الوقور الذي يفضّله، واختار، كما قال: «مقعدا قبالة العضو المترئّس، وباقي الأعضاء على يميني وعلى شمالي». ومن ذلك الموقع الممتاز المواجه للمندوبين والذي لم يحظ به سواه وواشنطن، كان بإمكانه أن يسجّل الملاحظات طيلة الأشهر الأربعة القادمة. وأثناء بحثه في الجمهوريّات الأولى شعر ماديسون بالإحباط لعدم عثوره على أيّ آثار مدوّنة عن «المبادئ والأسباب والممهّدات التي كانت سائدة» عند تشكّلها. فكان مصمّما على القيام بذلك التدوين فيما يخصّ الدستور الأمريكي.

لم يتغيّب يوما عن المؤتمر ولم يغادر القاعة لأكثر من «جزء عرضي من الساعة». وكان ماديسون يشتغل على ملاحظاته كلّ ليلة خلال الصيف الخانق الحرارة. وظلّ بعد المؤتمر بعدّة عقود «ينقّح» ملاحظاته كلّما توفّرت لديه معطيات أخرى، وهو مسار لم يَحُلْ دون إحداث ارتباك غير مريح للمؤرّخين، لاسيما أنّ ماديسون كانت له الكلمة الأخيرة. وحين تُوفِّي سنة 1835، أي قرابة خمسين عاما بعد المؤتمر، كان قد عمّر أكثر من جميع المؤتمرين. فلم يبق أحد على قيد الحياة ليتحدّى روايته للأحداث حين صدرت بعد خمس سنوات.

رغم القلق بشأن مدى اكتمال ملاحظات ماديسون ودقّتها فإنّها تمثّل مصدرا لا يقدَّر بثمن من أجل إعادة بناء النزاعات والتسويات التي أنتجت الدستور. وبوعي تامّ بأنّ ماديسون كان ينشئ سجلاً شخصيّا ورسميّا، كان المندوبون بالطبع يثقون بتحفّظه وعدم تحيّزه وبقدرته على إنجاز عمله بإخلاص. ورغم ذلك فإنّ أربعة منهم (ومن ضمنهم المحنّك فرانكلن) احتاطوا بأن مدّوا ماديسون بنصوص خطاباتهم، مرسلين بملاحظاتهم إلى الأجيال القادمة دون المرور بوساطة الفرجيني.

عدا بعض الأحاديث الفرديّة العرضيّة، توثّق ملاحظات ماديسون التي كان يكتنفها إحساس بالواجب عديدَ الآراء التي كان يعترض عليها بقوّة. وبالرغم من أنّه كان يعتزم بوضوح الحفاظ على نقل غير متحيّز للمداولات فإنّ تقديراته لما ينبغي أن يوثّق وما ينبغي أن يترك تعكس بالضرورة مواقفه الشخصيّة. استمرّ روبرت يايتس المندوب عن نيويورك والمعارض لقيام حكومة قوميّة قويّة في تدوين ملاحظاته الخاصّة إلى أن غادر المؤتمر بعد ستّة أسابيع فقط. وفي روايته يتكلّم المندوبون عن حقوق ولاياتهم بفصاحة أكبر، في حين يبدو أولئك الذين يفضّلون حكومة مركزيّة أكثر تشدّدا. والأمر الأكثر إرباكا أنّ ملاحظات يايتس قد تكون تعرّضت للمراجعة بعد وفاته لغايات سياسيّة. وبالرغم من أنّ تقييدات يايتس توفّر نافذة إضافيّة على المناقشات، كما هو الحال بالنسبة إلى الملاحظات العرضيّة التي كتبها بسرعة مندوبون آخرون، فإنّ جهد ماديسون يقف كإنجاز متقن لعمل كادح وأفضل تدوين لذلك الصيف البالغ الأهمّيّة.

يرقى مكان انعقاد المؤتمر إلى وقار المناسبة. فقد كانت القاعة الشرقيّة ذات السقف العالي والواقعة في قصر الحكومة تمسح أربعين قدما في مثلها. وبمقاييس معاصرة لم يكن القصر عظيما ولكنّه كان يجسّم التاريخ القصير للأمّة. ففي تلك القاعة وقّع المجلس الأمريكي الثاني بيان الاستقلال.

احتوت القاعة ثلاث عشرة مائدة مفروشة بالجوخ الأخضر ومرتّبة على هيئة نصف دائرة مفتوحة. وقد جُهّزت كلّ واحدة منها ببعض المقاعد من نوع وندسور. كانت هذه المقاعد قويّة أكثر منها وثيرة. وكانت تقع في زاوية موجّهة إلى كرسي الرئاسة المرتفع الظهر والمنتصب على مصطبة عالية. كان المندوبون يجلسون بحسب الولايات التي يمثّلونها بناء على توزيعها الجغرافي غالبا: الولايات الشماليّة في جانب، والولايات الوسطى محتشدة في الوسط، والوفود الجنوبيّة في الجانب الآخر. أملت الجغرافيا أيضا ترتيب التصويت، فكانت الولايات تصوّت بحسب ترتيبها من الشمال إلى الجنوب، كما جرت به العادة في الكونغرس.

لم يحدث تمثيل لأكثر من إحدى عشرة ولاية في أيّ مرّة سابقة. فلم ترسل رود آيلند مندوبِين قطّ. ووصل مندوبا نيوهمشاير في أواخر يوليو متأخّرَيْن بشهرين. وفي ذلك الوقت كان يايتس ومحافظ آخر من نيويورك قد غادرا منذ أمد بعيد تارِكَيْن ألكسندر هاملتون مندوبا وحيدا عن نيويورك بلا وفد مصاحب، وهو وضع دفعه إلى ترك فيلادلفيا خلال معظم يوليو وأغسطس.

كان الجلوس حميميّا وقريبا بما يكفي ليتفحّص المندوبون وجوه بعضهم بعضا وإشاراتهم. ولم يكن المتكلّم بحاجة إلى رفع صوته كثيرا حتّى يُسمع عبر القاعة. وبالرغم من أنّ ما قالوه في تلك القاعة كان سرّا محفوظا بإحكام فإنّ جلساتهم كان من الصعب أن تكون أشدّ وضوحا بسبب انعقادها في أوسع قاعة من أبرز مبنى في أكثر مدن البلاد كثافة سكّانيّة. كان بإمكان المارّة أن يلمحوا المؤتمرين من خلال النوافذ العريضة المنتظمة على كلا جانبي القاعة الشماليّة. ولو ألقى المواطنون نظرة على الداخل من الشارع لرأوا أنّ المداولات كانت متّزنة وجدّيّة في آن. فقد انبهر رجل قادم من نيوهامشاير من فخامة القاعة الشرقيّة، عند وصوله

إلى المكان في أواخر يوليو، فعلّق:

تخيّل أنّك العظيم واشنطن بوقاره المميّز قاعدا على كرسيّه. يُدعى الوجهاء إلى الجلوس خلال برهة. وبعد صمت قصير تبدأ أعمال اليوم بجلال عظيم وحسن ترتيب. تمنح أهمّيّة الأعمال وجلال صفات الكثير من أعضاء المؤتمر وفصاحة البعض وتناسق الجميع الأشغالَ نبرة ممتعة إلى أقصى حدّ.

وفي آخر حدث من ذلك اليوم الأوّل حاز فرجيني آخر الشهرة لمّا عُيِّن جورج وايث رئيسا للجنة (المؤلّفة من هاملتون وتشارلز بينكني المكلّفة بإعداد تراتيب المؤتمر. نقل وايث التوصيات في يوم الاثنين التالي، 28 مايو. وبوصول تسعة مندوبين آخر الأسبوع وملئهم مقاعد ولاياتهم تبنّى المؤتمرون بالإجماع الترتيبات التي منحت رئيس المؤتمر سلطة عظمى.

والأمر الأهمّ هو أنّ الترتيبات سايرت تقليد الكونغرس في منح صوت واحد لكلّ وفد ولاية. وقد اعتُبر تصويت كلّ وفد مقرّرا من قبل أغلبيّة أولئك الأعضاء الحاضرين. وسمحت مريلاند وكونكتكوت لمندوب واحد عن كلّ منهما بالقيام بعمليّة الاقتراع. واشترطت نيويورك الحضور على كلّ من مندوبيها الثلاثة، بينما أصرّت الولايات الأخرى على أن يحضر اثنان أو ثلاثة أو أربعة (بالنسبة إلى بنسلفانيا) لتتمكّن الولاية من الاقتراع. وحثّ البنسلفانيّون على التخلّي عن مبدأ الصوت الواحد للولاية الواحدة، ولكن شجب الفرجينيّون «المقترح وأجهضوه» خشية أن «يسبّب مشاحنات مدمّرة بين الولايات الكبرى والولايات الصغرى». وكلّ ما حدث هو تأجيل تلك المشاحنات، لا تجنّبها.

لقد ضخّم مبدأ الصوت الواحد للولاية الواحدة من تأثير الولايات الصغرى، وازداد وقع ذلك حين انقسم مندوبو إحدى الولايات بالتساوي حول قرار، حارمين بذلك تلك الولاية من القيام بالاقتراع، ومنقصين من عدد الولايات التي كانت ستصوّت على القرار. وبغياب نيويورك ونيوهامشاير لفترات مطوّلة، ورفض رود آيلند الحضور أصبحت مصالح الولايات الشماليّة (التي لا توجد فيها العبوديّة) ممثّلة تمثيلا ناقصا. وفي 28 مايو كانت هذه النتائج لا تزال في حكم الغيب. تمّ اقتراح ترتيبين هامّين من القاعدة. حثّ الرائد بتلر على استصدار

ترتيب «يمنع تسريب مداولات المؤتمر بطرق منافية للقواعد المتّبعة»، في حين اقترح مندوب من نورث كارولينا ألاّ يحرم الاقتراع على مسألة ما المندوبين من مراجعتها. وبعد اجتماع لجنة وايث ليلا، قرّرت إدراج كلا المقترحين.

كان الترتيب القاضي بمنع التسريبات بمثابة قانون للصمت: تعتيم تامّ على الأخبار. ومثلما نُقل عن ماديسون، «لا شيء ممّا يقال في المجلس يمكن أن يُطبَع أو يُنشَر أو يُبلَّغ دون إجازة» من المؤتمر. وتفعيلا لهذا الإجراء ظلّت نوافذ القاعة الشرقيّة مغلقة خلال الصيف الخانق الحرارة، ونُصب حرّاس بالخارج على نفقة فرجينيا خشية أن يسترق الناس السمع للمناقشات ويسيئوا فهمها.

كان الانضباط للترتيبات صارما. قليلة هي الصحف التي أشارت في أخبارها إلى المؤتمر ذلك الصيف، وكانت الصحف التي فعلت ذلك تنقصها الدقّة غالبا. فقد كتبت صحيفة «بنسلفانيا باكيت» في 31 مايو: إنّ مندوبا عن كلّ ولاية سينشط ضمن لجنة «تستقبل الرسائل من الأعضاء الآخرين ثمّ ترتّبها وتختصرها وتقدّم آليّة لمناقشة الموضوع كلّه». كان التقرير خاطئا تماما.

إنّ بعض أخطاء الصحف قد تكون ناجمة عن «تلفيق القصص الصحافية» في القرن الثامن عشر. وفي تقرير موسّع لاذع على نحو خاصّ غرّدت الصحيفة فرحا: «تناهى إلى سمعنا أنّ إجماع المؤتمر كان عظيما إلى حدّ أنّه اقتُرح تسمية القاعة التي يجتمعون فيها بقاعة الإجماع». مثل هذا التقرير الخاطئ تماما يحرف كلاماً لأحد المندوبين (كان فرانكلن متّهما رئيسيّا) الذي تمنّى الحفاظ على معنويّات أولئك الذين هم داخل أسوار المجلس وخارجه.

وإذعانا لمبدأ السرّيّة توقّف واشنطن عن تدوين أنشطة المؤتمر في يوميّاته. صفّق مايسون للإجراء باعتباره «احتياطا ضروريّا» بالنظر إلى «الفارق المادّي بين صورة موضوع في هيئتها الأولى قبل أن تتعرّض للتشذيب، وصورته بعد أن يكون قد أنضِج ورتّب بشكل مناسب». لقد أتاحت السرّيّة للمندوبين من غير ريب أن يتكلّموا بصراحة أكبر ممّا كانوا سيفعلونه في وضع آخر.

نَصَّ الترتيب الإضافي الثاني على أنّ بمقدور المندوبين أن يطلبوا مراجعة كلّ قرار يتّخذه المؤتمر. وخلال الأشهر القادمة سيستعمل المندوبون هذا الإجراء بوتيرة تثير الإزعاج. لم يتمّ البتة حسم المسائل الصعبة في عمليّة نقاش وتصويت واحدة. كانوا يعودون إلى المناقشة المرّة تلو الأخرى حتّى بعد يبدو أنهم قد حسموا أمرهم. وكانت تُقدَّم بدائل للمقترحات الأوّليّة تُحشد فيها الحجج الجديدة والقديمة. وفي غالب الأحيان تظلّ الحصيلة الأولى قائمة، غير أنّ التحالفات تتغيّر وبنية الدستور تتبدّل بين الفينة والأخرى. وقد وسمت هذه الممارسة المؤتمر بخاصّيّة التكرار والدوران في حلقة مفرغة، لكن إذا نظرنا إليها في صلتها بمبدأ السرّيّة وجدناها تسمح للمندوبين بمراجعة آرائهم في إطار تشاوري أوسع وبتفكير أعمق، وهذا في آن واحد ترف ثمين ونادر التوفّر للموظّفين العموميّين، وذلك حتّى في ضوء الإيقاع الأكثر بطئاً للقرن الثامن عشر.

وبتحديد القواعد العامة، دخل فرجيني رابع دائرة الأضواء. فقد ساند إدموند راندولف، وهو رجل فارع القامة قوي البنية، مقترحات فرجينيا الحاليّة المطالِبة بدستور جديد والتي كانت ثمرة تلك الجلسات الصباحيّة في فندق مسز هاوس. ورغم افتقاره إلى منزلة واشنطن ومعرفة ماديسون، كان راندولف على رأس وفد الولاية، وكان خطيبا مقتدرا. وسيوفّر له المؤتمر مجالا واسعا لإظهار مواهبه. وبنهاية الصيف وقف المؤتمر على نقطة ضعفه الرئيسة، ألا وهي تردّده المشِلّ.

عرض راندولف الموجز الذي عُرف لاحقا بخطّة فرجينيا، ولكن فُهم -آنذاك والآن- أنّ مؤلّفها كان ماديسون. توقّع المندوبون مقترحا أوّليّا من فرجينيا يكون مستلهما من دساتير الولايات الثلاث عشرة المدوَّنة منذ 1776 (من قبل رجال كانوا آنذاك جالسين في القاعة الشرقيّة). ورغم توقّع المندوبين من الخطّة أن تحتوي على تصوّر أوّلي لحكومة أقوى فوجئ الكثيرون منهم بإلقائها كلّيّة بالكنفدرالية جانبا.

بدأ حاكم فرجينيا بتفحّص مصائب الاتّحاد. فبعد أن لاحظ التمرّد في ماساتشوستس حذّر من «الفوضى الناجمة عن تهاون الحكومة»، وأدان «بلاهة الكنفدرالية»، كما حذّر من

أنّ أكبر خطر على أمريكا هو ديمقراطيّة مفرطة. ولاحظ أنّ أيّا من دساتير الولايات «لم يوفّر ضمانات كافية ضدّ هذه الديمقراطيّة».

عرض راندولف الخطّة في شكل مسوّدة من خمسة عشر قرارا يمكن للمندوبين أن يناقشوها ويصوّتوا عليها. وقد أوجزت القرارات الخمسة عشر المبادئ الأساسيّة التي ينبغي أن تتحوّل فيما بعد إلى دستور حقيقي. فاقترحت خطّة فرجينيا المصمَّمة على شاكلة حكومات الولايات هيئةً تشريعيّة من غرفتين مع إضافة كانت محلّ انتقاد لجهازين تنفيذي وقضائي. وستكون للحكومة الوطنيّة سلطة أعلى من سلطة الولايات والقدرة على نقض قوانينها. وسيكون للجمعيّات العموميّة التي اختارها الشعب بشكل مباشر حقّ المصادقة على الدستور.

لم يكن للحكومة التي رسمت القراراتُ الخمسةَ عشرَ إطارَها العامَّ نظامٌ محكَمٌ من الزواجر والضوابط التي انبثقت مع نهاية المؤتمر. دعت خطّة فرجينيا إلى أن تنبع السلطة كلّها من هيئة تشريعيّة واحدة، وأن ينتخب الناس «الفرع الأوّل» من الهيئة التشريعيّة، وهو الفرع الذي سيُخضع الحكومة كلّها لمراقبته. ويختار ذلك «الفرع الأوّل» (وهو مجلس النوّاب المستقبلي) «الفرع الثاني» من الهيئة التشريعيّة (مجلس الشيوخ المستقبلي). وستختار تانك الغرفتان مجتمعتَيْنِ الرئيسَ وتعيّنان كلّ القضاة. وسيساند ماديسون بحماس الصيغة النهائيّة للدستور، وقد كانت مختلفة تمام الاختلاف عن خطّة فرجينيا.

فشلت مقرّرات خطّة فرجينيا أيضا في معالجة مسائل مهمّة. فلم تعمل المقرّرات على الحدّ من سلطة الحكومة (مثل فرض الضرائب) ولم تعترف بسيادة الولايات.

ولمّا فرغ راندولف، أُحيلت الخطّة إلى «لجنة عن عموم المجلس» كانت عبارة عن هيئة برلمانيّة مستقبليّة اتُّفِق عليها مسبقا. وأثناء انعقادها باعتبارها لجنة عن العموم كان بإمكان الأعضاء أنفسهم أن يجتمعوا في الغرفة الشرقيّة ويناقشوا خطّة فرجينيا، غير أنّهم لم يكونوا قادرين على اتّخاذ أيّ إجراءات نهائيّة. لم تستطع لجنة العموم إلا أن ترسل بتوصيات إلى المؤتمر. وعند ذلك الحدّ بالذات سيعيد المندوبون أنفسهم تشكيل أنفسهم في هيئة مؤتمر

لدراسة التوصيات التي كانوا هم أنفسهم أعدّوها. وقد صُمّم الشكل الدائري الذي ظلّ قائما خلال الأسبوعين المقبلين لتشجيع النقاش المفتوح.

وقف تتشارلز بينكني من ساوث كارولينا لوصف خطّته من أجل ميثاق حكومي. وعندما بدأ حديثه، وضع مدوّنو الملاحظات في القاعة أقلامهم المكّوكيّة حتّى لا يقع تسجيل ملاحظاته. وعلاوة على ذلك كانت روايته للخطّة التي تمّ إصدارها لاحقا من طرف بينكني مشكوكا فيها في أحسن الأحوال. وبالرغم من أنّ المقترح الكاروليني الجنوبي أحيل هو أيضا إلى لجنة العموم فإنّ أحدا لم ينبس بكلمة إضافيّة عنه حتّى بدايات أغسطس، لمّا قامت لجنة التفصيل (برئاسة راتليدج من ساوث كارولينا) باستعماله.

عاد واحد وأربعون مندوبا إلى خطّة فرجينيا في 30 مايو. وقد تدعّم تحوّلهم إلى لجنة العموم بعد أن أُقِرّ ناثانيل غورهام من ماساتشوستس في كرسي الرئاسة. وبالرغم من اتّخاذ واشنطن مقعدا له حول مائدة فرجينيا منحدرا مؤقّتا إلى مستوى مجرّد مندوب، فإنّ الجنرال حافظ على منزلته الاعتياديّة متعاليا على الشجار وقاطعا الطريق على الملاحظات الآتية من القاعدة.

مثّل اختيار غورهام، ذلك التاجر العبقري الذي شغل أخيرا منصب رئيس الكونغرس الكنفدرالي، اعترافا بأهمّيّة ماساتشوستس، ووفّر ثقلا موازيا جغرافيّا للفرجينيّين ذوي الحضور البارز. ومع ذلك كان غورهام بديلا باهتا لواشنطن. قبل ذلك بستّة أشهر كان بالغ القلق بسبب تمرّد شايز، إلى حدّ أنّه كتب إلى هنري أمير بروسيا وأخي فريدريك العظيم سائلا إن كان «بالإمكان أن يُلتمَس من الأمير أن يمارس علينا سلطة ملكيّة في ضوء فشل مؤسّساتنا الحرّة». ردّ الألماني عرض غورهام ملاحظا أنّ الأمريكيّين يبدون غير متحمّسين للملوك، وهو أمر غفل عنه غورهام.

كان المندوبون بطيئين في تناول القضايا في ذلك الصباح. فحين قرئت القرارات الثلاثة الأولى من خطّة فرجينيا كانت القاعة ساكنة سكون القبور. مرّت ثوان، فدقيقة، فأزيد من ذلك. وبعد أن طال الزمن بصورة غير مريحة قال جورج وايث بمكر إنّه «يستنتج من صمت

القاعة» أنّ المندوبين كانوا جاهزين للاقتراع، فشرعوا في تجريب أصواتهم.

كان من مواضيع نقاشهم المبكّرة الحقيقة الغريبة المتمثّلة في أنّ خطّة فرجينيا بدأت بأكذوبة. فقد صرّح أوّل قراراتها بأنّ موادّ الكنفدرالية يجب أن «تعدَّل وتوسَّع». لكنّ خطّة فرجينيا لم تعدّلها ولم توسّعها، وإنّما استبدلتها كلّيّة.

لم يُضلّل بهذا الشأن أيّ مندوب، بمن فيهم بالتأكيد موريس حاكم بنسلفانيا الذي وصف القرار الأوّل بـ«غير الضروري»، بما أنّ القرارات التالية لن تكون متّفقة معه». واقترح راندولف على عجل أن يمرّ المندوبون إلى القرارات الثلاثة التالية، لكنّ الكاروليّنيّين الجنوبيّين قاطعوه. فسأل تتشارلز بينكني بوضوح إن كان راندولف «قد قصد إلغاء حكومات الولايات جملة». وسأل ابن عمّه الأكبر –وانضمّ إليه ألبريدج جيري من ماساتشوستس– إن كانت هيئات الولاية التشريعيّة قد منحت الوفود تفويضا بفعل أيّ شيء آخر غير تعديل البنود.

لمّا عاد المندوبون إلى قرار راندولف المتعلّق بالهيئة التشريعيّة برزت القضيّة نفسها بثوب جديد. فقد اقترح ذلك القرار إلغاء نظام ولاية واحدة – صوت واحد، لكنّ هيئة ديلاوار التشريعيّة كانت قد حظرت على مندوبيها الموافقة على مثل هذا التغيير. فطالب رجال ديلاوار برفع الجلسة لتحديد ما إذا كان لهم حتّى الحقّ في حضور مثل هذه المناقشات. وعندما استردّوا مقاعدهم في اليوم التالي لم يعطوا أيّ توضيح بشأن لغزهم، بالرغم من أنّهم لا بدّ أن يكونوا قد توصّلوا إلى أنّه يحقّ لهم على الأقلّ مناقشة خطّة فرجينيا.

بقيت هذا المسألة الأساسيّة عالقة حتّى وإن توارت موقّتا عن الأنظار. هل كان المؤتمر يقوم بمجرّد تعديل للموادّ؟ أم كان بصدد إنشاء حكومة جديدة أقوى؟ امتزج الجواب بحيرة المندوبين حول كيفيّة الجمع بين خصوصيّة الولايات والحكومة المركزيّة القويّة التي ترغب خطّة فرجينيا في إنشائها. هل ينبغي إلغاء الولايات؟ ما الطريقة المثلى للتوفيق بين ممارستين سياديّتين للسلطة في بلد واحد ووقت واحد؟ لن تكون الإجابة عن هذه الأسئلة ممكنة حتّى بدايات أغسطس، لمّا توصّل جون راتليدج وجيمس ويلسون إلى معادلة خلاّقة تجيب عن هذا التحدّي الجديد. بعد يومين، في 1 يونيو، انعقدت ألسنة المندوبين مجدّدا. أشار ماديسون

بأخذ «راحة مطوّلة» أثناء النقاش، ممّا دفع راتليدج من ساوث كارولينا إلى التعليق معترضا «على حياء السادة المندوبين». واشتكى مندوب عن ديلاوار من «الصمت العامّ». وحتّى الصحافة علمت بالمشكلة (لمرّة واحدة على الأقلّ تحصّلت على المعلومة بشكل صحيح). نقلت صحيفة بنسلفانيا هيرالد في 2 يونيو أنّ «مثل هذا الحذر والسرّيّة يميّزان مداولات المؤتمر الفيدرالي إلى حدّ أنّ الأعضاء وجدوا صعوبة في اكتساب عادة التواصل حتّى فيما بينهم». وبتقدّم الصيف وازدياد القاعة الشرقيّة ألفة لديهم تحوّل حياؤهم إلى طلاقة في اللسان ممّا جعل جون راتليدج يزداد أسفا.

وفي أثناء دراستهم لقرارات خطّة فرجينيا اقترب المندوبون بثبات من فقرتين ستفجّران نزاعاتهم العاصفة. اقترح الفرجينيّون أوّلا استبدال نظام ولاية واحدة – صوت واحد الذي أقرّته البنود بالتصويت الفردي للممثّلين في الكونغرس. استاءت الولايات الأكثف سكّانا (فرجينيا – بنسلفانيا – ماساتشوستس) لزمن طويل من مبدأ التصويت على أساس صوت واحد – ولاية واحدة، شاعرة بأنّها مثل جاليفر الفاقد الحيلة وقد قيّده الليليبيتيون الأقزام المعتدّون بأنفسهم.

ستقلّص خطّة فرجينيا أيضا سلطة الولايات نفسها بجعل الناس ينتخبون مجلس النوّاب وبسماحها لذلك الكيان باختيار مجلس الشيوخ. كانت مجالس الولايات مكرهة على فقدان سلطة اختيار ممثّليها في الكونغرس. وكان من شأن اقتراح نقل السلطة إلى الولايات الكبرى ومن ثمّ إبعادها عن كلّ الولايات أن يفجّر المؤتمر.

ثانيا، وبالرغم من أنّ خطّة فرجينيا لم تشر بكلمة إلى العبوديّة، كانت تكفي جزئيّة واحدة لإشعال حريق هائل حول تلك القضيّة التي تعدّ الأكثر التهابا. وسيتعلّق النزاع بمسألة مركزيّة لدى أيّ حكومة ممثّلة: من الذي سيقع تمثيله؟ وفّرت خطّة فرجينيا خيارين اثنين: حدّدت مقاربةٌ أولى عدد الممثّلين «بحسب الحصّة التي تسهم بها» الولاية، أي أنّ عدد الممثّلين سيعتمد على حجم ثروة الولاية التي يعكسها مقدار الضرائب التي تدفعها. وسيشمل هذا الحساب قيمة العبيد في الولاية باعتبارهم ملكيّة خاضعة للضريبة. بناء على ذلك ستمنح حصص

المساهمة تمثيلا للولايات الجنوبيّة مستندا إلى قيمة العبيد فيها. لكنّ الكثيرين تساءلوا عن كيفيّة احتساب «حصص المساهمة» في عصر لا توجد فيه جباية واسعة النطاق أو معلومات إحصائيّة يوثق بها. وإجمالا تمّ التخلّي عن هذا الخيار باعتباره غير واقعي.

سيساند خيار راندولف الأكثر قابليّة للتحقيق ممثّلين على أساس «عدد المتساكنين الأحرار» في ولاية ما. إنّ تلك الجملة البسيطة التي اقترحها سبعة من مالكي العبيد في فرجينيا ستُقصي العبيد من الاعتبار في تحديد عدد الممثّلين. وقد أدرك للتوّ مندوبون عن مريلاند وجورجيا وما بينهما من ولايات أنّ الاقتصار على احتساب المتساكنين الأحرار سيكون بالغ الإجحاف بولاياتهم التي لم يكن أربعون بالمائة من سكّانها في الحقيقة أحرارا.

سينقل مشكل التمثيل مسألة العبوديّة إلى مركز القاعة الشرقيّة التي انجرّت إلى حشد من الأسئلة الشائكة. كيف ينبغي احتساب العبيد بالضبط؟ هل هم من البشر أم من الأملاك؟ أيّ نصيب لهم في الحكومة؟ وأيّ نصيب للحكومة فيهم؟ كيف السبيل إلى التوفيق بين مبادئ التمثيل الديمقراطي والعبوديّة؟

مع ذلك ظلّت هذه الأسئلة المتفجّرة طيلة بضعة أيّام نائمة. وستشغل مسائل أخرى الأيّام الأولى من المؤتمر. وبالرغم من ذلك فقد أُشعِل فتيلان، فيما كانت موادّ سريعة الالتهاب في متناول اليد.

الفصل السادس

صفقة ويلسون

31 مايو – 10 يونيو

كان يوم الاثنين 11 يونيو أوّل يوم حارّ فعلا في الصيف. كانت الحرارة الكثيفة ضاغطة حين غادر جيمس ويلسون بيته في ماركت ستريت لحضور الجلسة الصباحيّة للمؤتمر. في بعض الأيّام كانت أمريكا لا تزال تبدو لويلسون كعالم جديد مثير. وبالرغم من أنّ هذا الحرّ الشديد كان بعيدا كلّ البعد عن الأجواء المنعشة التي عرفها في اسكوتلندا، فإنّه لم ينشغل بالتفكير طويلا في الحرارة وهو يقطع مسافةَ مُجَمَّعَيْ بناء في طريقه إلى مبنى الولاية.

كان ويلسون يهزّ رأسه بشرود لأجواره ومعارفه، ولا يكترث للحيوانات الطليقة في الشوارع. فكّر مرّة أخرى في خطّته، وكان قد أعدّها بإحكام خلال عطلة المؤتمر، يوم الأحد، وهو اليوم السابق. كانت خطّة جريئة ستفاجئ عديد المندوبين. لم يكن ويلسون ليحصل على جائزة أعظم، وكان هدفه أن يؤسّس الحكومة الجديدة على أساس ديمقراطي.

لم يكن الخطر يكمن إلا في معرفة من سيملك السلطة في أمريكا. سيخطّ الكونغرس الجديد قوانين الدولة، ومن يتحكّم في الكونغرس سيتحكّم في الدولة. كان ويلسون يؤمن بحماس بأنّ الحكومة الجديدة لا بدّ أن تكون مؤسّسة على الشعب. وقال للمؤتمر في آخر يوم من مايو مستعملا مجاز البناء المفضّل لدى عديد المؤتمرين: إنّه يريد «إقامة هرم فيدرالي شامخ»، وهو ما عنى أنّه يجب أن تتوفّر له «أوسع قاعدة ممكنة».



جيمس ويلسون (بنسلفانيا)

أراد ويلسون أن يكون كلّ الأمريكيّين ممثّلين في الكونغرس بالتساوي. ولتحقيق ذلك الهدف كان عليه أن يتخطّى التقليد القصير ولكن العنيد الذي يعطي كلّ ولاية القوّة الانتخابيّة نفسها في الكونغرس، وهو تقليد منح الولايات الصغيرة نفوذا مبالغا فيه. فبالرغم من أنّ ولايات صغيرة، مثل ديلاوار، لا تمثّل إلاّ جزءا يسيرا من حجم ولايات كبرى، كفرجينيا وبنسلفانيا، فإنّها كانت تملك العدد نفسه من الأصوات في الكونغرس. وبدافع الغيرة على ذلك النفوذ، وقفت الولايات الصغرى بشراسة ضدّ أيّ تغيير في ذلك التقليد.

في نظر جيمس ويلسون، لم يكن للنمط التقليدي من الانتخاب أيّ معنى، فهو ينتهك المبادئ الديمقراطيّة بإعطاء وزن زائد لأصوات الولايات الصغرى فيما يقلّص من تأثير ولايته هو: بنسلفانيا. وللتغلّب على الولايات الصغرى، عقد ويلسون تحالفا غير متوقّع –سمّاه بعضهم لاحقا تحالفا غير مقدّس– بين الديموقراطيّة والعبوديّة.

لو سارت الأمور سيرا صحيحا يوم 11 يونيو، لَغَيَّرَت خطّة ويلسون مسار المؤتمر.

بعد أسبوعين من الانعقاد، أصبحت العادات اليوميّة للمندوبين مألوفة. كان اليوم يبدأ، كما وصفه زائر فرنسي، «مثل أيّ يوم آخر في أمريكا، بفطور كبير». وكان المؤتمر يلتئم من العاشرة إلى الثالثة. ولفترة قصيرة خلال شهر أغسطس، أحرج المُكِدّ جون راتليدج زملاءه بدفعهم إلى العمل ساعة إضافيّة بعد الظهر، لكن لم تمض إلا أيّام قليلة حتى حدث تمرّد أعاد الجدولَ القديم إلى نصابه. إثر وجبتهم اليوميّة الثابتة (العشاء)، كان المندوبون يأخذون عيّنة عن الأنشطة الترفيهيّة التي توفّرها فيلادلفيا في المساء، أو يخطّطون ويعدّون لجلسة اليوم التالي. وكان وقت النوم يتبع عشاء متأخّرا.

كان المندوبون يقطنون في أماكن متقاربة وهم يتداولون لستّ وثلاثين ساعة كلّ أسبوع، يأكلون وينامون في الحانات نفسها، ويحضرون غالبا العروض والحفلات عينها. خلال ذلك الصيف، كان المندوبون «يمشون معا ويتحدّثون معا ويذهبون إلى غرف بعضهم بعضا». بالتأكيد، «كان للمزاملة الشديدةِ القُرْبِ سلبيّاتها، فقد كان المؤتمرون يزعجون بعضهم بعضا أحيانا».

تلاشى التحمّس لكتابة دستور بسرعة. فكان المتكلّمون يتحاشون الخوض في جوهر المسألة، ويكرّرون بعضهم ويتيهون في مسائل لا صلة لها بالموضوع. وببلوغ يوم 8 يونيو، كان بيرس بتلر مندوب كاليفورنيا يعبث بقلمه أثناء النقاش، ويرسم صورا كاريكاتوريّة جانبيّة منفصلة لتسعة مندوبين، ويمارس بكسل تمارين في رسم الخطّ.

بالرغم من أنّ المندوبين تناولوا عديد المواضيع خلال تلك الأيّام الأولى، فإن أكبر مشكلة واجهوهة كانت كيفيّة تحديد الممثّلين في الكونغرس: هل تنتخب كلّ ولاية العدد نفسه من المشرّعين بالضبط؟ أم يتمّ تحديد الممثّلين حسب عدد السكّان؟ سوف تلاحق هذه الأسئلة المندوبين خمسة أيّام أخرى. ولم تكن مسألة أخرى لتسيطر على المؤتمر بهذا القدر.

استعدّت الولايات الثلاث الكبرى (ماساتشوستس وفرجينيا وبنسلفانيا) لمواجهة الولايات الأخرى التي كانت كلّها تعتبر نفسها صغيرة على سبيل المقارنة. وتحت سلطة البنود، تحمّلت

الولايات الكبرى مبدأ الصوت الواحد للولاية الواحدة في انتخابات الكونغرس، لكنّ ذلك كان في خضمّ حرب يائسة مع البريطانيّين.



خربشات بقلم بيرس بتلر (ساوث كارولينا)
من وثائق بيرس بتلر في مكتبة الكونغرس
8 يونيو 1787

على أيّة حال، لم يكن التنازل ذا شأن كبير لأنّ ذلك الكونغرس كان ضعيف جدّا. سوف يكون لهذه الحكومة سلطات معتبرة. وكانت الولايات الكبرى مصمّمة على تأمين نصيبها العادل من تلك السلطات.

في أوّل يوم من النقاش الحقيقي، أي يوم 30 مايو، اشتكى مندوبو ديلاوار من أنّ خطّة فرجينيا ستتخلّص من نظام الصوت الواحد للولاية الواحدة، وهي خطوة كانت تشريعاتهم تحظر عليهم قبولها على وجه الخصوص. وقد ذكر رجل من ديلاوار أنّه إذا تمّ تبنّي ذلك التغيير «فقد يكون من واجبهم الانسحاب من المؤتمر». كان ذلك أوّل تهديد بمغادرة المؤتمر، أي بعد خمسة أيّام فقط من بداية المداولات. كان ذلك أوّل القَطْر.

عوض خوض المعركة في 30 مايو، فضّل رجال ديلاوار وقف إطلاق النار. وبدلا من ذلك، عقدوا تحالفات وحبكوا استراتيجيّة.

واجه مندوبو الولايات الصغرى مهمّة صعبة. كانت بنسلفانيا وفرجينيا أكثر ثراء وكثافة سكّانيّة، وبطبيعة الحال كان مطلبهما في التمثيل النسبي ينبع من مبادئ الثورة. إضافة إلى ذلك، كانت الولايتان قد أرسلتا إلى فيلادلفيا قادتهما العظام. لم يكن للولايات الصغرى أمثال ماديسون ولا ويلسون، ناهيك عن رجال مثل فرانكلن أو واشنطن.

كان قادة الولايات الصغرى، مثل جون ديكنسن عن ديلاوار وروجر شيرمان عن كونكتكوت أميل إلى الصمت. فبعد أن تزعّم ديكنسون المستوطنين في معاركهم السياسيّة ضدّ بريطانيا قبل الثورة، توقّفت مسيرة حياته العامّة حين رفض التوقيع على بيان الاستقلال. كان في الخامسة والخمسين من عمره، وكان مريضا خلال فترات طويلة من المؤتمر. وكان شيرمان، وهو ثاني أكبر المندوبين سنّا ببلوغه السابعة والستين، سياسيّا داهية من الصفّ الأوّل، وسيُدْرَك تأثيره خلال الصيف. وقد وصل متأخّرا إلى فيلادلفيا، ولم يندفع فورا إلى النقاشات الحادّة، مفضّلا رؤية أسباب النزاع تتّضح.

كان على الشخصيّات الأقلّ شهرة أن تتقدّم لحمل راية الولايات الصغرى. وقد استعاض هؤلاء عن النقص في الشهرة والموهبة بالتصلّب في المواقف.

مزجت خطّة فرجينيا بين مسألتي الديمقراطيّة والعبوديّة باقتراحها أن يكون التمثيل في الكونغرس مستندا إلى عدد «المتساكنين الأحرار». وفي اليوم الأخير من مايو، قدّم المندوبون اقتراحا بتعويض «متساكنون أحرار» بدعوة غامضة إلى انتخاب الكونغرس

«من قبل الشعب».

اعترض مندوبان من نيوإنجلند على المقترح خائنين بذلك تأثير انتفاضة شايز التي لم تمض سوى أشهر قليلة على اندلاعها. وقد حذّر التاجر الثري ألبردج جيري عن ماساتشوستس، وهو عضو في «أرستقراطيّة سمك القُدّ» شمال بوسطن، من الإفراط في الديمقراطيّة. وبالرغم من أنّ مندوب كونكتكوت، شيرمان، كان هو نفسه ذا أصول متواضعة فقد حثّ على وجوب «أن يكون تدخّل الشعب في الشأن الحكومي ضعيفا قدر الإمكان» بما أنّ الشعب «يريد معلومات، وهو معرّض على الدوام للمغالطة».

عكس جورج مايسون الهجوم مطالبا المندوبين «بأن يولوا أهمّيّة لحقوق كلّ طبقة من طبقات الشعب». وأصرّ بفجاجته المعهودة على أنّه «كثيرا ما كان يتعجّب من لامبالاة الطبقات العليا بهذا الواجب الإنساني الملزم». وبعد أيّام قال محاججا: «حتّى أمراض الناس ينبغي أن تمثَّل، وإلاّ كيف سيتمّ شفاؤها؟».

أُجيز انتخاب مجلس النوّاب «من قبل الشعب» بنتيجة تصويت 6 – 2، مع انقسام وفدَيْ ولايتين بالتساوي وغياب ولاية. وقد جاءت الأصوات الوحيدة المعارضة من أرستقراطيّي ساوث كارولينا ومن المتحمّسين لحقوق الولايات من نيوجيرسي.

إثر ذلك تناقش المؤتمرون في كيفيّة انتقاء أعضاء الغرفة التشريعيّة الثانية (مجلس الشيوخ المستقبلي) التي ستكون جائزةَ المعركة الطويلة من أجل التمثيل الشعبي. لقد صيغت هذه الغرفة الثانية على منوال مجلس اللوردات البريطاني والغرفة العليا لهيئة مريلاند التشريعيّة، وكانت الغاية من بعثها ضمان استقرار الحكومة في مواجهة الأهواء المتقلّبة للجمهور. وبعد أن لاحظ راندولف أنّ المؤتمر استجابة لـ«فوضى الديمقراطيّة وحماقاتها»، أوضح أنّ «مجلس شيوخ جيّد» سيكبح تلك «النزعة».

سمحت خطّة فرجينيا لمجلس النوّاب بانتقاء مجلس الشيوخ. ولكن رأى أعضاء آخرون أنّ الهيئات التشريعيّة للولايات هي التي عليها أن تختار أعضاء مجلس الشيوخ، ممّا يمكّن الولايات من الحفاظ على سلطاتها. ودعا ويلسون إلى انتخابهم مباشرة من الشعب. وعندما

لم يتمكّن المندوبون من التوصّل إلى اتّفاق تجاهلوا المسألة تاركين وراءهم ما أسماه ماديسون بغضب: «شرخا... في هذا الجزء من الخطّة». وسيعود المندوبون إلى ذلك الشرخ مرارا عديدة، ويتصارعون على حافته صراعا خطيرا.

أمضى المؤتمرون بضعة أيّام في دراسة الأجزاء الأخرى من الخطّة، وشمل عملهم التفكير في كيفيّة إعطاء الهيئة التنفيذيّة الطاقة والقوّة ولكن من دون إفراط. وفي 6 يونيو، بينما كان المطر ينزل في الخارج بلطف، عاد المندوبون إلى نقطة البدء: مجلس الشيوخ وشرخ ماديسون.

اقترح الجنرال بينكني أن تنتخب الهيئات التشريعيّة كلاّ من غرفتي الكونغرس. فانضمّ ماديسون إلى المعارضين لهذه الخطوة مساندا فكرة التمثيل الشعبي. ولتوضيح موقفه انتقى الفرجيني مالكُ العبيد مثالا لافتا على فشل الحكومة: «لقد رأينا كيف جُعل الفارق البسيط في اللون وفي أكثر الحقب تنويرا أرضيّة لأشدّ أنواع التسلّط القمعي الذي مارسه بشر على بشر».

فشل اقتراح الجنرال بينكني، ولكنّه حقّق نصف هدفه في اليوم التالي، 7 يونيو، حين اقترح جون ديكنسون أن تختار الهيئات التشريعيّة أعضاء مجلس الشيوخ. وقد تمّ تبنّي الاقتراح بالإجماع.

قدّم ديكنسون استعارة قويّة حين «شبّه النظام الوطني المقترح بالنظام الشمسي الذي تقوم فيه الولايات مقام الكواكب، وهي كواكب يجدر تركها تتحرّك بحرّيّة في مداراتها الخاصّة». وفي اليوم التالي حاول ماديسون أن يتبنّى تلك الصورة في دفاعه عن مقترحه الهامّ لكي يمكّن الكونغرس من نقض قوانين الولايات. وحذّر الفرجيني من أنّه بدون ذلك الفيتو «ستواصل الولايات تحليقها خارج مداراتها الخاصّة، وستدمّر نظام الحكم السياسي وتناسقه».

استُقبِلت رسالة ماديسون بارتياب. فقد رأى مندوب ديلاوار أنّ «نظام ماديسون وتناسقه» سيُترجمان إلى اضطهاد للولايات الصغرى. ثمّ سأل: «أولن تسحق الولايات الكبرى نظيرتها الصغرى كلّما وقفت في طريق طموحاتها أو طريق الرؤى التي تهمّها»؟

حين عاد المندوبون في اليوم التالي، 9 يونيو، انفجر النزاع الذي كان كامنا مدّة طويلة. بدأت الولايات الصغرى المعركة يقودها مندوبو نيوجيرسي. فأصرّت على أن تنال كلّ ولاية قوّة التصويت نفسها في الكونغرس، تماما كما تقرّر بمقتضى البنود وحصل في الكونغرس. وقد «ذهلت» الولايات الصغرى و«انزعجت» لأنّ خطّة فرجينيا تؤسّس قوّة الولاية الانتخابيّة على أساس عدد سكّانها. كان ذلك أمرا فوق طاقة الفكر، فقد كانت كلّ ولاية ذاتُ سيادة متساويةً مع كلّ ولاية أخرى. لقد عكس النزاع بالأساس رؤى مختلفة للوطن. فهل سيكون خليطا من الولايات المستقلّة؟ أم دولة واحدة؟ كان على المندوبين أن يختاروا.

في 9 يونيو قاد وليام بيترسون المدّعي العامّ لنيوجيرسي هجوم الولايات الصغرى. قال بأسلوب حادّ، وكان عدوانيّا أكثر منه مُعْمِلا للفكر: إنّ الطريقة العادلة الوحيدة لاتّباع رؤية خطّة فرجينيا هي نحت دولة من ثلاث عشرة ولاية تكون لها المساحة ذاتها بالضبط. وتعبيرا عن تمسّكه بمبدأ سيادة الولاية، أصرّ على أنّ إسناد قوّة تصويت أكبر إلى الولايات الكبرى سيكون مثل إعطاء «مواطنين أفرادٍ أثرياء» أصواتا إضافيّة على حساب المعوزين. وأعلن رجل نيوجيرسي بشراسة أنّ ولايته «لن تشارك البتة في الخطّة قبل المؤتمر».

لم يكن جيمس ويلسون يفتقر إلى الشراسة، وكان دائما مهيّئا لإظهار الثغرات في تفكير الآخرين. وكان يقابل الإنذار بالإنذار والدعوة إلى النزال بدعوة مماثلة. ذلك أن المسألة بالنسبة إليه هي ببساطة مسألة مبادئ ديمقراطيّة: «بما أنّ كلّ سلطة تنبع من الشعب فينبغي أن يحصل عدد متساو من الناس على عدد متساو من الممثّلين». ثمّ سأل بحدّة: «أليس مواطنو بنسلفانيا مساوين لمواطني نيوجيرسي؟ هل يتطلّب ذلك 150 مواطنا من الولاية الأولى لموازنة 50 من الولاية الثانية؟». لقد أصابت كلمات ويلسون الغرض مثل قبضة يد أصابت هدفها مباشرة:

هل سيكون لنيوجيرسي الحقوق نفسها أو التأثير عينه في مجالس الدولة إلى جانب بنسلفانيا؟ أقول: لا. هذا ليس عدلا. لن أشارك في هذه الخطّة.

ونخر قائلا: أن تكون البنود قد تبنّت مبدأ الصوت الواحد للولاية الواحدة، إنّ ذلك لأمر

«غير لائق».

حدث الانفجار ذات سبت بعد الظهر قبيل عطلة المؤتمر. فبعد خطاب ويلسون القاسي، اقترح بيترسون على المندوبين تأجيل التصويت على التمثيل في المجلس التشريعي إلى يوم الاثنين «لأنّ كثيرا من الأشياء تعتمد على ذلك الخطاب».

بتفرّق المندوبين أدرك ويلسون أنّ عليه أن يتحرّك سياسيّا بسرعة. كان عنصران من مسألة التمثيل قد حُلاّ: سيختار الشعب الغرفة الدنيا وستختار الهيئات التشريعيّة الغرفة العليا. ولكن ظلّ المندوبون متردّدين بشأن كيفيّة تحديد الممثّلين في كلتا الغرفتين. وضع ويلسون المسألة في إطار النظريّة الديمقراطيّة. فلا يستطيع أيّ جمهوري أن يعطي 50 مواطنا من نيوجيرسي و150 من بنسلفانيا العدد ذاته من الأصوات. غير أنّ أغلب المندوبين كانوا يفتقرون إلى النزوع النظري لويلسون. إنّ نظام الصوت الواحد للولاية الواحدة قد يؤذي البنسلفانيين والفرجينيين، لكنّ مندوبي الولايات الصغرى أعجبوا به أشدّ الإعجاب. لن تكسب النظريّة هذا الجدل. احتاج ويلسون إلى أصوات، وكان عليه أن يمارس لعبة البيع والشراء لكسبها.

في عمليّة تصفية الحساب هذه، كانت ترتيبات المؤتمر تعطي التفوّق للولايات الصّغرى. فإذا تمسّكت كلّ الولايات الثماني بموقفها فسيقبر نظام التمثيل النسبي بفارق 8 – 3، وذلك رغم أنّ الولايات الثلاث الكبرى (ماساتشوستس وبنسلفانيا وفرجينيا) كانت تضمّ حوالي نصف سكّان البلاد (لم يكن لنيوهمشاير ورود آيلند وفود في ذلك الوقت). وعلى امتداد أزيد من أربعين ساعة، كان على ويلسون أن يجد ثلاثة أصوات أخرى.

وجد ويلسون نفسه أمام محدودة. فمريلاند وديلاوار ونيوجيرسي متحمّسة لنظام الصوت الواحد للولاية الواحدة، وكانت أيضا مجاورة لبنسلفانيا. ولكلا السببين لم تكن هذه الولايات تثق بنوايا واحدة من تلك الولاية الكبرى. أما نيويورك فقد تكتّلت مع الولايات الصغرى. وربّما كانت كونكتكوت أكثر لينا، ولكن حتى لو استطاع إقناعها بالتصويت لجانبه فسيظلّ محتاجا إلى صوتين.

وفيما يتعلّق بالأصوات الثلاثة التي يحتاج إليها، كان على ويلسون أن يلتفت إلى الجنوب

العميق: إلى جورجيا والكارولينتين. كان له امتيازان مع هذه الولايات. فهو له أوّلا علاقة متينة مع قائد الوفد الجنوبي جون راتليدج. كان ويلسون يستطيع الحديث مع الكاروليني الجنوبي بألفة وصراحة. أما الامتياز الثاني أهمّ، فقد كان مندوبو الجنوب يريدون شيئا ما.

بالنسبة إلى الجنوبيّين لم يكن ثمّة هدف أسمى من حماية العبوديّة، وبدون تلك الحماية قد لا تنضمّ الولايات الجنوبيّة إلى الحكومة الجديدة. وفي أدنى الأحوال قد يواجه المندوبون الجنوبيّون الإبعاد والإدانة إذا عادوا بدستور لا يحمي العبوديّة، وهو ما سيدمّر مسيرتهم.

على أنّ هدف الجنوبيّين كان يصطدم بمبادئ الحرّيّة والديمقراطيّة التي جاهرت أمريكا بالمناداة بها. ولحماية العبوديّة سيحتاج الجنوبيّون إلى حركة ذهنيّة وتكتيكيّة سريعة.

كان ويلسون على حقّ في ظنّه أنّ الجنوبيّين سيكونون منفتحين على فكرة التمثيل النسبي. فعندما اعترضوا على المفاوضات مع إسبانيا حول نهر ميسيسيبي كانوا يخشون التفوّق العددي للولايات الشماليّة في الكونغرس: ثماني ولايات شماليّة مقابل خمس ولايات جنوبيّة. زيادة على ذلك، كان العديد من الجنوبيّين يعتقدون أنّ طقسهم الأدفأ وأراضيهم المفتوحة سيجذبان السكّان إليهم بوتيرة أسرع من باقي البلاد. سيكافئ نظام التمثيل النسبي الولايات الأسرع نموّا. لقد كان ثمن الدعم الجنوبيّ بسيطا: العبوديّة.

عقد ويلسون صفقة مع الكاروليّنيّين الجنوبيّين، وهو ما عكسته نقاشات يوم الاثنين 11 يونيو. فقد ربط بمعيّة جون راتليدج المبدأ الديمقراطي للتمثيل النسبي بحاجة الجنوبيّين لحماية العبوديّة. ولتأمين تمثيل في الكونغرس مبني على عدد السكّان، تبنّى ويلسون الفكرة القائلة إنّ عبيد الجنوب لا بدّ أن يمثّلوا جزئيّا. وبالرغم من أنّه عقد الصفقة من أجل إرساء الديمقراطيّة، فإنّ دعاة إلغاء الرقّ المستقبليّين سيدينون صفقته الفاوستيّة باعتبارها علامة أساسيّة على تعاهد الدستور مع الموت.

لم يأت أيّ مندوب إلى فيلادلفيا وهو ينوي خوض صراع حول المسائل الاجتماعيّة والأخلاقيّة المتعلّقة بالعبوديّة. ففي نهاية المطاف، كان ثلث المندوبين على الأقلّ يملكون عبيدا.

لم تتمّ إثارة الموضوع خلال الدعوة إلى المؤتمر في أنابوليس، ولا ضمن القرار الذي تبنّاه الكونغرس الكنفدرالي. ولم يشر إليه واشنطن وماديسون قطّ في مراسلتهما التي سبقت المؤتمر. فقد تبنّت اثنتا عشرة ولاية قرارات بإرسال مندوبين وتحديد واجباتهم، لكنّ أيّا منها لم تشر إلى العبوديّة.

إلا أن مسألة العبوديّة زحفت إلى داخل المؤتمر مباشرة بعدما اقترحت خطّة فرجينيا توزيع المشرّعين على قاعدة «عدد المواطنين الأحرار». وقد أظهر ماديسون كياسته المعهودة عندما حذف تلك العبارة من القرار، وحذّر من أنّ هذه الكلمات «قد تسبّب نقاشات تخرج عن الموضوع الأساسي».

أثناء النقاش، نادرا ما كان ماديسون نفسه يخرج عن الموضوع. كانت مداخلاته متواضعة ولكنها مركّزة. وكان يستطيع إفحام أولئك المتعوّدين على تبجّح أكبر في الخطب العامّة. وصف ملاحِظ لغتَه بأنّها «صافية جدّا، بيّنة، وفي صلب الموضوع»، لكنّه وجد الفيرجيني «سياسيّا كلاسيكيّا». وكتب آخر: «إنّ أكثر لحظات النقاش دفئاً وإثارة لم تكن تظهر على ماديسون إلاّ من خلال حركة جسمه السريعة إلى حدّ والمتأرجحة إلى الأمام». إنّ أسلوبه المتواضع قد يفسّر قلّة المناسبات التي تكلّم فيها مطوّلا ووفِّق فيها في تبليغ مقصوده وإن لم يؤثّر في المندوبين الآخرين إلاّ قليلا. كما أنّ المنطق لم يكن في أغلب الأحيان يخضع للمصلحة السياسيّة.

مع ذلك كانت غرائز ماديسون تجاه تقلّبات مسألة العبوديّة شديدة التحفّز. فقبل نهاية الصّيف ستجرّ تلك المسألة المندوبين إلى مواجهات غاضبة، وتُبِين عن قدرتها على إحداث شرخ في المؤتمر وفي الاتّحاد.

كان موضوع العبوديّة في أمريكا سنة 1787 حاضرا في كلّ مكان. ففي تعداد السكّان لسنة 1790 تمّ إحصاء 681,000 عبدا أو سدس إجمالي عدد السكّان. وكان حوالي نصف العبيد يسكنون في فرجينيا حيث شكلوا ثلث سكّان تلك الولاية الأكثر كثافة سكانيّة بين الولايات. وكانت بنسلفانيا نفسها تؤوي 3,700 عبدا.

كان المندوبون الأحد عشر عن فرجينيا وساوث كارولينا يملكون جميعا عبيدا، وإن تفوات حجم ما يملكونه منهم كثيرا. فكان كلّ من الأستاذين (وايث وماك كلورغ) يملك حفنة من العبيد، في حين كان المئات منهم يكدحون لحساب واشنطن وماديسون ومايسون وراتليدج وكلٍّ من البينكنييْنِ والرائد بتلر. كانت المزارع الشاسعة تتطلّب يدا عاملة من الرقيق. وكان العبيد يفلحون الأراضي ويشغّلون الطواحين وورشات الحدادة ويؤدّون أعمال النجارة والأنشطة التي تتطلّب مهارات مختصّة.

لم يَتَوَانَ الكارولينيّون الجنوبيّون في فيلادلفيا قطّ عن الدفاع عن العبوديّة. وفي المقابل، كان الفرجينيّون مختلفين. ففي حين كانوا يأكلون طعاما أثمرته أيدي العبيد وأعدّته، ويرتدون ملابس غسلها العبيد واشْتُرِيَتْ من أرباح عمل العبيد، وجدوا الموضوع مقلقا بعمق. لقد شحذ إِلْفُهم بالاسترقاق وعيَهم بالتناقض الكلّي لهذه الممارسة مع المبادئ التي يؤيّدونها.

عندما اشتغل ماديسون في الكونغرس الكنفدرالي بفيلادلفيا سنة 1783 فرّ عبده بيلي متأثّرا بالبلاغة الثوريّة. وبعد أن أُلقِي القبض عليه وأعيد إلى المزرعة أقرّ ماديسون صراحة بسبب الهروب حين امتنع عن معاقبته:

لا أستطيع التفكير في معاقبته... لمجرّد اشتهائه تلك الحرّيّة التي دفعنا كثيرا من الدّم ثمنا لها، ولطالما أعلنّا أنّها السبيل الصحيحة والمستحَقّة لكلّ كائن بشري.

لم يطمِسْ تعاطف ماديسون مع توق بيلي إلى الحرّيّة عقليّته التجاريّة. فقد لاحظ أنّ «عقل بيلي فسد بالكامل إلى درجة أنّه لن يكون رفيقا ملائما لعبيد مثله من ولاية فرجينيا». إنّ قوانين بنسلفانيا «لا تسمح ببيعه لأكثر من سبع سنوات، لذلك فأنا لا أتوقّع أن أحصل على ثمن يقارب قيمته». أنجز ماديسون أفضل صفقة ممكنة في ظلّ تلك الظروف ببيع بيلي لرجل من فيلادلفيا مقابل سبع سنوات من العبوديّة.

بالرغم من أنّ ماديسون لم يتخلّص قطّ من الانفصام الناتج عن كونه بطل ديمقراطيّة مالكا للعبيد فإنّه لم يستسغ ذلك التناقض. تقول مذكّرة «العيوب» التي كتبها قبل المؤتمر ولم يتقاسم أفكارها مع الآخرين، ببساطة تغني عن كلّ تعليق: «حيثما توجد العبوديّة تغدو نظريّة

الجمهوريّة أكثر وهمية)).

في بداية مسيرته كتب ماديسون لراندولف قائلا إنّه يريد ((أن يعتمد بأقلّ قدر ممكن على عمل العبيد))، وهو هدف لم يحقّقه قطّ، ويبدو أنّه تخلّى عنه لاحقا. أبدى الفرجينيّون الآخرون انزعاجا مماثلا من عيوب العبوديّة. قبل عام من المؤتمر كتب واشنطن إلى روبرت موريس (مضيّفه المستقبلي): إنّه ((لا يوجد على قيد الحياة رجل أصدق منّي في تمنّيه رؤيةَ خطّةٍ تُتَبنّى من أجل إلغاء العبوديّة)). حرّر جورج وايث عبيده بعد سنة من المؤتمر. وبعد سنتين من المؤتمر كتب راندولف إلى ماديسون أنّه قد ينقل عائلته إلى فيلادلفيا حيث ((يتوجّب عليّ أن أحرّر عبيدي، وهكذا أنهي أيّامي دون أن أعاني من أيّ قلق من مَظلمة التحكّم في رقابهم)). لم يضاه أحد جورج ماديسون في تقويمه البارد للآثار الرديئة للعبوديّة:

إنّ كلّ سيّد في هذا المكان يولد وهو مستبدّ صغير. وبفعل ممارستنا لأعمال الاستبداد والتوحّش أصبحنا قساة تجاه نداء الواجب الإنساني. ولأنّنا عُلّمنا أن نرى قسما من جنسنا الخاصّ دوننا منزلة وفي أخسّ الدرجات وأتفهها، فقد أخذنا نفقد تلك الفكرة عن كرامة الإنسان التي كانت قد غرستها يد الطبيعة فينا... وبحكم تعوّدنا منذ الطفولة على الدوس على حقوق الإنسان الطبيعيّة، فإنّ كلّ شعور بالشهامة، كلّ شعور بالحرّيّة في عقولنا قد وقع إضعافه.

جسّد الفرجينيّون التناقض الذاتي الأخلاقي للأمّة. فقد أدرك الوطنيّون الأوائل ازدراء مبادئهم للعبوديّة. وعندما أخذت جماعات المهاجرين تميل فجأة إلى التمرّد سنة 1774 كتب واشنطن إلى رفيق له من فرجينيا أنّ الأمريكيّين لا ينبغي أن ((يخضعوا لأيّ إملاء يمكن أن يُفرض علينا إلى أن يجعلنا التعوّد والاستعمال عبيدا مدجّنين وأذلّاء مثل السود الذين نحكمهم بمثل هذا التسلّط الاعتباطي)).

انتقدت مسوّدة جيفرسون الأولى من بيان الاستقلال، الملكَ جورج الثالث لتمسّكه بتجارة العبيد، ((التي تمثّل حربا وحشيّة ضدّ الإنسانيّة ذاتها)). وهاجم آخرون تلك الفقرة

متمسّكين في الوقت نفسه بالإعلان الذي ينصّ على أنّ كلّ الناس يُخلقون متساوين، متخلّصين من كلّ إزعاج ناجم عن اللاتجانس بين إعلان إحدى العبارتين وإسقاط الأخرى. ونشط وايث ومايسون وجيفرسون في لجنة تابعة لمجلس فرجينيا من 1776 إلى 1779 كانت قد فكّرت في التحرير التدريجي، ثمّ بحثت عمّا هو أفضل منه.

في 1787 كانت ماساتشوستس وحدها قد حظرت العبوديّة، وقد صدر هذا الحظر في الولاية عن حكم قضائي ولم يصدر عن قرار تشريعي. تبنّت أربع ولايات أخرى (نيوهمشاير، كونكتكوت، رود آيلند، بنسلفانيا) قوانين «التحرير التدريجي» التي حرّرت الأطفال المتحدّرين من أبوَيْن مُسْتَرَقَّيْنِ. وتبنّت نيويورك التحرير التدريجي سنة 1799 واتّبعتها نيوجيرسي في 1804. وتحت تلك الأحكام استمرّ استرقاق العبيد في الولايات الشماليّة إلى أربعينات القرن التاسع عشر. وفي سنة 1802 سنّت فرجينيا قانونا للعتق يسمح للأسياد بتحرير العبيد، لكنّ الذين اغتنموا الفرصة لفعل ذلك لم يكونوا كثيرين.

وبالرغم من إلف مندوبي بنسلفانيا بالاسترقاق فإنّهم لم يقعوا في شَرَكه. ولأنّ الشمال كان يعتمد بدرجة أقلّ إلى حدّ ما على العبوديّة، كان جوابه على الثورة هو التقدّم على دفعات نحو إلغاء الرقّ. انقلب الدكتور فرانكلن، وكان في تلك الأزمنة أحد مالكي العبيد طيلة حياته، ضدّ الاسترقاق. وقبل افتتاح المؤتمر بوقت قصير قبِل رئاسة الجمعيّة العموميّة لبنسلفانيا لتعزيز إلغاء العبوديّة. في 23 مايو كان المندوبون لا يزالون يتصارعون بالمدينة حين نشرت صحيفة محلّيّة ميثاق الجمعيّة ذاكرة فرانكلن باعتباره رئيسا. وكان الجنوبيّون دون ريب غير مرتاحين لموقف الدكتور فرانكلن المعادي بوضوح للرقّ.

كان ويلسون الاسكتلندي الوافد يملك حتّى تاريخِ زواجه الثاني في 1793 من امرأة كويكيريّة عبدا لمهامّ الطبخ، أعتقه لاحقا. واستعملت عائلة الحاكم موريس العبيد في فلح أراضيها الشاسعة بنيويورك وإدارة أعمالها الصناعيّة بنيوجيرسي. ولكنّ موريس نفسه لم يكن يملك أيّ عبد. وبسبب ضغطه لإثبات فقرة خاصّة بتحرير العبيد في دستور نيويورك لسنة 1777 سيكون أبرز خصم للعبوديّة في المؤتمر، وستزداد خطاباته حماسة بمُضِيّ الصيف.

مع ذلك كانت العبوديّة في الجنوب منغرسة بعمق في كلّ مؤسّسة اقتصاديّة أو اجتماعيّة. وقاومت كلاّ من الإيديولجيا الثوريّة والصدمات المباشرة الموجّهة من قبل الجنود البريطانيّين ومن العبيد أنفسهم.

منذ الأيّام الأولى للثورة استقبل البريطانيّون العبيد الفارّين إلى صفوفهم. وفي نوفمبر 1775 وعد اللورد دنمور حاكم فرجينيا باسم الملكة العبيد الملتحقين بالصفّ البريطاني منحهم الحرّيّة، وكوّن «لواء أثيوبيّا» ضامّا إليه أكثر من 300 عبد فارّ، كان عدد كبير منهم متّشحين بشارات تنادي بـ«الحرّيّة للزنوج». أقرّ القيّم على أعمال واشنطن في ماونت فيرنون أنّ كلّ عبد يشتغل في المزرعة «سيغادرنا، إذا اعتقد أنّ بمقدوره الفرار». ومثلما تنبّأ، التحق سبعة عشر منهم بالجنود البريطانيّين الذين أغاروا على المنطقة في 1781. وقد استعاد واشنطن اثنين من العبيد بعد معركة يوركتاون واقتفى أثر بعضهم الآخر في فيلادلفيا.

استفاد كثير من العبيد من الاضطرابات المرافقة للثورة في مساعدة أنفسهم على التحرّر. فقد هرب بعضهم إلى أراض غير مأهولة وشكّلوا تجمّعاتهم الخاصّة. وتدفّق آخرون على المدن أو باتّجاه الشمال متنكّرين في زيّ زنوج أحرار. وبنهاية الحرب كان ما لا يقلّ عن عشرة آلاف قد غادروا مزارع فرجينيا ومريلاند. وفي الجنوب العميق هرب أو توفّي عدد أكبر من ذلك بكثير في أتون الاضطرابات. فانخفض عدد العبيد بجورجيا من 15000 إلى 5000، في حين قد تكون ساوث كارولينا فقدت ربع عبيدها أو أكثر من 25 ألفا منهم. وبالرغم من أنّ هذه الأعداد لم تكن مرتفعة كفاية لاقتلاع العبوديّة فإنّها هزّت استقرار كلّ من المالكين والمملوكين.

بعد الحرب استعاد مالكو العبيد الجنوبيّون سيطرتهم على ممتلكاتهم. نطق واشنطن باسم نظرائه عندما أمر عيونه بإحضار عبيده

«إلى أعمالهم بمجرّد ظهور ضوء الصباح، واستمرارهم فيها إلى هبوط الليل، وملازمتهم الجدّ ما داموا في حالة عمل. فالمفروض أن يبذل كلّ عامل (ذكر أو أنثى) أقصى ما يستطيع من جهد تسمح به قوّته خلال أربع وعشرين ساعة دون أن يخاطر بصحّته أو بنيته الجسديّة».

وكان واشنطن غير مُحْجِم أيضا حين كتب سنة 1789 باعتباره رئيسا للجمهوريّة الجديدة: «إذا لم يؤدّ الزنوج واجبهم بالّتي هي أحسن فينبغي أن يُجبروا على ذلك».

بعد 1783 استأنفت ولايات الجنوب العميق توريد العبيد من إفريقيا لتعويض أولئك الذين فقدتهم. وكان على جون راتليدج زالدنرال بينكني والرائد بتلر جميعِهم أن يملأوا ثانية مزارعهم بالعبيد. وقد أوهنت تلك الخسائر من عزيمتهم في المؤتمر.

كانت فيلادلفيا موطنا لأوسع جماعة من السود الأحرار في البلاد، وقد استقطبت الكثيرين منهم الرؤى المعاديةُ للعبوديّة الرائجة في مدينة الكويكرز. وأحلّ إحصاء 1790 أكثر من 2000 «شخص حرّ آخر» بتلك المدينة (المقصود آخرون من غير البيض)، بالإضافة إلى أربع عائلات ملوّنة مسجّلٍ أنّها هي نفسها مالكة للعبيد. كان عديد السود الأحرار يتعبّدون في كنيسة القدّيس جورج وهي طائفة ميثوديّة (Methodist)[1] يبعد مقرّها مسافة بضعة مجمّعات بناء عن دار الولاية. في 17 مايو سنة 1787، بينما كان الفرجينيّون ينتظرون اكتمال النصاب، اجتمع ثمانية من السود الأحرار في منزل ريتشارد ألين من أجل تبنّي موادّ جمعيّة من أجل المجتمع الإفريقي الحرّ. وبعد سبع سنوات غادر ألين تلك الجماعة اللاطائفيّة ليبعث أوّل كنيسة أسقفيّة ميثوديّة إفريقيّة.

في الأيّام الأولى من المؤتمر ربّما كان أهمّ حدث يستحقّ الذكر في قضيّة العبوديّة موضوعا لم يحدث بعد. فقد تبنّت جمعيّة إلغاء الرقّ ببنسلفانيا في 2 يونيو نداء يطالب المندوبين بوضع حدّ لإسهامهم في تجارة الرقيق. حذّر النداء: «عديمة الجدوى هي مزاعم الأمريكيّين في حبّ الحرّيّة... حين نراهم يتقاسمون أرباح تجارة لا يمكن ممارستها إلاّ على أنهار من الدموع والدماء البشريّة».

أحالت الجمعيّة النداء إلى رئيسها الدكتور فرانكلن، لكنّه لم يعرضه قطّ على المؤتمر. وأُخبِرت الجمعيّة لاحقا أنّه «اعتَقد أنّه يُستحسَن ترك الموضوع نائما في الوقت الحاضر».

(1) هي فرقة مسيحيّة بروتستنتيّة تتّبع تعاليم جون ويزلي (John Wesley)، وهو رجل دين أنجيلي تخرّج من جامعة أكسفورد. سمّيت طائفته الدينيّة بالميثوديّة (= المنهجيّة) لتركيزه على الأسلوب المنهجي في الدراسة والتبتّل (م).

سلكت جمعيّة نيويورك لعتق الرقيق طريقا مماثلا في وقت لاحق من الصيف. ففي منتصف أغسطس قرّر النيويوركيّون تقديم عريضة للمؤتمر تدعو إلى إلغاء الرقّ، لكنّهم سرعان ما انقلبوا عليها في اليوم التالي «بعد أن أُعلموا بأنّه من المحتمل ألاّ يواصل المؤتمر النظر في القضيّة». شهد ذلك الاجتماعَ الثانيَ ألكسندر هاملتون ومندوبو المؤتمر وخصم العبوديّة الأبدي الذي نصح على الأرجح بعدم مواصلة مسعى العريضة.

تحت قيادة مثل هؤلاء الأبطال الحذرين، لا يمكن أن تكون لقضيّة معاداة الرقّ غير فرص محدودة للنجاح في المؤتمر. ومن المؤكّد أنّ جيمس ويلسون لم يشعر بأيّ تأنيب للضمير بشأن صفقته بشأن العبوديّة.

الفصل السابع

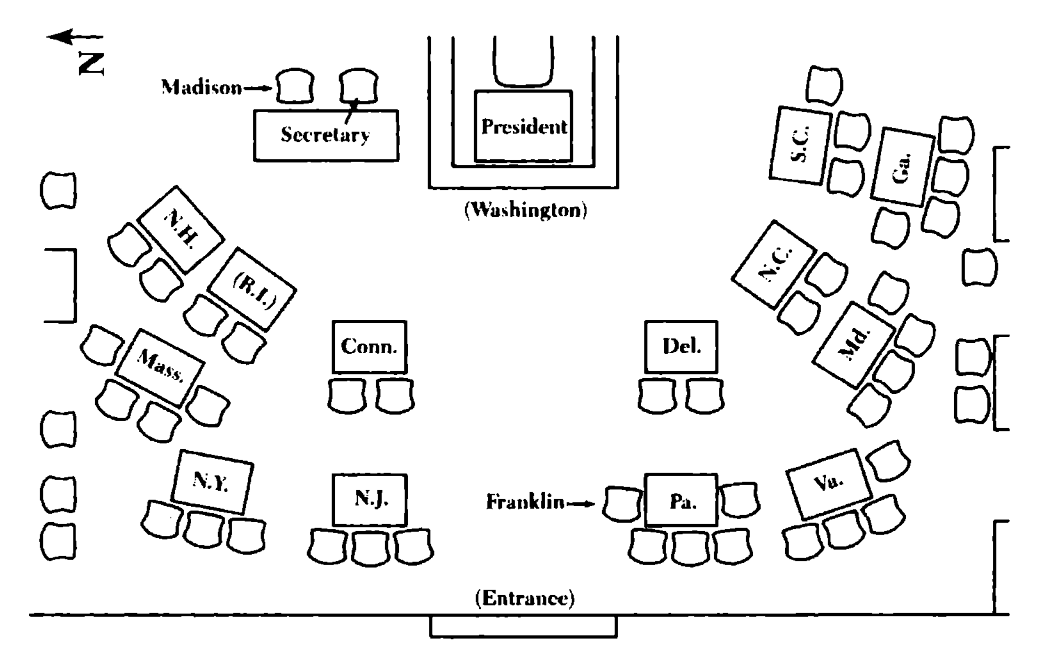
ثلاثة أخماس كائن بشري

11 يونيو

من الأرجح أنّ جيمس ويلسون أو جون راتليدج كان أوّل من اقترح أن تتضافر جهود الولايات الكبرى مع جهود الجنوب العميق. كان كلّ منهما يمتلك المهارة والخبرة لتطوير الإستراتيجيّة. بل يجوز أن تكون الفكرة قد نبعت من الدكتور فرانكلن، الذي قد يكون أحذق سياسي في القاعة الشرقيّة. ففي 11 يونيو ساعد ثلاثتهم على تنفيذ مناورات اليوم الأوّل التي وطّدت العلاقة بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة والتي ستستمرّ لعدّة أسابيع.

إنّ أنشطة المندوبين بشأن هذا الموضوع ومواضيع أخرى رئيسيّة لا تكاد تظهر للعيان خلال الصيف. وقد تسرّب الكثير من العمل الأساسي في المساءات ونهايات الأسبوع إلى خارج المبنى الوِلائي، خارج نطاق سمع ماديسون وقلمه. ما هي الاتّفاقيّات التي عقدت والمكائد التي نصبت في زوايا الموائد بفندق المدينة؟ هل تمّ ذلك قرب الموقد في فندق إنديان كوين أو في قاعة استقبال جيمس ويلسون أو على مائدة عشاء بن فرانكلن؟ لم تنج الأدلّة على تلك المبادلات المصيريّة من الضياع إلاّ نادرا.

مع انطلاق النقاش في ذلك الاثنين الخانق، 11 يونيو، كان ويلسون ينتظر فرصته المناسبة.



(رسم بياني لمقاعد وفود الولايات خلال المؤتمر، مستند إلى التخطيط الذي وفّره متحف الاستقلال الوطني التاريخي. لم ترسل رود آيلند قطّ مندوبين إلى المؤتمر)

أيّد شيرمان من كونكتكوت إسناد المقاعد في مجلس النوّاب على أساس «عدد المتساكنين الأحرار» ولكنّه ألحّ على أن يكون لكلّ ولاية صوت واحد في مجلس الشيوخ. وبالرغم من أنّ الولايات ستحصل في النهاية على أصوات متساوية في مجلس الشيوخ، لقي مقترح شيرمان في 11 يونيو اهتماما غير كاف. وقف راتليدج مدافعا عن مصالح العبيد، ومن دون اعتذار عرض أسطوانة الجنوب المألوفة عن التمثيل المستند إلى حصص المساهمة (أو الضرائب التي تدفعها كلّ ولاية)، وأكّد للمؤتمر أنّ «عدالة» تلك المقاربة «لا يمكن الاعتراض عليها». ووافق الرائد بتلر على ذلك.

غامر ويلسون بخطوته الافتتاحيّة، وهي نصف خطوة أولى باتّجاه تحقيق هدفه الحقيقي عن التمثيل المستند إلى عدد السكّان. اقترح إجراء ينصّ على ألاّ تخضع الهيئة الأولى لمبدأ

التصويت النسبي لوقوعها تحت سلطة البنود (صوت واحد لكلّ ولاية)، «وإنّما تخضع لنوع من النسبة العادلة للتمثيل». رمت تلك العبارة الغامضة إلى جَسْر الخلافات، ولكنّ المندوبين لم يكونوا مستعدّين للتصويت. وذهب النقاش في القضيّة بعيدا. بقي ويلسون ينتظر. وانتقد مندوبان من الشمال روفوس كينغ من ماساتشوستس وديكنسن من ديلاوار خيار حصص المساهمة. فقبل أسبوعين كان كينغ قد أشار إلى أنّ «خيار حصص المساهمة» سيكون غير عملي بالمرّة، وتساءل: ما الذي يمكن أن يحدث لو لم تفرض الحكومة القوميّة ضرائب مباشرة على الملكيّات أو الرؤوس (وهو ما لم تفعله قطّ على امتداد القرن اللاحق)؟ ففي غياب ضرائب مباشرة، لن يكون بالإمكان ضبط «المساهمة الماليّة» للولاية في الحكومة القوميّة ولا تحديد حصّة ممثّليها! وحذّر كينغ أيضا من أنّ مثل هذه الضرائب ستتغيّر باستمرار بتغيّر السياسات، وهو ما يحدث مزيدا من الفوضى في تحديد الممثّلين.

«مع اقتراب أجل» طرح مسألة التمثيل لعب ويلسون ورقة ثانية أقوى بكثير: الدكتور فرانكلن المروّع. «ألقى فرانكلن بأفكاره في الموضوع على ورقة» تولّى ويلسون قراءتها بصوت عال. ردّدت كلمات فرانكلن صدى المقترحات التي قدّمها ويلسون محاججا بأنّ عدد الممثّلين ينبغي أن يحمل نوعا من النسبة إلى عدد الممثّلين. وبعد مراجعة آليّة حساب التصويت للولايات الثلاث عشرة وتجربة اندماج البرلمانين الاسكوتلندي والإنجليزي في بداية القرن ختم فرانكلن ملاحظاته بالإشارة إلى أنّه في 1747 لم يتبنّ الكونغرس الأمريكي نظام الصوت الواحد للولاية الواحدة إلا لأنّه كان يفتقر إلى طريقة لتعداد السكّان في كل ولاية.

حظي قرار ويلسون بتأييد واسع، فوقع تبنّيه؛ وصوّتت ثلاث ولايات ضدّه، في حين تكافأت أصوات وفد مريلاند (وقد أصبح ذلك عادة لها). وانضمّت ولايات الجنوب العميق التي كانت تُعَدّ بحساب ذلك الوقت ولايات «صغيرة» إلى الولايات الكبيرة وإلى كونّكتكوت في الموافقة على أن يتمتّع الناس بتمثيل «عادل».

بعد أن وضع ويلسون وراتليدج الأساس لصفقتهما قاما بخطوتهما التالية متّبعَيْن التعاقب نفسه في العرض: يجاهر مندوب عن ساوث كارولينا بموقف مؤيّد للعبوديّة، فيتدخّل

ويلسون مقدّما حلاّ وسطا يستدعي تأييدا جنوبيّا. صعد راتليدج المنصّة مقترحا مرّة أخرى إحياء خيار «حصص المساهمة» المحتضر. لا يمكن وصف الرجل بشيء سوى أنّه لجوج. ومرّة أخرى ساند الرائد بتلر راتليدج. فقام ويلسون بالحركة التالية من الرقصة البرلمانيّة داعيا إلى إرجاء قرار راتليدج مقترحا بديلا عنه. ثمّ ساند الرائد بينكني الجالس على يمين راتليدج قرار ويلسون بقوّة.

وما هو البديل الذي اقترحه ويلسون وأيّده الجنرال بينكني؟ إنّه فصل الثلاثة أخماس السيّئ السمعة؟ كان قرار ويلسون الجديد يتطلّب إسناد مقاعد في مجلس النوّاب بناء على:

نسبة عادلة من التمثيل موازية للعدد الإجمالي للبيض والمواطنين الأحرار الآخرين والسكّان وثلاثة أخماس من كلّ الأشخاص الآخرين غير الواردين في الوصف السابق باستثناء الهنود الذين لا يدفعون الضرائب...

وبتأنّق بياني ختامي أكّد ويلسون أنّ الكونغرس الفدرالي وأحد عشر ولاية قد ساندوا هذا «الترتيب» القاضي بـ«توزيع أقساط ضرائب المداخيل على الولايات».

لم يحاول إفساد الرقصة إلاّ جيري من ماساتشوستس. كان هذا المندوب الثري من ماربلهيد يستطيع ترك انطباع طويل الأمد في الذاكرة، إن لم يكن بالأحرى انطباعا إيجابيّا دائما. كان يوصف بأنّه «متوسّط القامة هزيل البنية»، وكان تلعثم جيري يجبره على «التوقّف» عن الكلام، وكانت له «عادة فريدة متمثّلة في تقليص عضلة عينه وتمطيطها». وقد وصفه مندوب بأنّه «خطيب متردّد ومرهِق»، وهو «يسترسل في الكلام دون احترام لأناقة الإلقاء وجماله». وفي تجاهل لحدود إمكانيّاته الذاتيّة، وهو تجاهل من خصائص رجل غني، خاطب جيري المؤتمر أكثر من مائة وخمسين مرّة ذلك الصيف. ولئن كانت طريقة إلقائه غريبة، فإنّ تعليقاته كانت لاذعة ومتبصّرة.

احتجّ جيري، وهو عضو مراسل من جمعيّة بنسلفانيا لإلغاء الرقّ، بأنّ «السود في الجنوب هم ملكيّة خاصّة، يستعملون... كما تستعمل الخيول والقطعان» في الشمال. وهكذا واصل في نبرة استهجان متلعثمة: «لماذا يُرفع التمثيل في الجنوب باحتساب عدد العبيد ولا يُرفع في

الشمال باحتساب عدد الخيول و الثيران؟».

لم يجب أحد عن السؤال، ولم يكن ذلك فقط لأنّه سؤال محرج. لقد تمّ عقد الصفقة وحان الوقت لرفع الجلسة. كانت نتيجة التصويت 9–2 لفائدة ترتيب الثلاثة أخماس. لقد وضعت الولايات الصغيرة على الطريق. ولم تقف بعيدا عن جوقة الرقص سوى نيوجيرسي وديلاوار.

كان ويلسون قد تكلّم بصدق حين ذكر أنّ ذلك الحساب الغريب المتعلّق بنسبة الثلاثة أخماس كان مألوفا لدى المندوبين مثلما كان، بالنسبة إليه وإلى جون راتليدج. فحين جلس ويلسون في الكونغرس الكنفديرالي في مارس 1783 اقترحت لجنة ضمّت أربعة مندوبين مستقبليّين إلى المؤتمر (راتليدج، ماديسون، غورهام، هاملتون) نسبة الثلاثة أخماس باعتبارها حلاّ لضريبة الدخل التي حدّدها المجلس الكنفدرالي العاجز لكلّ ولاية.

.بمقتضى اقتراحِ عامِ 1783، ستكون المطالب مرتكزة على عدد السكّان الأحرار في ولاية ما مضافا أليها ثلاثة أخماس من «الآخرين» كلّهم. فكّرت اللجنة لفترة قصيرة في احتساب العبيد على أساس نصف عددهم الجملي، ولكنّها استقرّت على ثلاثة أخماس، وهو ما وافق عليه الكونغرس. لم يقع العمل أبدا بتلك النسبة سنة 1783 لأنّ الولايات لم توافق عليها بالإجماع مثلما اشترطته البنود.

على نحو لافت، استعمل مقترح 1783 النسبة في توزيع أعباء الضرائب ولم يستعملها معيارا لبناء حكومة ممثّلة، فقد انطوت العمليّتان بالتأكيد على فوارق ملموسة. وبالفعل، ففي واحدة من السخريّات اللاذعة التي حفّت بمسألة العبوديّة، اعترض الجنوبيّون سنة 1783 مدّعين أنّ نظام النسبة زاد من قيمة العبيد، رافعا بذلك الضرائب بشكل كبير. فيما احتجّ الشماليّون قائلين إنّ المقترح أنقص من قيمة العبيد، وسيفشل في فرض ضرائب على الجنوب بالقدر الكافي. وعندما أحال ويلسون نظام النسبة إلى الهيئة التشريعيّة، لاحظت كلّ جهة فجأة قوّة الحجّة لدى الجهة الأخرى. اعتقد الشماليّون الآن أنّ نظام النسبة زاد من قيمة العبيد، وألحّ الجنوبيّون على تغيير موقفهم.

تحوّل الاختلاف في جوهره إلى مسألة ما إذا كان العبيد السود كائنات بشريّة أو مِلْكِيّة. وعلى ما في مبدأ الثلاثة أخماس من انحرافات فإنّه حدّد هويّة العبيد باعتبارها مزيجا من البشريّة والمِلْكِيّة، وإن لم يكن لهم الحقّ في الانتخاب ولا لعب دور في الحياة السياسيّة للبلاد.

قام السياسيّون في القاعة الشرقيّة بإحصاء فوري لترتيب قيمة الثلاثة أخماس. فلوا وُزّع أعضاء الكونغرس على أساس عدد السكّان، فسيُحتسب مالك لمائة عبد (مثل واشنطن وماديسون) في مقام واحد وستّين شخصا، أي المالك نفسه مضافا إليه ثلاثة أخماس عبيده. وسيشمل هذا الاعتبار الانتخابات الرئاسيّة حين ينشئ المندوبون الهيئة الانتخابيّة لاختيار الرئيس. سيكون التمثيل الجنوبي الإضافي في الكونغرس علاوة على تقلّب الرأي العامّ بشأن انتخاب الرئيس أمرا ذا شأن. فبوجود حوالي 700,000 عبد في الولايات الجنوبيّة من مريلاند الى جورجيا، وبتحديد عضو في الكونغرس عن كلّ 30,000 ساكن، منح نظام نسبة الثلاثة أخماس الجنوب اثني عشر عضوا في الكونغرس على الأقلّ، وعددا مماثلا من الأصوات الانتخابيّة الإضافيّة. ولهزم الولايات الصغرى وتحقيق تمثيل قائم على عدد السكان دفع ويلسون ثمنا باهظا: تعزيز قوي لمصالح العبيد.

استمتع تحالف الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة لمدّة وجيزة بنجاحٍ تجاوز حتّى الأهداف التي رسمها ويلسون. فما إن تمّ احتساب الأصوات لصالح مبدأ التمثيل النسبي في مجلس النوّاب حتّى تحرّك شيرمان من أجل إسناد صوت واحد في مجلس الشيوخ لكلّ ولاية، وهو ما كان قد ألحّ عليه في بداية النهار. وحذّر قائلا: «لن توافق الولايات الصغرى البتة» على الخطّة إذا استندت «إلى أيّ مبدأ آخر».

ربّما ظنّ شيرمان أنّ تحالف الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة لن يمتدّ إلى مجلس الشيوخ، أو لعلّه كان مذعورا من نشوء حلف ويلسون – راتليدج. كان اقتراحه خطوة خاطئة كبيرة، إذ أنّه استهان بالقوّة الدافعة لصفقة الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة. تمسّكت الكارولينتان وجورجيا بتحالفها مع الولايات الثلاث الكبرى، فسقط

مقترح ويلسون بنتيجة 5 أصوات إلى 6.

تحرّك ويلسون بسرعة مدعوما من هاملتون لانتهاز اللحظة. اقترح أن يكون لمجلس الشيوخ «نسبة التمثيل» نفسها التي للغرفة الدنيا. وتمّ التصويت لصالح القرار بنسبة 6–5 مدعوما من الولايات الستّ الكبرى وولايات الجنوب العميق. والآن ستكون كلتا غرفتي الكونغرس معتمدة على السكّان الأحرار وثلاثة أخماس كلّ العبيد. انتصر ويلسون وحلفاؤه المدافعون عن العبوديّة، وإن كان ذلك بأقلّ الفوارق. وبالتأكيد ستصبح انتصارات ولسن في 11 يونيو مسألة مزمنة وملتهبة، إذ سيعود المندوبون لمناقشة مسألة التمثيل المرّة تلو الأخرى.

بالرغم من أنّ ويلسون تزعّم حملة نسبة الثلاثة أخماس في 11 يونيو فانّ اقتفاء أثر الفكرة يقود إلى ساوث كارولينا وخطّة بينكني المهمَلة عن الدستور. وعلى قفا ورقة نادرة شطب بينكني نسبة الثلاثة أخماس من مسوّدات خطّته التي أصدرها للعموم أواخر 1787 وفي 1819. إلاّ أنّ نسخا من خطّته الحقيقيّة وجدت في وثائق ويلسون، وكانت تقترح إسناد مقاعد في الغرفة الدنيا للهيئة التشريعيّة معتمدة على «السكّان بمن فيهم ثلاثة أخماس السود».

ثمّة سؤال يُطرَح طوال مناورات 11 يونيو: أين كان الفرجينيّون؟ لقد ترأّسوا المؤتمر بجسارة قبل أسبوعين فقط، وخطفوا الأضواء واحدا تلو الآخر. صعد واشنطن إلى كرسي الرئاسة، وأمسك ماديسون بالقلم، وكتب وايث القوانين، وصعد راندلف إلى المنصّة، وكانت تعليقات ماسون الحادّة قد لقيت تقديرا جيّدا، إلاّ أنّهم خلال هذه المرحلة الدقيقة جلسوا صامتين في أكثر الأحيان.

هل ظهر أيّ تعبير على قسمات وجه واشنطن المتحجّرة حين كشف ويلسون عن تسوية الثلاثة أخماس؟ لِمَ ظلّ ماديسون، وهو حليف ويلسون في المعركة من أجل التمثيل الشعبي، صامتا في هذه اللحظة الحرجة؟ هل تمّت استشارته في هذه الاستراتيجيّة، وهل باركها؟ هل كان منشغلا بملاحظاته الخاصّة معتكفا في غرفته خلال نهاية الأسبوع، حين تمّ التوصّل إلى تفاهمات؟ أم هل ثبّتته ازدواجيّة مواقفه في كرسيّه لمّا اتّضح أنّ توزيع أوراق اللعبة يساعد السود على التحكّم في المؤتمر خلال الخمسة والسبعين عاما القادمة؟ أين كان راندولف رئيس

الوفد الاسمي الذي عرض خطّة فرجينيا؟ وماذا عن مايسون الذي كن يستخفّ بتجارة الرقّ ويفاخر بالجهر بآرائه أمام كلّ مستمع في كلّ مناسبة؟

مهما كانت أسباب تكتّم الفرجينيين فإنّه كان يعكس حقيقة بدأت تنبثق عن المؤتمر. فبالرغم من أنّ الفرجينيّين هم الذين أطلقوا مسار كتابة الدستور، فإنّهم لم يتمكّنوا من السيطرة عليه. وسوف تعاد صياغة المشروع بأيد عديدة أخرى. سيمارس جيمس ويلسون وجون راتليدج بالتوازي مع شيرمان عن كونكتكوت والحاكم موريس وستّة آخرين نفوذا قويّا على امتداد الأشهر الثلاثة القادمة من المداولات.

كانت الحقيقة الأخرى التي ظهرت في منتصف يونيو هي الحرارة. فبحلول 18 يونيو اشتكى مندوب عن ماساتشوستس من أنّ الحرارة «تغلّبت عليه نسبيّا»، ولم يكن مندوبو نيوإنجلند وحدهم هم الذين عانوا من الحرارة. فقد غادرت زوجة الرائد بتلر المدينة لأنّها «لم تستطع تحمّل الحرارة الشديدة»، في حين وصفها بيترسون من نيوجيرسي، فيلادلفيا، بأنّها «أدفأ مكان زرته في حياتي». وبالفعل، فإنّ الحكاية الخرافيّة للمؤتمر كانت دائما تصوّر وطنيّين بباروكات الرّأس يمسحون الجبين من العرق تحت حرارة استوائيّة خانقة متدبّرين أمر ميثاق للحرّيّة.

ورغم أنّ المندوبين أنفسهم كانوا مصدر تلك الحكاية فإنّ سجلاّت أخرى تفيد بأنّ صيف فيلادلفيا لسنة 1787 لم يكن بذلك السوء، وعلى الأقلّ لم يكن أسوأ من طقس الساحل الشرقي الأمريكي المتّسم بالرطوبة في أغلب الأحيان. تسجّل المفكّرة الناقصة لوليام صموئيل جونسون مندوب كونكتكوت عبارتي «حارّ» أو «حارّ جدّا» في ثلاثة وثلاثين من الثمانين يوما التي سجّل فيها حالة الطقس. لا يدعو تواتر هذه التسجيلات إلى الذهول. ففي نهاية الأمر كان ذلك وقت صيف. كما أنّ سجلاّت الطقس اليومي التي كان الفيلادلفيّون يحتفظون بها لا تشير إلى فصل حارّ على غير العادة. وقد خلصت دراسة أنجزت خلال القرن العشرين إلى أنّ «فيلادلفيا تمتّعت على العموم بصيف منعش سنة 1787».

لم يشعر أحد بذلك الجوّ المنعش في القاعة الشرقيّة من دار الولاية. وقد جعلت القواعد

المتعلّقة بسرّيّة المؤتمر مشكلة الحرارة أكثر سوءا، إذ أُغلِقت نوافذ القاعة الشرقيّة وأبوابها بإحكام أمام مُسْتَرِقِي النظر. كان المندوبون يحملقون لمدّة طويلة من خلال تلك النوافذ متخيّلين نسيما منعشا لم يشعروا به إلاّ حين الحلول المبارك لساعة المغادرة. لم تعرف أمريكا القرن الثامن عشر تقليدا يسمح «بارتداء ملابس عاديّة»، لذا كان المندوبون محشورين في معاطف وسترات وصدريّات مصنوعة غالبا من الصوف. أمّا الذين حالفهم الحظّ بارتداء بدلات من القماش (وأغلبهم من الجنوبيّين) فقد كان حالهم أيسر بقليل.

فاقم الطابع الحضري لمدينة فيلادلفيا مشكلة الحرارة. فقد كانت البيوت المشيّدة بالحجر والآجر تحتفظ بدفء النهار. ووجد أحد الزائرين الفرنسيّين «أنّ الحرارة تجعل السير في الشوارع غير ملائم بشكل لا يطاق، فالمنازل والطرقات الضيّقة التي بنيت عادة بالآجرّ لا تبرد إلاّ بعد مغيب الشمس ببضع ساعات». وألحّ زائر ألماني في يونيو 1784 على أنّه خلال فترة ثلاثة أيّام «أُعْلِن عمّا «لا يقلّ عن ثلاثين حالة وفاة مفاجئة في صحف فيلادلفيا، وهم شهداء الحرارة بحسب تقارير ضبّاط القضاء». وأقرّ بأنّ «الشوارع الضيّقة والمنازل والأرصفة المبنيّة بالآجرّ مسؤولة بدرجة كبيرة عن الحرارة القاتلة في المدينة».

عبّر كثيرون في المدينة عن قلقهم، لاسيما من التأثير المضرّ بالصحّة لمياه الآبار المتجمّدة بعد يوم من الحرارة اللافحة. ونقل فرنسي أنّه ليس غريبا أن يُرَى عامل وهو يخرّ ميّتا على عين المكان بعد إطفاء عطشه من مضخّة مياه». وفي أوائل يوليو 1787 نشرت جمعيّة الرفق بالإنسان في فيلادلفيا (Humane Society of Philadelphia) نصائح لمواجهة «الآثار القاتلة لشرب الماء البارد أو السائل البارد من أيّ نوع كان حين يكون الطقس حارّا». ولحسن حظّ المصابين تضمّن العلاج مشروبَيْ اللندنوم (laundanum) والروم (rum).

لم توهن الحرارة من عزيمة المؤتمرين في البحث عن قليل من الراحة في مدينة فيلادلفيا. فخلال الصيف حضر الجنرال واشنطن حفلات استقبال وقراءات أدبيّة لتسلية المستمعين ومسرحيّات وشهد حفلات موسيقيّة في فندق المدينة نشّطها موسيقار تدرّب في أوروبا ووصل حديثا إلى المدينة. كما تناول العشاء مع أعضاء جمعيّة أبناء القدّيس باتريك الوِدّيّين

وأعضاء جمعيّة سنسيناتي، والتقى أعضاء الجمعيّة الزراعية. وذات يوم ثلاثاء قضّى أمسية ممتعة صحبة مندوبين آخرين في غرايز فرّي (Gray's Ferry) على ضفاف نهر شويلكل.

كان الجنرال يركب حصانه كلّ أحد صباحا متوجّها إلى الحقول الخضراء متحرّرا لبضع ساعات من المؤتمر والمدينة، ومستمتعا بالهواء النقي. كان يستمتع بالتوقّف في الحقول لتفحّص الأنشطة المحلّيّة التي يتعاطاها الناس، مثل زرع العنب وتربية النحل.

لكنّ أفضل استراحة لواشنطن ولمندوبين آخرين كانت على مقربة من منازل نخبة فيلادلفيا. فقد زار واشنطن خلال ذلك الصيف منزل عمدة المدينة، وأمضى معه عشر ليال؛ كما قضّى سبع ليال في منزل صديق قديم: ريز ميريديث. وبحلول منتصف الصيف كان يتناول عشاءه أيّام الأحد في نادي سبرينغزبيري، وهي مجموعة من العائلات على ارتباط بعائلة بان المنحدرة من مؤسّس المستعمرة. سجّل واشنطن أنّ عدد المناسبات التي «تناول فيها الشاي» مع مضيّفين فيلادلفيّين كان كبيرا إلى درجة أنّ المرء يتمنّى أن يجد العبارات اللطيفة في تسمية ما قد يقدّم له من مشروبات قاسية.

كان منزل وليام وآنّ بنغهام وجهة مفضّلة للمندوبين. كانا زوجين ثريّين وشابّين وسيمين، وكتب واشنطن عن تناول العشاء معهما: «في جوّ من الفخامة الرائعة». كانت السيّدة بنغهام التي ستصبح مسؤولة قصر الضيافة أثناء فترة رئاسة واشنطن محلّ إعجاب لجمالها وتأنّقها وانشراحها. تبدو في رسم جيلبرت ستيوارت ذات مظهر تقليدي مرتدية فستانا ذا تقويرة جريئة. وثمّة إقرار واسع بأنّها كانت أنموذج ستيوارت للمرأة المتحرّرة: «التمثال النصفي المكسوّ» المصكوك على النقود سنة 1795.

وقد وصف زائر من كينتاكي حفلا في بداية يونيو حضره أربعون شخصا بمنزل روبرت موريس. كان الضيوف يلعبون الورق، بينما كان فرنسيس هوبكينسن (الذي وقع على بيان الاستقلال) يعزف على معزف قيثاري صمّمه بنفسه. كانت بعض السيّدات أيضا يمرحن ويغنّين. وجاء في ورقة قائمة طعام ربّما تفسّر بدانة موريس: «تمّ تقديم قشدات مثلّجة بإسراف قبل العشاء».

لم يكن كلّ الناس مفتونين بفيلادلفيا. فبعد أسبوع فقط كتب جورج مايسون أنّه بدأ يشعر «من أعماق قلبه بالتبرّم من الشكليّات المتعلّقة بآداب السلوك والسخافات التي أصبحت موضة في المدينة». واشتكى قائلا: «أحتاج إلى بضعة أشهر لأتمكّن من هذه الأشياء». ومرّة أخرى قد يكون مايسون متذمّرا بطبعه. كان أوليفر إلسوورث مندوب كونكتكوت منزعجا بدوره من شكليّات الحياة الاجتماعيّة هناك: «أختلط بالناس من دون أن أستمتع بذلك. لقد سئمت تماما التملّق و الشكليّات. فلكي نكون متأنّقين يجب أن نكون تافهين...».

تلقّى مجتمع فيلادلفيا ردودا سلبيّة من زائرين آخرين. وبعد سنوات قليلة ستصف أبيغايل أدامز نساء المدينة بكونهنّ «ملطّخات بأحمر الشفاه حتّى الأذنين»، ومولعات بالموضة بشكل يوحي بأنّهنّ كنّ «يشبهن حرفيّا الأمّهات المرضعات». ووجد أوروبّي «أغطية رأس السيّدات متنوّعة كتنوّعها الملحوظ في باريس تقريبا»، لكنّه أضاف هازئا بأنّهنّ «يولين قدرا عظيما من الاهتمام لملابسهنّ وتسريحات شعرهنّ، ومن شدّة ولعهنّ بمظهرهنّ لم يعدن جذّابات». وقد وجد زائر فرنسي سنة 1791 هذا التكبّر لدى أولئك المعمّرين مسلّيا، فكتب: إنّ الفيلادلفيّين «أيّا كانت أصولهم يرسمون أكماما للأيدي على أبواب عرباتهم». وأقرّ فرنسي آخر بأنّ نساء فيلادلفيا يشتهين ركوب العربات «إلى درجة تقترب من الهذيان».

جنح فرنسي إلى التراجع عند همّه بالدخول إلى غرفة أكل فيلادلفيّة كما يتراجع علماء إناسة عثروا على مأدبة لآكلي البشر. ووجد أحد المركيزات أنّه «من البربري حقّا» أن يُجبَر الضيف «عندما يتناول شرابه الأوّل، وعند بداية كلّ عشاء» على أن «ينادي الجميع فردا فردا ويُعْلمهم أنّك تشرب نخبهم». إنّ «هذه المسرحيّة الهزليّة» قد تجعل الضيف «مستعدّا للموت عطشا» وهو يفكّر في «أنّ عليه أن يبحث عن أسماء» خمسة وعشرين أو ثلاثين ضيفا «ويلفت نظرهم».

خلال الليل قد يسألك أيّ كان: «سيّدي، هل تسمح لي بشرب كأس من الخمر معك؟». بهذه الطريقة في الطلب «يجب عليك أن توافق، ثمّ تملأ كأسك، وتواجه صاحبك، وتشربها حتّى الثمالة». وجد فرنسي آخر هذه الممارسة «تشجّع الاستهلاك المشطّ للكحول»، بينما

وصفها بريطاني بكونها «جديرة بالكريك والشيروكي». وإذا لم ينقر ضيف كأسه فإنّ باقي الضيوف قد يتوعّدونه أو يوصدون أبواب غرفة الأكل دونه إلى أن يفعل ذلك.

لم تكن العواقب مقرفة. فبعد وجبة رئيسة من اللحم المشوي والأطباق الساخنة مشفوعة بالفطائر والفاكهة والجوز، تنصرف السيّدات إلى ملجأ مريح. في تلك اللحظة بالضبط «يندفع الضيوف الذكور بثبات نحو ركن الغرفة باحثين عن موائد ليليّة ومزاهر يستريحون عندها للتحضير لجلسات خمريّة».

لم يكن لشكليّات التأنّق الاجتماعي ولا لحرارة الصيف الضاغطة أن تؤجّل الصراعات في المؤتمر. وبمغادرة المندوبين دار الولاية في 11 يونيو كان الكاروليّنيّون الجنوبيّون هم الرابحين بوضوح. فعندما تبادلت نيوجيرسي وبنسلفانيا التهديد بإحداث الانشقاق في صلب الاتّحاد أدرك الجنوبيّون أنّها فرصتهم السانحة، فاغتنموها برشاقة. مع مضي راتليدج قدما في القرار الدافع إلى حصص المساهمة، نفّذ الجنرال بينكني استراتيجيّته الحقيقيّة بدعم قرار ويلسون بشأن فقرة الثلاثة أخماس. لقد قام مندوب كاروليني جنوبي إمّا بنقل كلّ قرار طُرح خلال الدورة أو دعمه.

ولكن بالرغم من كلّ براعة الجنوبيّين لم يكونوا في 11 يونيو قد كتبوا بعدُ ترتيب الثلاثة أخماس للدستور. كانوا قد ربحوا معركة واحدة فقط، ولم يكن ذلك إلاّ في لجنة العموم. وستناقَش المسألة مجدّدا عندما يعاود المندوبون الاجتماع في المؤتمر. كانت ستبرز عوامل سياسيّة جديدة، وسيستعمل راتليدج استراتيجيّات جديدة لحماية إجراء الثلاثة أخماس وحتّى لتحسين حماية نظام العبوديّة ومصالح الجنوبيّين. وسيأسف بعض حلفاء ويلسون المقرّبين للصفقة التي كان قد عقدها.

الفصل الثامن

Festina Lente[1]

في وقت مبكّر لاحظ جورج ماديسون عمليّة إعادة التقويم والنظر الطاحنة في المؤتمر. كانت هذه العمليّة تسير ببطء لدرجة أنّه كان من المستحيل الحكم متى ستنتهي هذه القضيّة. قال ماديسون مازحا: «فستينا لنتي... قد تكون شعارا جيّدا لنا». إذا تُرجم هذا الشعار بطريقة فضفاضة فسيعني «أسرعوا ببطء»، وسيكون وصفا ملائما للمفاوضات حول التمثيل. في ظلّ مداولات مؤلمة، ورغم الحرص على التحرّك بسرعة، بذل المندوبون جهدا كبيرا في مسألة التمثيل إلى أن سقطوا في أكثر مواجهات الصيف حدّة.

أثبت مايسون لنفسه أنّه كان نوعا من الاكتشاف بالنسبة إلى المؤتمرين في القاعة الشرقيّة. فقد وصل إلى فيلادلفيا وهو لا يكاد يُعرف خارج حدود فرجينيا، «كانت الأميال الـ 140 التي قطعها وصولا إلى المؤتمر هي أبعد مسافة تاه فيها عن غانستون هول». لم يتقلّد منصبا عاليا حتّى في ولايته، وقد دفع قلمه بالفرجينيّين إلى الثورة من خلال قرارات فيرفاكس وبيان الحقوق لفرجينيا. عمل بشرف في مجلس الولاية، لكنّه لم يكن أبدا عضوا في الكونغرس، ولم ينضم إلى الجيش القارّي. وحين بدأ المؤتمر كان المزارع البالغ من العمر 62 عاما غير معروف لدى أغلب المؤتمرين. انغمس مايسون في مسألة المؤتمر. وكان قد قرأ كثيرا، وفكّر بجدّ في مسائل الحكم. لذلك كان لديه الكثير ممّا يستطيع أن يقدّمه. كان يصعد المنبر كلّ يوم من الأسبوع الأوّل. لقد منحت سنيّ عمره الطويلة وزنا لآرائه التي تدعّمت بفضل أسلوبه المباشر والانعدام الواضح لأيّ طموح سياسي لديه. وحين التقى إدموند راندولف مايسون لأوّل مرّة لاحظ على الرجل المتقدّم في السنّ «الاستخفاف بالبروز... و كرهه للأبّهة».

(1) تعبير لاتيني بمعنى «أسرع ببطء» (م).

كان جون جاي (الذي لم يكن مندوبا هو نفسه) يعرف كلّ زعماء البلاد، ولكنّه التقى مايسون للمرّة الأولى ذلك الصيف. تأثّر جاي فورا برؤية مايسون، ووجد الفرجيني «رجلا ذا مواهب وجديرا بأن يكون رفيقا. إنّ الذين سعِدْت كثيرا بهم خلال فترة تعرّف قصيرة قليلون جدّا». وقد مدحه مندوب من جورجيا مدحا لا يوصف:

إنّ السيّد مايسون رجل ذو قدرات قويّة لافتة فهو يتمتّع بفهم ثاقب ووافر، وهو متمكّن ومقنع في النقاش، وهو حازم وثابت على مبادئه.

ستستدعي الأسابيع القادمة كلّ ذرّة من حكمة مايسون.

في 13 يونيو، بعد يومين من تبنّي نسبة الثلاثة أخماس، أصدرت لجنة الكلّ[1] تقريرها. وبتعديلها ارتفعت قرارات راندلف إلى تسعة عشر، وهو ما مثّل كابوسا لمندوبي الولايات الصغيرة.

كان إعلان القرارات عن حكومة «وطنيّة» نذير شؤم، فالكلمة تنبعث منها رائحة حكم مركزي. لقد ولّى عهد الصوت الواحد للولاية الواحدة الذي كان دائما يطبّق حين تجتمع الولايات الثلاثة عشر. سيتمّ إسناد المقاعد في غرفتي الكونغرس على أساس عدد المواطنين الأحرار مضافا إليهم ثلاثة أخماس كلّ الآخرين (العبيد). كانت السلطات التشريعيّة غير محدّدة عمليّا. وكان بإمكان الكونغرس أن يتحرّك حين تكون الولايات «غير مختصّة»، وهو لبس أوهن من عزيمة أولئك الذين لا يثقون بحكومة مركزيّة. لقد ذهبت لجنة الكلّ إلى حدّ تبنّي خطّة ماديسون التي تسمح للكونغرس بإبطال قوانين الولايات. فنظر مندوبو نيوجيرسي وديلاوار مليّا في هذه القرارات المروّعة، وقرّروا مضاعفة جهودهم.

تبدو، بخلفيّة يومنا هذا، عمليّة تصفية الحساب بين الولايات الصغرى والولايات الكبرى جذّابة كرقصة المينويت أو كمبارزة عند بزوغ الفجر. لماذا تتكتّل ولايات شديدة التباين، مثل ماساتشوستس وبنسلفانيا وفرجينيا على حساب الولايات الصغرى؟ لم تكن

(1) في الاصطلاح المعاصر يمكن الحديث عن لجنة الكلّ حين تُعدّ كلّ الهيئة التشريعيّة لجنة واحدة وأعضاؤها هم أعضاء لجنة الكلّ. وهي تنعقد أساسا لمناقشة مشاريع القوانين أو تعديلها (م).

الولايات الكبرى، مثلما شرح ماديسون وويلسون خلال المناقشات بصبر في مرحلة أولى وبحنق بعد ذلك، متحالفة طبيعيًا لسحق الآخرين، فقد كانت مصالحها بالتأكيد شديدة التف أغسطس.

احتجّ ماديسون بأنّ اقتصاد ماساتشوستس يعتمد على الصيد وأنّ اقتصاد بنسلفانيا يعتمد على الطحين وأنّ اقتصاد فرجينيا يعتمد على زراعة التبغ. كما أنّ الولايات الثلاث لم تتكتّل قطّ في الكونغرس الكنفدرالي. فسأل ماديسون: «هل يُدْرك وجود تكتّل بين ولايات لمجرّد تساويها في الحجم؟».

لم تكن الولايات الصغرى مقتنعة. كانت تحمل كدمات نتيجة قرارات اعتباطيّة اتّخذتها جاراتها الكبرى. وقد عانت ديلاوار ونيوجيرسي من السياسات الضريبيّة والتجاريّة لبنسلفانيا. في حين عبّرت كلّ ولاية عن استيائها من ادّعاء فرجينيا المتعاظم ملكيّة الأراضي الواقعة غرب سلسلة جبال أبالاش. إنّ الارتياب بتلك الولايات الكبرى والأقوى نفوذا أمر طبيعي، كما رأت الولايات الصغرى أن التجربة أثبتت أنّها كانت محقّة في ارتيابها.

علاوة على ذلك، لا نزاع في أن الولايات الكبرى كانت متّحدة على مهاجمة معيار الصوت الواحد للولاية الواحدة. كان ماديسون يستطيع أن يخطب كامل اليوم حول المصالح المختلفة للولايات الكبرى، إلا أن هذه الولايات اتّحدت الآن. فما الذي تخفيه؟ وما هي المخطّطات الأخرى التي ستُكشَف حالما يسيطر الكبار الثلاثة فعليّا على الكونغرس؟ ومن تصدّق الولايات الصغرى؟ هدير ماديسون الذي لا يتوقّف، أم تجاربها الخاصّة؟

أصبحت القضيّة متشابكة مع سؤالٍ حول ما إذا كانت الولايات ذاتها قادرة على البقاء. في سنة 1787 كان ذلك السؤال مثيرا للغيظ. فعلى المستويين النظري والعملي، كيف تستطيع جهتان سيّدتان أن تتقاسما السلطة على مكان واحد؟ كانت بريطانيا قد فرضت حكومة مركزيّة قويّة على أمريكا التي خاضت حربا للتخلّص منها.

كان لا بدّ من تقسيم المسؤوليّات الحكوميّة بين أصحاب السيادة. لكن ما الذي يمكن أن يحدث حين تتداخل الواجبات، أو يحدث نزاع بشأنها؟ هل يمكن لحكومة مركزيّة أن تملك

«الطاقة» و«القوّة» وتسمح مع ذلك بدور ذي معنى للولايات؟



وليام باترسون (نيوجيرسي)

نظّم وليام باترسون مندوب نيوجيرسي قوّات الولايات الصغيرة. ربّما كان من المناسب وصفه بأنّ «مقامه صغير جدّا»، فقد كان الناس يتذكّرونه في أحسن الأحوال باعتباره سميّا لمدينة في نيوجيرسي تأسّست سنة 1791 كتجمّع صناعي نموذجي. جُلِب باترسون من إيرلندا وهو طفل يحبو، وكبر في محيط متجر العائلة ببرنستون. والتحق بمعهد نيوجيرسي قبل أن يلتحق به ماديسون بقليل. وقد جرفت الثورة باترسون من منصب محام يشتغل في مدينة صغيرة إلى مدّع عامّ للولاية، ولكنّ نظرته ظلّت ضيّقة. فقد اعتذر مرّتين عن قبول مقعد في الكونغرس الكنفدرالي، مفضّلا واجباته تجاه الولاية ومزاولة أعمال المحاماة الحرّة.

كشف ماديسون في ملاحظاته أن الولايات الصغرى انقسمت إلى مجموعتين. وكتب أنّ كونكتكوت ونيويورك أرادتا المحافظة على البنود بكلّ نقائصها، في حين استقرّت

نيوجيرسي وديلاوار على فكرة التساوي في الأصوات في الهيئة التشريعيّة لأيّ حكومة جديدة.

بعد تقرير لجنة الكلّ لم يبق لباترسون وحلفائه إلا بضعة أيام لحبك خطّة بديلة للحكومة. وفي يوم الجمعة 15 مايو عرضوا ما أصبح معروفا بخطّة نيوجيرسي، إلاّ أنّ النقاش تأجّل ليوم آخر.

استهدف بديل نيوجيرسي، مثلما كان شأن خطّة فرجينيا، توسيع بنود الكنفدرالية وتصحيحها؛ وبعكس خطّة فرجينيا، تحقّق بديل نيوجيرسي. كانت هناك عناصر مشتركة في كلتا الخطّتين. فقد منحت خطّة نيوجيرسي الكونغرس سلطة تنظيم التجارة وإن كان سيظلّ مضطرّا إلى تقديم طلبات تمويل من الولايات، وستكون تلك الطلبات مبنيّة على عدد المواطنين الأحرار مضافا إليهم ثلاثة أخماس الآخرين كلّهم. وسينتخب الكونغرس جهازا تنفيذيّا لمدّة نيابيّة واحدة، وسيكون بإمكانه إزاحته بأغلبيّة حكّام الولايات، وستنفّذ هيئة قضائيّة وطنيّة القانون في الولايات المتّحدة، وستكون هيئة عليا.

تعلّقت الاختلافات المركزيّة بالهيئة التشريعيّة وبعمليّة تعديل الدستور. وسيواصل بديل نيوجيرسي العمل بنظام الغرفة الواحدة في الكونغرس حيث تدلي كلّ ولاية بصوت واحد مع اشتراط الإجماع في بعض الإجراءات واشتراط تصويت تسع ولايات في إجراءات أخرى. وهكذا أكّدت الولايات الصغرى لا التساوي في التصويت فقط، بل التخلّي عن الكونغرس المقترح أيضا، وهو ما اعتبره بعض المندوبين تجديدا مهمّا. وعلى رأي ماديسون، سيكون مجلس الشيوخ جسما صغيرا يتألّف من مواطنين متميّزين يعملون «بهدوء ومنهجيّة وحكمة أكبر ممّا تتمتّع به الذراع الشعبيّة» للكونغرس.

وحين جاء وقت تعديل الدستور بلور جورج ماديسون الموقف المرن لخطّة فرجينيا، وقال: بما أنّ الدستور «سيكون بالتأكيد ناقصا فإنّ التعديلات تصبح لذلك ضروريّة، وسيكون من الأفضل أن يُهيّأ لها بطريقة سهلة ومطّردة ودستوريّة، عوضا عن الاتّكاء على الصدفة والعنف». وعلى النقيض من ذلك، واصل بديل نيوجيرسي مقاربة البنود؛ وبناء عليه يتوجّب

أن توافق الهيئات التشريعيّة للولايات على التعديلات بالإجماع.

تمّت مناقشة الخطّتين المتنافستين يوم السبت 16 يونيو. وبالرغم من أنّ الطقس قد اعتدل فإنّ اللهجة الخطابيّة ظلّت حامية، غير أنّ سجال الطرفين لم يكن متساويا.

تولّى جون لانسينغ مندوب نيويورك قيادة الولايات الصغرى. كان آنذاك وهو في الثالثة والثلاثين من عمره عمدة نيويورك، وعمل ناطقا باسم الجمعيّة العموميّة لنيويورك. نسب إليه أحد المعاصرين «تردّدا في الخطاب» ومعرفة قانونيّة «لم تكن شاملة، كما أنّه لم يتلقّ تربية جيّدة». إنّ رجلا مُتَعْتِعًا في الكلام محدودَ التعلّم، لا يُرجى منه أن يحدث أثرا في الوجهاء ذوي النظرات الصارمة في القاعة الشرقيّة.

حصر لانسينغ، متبوعا بباترسون، النزاع في دائرة ضيّقة. فقد أصرّ كلاهما على أنّ المندوبين يفتقدون سلطة تغيير البنود، وأن الناس سيرفضون أيّ محاولة من هذا النوع. كان عرضهما محدودا، بل باهتا. وقد أظهرت خاتمة الرجل النيوجيرسي ميلا غريزيّا إلى النحيف وليس إلى السميك: فاحتجّ بأنّ الكونغرس سيكون، تحت خطّة فرجينيا، متضخّما جدّا، ومن ثَمّ مُكلفا إلى حدٍّ لا يمكن معه الاحتفاظ به.

وفي ردّ لا يخلو من فظاظة، قام ويلسون بتشريح بديل نيوجيرسي بحماسة مفرطة. فقدّم المندوب البنسلفاني نقده القاسي من خلال عرض ثلاثة عشر فرقا بين الخطّتين، واصفا التسوية بين الولايات في التصويت بـ«السمّ الملوّث لكلّ فرع من الحكومة». وعقد مقارنات مع هولاندا وروما تحت حكم القيصر أوغسطس ومع ملوك إسبارطة القديمة. وقد رفض ويلسون التصوّر القائل إنّ المؤتمر لن يفعل أكثر من تعديل للبنود. إنّ الملاحظات التي سجّلها يايتس مندوب نيويورك تكاد ترتجف بفعل قوّة إيمان ويلسون (وبفعل فزع يايتس):

يعتبر ويلسون فيما يخصّه أنّ سلطاته تشمل كلّ شيء أو لا شيء، ولذلك فهو يملك الحقّ والحرّية في الموافقة على كلتا الخطّتين أو رفضهما معا. فالناس يتوقّعون الفرج من وضعهم الحالي المحرج ويتطلّعون إلى حصول ذلك في هذا المؤتمر الوطني. ويلزم عن ذلك أنّهم يتوقّعون حكومة وطنيّة.

إثر عطلة الأحد عادت الحرارة إلى الارتفاع يوم الاثنين صباحا 18 يونيو. كان متوقّعا أن يكون يوما عظيما. فقد كان المندوبون جاهزين لاختيار إحدى الخطّتين. وكان سيتمّ تثبيت البنية الأساسيّة للحكومة الجديدة. غير أنّ الاقتراع لم يبدأ البتة. لقد أدرك ألكسندر هاملتون فعلا معنى اللحظة، فاعتلى منصّة الخطابة في المؤتمر مدّة يوم كامل. ولسوء حظّه، لم يحسن استغلال الفرصة.

لم يكن هاميلتون يبلغ سوى اثنين وثلاثين عاما من العمر، ولكنّ تألّقه كان مسلّما به على نطاق واسع. كان نحيفا، وسيما، دائم التدقيق في أسلوب لباسه. وكان خطيبا مثيرا للإعجاب (حتّى وإن كانت خِطاباته مطوّلة) ملقيا لفقرات أنشئت بإتقان، راشِحا كاريزما حيّةً. كانت خطاباته مادّة لموسيقى الأوبرا، مثلما كانت قصّة حياته.

ولد هاملتون من أبوين لم يتزوّجا رسميّا في إحدى جزر الهند الغربيّة الغامضة. تيتّم فعلا في بداية مراهقته. وتميّزت طفولته بالالتياع والضياع والفقر. وقد أمسك جون أدامز بالحقيقة الأوّليّة، إن لم يكن بالوقائع الدقيقة، حين وصف هاملتون «بالابن اللقيط لبائع إسكوتلندي متجوّل». وصل هاملتون إلى نيويورك وهو في سنّ السابعة عشرة، ولم تكن له روابط عائليّة ولا ثروة، ومع ذلك صعد نجمه مثل صاروخ. وأصبح أثناء الثورة المساعد الأساسي لواشنطن، ممّا أكسبه قيادة ساحة الحرب والمجد في يوركتاون. وتزوّج ابنة فيليب شويلر أحد ملاّكي الأراضي الكبار الذي أصبح الداعم السياسي له.

في مجال الحكم، كان هاملتون أعجوبة. ويمكن مقارنة مواهبه في النقاش وإدارة المؤسّسات العموميّة بالبراعة الموسيقيّة لموسيقار نمساوي، وولفغانغ أماديوس موزارت. كتب هاملتون مقاله الصحفي الأوّل في سنّ العشرين، وجعل من قلمه سلاحا جبّارا، مؤلّفا رسائل طعن وتقارير ضخمة وتحليلات لاذعة. فقد كتب خلال خمسة أشهر أكثر من خمسين مقالا في السلاسل البارزة من «أوراق فدرالية» (Papers Federalist)[1]، ويختلف الناس في كونه أكثر من عرَفَتهم هذه الأمّة غزارة وحماسا في الدفاع عن القضايا السياسيّة. وقد استحضر

(1) الفيدرالي سلسلة من 85 مقالة كتبها هاملتون وماديسون وجاي سنتي 1787–88 تفسيرا للفقرات الواردة في الدستور الفيدرالي وحثّا للولايات على التصديق عليها (م).

جيفرسون اسلوب الكتاب المقدس حين لاحظ بحزن «من غير عدد، هو بنفسه جماعة».



الكسندر هاملتون (نيويورك)

حين أصبح هاملتون أوّل وزير للخزينة مكّنت سياساته الصارمة من استعادة المصداقيّة المهلهلة في ظرف سنوات قليلة. وقد وضعه ملاحظ لا يقلّ أهمية عن تاليراند في درجة نابوليون وتتشارلز جيمس ثعلب بريطانيا «باعتبارهم أعظم الرجال في عصرنا. وإذا كان عليّ أن أختار أحد الثلاثة فسأسند المرتبة الأولى بلا تردّد إلى هاملتون».

سيكون سقوط هاملتون مدهشا تماما كصعوده، إذ جمع بين المجاهرة القذرة بالزنا والفقدان المذلّ لنفوذه السياسي ووفاة ابنه البالغ من العمر عشرين سنة في إحدى المبارزات. وكان الفصل الأخير وفاتّه هو بنفسه عن ثمان وأربعين سنة في مبارزة بلا معنى أيضا مع ذلك المتهكّم والوغد الكبير نائب الرئيس هارون بير. إنّه لحدث مسرحي صرف.

لكنّ هاملتون كان يجسّد في فيلادلفيا سنة 1787 طاقة لا محدودة. فقد فرض على

المندوبين الانتباه الشديد إليه حين سطع نجمه في 18 يونيو. وإلى حدّ ذلك الوقت كان هادئا بشكل عادي. ولمّا سقط في الانتخابات المحلّية لوفد نيويورك على يدي يايتس ولانسينغ، ثار الرجل الشابّ لإحساسه بالتفاهة في القاعة الشرقيّة. والأسوأ من ذلك أنّه عبّر عن تبرّمه بكلتا الخطّتين المعروضتين أمام المؤتمر.

كان هاملتون يرغب في حكومة أمريكيّة قويّة لا تترك جنودها قطّ مرّة أخرى ليموتوا جوعا خلال فصل الشتاء القارس أو تقف عاجزة أمام الفلاّحين الغاضبين وهم يغلقون المحاكم. رأى في ذلك فرصة لطرح خيار ثالث يختلف عن خطّتي فرجينيا ونيوجيرسي. فبضربة جريئة بما يكفي قد يضخّ خياره دماء جديدة في المؤتمر ويصفّق له المندوبون. فالمجد إنّما يؤخذ غِلابا، وما كان هاملتون ليفتقر أبدا إلى الجرأة.

بالرغم من أنّ توقيت هاملتون كان ممتازا فإنّه أخطأ الإصابة في الجوهر. وسيظلّ لسنوات مسكونا بتهم تتعلّق بما قاله في خطبته المنمّقة التي دامت يوما كاملا، وكان ذلك أحد «الأخطاء الفادحة في مسيرته». اطمأنّ هاملتون إلى الوعد الذي تلقّاه بأن تكون مداولات المؤتمر سرّيّة. وفيما كان يهدف إلى استلهام رؤية جديدة للحكم الأمريكي ارتكب حماقة لا تُغتفر جديرة برجل سياسي ساذج: لقد جهر بما كان يفكّر فيه.

ما اعتقده هاملتون هو أنّ الديمقراطيّة تمثّل أساسا هزيلا للحكومة. فقد قال لرفاقه: «قيل إنّ صوت الشعب هو صوت الله، لكنّ ذلك في الحقيقة غير صحيح. فالشعب متقلّب متغيّر، ونادرا ما يقرّر حكما أو يحدّد الحقّ». والأفضل أن تُمنح السلطة لـ«لأغنياء وذوي الحسب»، وليس لـ«عامّة الشعب». هذا الجزء الأساسي من الملاحظات التي أبداها هاملتون لم يكن، رغم تعبيره عنه بصراحة شديدة، بعيد الاختلاف عمّا كان يذهب إليه عدد غير قليل من المندوبين. ولكنّ الرجل كان لديه أكثر من ذلك ليقوله.

كانت الولايات بالنسبة إلى هاملتون زائدة لحميّة غير مفيدة. وسيكون ثمن حكومة وطنيّة مقبولا «إذا كانت نتيجته هي انقراض حكم الولايات»، بالرغم من أن الولايات قد تكون مفيدة إذا «اختزلت في هيئات ذات صلاحيّات محدودة جدّا». وحتى إن كان بعض

المستمعين إليه قد يوافقونه في هذا الإحساس في نقاش خاصّ، فإن فعل التصريح به في المؤتمر قد دفع بهاملتون خارج دائرة التهوّر وداخل أرض المخاطر. لم يكن أيّ سياسي أمريكي سنة 1787 قادرا بجدّ على اقتراح إلغاء الولايات.

لكنّ هاملتون لم يتوقّف عند ذلك الحدّ. ففي مقاطع ستكون الأكثر إزعاجا في المستقبل، اقترب في خطوة خطرة من طلب تنصيب ملِك أمريكي. أكّد للمندوبين: «لا يمكن إرساء سلطة تنفيذيّة جيّدة مؤسّسة على المبادئ الجمهوريّة، إن النموذج الإنجليزي هو النموذج الجيّد الوحيد». إنّ نظام الحكم البريطاني «هو الأفضل في العالم»، و«عبّر عن شكّه في نجاح أي نظام يفتقر إلى النموذج البريطاني».

و لكي يدلّل على أنّها ليست ثرثرة تافهة، اقترح هاملتون بأن يحكم المسؤول الأوّل عن السلطة التنفيذيّة مدى الحياة. واستباقا للقول بأنّ هذا سيخلق نظاما ملكيّا –ففي النهاية بذل الأمريكيّون دمهم وأرواحهم طيلة ثماني سنوات للتخلّص من جورج الثالث– لاحظ دون اكتراث أنّ «المَلَكيّة عبارة غير محدّدة»، وأنّ كلّ سلطة تنفيذيّة ستشتغل مثل المَلَكيّة حتّى وإن كان ذلك لفترة حكم محدّدة ببضع سنوات فقط. وحتّى أعضاء مجلس الشيوخ لا بدّ أن يخدموا مدى الحياة.

في الختام ضيّق هاملتون من هامش الاختيار بين بديلَيْ فرجينيا ونيوجورسي، فكلاهما على حدّ قوله «لحم خنزير غير مخلّل، مع اختلاف طفيف في المرق».

من الأكيد أنّ هاملتون وفّر طبخة مميّزة، لكنّ الحيلة لم تنطل على المندوبين. فرغم جاذبيّته وطلاقته في مرحلة ما من الخطاب، –وربّما كان ذلك في الساعة الرابعة أو الخامسة– فإنّ المندوبين لا بدّ أن يكونوا قد عجبوا للمدى المأسوي لسوء تقديره.

قام ماديسون في الصباح التالي بإجراء عمليّة نزع أحشاء لبديل نيوجيرسي على طريقته الخاصّة. لم يشر أبدا إلى اقتراح هاملتون، ولم يفعل ذلك أيّ متكلّم آخر في ذلك اليوم. وقد قام مندوب من كونكتكوت بوأد مجهودات هاملتون بعد يومين من ذلك. وبالرغم من أنّ «الجميع مدح هاملتون فإنّ أيّا منهم لم يدعّمه».

صرّح بعضهم بأنّهم يجدون في هذه الحادثة استراتيجيّة هاملتونيّة ماهرة. وتقول نظريّاتهم إنّ هاملتون حين خاطر بموقف متطرّف لصالح حكومة قويّة مركزيّة، جعل خطّة فرجينيا تبدو معتدلة، محقّقا بذلك هدفه الحقيقي المتمثّل في رفض خطّة نيوجورسي. لا تتطابق النظريّة مع الوقائع. ففي 18 يونيو، وبصرف النظر عمّا ذكره هاملتون، كانت خطّة فرجينيا في طريقها إلى الحصول على الموافقة من تحالف الولايات الكبرى والولايات االعاملة بنظام العبوديّة، وهو تحالف كان ويلسون وراتليدج قد رعياه.

بالإضافة إلى ذلك، بدأ هاملتون يتراجع في اليوم التالي قائلا إنّه أراد للولايات أن تنقرض فقط «بصفتها ولايات»، لكنّها تستطيع أن تستمرّ «باعتبارها سلطات قضائيّة ملحقة». فلو كان هاملتون يريد فقط أن يوفّر ذريعة لنجاح خطّة فرجينيا فلن يزعج نفسه كثيرا بالتفسير.

على النقيض من ذلك، استفاد خطاب ماديسون في 19 يونيو من التحضير الطويل للمؤتمر ومن الآراء المتبّصرة التي جمعها من مراسلاته ومذكّراته خلال العام السابق. كان مستوى إحاطته شديداً جدّا ومنطقه لا يقاوم. فقد عدّد انتهاكات مختلف الولايات للبنود، وهي انتهاكات لا يمكن لخطّة فرجينيا أن تضع حدّا لها. وأشار ماديسون إلى أن «المشكلة الكبرى تكمن في التمثيل (في الهيئة التشريعيّة)، وأنّه إذا تمّت تسوية هذه المسألة فسيمكن تخطّي كل المسائل الأخرى». لكنّه، على طريقته التي دأب عليها خلال الصيف، لم يعرض أيّ تسوية. ففي 19 يونيو، وبفضل ولسون وراتليدج، لم يكن في حاجة إلى تسوية. لقد فازت مجموعته بأغلبيّة الأصوات.

لم يكن موعد الانتخابات قد اقترب. وظلّ التحالف بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة صامدا بحزم، محقّقا بانضمام كونكتكوت إليه تفوّقا بـ 7–3 (انقسمت مريلاند مرّة أخرى بالتساوي، ولم تُدْلِ بأيّ صوت). لقد انتصرت خطّة فرجينيا.

كان موقف كونكتكوت غير المتجانس بمثابة الشوكة المغروسة في ذلك الانتصار. فهي لم تكن ولاية كبيرة ولا ولاية عاملة بنظام العبوديّة. فلم التحقت بذلك التحالف؟ وما هي الإستراتيجيّة العميقة التي كانت تتّبعها؟

كان وفد كونكتكوت وفدا محترما يقوده روجي شيرمان الذي أمضى على كلّ من بيان الاستقلال وبنود الكنفديراليّة. جمع شيرمان بين خصال مشوّشة، فقد أضاف إلى الذكاء المتوقّد الشديدِ الفظاظةَ التي لقي الملاحظون عناء في وصفها.



روجي شيرمان (كونّكتكات) بريشة توماس هيكس بأسلوب رالف إيرل ، 1866

كان طويل القامة، ذا عينين زرقاوين وشعر بُنّي كثيف قصّه بغير إتقان ولم يضع عليه أبدا أيّ مسحوق. كتب جون آدامز: إنّ «مظهر شيرمان الخارجي نقيض للأناقة، ولا يمكن أن يوجد شيء يناقض بشكل صارخ الفعل الجميل أكثر من حركة يديه». وقد وصف أحد المندوبين شيرمان بأنّه «أكثر الناس غرابة في المظهر»، وأنّه «غريب بشكل لا يمكن تفسيره». ولكنّ مندوبا آخر تلقّى هذا التحذير من صديق: «إنّه ماكر كالشيطان، وإذا هاجمته فينبغي أن تعرفه جيّدا، إذ لا يمكن التحكّم فيه بسهولة. إلاّ أنّه إذا ارتاب في أنّك تحاول مخادعته

فستتلقّى ضربة تحت الحزام».

لم يترك شيرمان سبلا كثيرة للعيش لم يجرّبها. فقد بدأ حياته إسكافا ثمّ مسّاحا للأراضي وفلاّحا وتاجر عقارات وكاتب روزنامات ومحاميا وصاحب متجر وأمين الخزينة في جامعة ييل. وبالرغم من أنّه لم يكن غنيّا قطّ، فقد أمضى العشرين سنة الأخيرة في القطاع العمومي قاضيَ صلح وعمدةً لنيوهافن، وعمل قاضيا وعضوا في الكونغرس.

طوّر شيرمان بفضل ممارسته لكلّ هذه المهن ملكة التقدير السياسي السليم وجاذبيّة أشعّت على محيّاه المميّز. كتب أحد المندوبين إنّه «لا يوجد بشر يملك قلبا طيّبا ولا عقلا نيّرا مثله». وقال توماس جيفرسون مثنيا عليه: إنّ شيرمان «لم يقل في حياته قطّ شيئا سخيفا». وقد خسر في 11 يونيو انتخابات مجلس الشيوخ وفق نظام التساوي في التصويت بين الولايات لأنّه تجاهل قاعدته السياسيّة: إذا كنت أقليّا فتكلّم، وإذا كنت أغلبيّا فصوّت». كان دعا إلى تصويت لم يستطع الفوز به، ولن يكرّر ذلك الخطأ مجدّدا.

.بمرور الصيف كان شيرمان ورفاقه من كونكتكوت قد استنزفوا خطّة فرجينيا مقوّضين في النهاية التحالف بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة. وستكون النتائج بالنسبة إلى الحكومة دراماتيكيّة.

باستمرار صعود التحالف الذي شكّله ويلسون وراتليدج، قام المندوبون بحلّ أنفسهم باعتبارهم لجنة الكلّ، وأعادوا تنظيم أنفسهم باعتبارهم مؤتمرين. استعاد الجنرال واشنطن كرسي الرئاسة. وكانت الخطوة القادمة تتمثّل في إكساء عظام القرارات التسعة عشر للخطّة لحما. كتب كاروليني شمالي في اليوم الذي تمّ فيه إقرار خطّة فرجينيا: إنّنا نتقدّم ببطء في مهمّتنا، وهي بالتأكيد مهمّة بالغة الدقّة والصعوبة، وتتعرّض في كلّ خطوة للعرقلة بسبب الغيرة والمصالح المتنافرة.

أجهد الإيقاع البطيء للمؤتمر ميزانيّة عديد المندوبين. وبالرغم من أنّ الثري ماديسون ابتهج بكون «كلفة الحياة منخفضة» في فيلادلفيا، فإنّ مندوبين من نيوجيرسي ونورث كارولينا كتبوا لمسؤولي ولايَتَيْهِم طالبين مزيدا من الرواتب. وبحلول شهر يوليو شرع الفرجينيّون

في سحب مزيد من الأموال، كما طلب مندوب ماساتشوستس مساعدة عاجلة من ولايته لخلاص فواتيره. وانتقل وليام صموئيل جونسن مندوب كونكتكوت من فندق المدينة إلى إقامات أقلّ كلفة. واشتكى جون راتليدج قائلا: «حين غادرت شارلستون لم أفكّر أصلا في البقاء هنا نصف المدّة التي أمضيتها»، وطلب من بعض أقاربه بالبيت تغطية بعض الفواتير التي حان موعد دفعها. وأسرّ مندوب من نورث كارولينا، قبل أسبوعين من نهاية المؤتمر في سبتمبر أنّه سيُضطرّ إلى الاقتراض للعودة إلى البيت، و هو ما وجده «أمرا محزنا جدّا».

غير أنّ أيّ مندوب لم يغادر فيلادلفيا بسبب نقص الأموال. فبحلول منتصف يونيو، أي بعد حوالي شهر من انعقاد المؤتمر، أدرك المؤتمرون كم كان العمل هامّا، خاصّة بعد أن أصبح أكثر دقّة وصعوبة.

رغم رفض بديل نيوجيرسي بقيت كثير من المسائل عالقة. فلم يكن مندوبو الولايات الصغرى مهيّئين للتخلّي عن مبدأ التكافؤ في التصويت بين الولايات. وكان لا يزال على المؤتمر أن يتخيّل مسؤولا تنفيذيّا وطنيّا لا يتحوّل إلى ملك ويتوصّل إلى طريقة لانتخابه، كما كان عليه أن يتكيّف أيضا مع توسّع البلاد غربا.

ولم تصل قصّة العبوديّة إلى نهايتها عند ذلك الحدّ.

الفصل التاسع

إلى شفير الهاوية

21 يونيو – 10 يوليو

بحلول آخر شهر يونيو، شعر جيمس ماديسون بالقلق. وبعد خمسة أسابيع من الانعقاد كان المؤتمر لا يزال متعطّلا بسبب مسألة كيفيّة هيكلة الكونغرس الجديد. لقد خاض المؤتمرون في الموضوع أيّام 20 و21 و25 يونيو، وخاض فيه مرّة أخرى يوم 26 يونيو. ولم يتمّ الحسم في أيّ مسألة مهما بدت بسيطة. كانت كلّ مسألة ترد على المؤتمر مرّة ثانية وثالثة وحتّى رابعة. هل ينبغي أن يكون الكونغرس غرفة واحدة أم غرفتين؟ هل يجدر اختيار النوّاب على أساس المقاطعات؟ كيف يتوجّب اختيار أعضاء مجلس الشيوخ؟ كم ينبغي أن تستغرق المدّة النيابيّة؟

في 27 يونيو حاول راتليدج الذي لا يهدأ له بال أن يدفع المندوبين إلى الأمام. تحرّك لكي يأخذوا بعين الاعتبار «النقاط الأكثر أهمّية» المتعلّقة بكيفيّة انتقاء أعضاء الكونغرس. فاعترض لوثر مارتن مندوب بالتيمور، وهو أحد الرموز البارزين خلال الصيف، على هذه الدَّفعة العنيفة من راتليدج. كان مارتن، المدّعي العام لولاية مريلاند، محاميا محنكا، بلغت براعة خطابه درجة التخدير. ورغم أنّ مرور عدّة قرون قد أحال عددا من مصمّمي التاريخ الأمريكي إلى رموز من رخام فإنّ حقبا طويلة من الزمن لم تفعل ذلك مع لوثر مارتن. ففي وصف لمرافعته الناجحة عن هارون بير المتّهم بالخيانة، صوّر هنري أدامز:

المدّعيَ العامَّ لولاية مريلاند المَرِحَ الظريف الجسور... المخمور، الكريم، المهمل، الرائع... وهو يصرخ كطفل مرح لفكرة تمزيق لائحة الاتّهام إربا إربا ويلقّن الفرجينيّين الديمقراطيّين بعض الدروس في القانون. إنّه ذلك السيّء الصيت، المنبوذ، العبقري لوثر مارتن.

كان المعاصرون لمارتن شديدي الذهول «لاستخفاف الرجل الكامل بالذوق السليم والرقّة في لباسه وكلامه». وكما كان يتذكّره روجر تاني، الذي عمل قاضيا أوّل في المحكمة العليا مدّة ثلاثة عقود، كان «بذيئا وغير لائق في جلوسه إلى مائدة الطعام وفي طريقة أكله، وكذلك كان حاله في كلّ شيء».

بعد أن شاهد رجل آخر، سيصبح في المستقبل قاضيا بالمحكمة العليا، مارتن وهو يرافع في إحدى القضايا سنة 1808، وجد صعوبة في تفسير رفعة منصبه. فقد ألْفاه «متوسّط القامة تقريبا» غير مهذّب في لباسه»، لكنّه يتكوّن من «مركّب فريد من الخصال الغريبة»:

إنّه يعمل بجدّ لكسب الثروة، لكنّه لا يستطيع الحفاظ عليها. إنّ التجربة مهما كانت قاسية، لا تصلح أبدا ولو سلوكا واحدا. لقد سمعت نوادر أذهلتني عن التهوّر واللامبالاة... ينبغي أن تسمعوا عن شهرة مارتن من أولئك الذين عرفوه لمدّة طويلة وبصفة حميمة، ولكن لا أنصحكم برؤيته.

في ذلك اليوم المتأخّر من شهر يونيو، انتصب لوثر مارتن للتنديد بخطّة فرجينيا. وقد ظلّ يخطب لمدّة تفوق الثلاث ساعات مندّدا «بنظام العبوديّة المطلّ على الولايات العشر الصغرى». وقد وجد يايتس مندوب نيويورك الذي كان متّفقا مع مارتن، ملاحظات المريلاندي «مسهبة وفي عديد الأحيان كثيرة الاستطراد لدرجة أنّه يتعذّر... منهجة أفكاره في نسق نظامي واستدلالي».

بحلول منتصف ما بعد الظهر أعلن مارتن أنّه «لا يستطيع إنهاء خطابه من شدّة الإرهاق»، لكنّه تعهّد باستئنافه في الصباح التالي. وقد كان عند وعده، ممّا غاض زملاءه. ففي سجال حادّ نُشِر بعد المؤتمر، أوحى أوليفر إلسوورث من كونكتكوت بأنّه كان بإمكان مارتن أن يتكلّم «طيلة شهرين، لولا علامات التعب تلك وحالة الاشمئزاز التي كنت ترى تعبيرا قويّا عنها أينما قلّبت نظرك الكليل في أرجاء القاعة».

وفي ملاحظات أكثر اقتضابا، عكس مندوبو الولايات الصغرى الأخرى مشاعر مارتن حول المسألة «الأكثر أهمّية» التي كان جون راتليدج قد طرحها. ندبوا عبوديّتهم للولايات

الكبرى، وقد بدأت تتجلّى شيئا فشيئا، ورفضوا بازدراء التطمينات التي وفّرها مندوبو تلك الولايات. وقد وقع اجترار المعزوفة نفسها مرارا و تكرارا.

وفي النهاية حثّ الدكتور فرانكلن المندوبين بتواضع على أن يقرّوا بدور الله القدير، وذلك بأن يستهلّوا كل ندوة بالصلاة. اعترض هاملتون على الصلاة مظهرا الصمَم السياسي الذي أصابه خلال هذه المرحلة من المؤتمر. وحذّر من أنّ الاستهلال بها قد يؤدّي بالرأي العام إلى إبداء «ملاحظات انتقاديّة حول تقدّم المؤتمر». وقال مندوب آخر موافقا: ليس هناك على أيّ حال أموال لتسديد أجرة كاهن يؤمّهم في الصلاة. وهكذا لم يتمّ استخدام أيّ كاهن.

قبل ثلاثة أسابيع فقط، كان الحلف المعقود بين ويلسون وراتليدج قد هزم خطّة نيوجيرسي، لكن واصل مندوبو الولايات الصغرى كفاحهم مصرّين على أن يكون لكلّ ولاية صوت مساو للولايات الأخرى في مجلس الشيوخ. لقد نفّذوا الآن قاعدة روجر شيرمان السلوكيّة؛ كانوا في عداد الأقلّية، فواصلوا الكلام.

بينما أخذ ماديسون يفكّر في المأزق قام بقفزة غريزيّة متغاضيا عن الكلام الذي يقال. فقد خلص إلى أنّ العبوديّة هي سبب المأزق، رغم أنّه لا أحد من المندوبين أشار إليها لأكثر من أسبوعين.

بدأ ماديسون في تفسير رؤيته في 29 يونيو. قال: إنّ أكبر خطر يهدّد الحكومة الجديدة هو «تصادم المصالح الكبرى للولايات الجنوبيّة والشماليّة للقارّة». وفي إظهار لإيمانه بأنّ الوقائع قادرة على الإفحام، قال مرشدا للمندوبين: «انظروا إلى الأصوات في الكونغرس، إنّها منقسمة في أغلبها على أساس جغرافيّة البلاد وليس على أساس حجم الولايات».

عاد الفرجيني إلى هذه المسألة في اليوم التالي. كان أوليفر إلسوورث ، قاضي كونكتكوت في المحكمة العليا، يقود ضغط الولايات الصغرى من أجل التساوي في التصويت داخل مجلس الشيوخ. وقد احتجّ بأنّ الولايات الكبرى تستطيع حماية نفسها من خلال مجلس النوّاب الذي سيعتمد على عدد السكّان، ولذلك فإن الولايات الصغرى تحتاج إلى وسيلة مشابهة لحماية نفسها.

أعاد ماديسون طرح النقاش. وقال: إنّ الانقسام هو بين الولايات «التي تملك عبيدا والتي لا تملك عبيدا». كان على الحكومة أن تقرّ بالتضارب الهامّ في المصالح وأن تمنح كلّ ولاية السلطة الكافية لحماية نفسها. وواصل قائلا إنّه إذا كانت هناك أيّ مصلحة في أمريكا تستحقّ هذه «السلطة الدفاعيّة» «فينبغي أن تعطى لهاتين المصلحتين بصفة مشتركة»: العبيد وغير العبيد. لقد كان «شديد التأثّر بهذه الحقيقة الهامّة التي كانت تجول بخاطره بحثا عن وسيلة لتحقيق الهدف».

كانت وسيلة ماديسون هي البساطة نفسها. ينبغي أن تمثّل إحدى غرفتي المجلس التشريعي مصالح العبيد. أمّا الأخرى فلا. قال مفسّرا:

ينبغي أن يكون التمثيل في فرع واحد على أساس عدد المواطنين الأحرار فقط، وفي الفرع الآخر على أساس العدد الجملي للعبيد، كما لو كانوا أحرارا. وبهذا الترتيب سيكون للجنوبيين الأفضليّة في غرفة وللشماليّين التفوّق في غرفة أخرى.

وهكذا اقترح ماديسون تحديد غرفتي الكونغرس على أساس العبوديّة مرسّخا بذلك هذه الممارسة في عمق النسيج الجيني للأمّة. فسيكون على جزء من الكونغرس واجب حماية العبوديّة بالتحديد.

مات المقترح بسبب الإهمال، إذ لم يعلّق عليه أحد خلال الأسابيع الأحد عشر المتبقية من المداولات عدا ماديسون.

لماذا أطلق مثل هذه المبادرة الدونكيشوتيّة دون أن يكون له حلفاء ظاهرون؟ هل أسقط حالة الاضطراب التي كان يعاني منها باعتباره مالكا للعبيد على مأزق المؤتمر؟ إنّ سوء التقدير هذا أمر نادر بالنسبة إلى ماديسون الذي كان ملاحظا سياسيّا متبصّرا.

إنّ تفسيرا أفضل هو أنّ ماديسون كان ينكأ في الجرح الذي يزعج المؤتمر كلّه، رغم عدم استعداد أحد للاعتراف بذلك. وبتقدّم الصيف، ارتفع الشعور بالمرارة بين بعض مالكي العبيد والمندوبين الشماليّين، ممّا دفع في الأخير بالرائد بتلر المعروف بحدّة طبعه إلى الصياح

غضبا قائلا إن الجنوبيّين أرادوا حماية عبيدهم من مخطّطات المندوبين الآخرين الهادفة إلى تحريرهم.

هل أثيرت الملاحظات الداعية إلى إزالة الرقّ في الفنادق أو في أروقة دار الولاية؟ وهل كان الجنوبيّون يتذمّرون فيما بينهم من الآراء المعادية للعبودية للدكتور فرانكلن والشابّ هاملتون وغيرهما؟ عندما تكلّم ماديسون في 30 يونيو كانت العبوديّة لا تزال الفيل الذي يدور المندوبون حوله باحتشام في قاعة الاستقبال. وستُظهر الأسابيع القادمة أنّه كان محقّا في رؤيته العبوديّة مشكلة جوهريّة، وذلك بالرغم من أنّ علاجه المطروح لم يَرُقْ لأحد. كانت العبوديّة مشكلة حسّاسة إلى درجة أنّ المؤتمر لم يستطع مواجهتها مباشرة مثلما اقترح ماديسون. بدل ذلك كان المندوبون يحومون حولها مقتربين منها إلى حدّ أنّه غدا من المستحيل اجتنابها. كان المسار يحتاج إلى مزيد من الوقت.

تُظهر هذه الحلقة كيف أن النظرة التقليديّة لماديسون باعتباره «أب الدستور» لا تعكس حقيقة المؤتمر. فبفعل ذكائه واطّلاعه كان يفرض الاحترام على كلّ مندوب. وكما كتب أحدهم عن ماديسون بإعجاب لا متناه: «في خصوص شؤون الولايات المتّحدة، يملك ماديسون معرفة أصحّ ممّا يملكه أيّ رجل آخر في الاتّحاد».

في الحقيقة كان الفرجيني كثيرا ما يخرج خاسرا في النزاعات التي تدور في المؤتمر. فحسب رواية أحد الدارسين: «من بين المقترحات الخاصّة الحادية والسبعين التي قدّمها ماديسون أو دعّمها أو تكلّم عليها بشكل لا يضاهى، كان الخاسرَ في أربعين حالة». كان ماديسون ذاته متواضعا بشأن مساهماته. ففي السنة التي سبقت وفاته، رفض المقولة التي تفيد بأنّه «كاتب الدستور». وأصرّ على أنّ الميثاق لم يكن «من صنع عقل واحد. ينبغي أن يُنْظَر إليه باعتباره عملا من صنع الكثير من العقول والكثير من الأيدي». وهكذا ينبغي له فعلا.

لا ينبغي أن يفاجئ المعدّل العادي للربح والخسارة الذي حقّقه ماديسون أحدا. فقد التزم أكثر من أيّ مندوب آخر بإنشاء حكومة وطنيّة قويّة، مثلما تجلّى ذلك في حملته الفاشلة لمنح الكونغرس سلطة نقض قوانين الولايات. علاوة على ذلك فإنّ السبيل التي سلكها المؤتمر

ستنأى بعيدا عن مقترحات فرجينيا في الوقت الذي فتح فيه مندوبون آخرون آفاقا أخرى، وستدفعهم إلى التشبّث بتلك الآفاق.

حين عاد ماديسون إلى منضدة الكتابة في 30 يونيو، وقد ولد مقترحه ميّتا، كان الضغط في القاعة الشرقيّة مستمرّا في الصعود. نشد الدكتور فرانكلن التسوية من خلال تلك الصورة التي استمدّها من عالَم النجارة:

إذا رام نجّار إلصاق لوحين، فإنّه يزيل بمسحاجه عن كلّ جهة الأجزاء غير السويّة، وهكذا يلتصقان. فلنفعل الشيء ذاتَهُ.

لكنّ تهذيب الحواشي الخشنة لم يكن مزاج ذلك اليوم. فقد قال مندوب من نيويورك حانقا: إنّ اختيار أعضاء الكونغرس على أساس عدد السكّان سيخلق «وحشا برمائيّا». وبسبب تأثّر كانينغ بدفورد بالخطب الطنّانة التي ازدادت سخونة، وانزعاجه من غطرسة تحالف الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة، انبرى يخطب. كان هو المدّعي العام لولاية ديلاوار، وكان جريئا سريع الانفعال. وفي ظهيرة ذلك اليوم الحارّ والرطب، شرع في إلقاء «أكبر خطاب عاصف في المؤتمر».

تحدّى بدفورد التحالف القائم بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة. كانت جورجيا ونورث كارولينا وساوث كارولينا (المنتفشة كبْرا بثروتها وعبيدها) «قد اتّحدت مع الولايات الكبرى». وتعاملت هذه الولايات بغطرسة مع الولايات الأخرى، ولم يعد بدفورد يتحمّل ذلك. فصرّح متحدّيا: «إنّني لا أثق بكم أيّها السادة. إذا أمسكتم بالسلطة فلن يكون كبح تجاوزاتكم ممكنا. إذ ما الذي سيمنعكم حينئذ من استعمالها لتحطيمنا؟». كان الأفق مرعبا أمامه: «هل ستسحقون الولايات الصغرى؟».

لم يكتف بدفورد بالتنديد بزملائه شخصيّا، بل انعطف إلى مستوى الخيانة: «قبل أن يدمّر» تحالف الولايات الكبرى مع الولايات المالكة للعبيد الولايات الصغرى تستطيع هذه الأخيرة أن تلجأ إلى «حليف أجنبي أكثر شرفا وجديرا بالثقة، يأخذ بيديها وينصفها».

ألهبت كلماته حماس الرجال الذين ملأوا القاعة وكانوا قد خاطروا بكلّ شيء في نضالهم ضدّ الإمبراطوريّة البريطانيّة وفقدوا رفاقا أعِزّة عليهم في سبيل تلك القضيّة. وبعد مرور أربع سنوات على تلك الحرب، هل ستنقلب الولايات على بعضها بعض متحالفة مع قوى أوروبّيّة متنافسة؟ بدا الأفق رهيبا.

سارع إلسوورث مندوب كونكتكوت مسنودا بذلك الحليف ذي الحماقة المحزنة إلى إلقاء بيان أقلّ تفجّرا عن موقف الولايات الصغرى. لكنّ مندوب ماساتشوستس، روفوس كينغ، لم يَدَعْ المسألة تمرّ. عبّر كينغ عن اندهاشه من اقتراح مندوب ديلاوار (ضمن ملاحظات ماديسون) «وضع اليد في يد قوّة أجنبيّة!». فقد تردّدت أصداء هذه الجملة المروّعة في داخل الغرفة. وأضاف كينغ قائلا: «أرجو أن يجد بدفورد لنفسه عذرا في حالة الانفعال التي كان عليها».

ومن حسن الحظّ أنّ سورة الغضب التي تملّكت بدفورد جاءت في نهاية اليوم، وكان يوم سبت آنذاك، واليوم التالي يوم عطلة بالنسبة إلى المندوبين. فقد أمكن للأمزجة أن تهدأ وللخيال الخصب أن يبحث عن حلّ بعيد عن التمثيل الذي يؤدّي إلى طريق مسدودة. وقد أدرك جورج مايسون أنّ المؤتمر في مفترق طرق حاسم. فكتب إلى أحد أصدقائه: «سيمكّننا مرور يومين أو ثلاثة أيّام على الأرجح –وهو أمر مشكوك فيه الآن كثيرا– من أن نحسم فيما إذا كان تشكيل نظام سليم وفعّال ممكنا أم لا».

حين اجتمع المندوبون مرّة أخرى يوم الاثنين 2 يوليو، قدّم إلسوورث مقترحا فوريّا يدعو فيه إلى المساواة في التصويت بين الولايات داخل مجلس الشيوخ. فقد علّقت الولايات الصغرى كلّ آمالها على هذا الإجراء الذي خسره روجر شيرمان يوم 11 يونيو بهامش 6–5. وحسب بديهيّة شيرمان، إذا رغبت الولايات الصغرى في التصويت مجدّدا فإنّ شيئا ما يكون قد تغيّر. جلس المندوبون وهم في حالة قلق حين بدأت المناداة إلى التصويت. صوّتت ماساتشوستس أوّلا، ثمّ كونكتكوت، ثمّ نيويورك. فهل كان المؤتمر سينجز نقلة عملاقة؟ أم يظلّ يدور في حلقته المفرغة مرّة أخرى؟

بعد أن صوّتت عشر ولايات، أي كلّ الولايات انتهاء بساوث كارولينا، لم يتغيّر شيء منذ تصويت 11 يونيو. كانت النتيجة 5—5. انضمّت الكارولينتان إلى الولايات الثلاث الكبرى (بنسلفانيا وفرجينيا وماساتشوستس) في التصويت بلا. وكان لا يزال على جورجيا أن تصوّت.

كان ينبغي أن تكون هزيمة مقترح إلسوورث نتيجة محتومة. فخلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة عبّر مندوبو جورجيا الأربعة عن إخلاصهم للتحالف بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة. ورغم حداثة عهدها كانت جورجيا تنمو بسرعة وتنتظر التحوّل إلى ولاية كبرى عن قريب. وقد ساند مندوبوها التمثيل القائم على عدد السكّان مضافا إليهم نسبة الثلاثة أخماس.

ولكنّ تغييرا هامّا حدث في وفد جورجيا ذلك الصباح.

كان اثنان من الجورجيّين عضوين أيضا في الكونغرس الكنفدرالي المنعقد في نيويورك آنذاك. وقد عيّنهما مجلس الولاية في كلا المجلسين لتوفير نفقات إرسال مزيد من المندوبين إلى الشمال. وكان العضوان قد غادرا للتوّ إلى نيويورك.

وهكذا لم يكن هناك إلا جورجيّان في القاعة الشرقيّة يوم الاثنين 2 يوليو. فلو غيّر أحدهما وجهة تصويته لقلب موقف الولاية من 4—0 ضدّ قرار إلسوورث إلى تعادل سلبي 1—1.

فجأة تسلّطت أضواء التاريخ على إبراهام بالدوين، وهو شخصيّة غامضة حقّا إلى حدّ هذه اللحظة، وبعد ذلك أيضا. تخلّى بالدوين الكنّكتكي الأصل عن دراسة اللاهوت مفضّلا عليه القانون. وانتقل إلى جورجيا قبل المؤتمر بثلاث سنوات فقط، لكنّ نجمه صعد بسرعة في تلك المجموعة السكنيّة الصغيرة. ففي صباح 2 يوليو، ومن دون أن يوفّر كلمة تفسير واحدة، غيّر مسار المؤتمر بتغيير موقفه. فقد أيّد مبدأ التساوي في الأصوات داخل مجلس الشيوخ، ممّا أدّى إلى عدم الاتّفاق بين عضوي جورجيا وإلى إلغاء تصويت الولاية.



إبراهام بالدوين (جورجيا)

أصيب المندوبون بالصدمة. كان التعداد النهائي للتصويت على مقترح إلسوورث 5–5–1. وبحكم القوانين سقط المقترح، لكنّ ذلك لم يكن مهمّا. لقد فعلتها الولايات الصغرى. فقد وضعت حدّا لجبروت التحالف بين الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة. كان هذا التحوّل العملاق بمثابة زلزال. وأصبح المأزق الآن حقيقة.

لم يعط بالدوين قطّ، على امتداد مسيرة طويلة من العمل للصالح العامّ شملت ثلاث فترات نيابيّة في مجلس شيوخ الولايات المتّحدة، تفسيرا للتحوّل الذي طرأ على موقفه في 2 يوليو. وقد جاء التفسير المعاصر الوحيد من لوثر مارتن مندوب مريلاند، الذي عزاه إلى اعتقاد الجورجي بأنّ مندوبي الولايات الصغرى كانوا «سيعودون إلى ولاياتهم، ممّا يؤدّي إلى حلّ المؤتمر قبل أن نتخلّى عن المسألة». حسب تقرير نسب إلى جوناثان دايتون مندوب

نيوجيرسي، كان مندوبو الولايات الصغرى عازمين فعلا على المغادرة إذا لم ينتصروا في هذه القضيّة.

ولتفسير حركة بالدوين، لا يستطيع حتّى كاتب سيرة حياته سوى التكهّن بأنّ نوعا من التضامن مع كونكتكوت هو الذي غيّر موقفه.

كان بالدوين قد أمضى عددا من السنين في نيوهافن حيث كان روجر شيرمان أبرز شخصيّة قياديّة في المدينة. وقد أقام بالدوين وأوليفر إلسوورث معا في نيويورك حين عملا في الكونغرس، واعتاد بالدوين أن يشير إلى إلسوورث باعتباره «رفيق الحجرة». وفي فترة لاحقة خلال شهر يوليو، أراد بالدوين أن يسافر مع شيرمان ووليام صموئيل جونسن (المندوب الثالث لكونكتكوت)، لكنّ الرحلة فشلت. وقام نواه وبستر –وهو رجل كنكتكي آخر من رجال ييل، وكان يقضي فترة الصيف في فيلادلفيا– بزيارتين قصيرتين لبالدوين وجونسن معا، مما يكشف عن نوع من الصداقة بينهم.

كان لجماعة كونكتكوت، فيما يبدو، أهمّية قصوى في اليوم الثاني من يوليو. فبطريقة ما، أقنع شيرمان وزملاؤه بالدوين « بإنقاذ المؤتمر» من الحلّ الذي كان مارتن لوثر يعتقد أنّه لا يمكن تحاشيه.

لكنّ الجلبة لم تنته بتحوّل موقف بالدوين. فمع الإعلان عن كشف الحساب، دخل دانيال جينفير مندوب مريلاند القاعة الشرقيّة للمرّة الأولى ذلك اليوم. لاحظ روفس كينغ الرجل السريع البديهة على الفور وصول دانيال، ووجد في ذلك فرصة سانحة. كانت مريلاند قد صوّتت مع الولايات الصغرى مجتنبة بذلك عجزها التقليدي عن التصويت لتساوي أعضائها سلبا، ولم يكن ذلك ليحدث إلا بسبب غياب جينفير. ومثلما ذكر لوثر مارتن، التمس كينغ الذي كان يعوّل «على السيّد جينفير لتقسيم ولاية مريلاند في هذه المسألة، من الرئيس واشنطن إعادة طرح المسألة مجدّدا».

التفتت كلّ الأنظار إلى الجنرال. إذا أعيد الانتخاب وانقسمت مريلاند بسبب تصويت جينفير، فإنّ تحالف الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة سيفلح في تحقيق

انتصار 5 –4 –2 لصالح التمثيل النسبي في مجلس الشيوخ، وستعاد الولايات الصغرى إلى الوراء. كانت القاعة القلقة تنتظر حكم الجنرال.

أراد بعض المعاصرين لواشنطن التقليل من قيمة مواهبه. كتب جون أدامز: «كان شديد الأمّيّة، غير مثقّف وغير قارئ تماما بالنظر إلى مقامه وسمعته اللذَيْن كانا فوق كلّ نزاع». ولاحظ جيفرسون الذي كان في وصفه أكثر سخاء بقليل أنّه لم يكن للجنرال «غزارة الأفكار ولا طلاقة اللسان».

لكنّ واشنطن كان يملك حصافة الرأي وإحساسا غريبا باللحظة. وسواء كان السبب هو أسلوبه الخاصّ في التصرّف طبقا للأصول، أو اعتقاده هو أيضا أنّ الولايات الصغرى توشك على مقاطعة المؤتمر، أو علمه بأنّ جينفير قد تغيّب عمدا عن المؤتمر لكونه (مثل بالدوين) يودّ تفضيل الولايات الصغرى، فإن النتيجة هي أنه قد سحق مناورة كينغ. فقد رفض السماح بتصويت ثان.

تركت هذه النتيجة المؤتمر في مهبّ الريح، عاجزا لحدّ اليأس عن الوصول إلى اتّفاق.

قام مندوب ساوث كارولينا تتشارلز بينكني وهو يبحث عن ألفاظ تعبّر عن «فزعه» بعرض مقترح خيالي مستوحى من خطته الدستوريّة: أن تقسّم البلاد إلى أربع مقاطعات متساوية ينتخب كلّ منها ممثّلين إلى مجلس الشيوخ.

ساند الجنرال بينكني فكرة ابن عمّه بشكل فاتر، ثمّ اقترح تملّصا إجرائيّا. بإمكان المؤتمر أن يعيّن «لجنة تتألّف من عضو عن كلّ ولاية... لابتداع نوع من التسوية وإعداد تقرير عنها». وافق شيرمان ملاحظا أنّ المندوبين وصلوا إلى «نقطة النهاية». ومع انقلاب التيّار ضدّهما اعترض جيمس ويلسون وماديسون على لجنة من هذا النوع، غير أنّه وقع تجاوزهما.

اختار المندوبون لجانا بالاقتراع السرّي، وهي المناسبة الوحيدة التي صوّتوا فيها باعتبارهم أفرادا وليس باعتبارهم وفود ولايات. وقد تُرك كلّ من ماديسون وويلسون خارج اللجنة التي مثّل الانتماء إليها نذير شؤم لقضيّتهما. لقد ضمّت هذه اللجنة الأولى المؤلّفة من أحد

عشر عضوا مندوبِين عدوانيّين من الولايات الصغرى (باترسون عن نيوجيرسي، شيرمان عن كونكتكوت، لوثر مارتن عن مريلاند ومندوب ديلاوار الغاضب بدفورد). إلا أن الولايات الكبرى اختارت رجالا ذوي مزاج أكثر اعتدالا في هذا المجال (فرانكلن، مايسون، جيري). كان التيّار قويّا لصالح الولايات الصغرى.

تنهّد المؤتمرون حنقا، وأخذوا عطلة بثلاثة أيّام إكراما ليوم الرابع من يوليو.

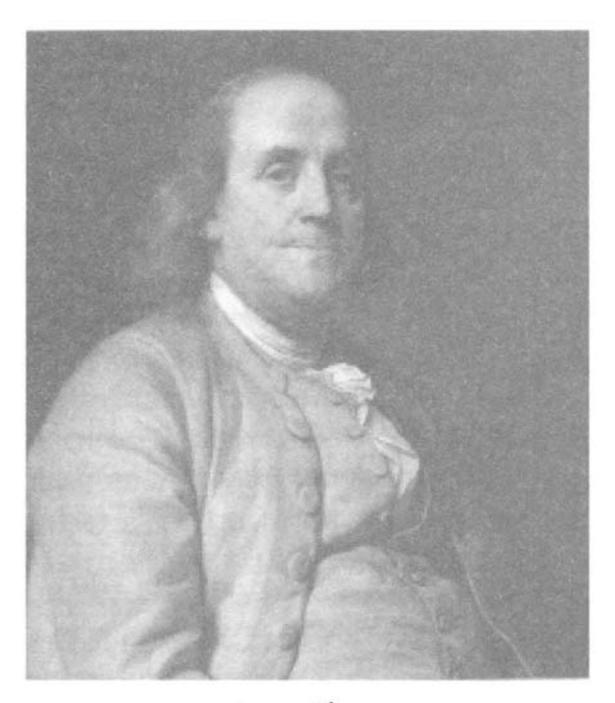
في ذلك المساء تناول واشنطن عشاءه في فندق «إنديان كوين» مع «بعض أعضاء المؤتمر». هل كان الجنرال يحاول تلطيف وخز المشاعر نتيجة المناقشات الشرسة؟ هل رسم أولئك الذين حضروا العشاء استراتيجيّة للجنة الأحد عشر؟ من المستحيل أن تكون هذه المواضيع لم تطرح.

كان اليوم التالي الأكثر سخونة في فيلادلفيا خلال يوليو ذاك، وكان النقاش داخل اللجنة بالدرجة نفسها من العنف. وقد ذكر رئيس الجلسة جيري، مندوب ماساتشوستس، أنّ مسألة التمثيل في مجلس الشيوخ كانت «على درجة من الخطورة تهدّد بحلّ المؤتمر». واستذكر مارتن مندوب مريلاند أنّ المندوبين كانوا «عصبة مستمسكة بشعرة».

انتظر الدكتور فرانكلن خلال المناقشات الصعبة الفرصة التي يشعر فيها أعضاء اللجنة بالإرهاق. ثمّ تكلّم بأسلوبه الأكثر تعقّلا وعفويّة. اقترح ترتيبا سُمّي «التسوية الكبرى»: يُنتخب مجلس النوّاب من مقاطعات يبلغ أقصى عدد سكّانها 40000 نسمة، استرضاء للولايات الكبرى، وسيكون لذلك المجلس وحده سلطة فرض الضرائب وتحديد نفقات الهيئة التشريعيّة، كما تحصل الولايات الصغرى على عدد متساو من الأصوات في مجلس الشيوخ.

باعتبار فرانكلن الشخص الأكبر سنّا بلا نزاع -إذ كان مسنّا بما يكفي ليكون أبا لواشنطن وجدّا لماديسون- نهض عن وعي بدور الموفّق. لم يوافق على جزء كبير من الصيغة النهائيّة للدستور، وكان -كما لاحظ أحد كتّاب السيرة الذاتيّة- «أكثر ارتياحا بكثير لفكرة الديمقراطيّة من أغلب المندوبين». كان يفضّل هيئة تشريعيّة بغرفة واحدة وجهازا تنفيذيّا

محدود الصلاحيات من ثلاثة أعضاء، وعدم منح المسؤولين العموميّين رواتب. غير أن اهتمام فرانكلن بالخصوصيّات كان أقلّ من اهتمامه بوجود دستور أصلا.



بنجامين فرانكلن (بنسلفانيا)

وصف مندوب فيلادلفيا البارز، الدكتور بنجامين راش، مشاركة فرانكلن في المؤتمر بأنّها «عرض يومي لفعل الخير المتسامي». ورغم معاناة فرانكلن من الحصى في الكلية ومن بعض حالات التوعّك الأخرى التي أبعدته أحيانا عن القاعة الشرقيّة، كتب في وقت لاحق: إنّ «عمليّة الذهاب إلى القاعة الشرقيّة والعودة منها كانت مفيدة له». وخلال الصيف، استضاف مآدب عشاء حثّ فيها مندوبي الولايات على إبداء حسن النيّة تجاه بعضهم بعض.

لم يكن بعض من زملاء فرانكلن واثقين من كيفيّة التعامل مع هذا الشيخ الثمانيني. فمثلما وُجد في تقييدات أحد مندوبي جورجيا: «اشتُهر بأنّه أعظم الفلاسفة في الوقت الحاضر... إنّ السماوات نفسها تستجيب له». غير أنّ شيئا ما في شخصه لم يكن مؤثّرا. فقد كان له

حضور جسماني محدود. وصفه أحد الزوّار خلال ذلك الصيف بأنّه: «قصير القامة، بدين، شيخ طاعن مترهّل، يرتدي ملابس الكويكرز الأحاديّة اللون، أصلع الرأس مع خصلات بيضاء قصيرة».

كانت المسألة تتجاوز حدود المظهر. فلم يكن فرانكلن معنيّا بتصوير نفسه باعتباره رجلا عظيما، ولم يكن يلقي خطبا رنّانة. كان يفضّل في أغلب الأحيان أن يقرأ جيمس ويلسون ملاحظاته. اقترح في أوّل خطاب هامّ له أمام المؤتمر (وقد تولّى ويلسون قراءته) ألاّ تُدفع رواتب للمسؤولين العموميّين، وهو اقتراح لم يجد دعما من أحد. وبعبارات الجورجي: «من الثابت أنّه لا يشعّ كثيرا في المجلس العمومي، فهو ليس خطيبا ولا يبدو أنّه يسمح للسياسة بأن تشدّ انتباهه».

كان فرانكلن بالفعل يتكلّم أحيانا لا بقصد المشاركة ولكن لنزع فتيل التوتّر. فاقترح أداء الصلاة، وقارن عمل المؤتمر بعمل النجّار، وروى الطرائف. وحتّى ماديسون ذلك الرجل الجدّي، سجّل قصّة رواها فرانكلن عن محامين اسكتلنديّين أوصلوا إلى الهيئات القضائيّة أكثر الرجال اقتدارا في المهنة للتخلّص منه وتقاسم عمله فيما بينهم». (ربّما كانت القصّة أكثر طرافة حين رواها فرانكلن، فقد أقرّ مندوب جورجيا أنّ فرانكلن: «يروي القصّة بأسلوب أكثر جاذبيّة من أيّ شيء سمعته سابقا»).

خلال الاجتماع المطوّل لهذه اللجنة الأولى ذات الأحد عشر عضوا، كان فرانكلن ينتظر نهاية النقاش بين المندوبين الأصغر سنّا في ذلك اليوم الأشدّ حرارة من شهر يوليو. وفي إظهار لمواهبه العمليّة التي استخدمها طيلة حياته في حلّ المشكلات العلميّة والسياسيّة، محّص فرانكلن كلّ المقترحات المعروضة على المؤتمر منتقيا بعضاً منها لإرضاء الولايات الكبرى وبعضها الآخر لإرضاء الولايات الصغرى، ثمّ جمعها في حزمة متوازنة عند نهاية يوم كامل من النزاع الحامي، واقترح تسوية على اللجنة وقع تبنّيها على مضض.

أبرز المؤتمر عقولا قويّة مثل ويلسون وماديسون، وخطباء موهوبين مثل هاملتون والحاكم موريس اللذَيْن ألقيا خطبا حماسيّة، وعمّالا ماهرين في الحقل السياسي مثل راتليدج وشيرمان

اللذَيْن عقدا تحالفات سياسيّة هامّة. وكان حضور واشنطن يستقطب المداولات. إلاّ أنّه، بفضل حكمته الآسرة وطلعته المرحة وسنّه الكريم، أسهم مثل أيّ عضو آخر في نجاح المؤتمر.

وبالرغم من أنّ فرانكلن أقنع اللجنة بقبول التسوية، فإنّ أحدا لم يكن يعرف إن كان المؤتمر كلّه سيقبل بها.

عند هذه المرحلة الدقيقة، جاءت احتفالات فيلادلفيا بالرابع من يوليو لتذكّر المندوبين بأنّ البلاد تعوّل عليهم كثيرا. فقد احتفت المدينة باستقلال أمريكا بإقامة الاستعراضات وبالطلقات المدفعيّة «ثلاث عشرة مرّة في ثلاث جولات»، وقرع أجراس الكنائس وعرض الألعاب الناريّة. وكتبت صحيفة محلّيّة أنّ المؤتمر سيوفّر «نظاما للحكم ملائما لسلامة تلك الحقوق التي صدرت في إعلان الاستقلال المشهود على الدوام وحفظِها».

وفّرت فيلادلفيا وسائل تسلية عديدة في ذلك اليوم العظيم. فقد زار الجنرال واشنطن متحف الشمع للدكتور شافيت. وشرب ضبّاط ميليشيا بنسلفانيا ثلاثة عشر نخبا، مبتدئين بنخبٍ أوّل للكونغرس ثمّ آخر للمؤتمر ثمّ آخر للويس السادس عشر ملك فرنسا، وصولا إلى «رود آيلند التي تمنّوا إقصاءها من الاتّحاد إلى أن ينتخبوا رجالا شرفاء ليحكموها».

شهدت العطلة أيضا مواقف ساخرة. فقد يكون المندوبون أحسّوا بنوع من المرارة حين شهدوا خطابا لطالب في شعبة الحقوق بالمدينة. سأل الطالب: «هل علم إدارة الحكم من الصعوبة بدرجة تجعلنا لا نملك رجالا قادرين على فكّ ألغازه والحفاظ على وحدة ولايتنا؟». لقد جاءت الكلمات من شخص لم يتجادل قطّ مع كانينغ بدفورد وجيمس ويلسون. وبالرغم من أنّ هدوء طبع الجنرال واشنطن كان ثابتا دائما، فإنّ مندوبين آخرين ربّما ردّوا بإطلاق نخرة خفيفة أو ابتسامة آسفة.

حين عُرضت تسوية فرانكلن أمام المؤتمر في 5 يوليو، كانت التسوية قد تيتّمت أساساً. فقد قال جيري للمندوبين إنّ أعضاء اللجنة الذين عارضوا مبدأ التساوي في التصويت داخل مجلس

الشيوخ «لم يوافقوا إلا بشروط. وعلى العموم، إذا لم يوافق الطرف الآخر فلن يجد أعضاء اللجنة أيّ موجب لدعم التقرير». وفور ذلك، تنافس المندوبون على التنديد بالمقترح.

استهجن ماديسون منح مجلس النواب «الامتياز الحصري باستصدار أوراق ماليّة»، وهو تنازل لصالح الولايات الكبرى. لقد وقع التملّص بسهولة من مثل هذه التحديدات في دساتير الولايات، وهو رأي شاطره إيّاه الرائد بتلر مندوب ساوث كارولينا. وأدان ماديسون مبدأ التساوي في الأصوات بين الولايات باعتباره «حيفًا».

وفّر الحاكم موريس السريع الإثارة تبريرا مغالطيّا لاستنجاد بدفورد بقوى أجنبيّة. فقد قال متظاهرا بالتقوى إنّه جاء للمؤتمر «ممثّلا للإنسانيّة بأسرها»، ولكنّه وجد «أنّنا اجتمعنا هنا للمقايضة والمساومة لصالح ولاياتنا الخاصّة». كزّ العديد أسنانهم حنقا حين شبّه موريس الولايات بثعابين يتعيّن قلع أسنانها، ثمّ تكهّن بأنّ «هذا البلد يجب أن يُوَحَّد. وإذا لم توحّده الحجّة فسيفعل السيف ذلك».

كانت الأعصاب مشدودة بسبب الخطابات الناريّة، واستسلم المندوبون للمشاكسات، منحدرين إلى الانتقادات الشخصيّة. فقد انتقد بدفورد، مندوب ديلاوار، مضمون كلام موريس، فيما دعا أحد مندوبي نورث كارولينا إلى الهدوء، ثمّ أشار إلى أنّ غورهام، مندوب ماساتشوستس، حاد في كلامه أيضا. واشتكى باترسون مندوب نيوجيرسي من الطريقة التي «عامل بها ماديسون وموريس الولايات الصغرى».

تحدّث المندوبون بصراحة عن إلقاء المنديل ومغادرة المؤتمر. وتذكّر مندوب من جورجيا في وقت لاحق أنّه «قد تمّ التفكير بجدّ في إرجاء المؤتمر وعدم فعل أيّ شيء».

دعا جيري، مندوب ماساتشوستس، إلى التسوية. وبتعتعة وصفها مندوب متهكّما بأنّها «فيض من همهمات لا تخفق قطّ في إطالة بلاغته وإنعاشها» اعترف جيري بأنّ لديه «اعتراضات مهمّة جدّا» على تقريره الخاص إلى اللجنة. وقد بذل جهدا لكي يبدو أقلّ إيذاء في تعليقه على إشارة موريس إلى السيوف: «إذا لم نصل إلى نوع من الاتّفاق فيما بيننا فربّما ستقوم سيوف أجنبيّة بالمهمّة نيابة عنّا».

تحدّث مايسون، وهو عضو آخر في اللجنة، بحماس دفاعا عن الاعتدال. وقد دعا مع مندوبين آخرين إلى المثابرة في العمل. قال مايسون: «مهما كان تقرير اللجنة عرضة للاعتراضات فإنّ ذلك أفضل من احتكام الأطراف المختلفة إلى العالم، مثلما تحدّث عن ذلك بعض السادة الأفاضل». وقد أعطى الفرجيني التزاما شخصيّا بأن يرى عمليّة كتابة الدستور تصل إلى نهايتها:

لم يكن الاستمرار في الابتعاد عن الشؤون الخاصّة غير ملائم لأيّ من السادة قدر ما كان لمايسون. لكنّه قال إنّه كان يفضّل أن يدفن عظامه في هذه المدينة على أن يعرّض بلده لاحتمالات حلّ المؤتمر من دون إنجاز أيّ شيء.

أنصت أغلب المندوبين بانتباه إلى ردّ مايسون، وبقوا في فيلادلفيا، لكنّهم لم يسارعوا إلى التصويت على تسوية فرانكلن. وعلى امتداد أحد عشر يوما تلت من الحرارة الشديدة، ظلّ المندوبون يلوكون مسألة التمثيل. انحلّت التحالفات السابقة. وتأرجح رؤساء الوفود بين الحنق على المواقف التي اتّخذها آخرون والبحث اليائس عن مخرج من هذا الوحل الذي علقوا به. وقد غادر يايتس ولانسينغ، مندوبا نيويورك، فيلادلفيا ولم يعودا إليها البتة (وكان هاميلتون قد هجر المدينة لالتزامات أخرى في نيويورك).

أصبح المندوبون يشعرون بكآبة لغياب أيّ تقدّم. كتب كاروليني شمالي: إنّ «المصالح المتعدّدة والمتناقضة تقريبا التي يتوجّب التوفيق بينها هي التي جعلتنا نتقدّم ببطء شديد». وكتب روفوس كينغ لأحد أصدقائه: إنّ المؤتمر لم «يتقدّم خطوة واحدة منذ أن غادرتنا». كما نطق مندوب من نيوجيرسي بالملاحظة نفسها حين قال للحاكم وليام ليفينغستون: إنّه خلال الأيّام العشرة الأخيرة «لم نحرز أيّ تقدّم في المسألة».

كان السبب المباشر لهذه الانتحابات هو سقوط المؤتمر في لعبة موازين القوى الفجّة. فبتحديد الممثّلين على أساس نائب عن لكلّ 40000 مواطن، وجّهت تسوية فرانكلن اهتمام المندوبين إلى حساب العدد الجملي الذي ستحصل عليه كلّ ولاية في حكومة جديدة. ربّما لم يكن الحاكم موريس قد جاء «من أجل المقايضة والمساومة» لصالح بنسلفانيا (ففي نهاية الأمر،

كان بيته في نيويورك)، لكنّ كثيرا من المندوبين تمنّوا فعل ذلك بالضبط لصالح ولاياتهم.

في 6 يوليو عيّن المؤتمر تعبيرا عن إعجابه بأسلوب اللجنة هيئة من خمسة أعضاء لتحديد ممثّلين عن كلّ ولاية. وبما أنّ الاختيار قد وقع على خمسة مندوبين فقط استغلّت الولايات الكبرى تفوّقها العددي للإطباق على اللجنة. كان من بين أعضائها الحاكم موريس عن بنسلفانيا وغورهام وكينغ عن ماساتشوستس وراندولف عن فرجينيا. أمّا العضو الخامس وهو راتليدج مندوب ساوث كارولينا الحاضر في كلّ مكان فسيكون العضو البطل في اللجنة خلال الصيف مشتغلا مع خمسة أعضاء (رئيسا لثلاثة منهم) قبل إنجاز المؤتمر.

في انتظار تقرير اللجنة الجديدة حاول ويلسون رصّ تحالف الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة، لكنّ التحالف انهار على يديه. فبسبب عجز وفدَيْ ولايتين عن الوصول إلى اتّفاق (إحداهما ماساتشوستس وهي ولاية كبرى) صوّت المؤتمر لصالح التساوي في الأصوات بين الولايات بمجلس الشيوخ. لقد بدا وكأنّ الأمور تسير من حسن إلى أحسن بالنسبة إلى الولايات الصغرى.

اقترحت اللجنة الخماسيّة ستّة وخمسين عضوا لمجلس النوّاب، بدءا بعضو واحد لكلّ من رود آيلند وديلاوار، وصولا إلى تسعة أعضاء لفرجينيا. وظلّ بإمكان الكونغرس أن يغيّر المقاعد المسندة «بناء على مبدأي الثروة التي تملكها الولايات (وهو تنازل لراتليدج والجنوبيّين) وعدد السكّان».

أراد روجر شيرمان أن يعرف «على أيّ مبادئ أو حسابات تأسّس التقرير». وقد تلقّى جوابا فظّا مفاده أنّ «التوجّه العامّ» هو «عدد السود والبيض مع شيء من الاعتبار للثروة المفترضة». وأضاف الحاكم موريس مبتهجا: إنّ المقاعد المسندة «تتجاوز مستوى التكهّن بقليل».

مع طرح مقترح ملموس أمام المندوبين يتعلّق بعدد الممثّلين الذي سيكون لكلّ ولاية، أصبحت النزاعات السياسيّة أشدّ ضراوة. بدأ تشخيص ماديسون القائل إنّ العبوديّة مسألة مركزيّة يتردّد صداه. وتحدّى باترسون مندوب نيوجيرسي فكرة

احتساب ثلاثة أخماس العبيد:

إنّه لا يستطيع النظر إلى العبيد الزنوج إلا من جهة كونهم متاعا. فهم ليسوا فاعلين أحرارا، وليست لهم حريّة شخصيّة، ولا القدرة على حيازة الملكيّة، بل على العكس هم أنفسهم متاع، وكأيّ متاع آخر يخضعون للمشيئة الكاملة للسيّد. هل يملك رجل في فرجينيا عددا من الأصوات مناسبا لعدد العبيد الذين يملكهم؟ وإذا كان العبيد غير ممثّلين في الولايات التي ينتمون إليها فلماذا يتوجّب أن يمثّلوا في الحكومة الوطنيّة؟

أشار باترسون إلى زملائه بالعودة إلى «المبدأ الحقيقي للتمثيل» الذي قال عنه إنّه «وسيلة يحلّ بمقتضاها مجلس... منتخب من الشعب محلّ الاجتماع غير الممكن للنّاس أنفسهم». ولأنّ العبيد لا يستطيعون التصويت في مثل هذا الاجتماع فلا ينبغي أن يمثّلوا.

لم يستطع باترسون ولا أيّ مندوب آخر متابعة الخطوات المنطقيّة لتفكيره: فمثلما كان العبيد لا يصوّتون في اجتماعات «الشعب» سنة 1787 لم تكن النسوة يصوّتن إلاّ في نيوجيرسي (وسيتمّ حرمانهنّ من التصويت في تلك الولاية سنة 1807). إنّ مجرّد قدرة الزوجات على امتلاك متاع أو حتّى هويّة قانونيّة كان أمرا محدودا في أفضل الحالات. بالتوازي مع ذلك لم يناقش باترسون الانحراف الناتج عن منح «تمثيل» للعبيد بالزيادة في تأثير أولئك الذين يملكونهم، وبالتالي تعزيز قدرات المالكين على الاضطهاد.

تحرّك ماديسون بسرعة ليوقع بباترسون في مسألة أخرى. قال ماديسون شامتا: إذا كان السيّد الفاضل من نيويورك محقّا في «عقيدته في مسألة التمثيل»، فعلى تلك العقيدة «أن تُسكت إلى الأبد مطالبة الولايات الصغرى بالتساوي في التصويت مع الولايات الكبرى». وواصل الفرجيني قائلا: «ينبغي أن تصوّت الولايات بالنسبة نفسها التي كان مواطنوها سيمثّلون بها لو التقى سكّان كلّ الولايات معا». لم يكن مهمّا حتّى لو حدث ذلك أن يتفوّق ماديسون ذهنيّا على باترسون. لقد ربح رجل نيوجيرسي التصويت. وستكون الولايات متساوية في مجلس الشيوخ.

ذهب ماديسون إلى حدّ محاولة استعمال تعليقات باترسون لإحياء مقترحه المتعلّق بفرع

تشريعي مستند إلى المواطنين الأحرار فقط ومقاعد مخصّصة للفرع الثاني «على أساس العدد الجملي للسكّان بمن فيهم العبيد». ومرّة أخرى تجاهل المؤتمر ماديسون ولم يقرّ أيّ مندوب باقتراحه الجديد.

مع رفع الجلسة في 9 يوليو أنشأ المؤتمر لجنة أحد عشرية أخرى لإعادة النظر في إسناد الممثّلين إلى الولايات، وكان راتليدج بالطبع عضوا فيها.

وبعد ليلة أخرى من المساومات، اقترحت لجنة الأحد عشر الجديدة خمسة وستّين عضوا لمجلس النوّاب مضيفة خمسة نوّاب إلى الولايات الشماليّة وأربعة فقط إلى الولايات الجنوبيّة. ردّ الكارولينيّون الجنوبيّون بدفعة من المقترحات لتغيير عدد الممثّلين المحدّدين لولايات بعينها، وقد فشلت هذه المقترحات كلّها.

بعد أن أفرد المندوبون أكثر من ستّة أسابيع لمسألة التمثيل، تاقوا إلى رؤية نهاية لها. غير أنّ تلك النهاية لم تأت، إذ أن هذه المسألة كانت على وشك الامتزاج بقضيّة العبوديّة المتفجّرة. وبحصول ذلك الامتزاج، ستظلّ كلتا المسألتين تغلي وتفور لبضعة أيّام أخرى.

أطلقت فقرة شرطيّة لا تبدو ظاهريّا مؤذية أعنف موجة من الغضب. ففي 10 يوليو وفي حين كان المؤتمر يتّجه بتعثّر نحو رفع الجلسة، قام إدموند راندولف ليتكلّم. وباعتباره قائدا لوفد فرجينيا، استغلّ بمهارة نفوذ أكبر ولاية. وفي هذه المناسبة، طالب بإجراء إحصاء منتظم لسكّان البلاد ممّا يوفّر أساسا لتحديد ممثّلين في ضوء تغيّر عدد السكّان في المستقبل.

يبدو الاقتراح نزيها. إذ ينبغي أن يقع إحصاء السكّان من حين لآخر. وحتّى الرومان فعلوا ذلك. لكنّ الاقتراح ركّز اهتمام المؤتمر على الفيل المنتصب في غرفة الاستقبال. من هم الناس الذين سيتمّ إحصاؤهم؟ وكم يساوي كلّ فرد في عمليّة الإحصاء؟ ثلاثة أخماس؟ واحدا؟ صفرا؟ لقد أجّج اقتراح فرجينيا نار الخلافات بين الولايات التي تملك العبيد وتلك التي ليس بها عبيد.

في مساء ذلك اليوم العاشر من يوليو كتب واشنطن لهاملتون الذي كان لا يزال في نيويورك

إلى حدّ ذلك الوقت. فمنذ مرور أسبوعين على مغادرة هاملتون فيلادلفيا كانت الأمور «أسوأ من أيّ وقت مضى. وإذا أمكن القول فلن تجد إلا مجالا ضيّقا يُبنى عليه الأمل في تحقيق إنجاز جيّد». كان الجنرال «شبه يائس من رؤية نهاية إيجابيّة لمداولات المؤتمر».

أسرّ الجنرال لمساعده السابق بأنّه كان شديد الإحباط من «الرجال الذين يعارضون حكومة قويّة ونشطة». لقد كانوا «سياسيّين ضيّقي الأفق أو –وهنا حاول الجنرال التحكّم في غضبه– خاضعين لتأثير وجهات نظر محليّة». وألحّ على أنّ السؤال المطروح أمام المؤتمر ليس هو ما إذا كان الجمهور «سيصل إلى الحكومة الجديدة أم لا»، بل ما إذا كان ذلك هو «أفضل صيغة».

ضيّق إحساس واشنطن بما يقارب اليأس من حياته الاجتماعيّة. فعلى امتداد خمس من الليالي الستّ القادمة، تناول العشاء في البيت مع عائلة روبرت موريس منسحبا إلى غرفته في المساء. لم يكن ثمّة وقت للمرح.

الولايات الصغرى تفوز

11–17 يوليو

بحلول يوم الأربعاء 11 يوليو، بدأ المندوبون يفقدون القدرة على التحمّل. فمثلما يتذكّر ماديسون: «استُنْزِفت المناشدات البليغة للمندوبين»، إذ أنّ «تصميمهم وصل إلى درجة لم تعد تسمح بقبول أيّ انطباعات جديدة». وبعودة قضيّة العبوديّة أمام المؤتمر، واقتراب الولايات الصغرى من الانتصار، تغلّبت العاطفة على العقل.

بدأت المشكلة بنسبة الثلاثة أخماس. كان الحاكم موريس بعيدا عن فيلادلفيا حين تمّ تبنّي هذه النسبة. وبعودته في بداية يوليو بدأ يبحث بدقّة لا تخلو من المعاناة أحيانا عن بديل لصفقة ولسن–راتليدج. وفي 12 يوليو، دفعت جهوده وليام دايفي مندوب كارولينا الشمالية، وهو مندوب صامت في أغلب الأحيان، إلى الانفجار. فقد أعلن: «لقد حان الوقت لنتكلّم بصوت عال». وقال المؤسّس المستقبلي لجامعة نورث كارولينا متحدّيا:

لاحظ دايفي أنّ بعض السادة الفضلاء قصدوا حرمان الولايات الجنوبيّة من نصيبها في تمثيل السود. لقد كان على يقين أنّ نورث كارولينا لن ترتبط باتّحاد فيدرالي لا يقدّر السود على أساس الثلاثة أخماس على الأقلّ. وإذا كانت ولايات نيوإنجلند الشرقيّة تستهدف بالتالي إقصاء الولايات الجنوبيّة كلّها، فإنّ القضيّة قد انتهت.

ساند الجنرال بينكني دايفي مثلما فعل مندوب كونكتكوت وليام صموئيل جونسون البالغ من العمل ستّين عاما، والعضو في الكونغرس منذ مدّة طويلة، والذي سيصبح رئيسا لمعهد كولومبيا في نيويورك. واللافت أنّ جونسون اقترح إحصاء كلّ العبيد من أجل تمثيلهم،

وهي مقاربة تمنح الولايات التي تعمل بنظام العبوديّة نفوذا على حساب ولايته هو. إنّ هذه الحادثة -غضب دايفي و تنازل رجل كونكتكوت- محيّرة بما يكفي لإثارة شكوك بأنّ الشماليّين والجنوبيين تخاصموا بعيدا عن المسرح، أو أنّ ماديسون أهمل كتابة محضر عن جدل ساخن وقع في القاعة.

وقد ردّ موريس بالطريقة نفسها، إذ قال للمندوبين: «قيل إنّه حان الوقت للكلام بصوت عال»، وهكذا سيفعل. توقّفت الحركة والنقاش الجانبي حين أجال موريس المهيب بنظره في المندوبين المتجمّعين. كان حزينا ومحبطا. فإذا كان الجنوبيّون لا يستطيعون الموافقة على بعض الفقرات، فإنّ تلك الولايات لا تستطيع «أن تشترط ما لن تقبل به الولايات الأخرى قطّ». لقد كان «يؤمن بصدق أنّ سكّان بنسلفانيا لن يوافقوا إطلاقاً على تمثيل للزنوج».



الجنرال تشارلز كوتسوورث بينكني (ساوث كارولينا)

لم يحرّك الجنوبيّون ساكنا. لم يكتشف الجنرال بينكني الواثق بنفسه أنّ مقترح موريس «عادل بدرجة لا تسمح بالاعتراض عليه» إلاّ ذلك الصباح. فتخلّى عن أسلوبه اللطيف.

وأصبح الآن يرفض الموافقة على كلّ شيء يقترحه موريس، لكنّه بالتأكيد لا يرفض منه أيّ شيء يتعلّق بنسبة الثلاثة أخماس. قال بينكيني: «ينبغي ألا تتعرّض ملكيّة العبيد للخطر في ظلّ حكومة أنشئت لحماية الملكيّة». وقد وافق إدموند راندولف «بإلحاح شديد» على أنّ نسبة الثلاثة أخماس ستوفّر «الأمان» لنظام العبوديّة. وباعتباره مالك عبيد دائمِ الشعور بالغمّ «اشتكى من أنّ هذا النوع من المتاع كان دائما موجودا. ولأنّه قد وُجِد فعلا فإنّ مالكيه يشترطون توفّر هذا الأمان».

كانت هذه فرجينيا تتكلّم، بثروتها وعبيدها الكثر، بالجنرال واشنطن مترئّسا، وبماديسون مدوّنا للملاحظات. لقد أيّدت الجنوبيّين في خشيتهم من تحرّك ضدّ العبوديّة كان موريس أو حدث آخر غيره قد أثارها.

لم يدعم موريس سوى روفوس كينغ. إذ أكّد محامي ماساتشوستس أنّ الجنوب يحتجز المؤتمر رهينة، وتنبّأ بأنّ المنطقة ستلعب دورا أكبر في المستقبل: «لن تكون هناك نقطة لا يستطيعون القول عندها: أنصفونا وإلا سننفصل». ورغم ذلك فقد تمّت الموافقة على نسبة الثلاثة أخماس بهامش 6–2 هذه المرّة وانقسام وفدين.

كانت بعض العلامات الخارجيّة تبشّر بخير بالنسبة إلى اليوم المقبل 13 يوليو. فقد انقطعت الحرارة الجهنّمية خلال الليل، وبزغ الصباح بهوائه المنعش. والأكثر إيجابيّة أصلا هو أنّ سماء الليل تلألأت بنور الشفق الشمالي، وأومضت بوارق الأنوار عبر السماوات. فهل كانت هذه يد العناية الإلهيّة؟ هل كانت رسالةَ مباركة؟

وبسبب ما خلّفته مناورات اليوم السابق من تضارب في كيفيّة تطبيق نسبة الثلاثة أخماس، تحرّك أدموند راندولف لتصحيح اللغة. وفي إطار ذلك، اقترح تطبيق تلك النسبة في إسناد ممثّلين للولايات الجديدة أيضا.

أثار هذا الاقتراح الثاني مسألة المستقبل المتقلّبة. فقد كان التسليم بسلطة سياسيّة للولايات العاملة بنظام العبوديّة القائمة حاليّا شيئا مهماً بحدّ ذاته. فقد كانت في نهاية الأمر ولايات تملك في الأصل عبيدا حين ساعدت على تكوين الاتّحاد. أمّا الآن فإنّ راندولف يقترح إسناد

مكافأة على انتشار العبوديّة إلى الأراضي الجديدة. كان المندوبون يدركون أنّ المناطق الغربيّة ستنمو بسرعة بفعل تدفق المستوطنين على أراضي كنتاكي وتينيسي، فيما تفشّت المضاربة على الأراضي في أوهايو. وكان من المحتّم أن يربك النمو السكاني في الغرب أيّ نوع من التوازن الجهوي للسلطة كان سائدا سنة 1787. فهل سيساند غرب المستقبل الولايات العاملة بنظام العبوديّة، أم سيساند الشمال؟

إقرارا منه بأهمية اقتراح راندولف انتصب موريس مرّة أخرى ليتكلم. بدأ من مائدة بنسلفانيا في وسط الغرفة، ثمّ خطا إلى الأمام بساقه الخشبيّة العرجاء. وأثناء كلامه، كانت عصاه المتحرّكة تنقر الأرضيّة المغطّاة بالخشب بغرض التأكيد.

ذكر موريس أن النقاشات الأخيرة في موضوع العبوديّة قادته «إلى تأمّل عميق». قال إن تمييز ماديسون بين الشمال والجنوب يبدو له ضربا من«الهرطقة». ولكنّه وجد الآن «أنّ السادة الجنوبيّين لن يكونوا راضين ما لم يروا الطريق مفتوحا لإحراز الأغلبيّة في المجالس العموميّة». وواصل قائلا: إنّ التمييز بين الشمال و الجنوب «وهمي أو حقيقي»:

إذا كان الأمر وهميّا، فلنتخلّ عن هذا الوهم لنباشر عملنا بالثقة المستوجبة. وإذا كان حقيقيّا، فدعنا نبتعد –عوض محاولة المزج بين عناصر متنافرة– عن بعضنا بعض فورا وبصفة ودّية.

لاحظ موريس أنّ العديد كانوا يتوقّعون أن يتجاوز عدد سكّان الجنوب عدد سكّان الشمال (وهو توقّع لم يتحقّق). وبناء على توقعه قيام تحالف مستقبلي بين الجنوب والولايات الغربيّة الجديدة، حذّر موريس من أنه «يمكن أن يُخشى كل شيء من إمساكهم (أي الجنوبيين) بالسلطة».

أجاب الرائد بتلر مندوب ساوث كارولينا بفظاظة في اليوم التالي، وكأنما يردّ على تلميذ بطيء الفهم، في بيان تفوح منه رائحة القلق الجنوبي من مسألة العبوديّة. قال مفسّرا: «إنّ الأمن الذي تريده الولايات الجنوبيّة يعني ألا يؤخذ زنوجها منها، وهو أمر قد يفكّر بعض السادة في الداخل أو في الخارج بجدّ في فعله».

لم يجب موريس على الاتهام، وهو صمت ربما كان أكثر إزعاجا من أيّ كلمات. لقد عكس صمته قوّة الاتّهام الذي وجّهه بتلر وحجم الخطر السياسي الذي كان موريس معرّضا له. استاء السادة المندوبون الشماليّون من غطرسة مالكي العبيد. كانوا مرعوبين من بشاعة العبوديّة ومن تناقضها مع المثل الجمهوريّة. لكنهم لم يكونوا يطلبون إلغاء الرق. لقد جاؤوا إلى فيلادلفيا لإرساء حكومة جديدة، لا لإرساء نظام قيمي جديد.

حين أحصيت الأصوات، كان موريس وحيدا– إذ لم تعترض أيّ ولاية، ولا حتّى بنسلفانيا، على اقتراح راندولف بأن تشمل فقرة الثلاثة أخماس الولايات الجديدة.

في آخر يوم من الأسبوع، السبت 14 يوليو، نظّم تحالف الولايات الكبرى مع الولايات العاملة بنظام العبوديّة هجوما أخيرا. فمع تعزيز نسبة الثلاثة أخماس كان راتليدج وقوّاته من الجنوب العميق يفضّلون مجدّدا تمثيلا في مجلس الشيوخ مبنيّا على عدد السكان. ومرّة أخرى تزعّم راتليدج وويلسون المعركة. تحرّك راتليدج لإعادة النظر في مسألة تساوي أصوات الولايات في مجلس الشيوخ. واصل ويلسون محاولة إقناع المندوبين بقبول ذلك، وفي اليوم المصيري للاقتراع أرغى وأزبد. لقد انتصرت الولايات الصغرى بالرغم من أنّها لم تكن تضمّ إلا ثلث إجمالي السكّان في البلاد. فاستشاط ويلسون غضبا: «ما هي الآمال التي سيحملها ناخبونا حين يجدون أن المبادئ الأساسيّة للعدالة قد انتُهكت في مستهلّ قيام الحكومة؟».

بعد ويلسون اقترح تشارلز بينكيني شكلا مخفّضا من التمثيل النسبي. فبإسناد عضو واحد في مجلس الشيوخ إلى أصغر الولايات وخمسة فقط لفرجينيا سيمنح مقترحه الولايات الصغرى نفوذا أكبر مما ستحصل عليه في ظلّ تحديد قائم بشكل صرف على السكان. ولكنه سيقرّ بأن الولايات الكبرى هي بالفعل أكبر من الولايات الصغرى. وساند ويلسون المقترح.

أجاب المندوبون من نيوجيرسي وكونكتكوت بلا. وحذّر جيري مندوب ماساتشوستس من إنشاء حكومة مقبولة لدى بعض الولايات فقط. قال جيري: «يجب أن يحدث توافق»، إذ أنّه «يعترض كلّية على كنفدرالية منقوصة تترك للولايات الأخرى الانضمام أو عدم الانضمام إليها، مثلما تمّ الإعلان عنه». وقد أبدى مندوب آخر من ماساتشوستس الملاحظة

نفسها: «إذا لم يحصل توافق فيجب أن ينفضّ الاتّحاد كلّه عاجلا».

ساند ماديسون الذي نادرا ما يميل إلى التسوية ويلسون والجنوبيّين. فبسبب انزعاجه من أن الصوت الواحد للولاية الواحدة في مجلس الشيوخ سيدمّر «الأساس الصحيح للحكم»، ألقى بأقلّ الملاحظات إقناعا في الصيف.

لقد جادل الفرجيني أنه حتى في ظلّ نظام الصوت الواحد للولاية الواحدة، «ستؤمّن» الولايات الكبرى «لنفسها بطريقة أو بأخرى وزنا مناسبا للأهمية المستحقّة من تفوّقها العددي». بعبارة أخرى، فستفرض الولايات الكبرى مشيئتها بصرف النظر عن قانون التمثيل الذي طبّق. ولن تفعل تلك الحجّة سوى تعزيز طلب الولايات الصغرى لكلّ حماية ممكنة ضدّ المخطّطات الشيطانيّة المفترضة للولايات الكبرى.

وباعتباره مرقّعا دائما للدستور، اقترح ماديسون حلاّ مربكا: لندع القوّة الانتخابيّة للولايات في مجلس الشيوخ تتغيّر حسب الموضوع المطروح أمامها: «في كلّ الحالات، حيثما تعمل الحكومة العامّة باسم الشعب فلندع الأصوات تكون نسبيّة. وفي كلّ الحالات، حيثما تعمل الحكومة باسم الولايات من حيث هي ولايات، فلتكن الولايات ممثّلة والأصوات متساوية». كان الرجل مرهَقا.

أنهى جيمس ويلسون النقاش بحكم جدير بأن يكون كلام نبي من العهد القديم من الكتاب المقدّس. لقد توقّع حدوث كارثة بسبب التساوي في الأصوات داخل مجلس الشيوخ: «إنّ وجود عيب في مسألة التمثيل مثل وجود خطإ في تركيب أوّل وصفة طعام، لا بدّ أن تعقبه الأمراض و التشنّجات وأخيرا الموت».

ومثلما اتّضح، كانت بشائر أنوار السماء في صالح الولايات الصغرى. لقد هُزم خيار بينكني من أجل التمثيل نصف النسبي في مجلس الشيوخ. وهكذا انتصرت الولايات الصغرى، بصفة نهائيّة هذه المرّة.

في صباح يوم الاثنين التالي، 16 يوليو، صوّت المندوبون مرّة أخرى على التركيبة الشاملة للهيئة التشريعية. وتمّت الموافقة على تسوية الدكتور فرانكلن بأضيق هامش 5–4 مع انقسام ماساتشوستس. وجاءت الأصوات الإيجابيّة من أربع ولايات صغيرة (كونكتكوت، نيوجيرسي، ديلاوار، مريلاند) ونورث كارولينا. وفي معرض تفجّعه على ما وصل إليه التصويت من «وضع بالغ الإحراج» طلب راندولف رفع الجلسة للتفكير في الوضع الراهن للأمور.

للتعبير عن شماتته، قال باترسون مندوب نيوجيرسي موافقا: «آن الأوان لرفع الجلسة»، واقترح أن تكون العطلة دائمة.

ورد التماس قوي لإنهاء المؤتمر من مصدر غير متوقّع. فقد ألقى راتليدج رسالته الشفويّة ببلاغة مجرّدة من العواطف. خلال المعارك الأخيرة، انتصر راتليدج في التصويت على نسبة الثلاثة أخماس، ثمّ خسر في التصويت على تساوي الولايات داخل مجلس الشيوخ. لقد رفض إبداء الاستياء من خسارته، وحثّ المندوبين على التقدّم إلى الأمام. وقد جلبت جمله القصيرة والدقيقة اهتمام ماديسون:

لم يستطع راتليدج رؤية أيّ فرصة للتسوية. كانت الولايات الصغرى ثابتة في موقفها، وقد صرّحت مرارا وبجدّية أنها على ذلك الموقف. كان كلّ ما ينبغي على الولايات الكبرى أن تفعله هو أن تقرّر الخضوع أو عدم الخضوع لذلك الموقف. ومن ناحيته، أدرك راتليدج أنه رغم عجزنا عن فعل ما نعتقد أنّه الأفضل، في حدّ ذاته، فلا بدّ أن نفعل شيئا. ألم يكن من الأفضل أن نترك الحكومة قائمة لفترة أطول بقليل... عوض ترك كلّ شيء عرضة للخطر؟ لن يكون ناخبونا راضين عنّا كثيرا إذا أخذنا بالوجهة الأخيرة.

مرّت العواصف الرعديّة بفيلادلفيا خلال تلك الظهيرة فاسحة المجال لصباح ثلاثاء ممتع. في ذلك الصباح الباكر التقى كثير من مندوبي الولايات الكبرى لمناقشة الحالة غير المرْضيّة للأوضاع. وقد سجّل ماديسون بامتعاض واضح أنّ «الوقت كان يهدر في نقاش ضبابي». كان عدد كبير جدّا من المندوبين يميل إلى الرضوخ، لكنّ ماديسون لم يكن كذلك.

بعد زهاء ثمانية أسابيع انتهى النزاع الكبير على مسألة التمثيل التشريعي. فمن خلال الحرص على التقيّد ببديهيّة شيرمان التي تقول إنّه ينبغي على الأقلّية أن تواصل الكلام، استنزف مندوبو الولايات الصغرى خصومهم وأسقطوا ميثاق ويلسون–راتليدج جزئيّا. كان الانتصار السياسي لافتا. فبالرغم من أنّ للولايات الصغرى أشياء كثيرة أخرى كانت ستخسرها إذا فشل المؤتمر في إنشاء حكومة جديدة، فإنّها أقنعت على نحو ما عددا كافيا من المندوبين من الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة (رغم أنّ ماديسون لم يكن منهم) بأنّها تستطيع فعلا الخروج من المؤتمر. وباحتواء خطاب الولايات الصغرى على عنصرين متوازيين من الخدع الملهمة والدفاع المستميت كان نجاحها فريدا من نوعه.

في مؤتمرات تصديق الولايات بعد أشهر كان على أكثر المندوبين اعتراضا على تساوي الولايات في التصويت داخل الكونغرس أن يدافعوا عن الاتّفاق. فشدّدوا على الحقائق السياسيّة الصعبة التي فرضت هذه الفقرة الشرطيّة عليهم.

قال شارل بينكني لمجمع ساوث كارولينا: «لو تفرّق المؤتمرون من دون تحديد خطّة لكان تفرّقهم بسبب هذه النقطة». وأكّد هاملتون لمندوبي نيويورك أنه من دون تسوية «كان لا مناص من أن ينفضّ المؤتمر دمن ون إحداث أيّ أثر».

رسم آخرون وجها أكثر إشراقا لخسارتهم. فقال جيمس ويلسون في جمع من البنسلفانيّين خلال معاينة الترتيبات التشريعيّة للدستور: «لا يضاهي إعجابي سوى شعوري بالدهشة وأنا أعاين نظاما مثاليّا جدّا أنشئ من موادّ غير متجانسة».

وقد ذهب ماديسون في المقالة 37 من «أوراق فدرالية» إلى أبعد من ذلك: «من المستحيل على رجل سليم التفكير ألاّ يدرك (في هذه الفقرات) وجود إصبع من يد العناية الإلهيّة التي طالما امتدّت بشكل بارز لتخفّف عنّا في المراحل الدقيقة من الثورة». وبعد أربعين سنة كان ماديسون أكثر صرامة حين كتب: «بات معروفا الآن أن مصالحة الولايات الكبرى مع مبدأ المساواة في مجلس الشيوخ مثّلت أكثر الصعوبات تهديدا واجهها المندوبون في وضعهم إطارا للدستور».

بعد رفع جلسة المؤتمر في 16 يوليو تناول الجنرال واشنطن عشاءه مع مضيّفيه من عائلة روبرت موريس، و«تناول الشاي» في منزل العمدة صموئيل باول. كانت النزهات الليليّة ممتعة، وقد منحته فرصة تذوّق طعم الإجراء الأخير للمؤتمر في مسألة قريبة من قلب الجنرال. كان المندوبون يفكّرون في مستقبل الأمّة التي سينشؤونها. وكان المستقبل، مثلما هو الشأن دائما في أمريكا، يعني الغرب.

الفصل الحادي عشر

لمسة ريشة

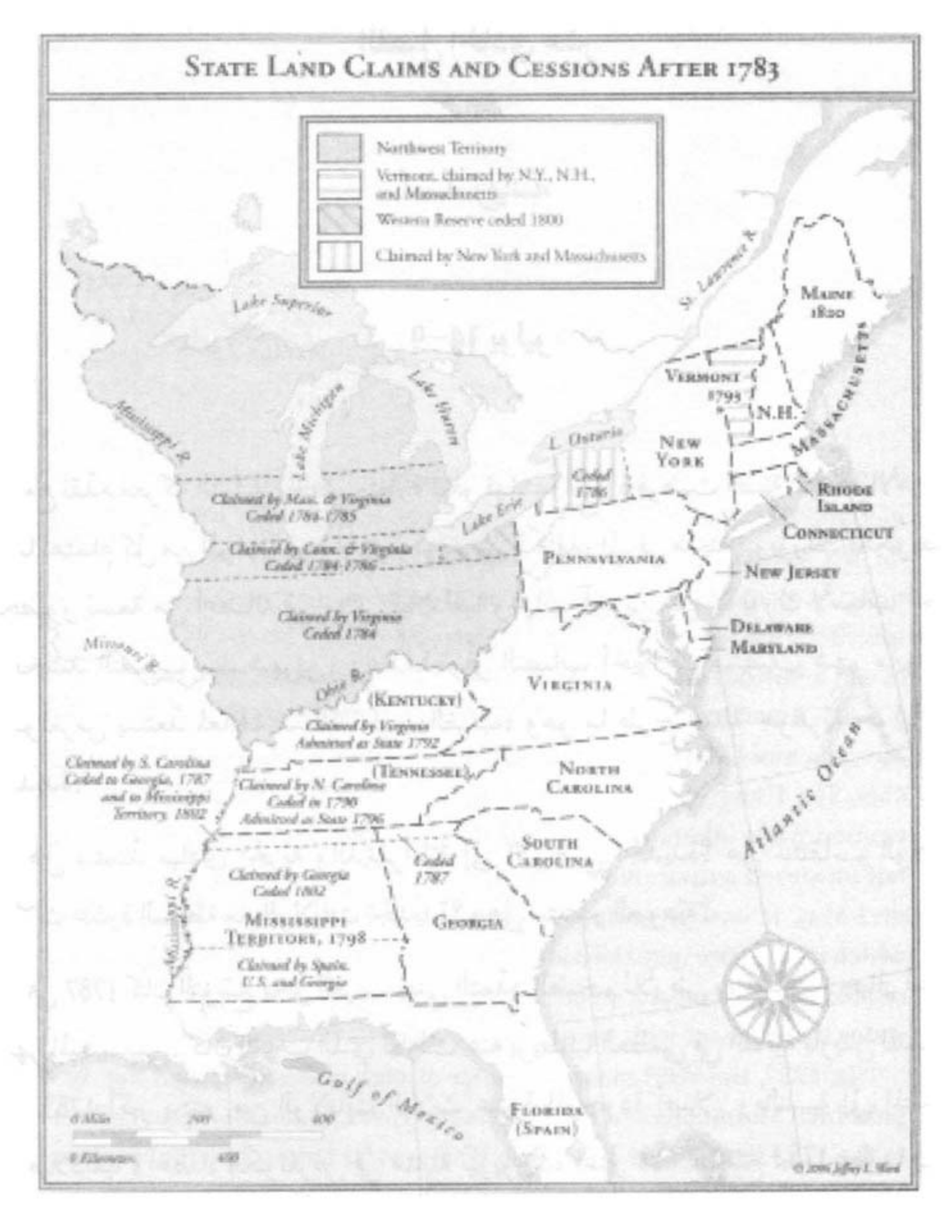
9–14 يوليو

مع تقدّم معركة التمثيل بخطى متعثّرة نحو نهايتها المريرة فرضت قضيّة التوسّع الأمريكي غربا اهتمام كلّ من المؤتمر الفيدرالي والكونغرس الكنفدرالي في مدينة نيويورك. فالكونغرس بحضور تسعة من أعضائه في مؤتمر فيلادلفيا وغياب آخرين عن نيويورك لأسباب أخرى لم يحشد النصاب منذ شهرين. وعندما توفّر النصاب أخيرا في منتصف شهر مايو كان الكونغرس يستعدّ لمعالجة مسألة تطوير الغرب، وهو ما طرح أسئلة جوهريّة حول الأمّة الجديدة.

هل ستمتدّ مبادئ الحريّة والديمقراطيّة إلى الأراضي الجديدة؟ هل ستتقاسم الولايات الثلاث عشرة السلطة مع الولايات الجديدة؟ وهل ستنتشر العبوديّة؟

في 1787 كان التوسّع نحو الغرب يعني التمدّد الضخم للأرض بين سلسلة جبال أبالاش ونهر الميسيسيبي. كان الغرب الذي تنازلت عنه بريطانيا العظمى في اتّفاقيّة باريس للسلام[1] سنة 1783 أكبر بكثير من الولايات الثلاث عشرة الموجودة أصلا. وبالنسبة إلى المندوبين في فيلادلفيا وأعضاء الكونغرس في مدينة نيويورك، اعتبر هذا التوسّع تمدّدا عظيما للثروة والسكان، مما سيزيد من قدرة البلاد على بسط سلطتها على نطاق عالمي. كما تمثلت إحدى الاستراتيجيّات لتسديد ديون الحرب الماحقة في بيع الأراضي الغربيّة.

(1) وُقّعت اتّفاقيّة باريس للسلام في 03 سبتمبر 1783، ووضعت حدّا لحرب الاستقلال الأمريكيّة. وقد وقع على الاتّفاقيّة ممثّلو الولايات الثلاث عشرة الأمريكيّة من جانب وبريطانيا العظمى من جانب آخر (م).



مطالبات الولايات بالأراضي والتنازلات عنها بعد 1783

رأى عديد الأمريكيّين منفعة شخصيّة في الآفاق المنفتحة غربا. فقد أسّس مواطنون مرموقون اتّحادات لحمل الكونغرس على الاعتراف بأصول ملكيّة غير موثوق بها أحيانا

للأراضي. كان هناك تسعة مندوبين على الأقلّ، بدءا بالجنرال واشنطن، يضاربون بكثافة في الأراضي الغربيّة قبل المؤتمر وبعده.

لكن، من كان يملك، وماذا كان يملك، في الغرب؟ كانت الحقيقة الوحيدة هي أن جورج الثالث ملك إنجلترا تنازل عن حقه هناك. إثر ذلك تنافست ستّ ولايات على الملكيّة فيما بينها، إضافة إلى القبائل الهنديّة والمضاربين. كان عديد المستوطنين مجرّد محتلّين لأراض استولَوا عليها من دون حقوق قانونيّة. وستستغرق عمليّة حسم الادّعاءات المتنافسة على ملكيّة الأراضي حياة جيل.

غير أنّ المسألة التي كانت أكثر إلحاحاً من سؤال من يملك الغرب هي الوقع الذي ستحدثه الأراضي الغربيّة على الأمّة الناشئة المشرفة على الساحل الأطلسي. كان بعض المندوبين يخشون المستوطنين في الأراضي الغربيّة، واصفين إيّاهم بهمزة الوصل بين الوندال (Vandals)[1] وحيوانات الغابة المفترسة. كان هؤلاء الشرقيّون يخشون اليوم الذي يفوق فيه عدد مثل هذه الكائنات المتوحّشة عدد السكّان المتحضّرين في الولايات الثلاث عشرة. وقد عبّر روفوس كينغ سنة 1786 عن خشيته من أنّ الهجرة إلى الغرب ستفرغ المنطقة من السكّان الذين يحتاج إليهم الشرق، فيما عبّر الرئيس المستقبلي جيمس مونرو عن قلقه من أنّ «مصالح الغربيّين متناقضة مع مصالحنا».

رغم خشية الكثير من الناس الغرب فإنّ عددا أكبر كانوا يخشون خسارته. فقد ينفصل المستوطنون المشاغبون عن الوطن، وقد يتآمرون مع قوى أجنبيّة، وربما يحرّضون على الحروب ضدّ البلدان الهنديّة أو البلدان الأخرى. كان الغربيّون معزولين من جهة المحيط الأطلسي بسبب الجبال ذات العمود الفقري الشاهق. وقد أحسّوا بجاذبيّة البريطانيّين (الذين كانوا لا يزالون في كندا) والإسبان (الذين يسيطرون على نهر ميسيسيبي الحيوي). وبعد أن سافر واشنطن عبر جزء من الغرب في 1784، وصف الخطر لحاكم فرجينيا:

لست في حاجة إلى أن أبيّن لكم سيّدي أن مؤخّرة الولايات المتّحدة وجوانبها مملوكة

(1) في الأصل قبيلة ألمانية، وهي تأتي صفة بمعنى المخرّب لأملاك الغير (م).

لقوى أخرى – قوى هائلة أيضا... فكم سنكون منفصلين تماما عن المستوطنين الغربيّين؟ وما هي الاضطرابات التي قد لا ندركها إذا كان الإسبان على يمينهم وبريطانيا العظمى على شمالهم... يحتفظون بالقدرة على الإغراء بسبب العلاقات التجاريّة والتحالف الذي يمكن عقده معهم؟ إنّ المستوطنين الغربيّين –وأنا أتكلم الآن بناء على ملاحظتي الخاصة– يقفون على ما يشبه القارب، ويمكن للمسة ريشة أن تنعطف بهم في أيّ اتّجاه.

وفي رسالة أكثر خصوصيّة، لاحظ واشنطن أن الغرب سيكون في حالة اندلاع نزاع بين الولايات المتّحدة وبريطانيا أو إسبانيا «جارا مرعبا خطيرا».

كان واشنطن محقّا في التساؤل عن ولاء الغربيّين. لقد خلص أحد الباحثين إلى أن السجلاّت الإسبانيّة لتلك الحقبة تقرّ بـ«خيانة» الغربيّين و«تقلّبهم وانعدام الثقة بهم».

في 1784 شكّل المستوطنون «ولاية فرانكلن» غرب نورث كارولينا. وحين لم يتمّ ضمّها إلى الاتّحاد فورا هدّدوا بالانفصال، وباشروا بتدبير بعض «المؤامرات» الإسبانيّة. وعرضت ولاية تسمّى كمبرلاند (Cumberland) (ناشفيل، تنيسي، مستقبلا) قَسَمَ الولاء على ملك إسبانيا. وقد انضمّ الرئيس المستقبلي أندرو جاكسون إلى المخطّط.

عقد مستوطنو كنتاكي مؤتمرين سنة 1785. وقد دعا المؤتمر الثاني إلى الانفصال عن فرجينيا والانضمام إلى الاتّحاد كولاية. وكان جيمس ويلكنسون أحد قدماء الحرب الثوريّة والذي سيتآمر في المستقبل مع هارون بير يحلم بعمل أكثر فعاليّة. ادّعى ويلسون تمثيل كنتاكي، وقد أقنع إسبانيا في 1786 بمنحه حقّ احتكار التجارة في نيوأورلينز إذا تمكّن من دفع كنتاكي إلى الاتّحاد مع إسبانيا.

وفي شهر أغسطس من سنة 1786، التقى جيمس وايت عضو الكونغرس ومندوب نورث كارولينا بممثّل ملك إسبانيا دون دييغو دي غواردوكي في نيويورك. وقد ذكر عضو الكونغرس أنّه في مقابل حقّ الملاحة في نهر ميسيسيبي، فإن الغربيّين سينفصلون عن الولايات المتّحدة، ويقبلون «بحماية إسبانيّة».

لم يغال واشنطن في تقدير خطر الانفصال الغربي. كانت الشكوى الرئيسة للغربّيين تتعلّق بمسيسيبي. فطيلة عشر سنوات أو أكثر كانت الولايات المتّحدة تبحث عن حقّ الملاحة في مياهه، إذ كانت كلّ التجارة الغربيّة تتدفّق بالطبع من تلك المياه. وفي انتكاسة حادّة، أغلقت إسبانيا النهر دون الأمريكيّين في نهاية حرب الاستقلال. وبنهاية 1786، كان جون جاي، مندوب نيويورك، ممثّل الكونغرس في المفاوضات مع إسبانيا. ففي مقابل امتيازات تجاريّة تشمل فتح الموانئ الإسبانيّة أمام السفن الأمريكيّة، اقترح جاي وقف كلّ أنواع التجارة على نهر مسيسيبي مدّة خمسة وعشرين عاما. وقد أدان الجنوبيّون بشدّة هذه الشروط، مجبرين جاي على التخلّي عن التفاوض. أصبح للجنوبيّين الآن حجّة أفضل حتى من السابق للارتياب بالولايات الأطلسيّة.

لم تكن لأغلب مندوبي فيلادلفيا خبرة كبيرة بالغرب، رغم أنّه لا يوجد أيّ مكان في أمريكا بعيد عن الحدود الغربيّة. خلال طفولة ماديسون تعرّض منزله في فرجينيا بيدمونت للتهديد بسبب هجمات الهنود، وقد وفّر أحيانا ملاذا للاجئين من الحروب الهنديّة. وكان بعض المندوبين من جورجيا ونورث كارولينا يسكنون بعيدا في عمق الأراضي الأمريكيّة، ممالم يسمح لهم بمعرفة الحدود الغربيّة جيّدا. وكان واشنطن من خلال اشتغاله مسّاحا للأراضي في فترة شبابه، وخدمته في الحربين الفرنسيّة والهنديّة، وحبّه للغابات، يعرف الغرب أكثر من أغلب المندوبين. وعندما تزوّج لوثر مارتن مندوب مريلاند حفيدة شخصيّة أسطوريّة تقيم على الحدود الغربيّة (توماس كريساب، أقام دعوى قضائيّة باسم العائلة ضدّ الجنرال واشنطن حول ملكيّة أراض غربيّة، وقد كسب القضيّة قبل بداية المؤتمر بشهرين.

عكست التجربة المحدودة للمندوبين مع الغرب الحقيقتين التوأمين: سلسلة جبال أبالاش والنقل خلال القرن الثامن عشر اللتين تضافرتا لرسم فاصل حادّ بين الولايات الثلاث عشرة والغرب. كان السفر برّا عبر الجبال منهكا أكثر حتى من السفر على الساحل الشرقي، إذ لم يكن الأمر نزهة ممتعة.

وكما قال كاتب معاصر مستحضرا التجربة: كانت الطريق في أغلب الأحيان:

«مجرّد نفق في العشب». وكان المسافر يكابد خليطا جهنّميا من الحفر والأوحال وجذوع الأشجار. وكلما مرّت الخيول والعربات بطريق ما ازدادت الأرضيّة وحلا وأخاديد، وفي النهاية يصبح الدرب كلّه أكثر انخفاضا من الأرض المحيطة به، ممّا يضمن تدفّق المياه إليه... وفي نهاية المطاف لن تكون السبيل المارّة من الغابات طريقا حقيقيّة بالمرة، بل مجرّد مستنقع.

كانت تلك «المستنقعات الخطّيّة» تمرّ عبر الغابات التي تبدو لا نهاية لها وغير قابلة للاختراق، وهي مليئة بالدببة والذئاب والأسود والثعابين. وقد أظهر عديد الهنود سلوكا عدائيّا حين علموا أن المستوطنين ينوون أخذ أراضيهم. وقد لخّص مسافر ألماني مواقف المستوطنين في وادي أوهايو: «إنّ الهنود عموما مكروهون هنا، تماما مثلما هم في أنحاء أمريكا».

كان الغربيّون زمرة من الأفظاظ. وقد وصفهم أحد المعاصرين بأنّهم: «أشرار تقريبا مثل الكائنات البشريّة التي هوت إلى هذا الجانب من الجحيم المطبق. كان إغواء النساء شائعا، وكانت الخصومات والمعارك مألوفة بلا ريب، وشرب الخمر في كلّ مكان تقريبا». كان البعض فارّا من العدالة، أو قد «ترك دَيْنا أو ثروة» وراءه في الشرق. وقد لاحظ مؤرّخ أنّ «الماكر السفّاح» و«قرش الأرض المهذّب» حوّلا المستوطنات الغربيّة «جحيما حقيقيّا». وكتب فرنسي أنّ رجال الحدود الغربيّة هم «غالبا في حالة حرب مثلى» مع بعضهم بعضا ومع كلّ ساكن متوحّش لهذه الغابات الموقّرة... لا يبدو الناس هناك أفضل من حيوانات لاحمة من درجة راقية».

رغم المشقّات وقسوة طباع الناس، واصل الأمريكيّون تحرّكهم غربا بوتائر متسارعة. لقد لاحظ زائر أوروبي لدى الأمريكيين «ولعا بالهجرة». ففي سنة 1787، حمل أكثر من 900 قارب ما يفوق 18000 مستوطن عبر نهر أوهايو. وقد تمّ إحصاء 73000 شخصا في كنتاكي وحدها، وذلك في تعداد 1790، وأكثر من 100000 نسمة في الجهة الواقعة جنوب نهر أوهايو.

أكّدت ستّ ولايات ادعاءات متداخلة بامتلاك أراض غربيّة، مستندة في ذلك إلى مواثيق

صدرت عندما كان الإنجليز غير واثقين من مدى الاتّساع الجغرافي لأمريكا الشماليّة. فقد أعلنت بعض المواثيق من القرن السابع عشر أن المستوطنة تقع من البحر إلى البحر أو تمتدّ إلى حدود «بحار الجنوب». وقد تشبّثت الولايات بهذه الصكوك رغم أنّها غير عمليّة. وقد ادّعت ماساتشوستس وكونكتكوت ملكيّة أراض بمقتضى مثل هذه الفصول بالرغم من وقوع نيويورك على حدودهما الغربيّة، وهو ما يناقض أي زعم بأنّ ولايات نيوإنجلند تمتدّ إلى المحيط المجاور –وهكذا أصرّت ماساتشوستس وكونكتكوت على أنّ حقوقهما تقفز فوق نيويورك وتبتدئ من جديد على حدودها الغربيّة.

وعلى وجه فريد من نوعه، ادّعت نيويورك ملكيّة أراض غربيّة من خلال معاهدات أبرمتها مع الأمم الستّ للكنفدرالية الإيروكيّة[1]. ومع التسليم بهيمنة الإيروكوا على القبائل الواقعة فوق نهر أوهايو ادّعت نيويورك ملكيّة الأراضي نفسها.

استاءت الولايات «التي لا تملك أراضي» –بنسلفانيا، ديلاوار، رود آيلند، نيوجيرسي، نيوهمشاير، مريلاند– من مزاعم الآخرين. وقد أصبحت النزاعات عنيفة أحيانا. ورفضت مريلاند، وهي موطن عديد المستثمرين في الأراضي الغربيّة إقرار بنود الكنفدرالية إلى أن تتخلّى فرجينيا عن أكثر مزاعمها تطرّفا في موضوع الأراضي الغربيّة. وبدفع من ماديسون ومايسون تنازل مجلس فرجينيا للبلد الجديد عن كلّ الأراضي الواقعة شمال نهر أوهايو في بداية 1781. وتعبيرا عن رضاها، صدّقت مريلاند على البنود.

في مارس 1784 تبرّعت فرجينيا للولايات المتّحدة بالأراضي الواقعة شمال نهر أوهايو. كتب توماس جيفرسون مسودّة التشريع للكونغرس كي تُضمّ الأراضي التي تمّ التنازل عنها إلى ولايات سيلفانيا (Sylvania) وميتشيغانيا (Michigania) وتشيرونيسس (Cherronesus) ومتروبوتاميا (Metropotamia) وإيلينويا (Illinoia) وواشنطن بوليبوتاميا (Polypotamia) وأسينسيبيا (Assenisipia) وبيليسيبيا (Pelisipia). وكان بإمكان كلّ ولاية الانضمام إلى

(1) الأمم الستّ أو الخمس هي مجموعة من الأمم الأولى من الأمريكيّين الأصليين في منطقة البحيرات العظمى.، تتألّف من خمس قبائل: الموهوك وأونايدا وأونداجا وكيجا وسينيكا. اتّحدت هذه القبائل وأسّست كنفدرالية. وفي 1720 انضمّت إلى الكنفدرالية قبيلة سادسة هي قبيلة توسكارورا (م).

الكنفدرالية إذا بلغ عدد سكّانها عدد سكّان أصغر ولاية موجودة. وسيقع منع العبوديّة في تلك الأراضي بعد 1800. و قد تعطّل تشريع جيفرسون في الكونغرس مدّة سنة، ثم سنتين ثم ثلاث سنوات.

بحلول 1787 كان الكونغرس الكنفدرالي جاهزا لتكرار المحاولة. كانت الفقرة المتعلّقة بإلغاء العبوديّة والأسماء الغريبة للولايات الجديدة قد أسقطت من تشريع جيفرسون. تشكّل النصاب القانوني من ثمانية عشر عضوا من أعضاء الكونغرس، انصرفوا إلى دراسة المسودّة في بداية شهر يوليو، وكانوا يعيشون دائما في الظلّ. كان مشاهير أمريكا السياسيّون في فيلادلفيا ذلك الصيف، لا في الكونغرس الذي وصفه ملاحظ بأنّه «جسم يتزايد عجزه و يتناقص وقاره».

مع ذلك، وعلى مسافة تسعين ميلا تفصل بينهما، بدأ الكونغرس الكنفدرالي والمؤتمر خلال الأسبوع الثاني من يوليو رقصة تضليليّة حول الغرب ثمّ -ودون سابق توقّع- حول العبوديّة. فمن خلال إجراءات متوازية تستهدف الأراضي الغربيّة، تبنّى الهيكلان سياسة توسّع جمهوري لم ير العالم مثيلا لها في السابق قطّ. غير أن الكونغرس الكنفدرالي والمؤتمر تركا، بسبب الإجراءات المتناقضة حول العبوديّة، تلك المشكلة العويصة للأجيال اللاحقة. لقد أغرت تلك القرارات المتوازية والمتضاربة بعض المؤرّخين بالسقوط في نظريّات المؤامرة، بحثا عن روابط بين الكونغرس الكنفدرالي والمؤتمر في هذه المرحلة الدقيقة.

في فيلادلفيا، كان على المندوبين أن يقرّروا كيف سيتمّ قبول الولايات الجديدة في الاتّحاد. ولم تكن الأراضي الغربيّة وحدها هي التي تَعِد بقيام ولايات جديدة: كانت فرمونت ستلتحق بالاتّحاد حالما تتخلّى نيويورك عن ادّعاء ملكيّة تلك المقاطعة. أما ماين (Maine) فكان من المتوقّع أن تنفصل عن ماساتشوستس و تنشد التحوّل إلى ولاية. مع ذلك، كان النمو الكبير سيقع في الغرب، وهو ما أقلق عديد المندوبين. وفي 6 يوليو حذّر روفوس كينغ مندوب ماساتشوستس من أنّ مبدأ تساوي الأصوات في مجلس الشيوخ سيمنح الولايات الجديدة في أراضي الشمال الغربي ما لا يقلّ عن عشرة أصوات بالرغم من أنّ كل تلك الولايات مجتمعة

سيكون لها عدد من السكّان أقلّ مما لبنسلفانيا.

بعد ثلاثة أيّام، قام ناثانيال غورهام مندوب ماساتشوستس ليتكلّم. كان غورهام، وهو شخصيّة قلقة، منشغلا بمسألة الغرب. وقد حذّر من أنه إذا أسندت الحكومة الجديدة ممثّلا عن كل 40000 شخص، فإن الولايات الغربيّة قد «تفوز» يوما ما «في الانتخاب بأكثريّة الأصوات على الولايات الواقعة على المحيط الأطلسي». ينبغي أن تحافظ الولايات الأطلسيّة على السلطة «بين أيديها حتى تتمكّن من الاهتمام بمصالحها الشخصيّة». وقد تردّد كلام غورهام من الغد في تحريض الحاكم موريس للولايات الثلاث عشرة الأصليّة «على الاحتفاظ بأغلبيّة من الأصوات بين أيديها».

بعد يومين، عكس جورج مايسون الهجوم لصالح الولايات التي لم تنشأ بعد. قال بوضوح:

ينبغي أن نضحّي بما نعرف أنه حقّ بذاته، خوفا من أن يخدم ذلك مصلحة ولايات غير موجودة إلى حدّ الآن. ينبغي أن تعامل الولايات الغربيّة كأنداد، وألا تخضع لأيّ شكل من التمييز المهين. سوف يكون لها الشعور بالفخر ذاته... الذي لدينا، وهي إما أنها سترفض الاتّحاد مع الاتحاد أو ستثور بسرعة عليه إذا لم... تعامل على قدم المساواة.

ردّ موريس بمشاطرة الكراهيّة لكل ما هو غربي. فرغم أنه كان أكثر المواجهين عنفا لمسألة العبوديّة في المؤتمر، لم يتلطّف في الحطّ من قيمة منطقة الحدود. لاحظ موريس وجود ممثّلين عن المناطق الجبليّة في مجلس بنسلفانيا. كان متأكّدا أنهم «لا يملكون عقولا نيّرة مثل غيرهم»:

إنّ المناطق الآهلة بالسكّان، وليس المناطق الفقيرة النائية، هي المدرسة الملائمة للمواهب السياسيّة. إذا أمسك سكّان الغرب بالسلطة بين أيديهم، فسيدمّرون المصالح الأطلسيّة. إنّ الأعضاء القادمين من الجبال هم دائما الأكثر بغضا لأفضل القرارات.

هاجم ماديسون هذه الثرثرة المتغطرسة. قال موبّخا: إنّ موريس «يحدّد شخصيّة الإنسان بنقاط البوصلة». إن كلّ الناس الذين يملكون السلطة، وليس الغربيين فقط، «لا بدّ أن يواجهوا

إلى حدّ ما شعورا بعدم الثقة». لكنّ ماديسون كان «واضحا وحازما حين رأى ألا يطبّق أيّ تمييز سلبي على الغربيّين».

في ذلك اليوم، 11 يوليو، شرع الكونغرس الفيدرالي في نيويورك الذي أعيدت إليه الحياة في تناول موضوع ما سيصبح معروفا بمرسوم الشمال الغربي (**North West Ordinance**)[1]. وقد دعا التشريع إلى إنشاء ما بين ثلاث وخمس ولايات في الأراضي الواقعة شمال نهر أوهايو (أوهايو، ميتشيغان، إنديانا، إلينوي، وسكنسن، مستقبلا). وستنضمّ الولايات الجديدة إلى الاتّحاد «على قدم المساواة مع الولايات الأصليّة».

ضمن المرسوم للمقيمين في المقاطعات الغربيّة عديد الحقوق التي لن يتمّ إدراجها في الدستور، من ضمنها حقّ «العبادة المسالمة» وواجب اتّباع القانون والحماية من العقوبات القاسية وغير العاديّة. ولم يتمكن الأمريكيّون في الولايات الأطلسيّة من امتلاك حقوق مشابهة إلا بعد التصديق على وثيقة الحقوق سنة 1791. وعلى نحو فريد، أعلن التشريع أنّ «وسائل التعليم سيقع تشجيعها دائما». وفي موضوع العبوديّة ظلّت الوثيقة صامتة.

بعد يومين، أي يوم الجمعة 13 يوليو، قامت الولايات الحاضرة في الكونغرس بتعديل المرسوم والموافقة عليه بثمانية أصوات مقابل صفر، مثبتة بذلك الوعد التاريخي بقبول الولايات التي تشكّلت من أراضي الشمال الغربي على قدم المساواة مع الولايات الأخرى». فقد صوّتت كل الولايات الجنوبيّة الأربع من فرجينيا إلى جورجيا بنعم، والتحقت بها نيويورك وديلاوار وماساتشوستس ونيوجيرسي.

طُرِح في فيلادلفيا، يوم الثالث عشر من يوليو، على مسافة أربع وعشرين ساعة من السير بعربة سريعة مقترح مماثل في أجواء ثقيلة. وكان الحاكم موريس يحاول مجدّدا سحب البساط من تحت أقدام الولايات الثلاث عشرة. لقد تنبّأ بدقّة مثلما اتّضح بتحالف مستقبلي بين

---

(1) يشار إليه أيضا بمرسوم الحرّيّة، وهو قانون صوّت عليه الكونغرس الكنفدرالي في 13 يوليو 1777. وقد أدّى إلى تشكيل أوّل قطاع منظّم من قبل الولايات المتّحدة، هو قطاع الشمال الغربي. حدّد هذا القانون آليّات توسّع الولايات المتّحدة غربا، وكان حظر العبوديّة الحدّ الفاصل في هذا القطاع بين الولايات العاملة بنظام العبوديّة والولايات الواقعة على نهر أوهايو (م).

الجنوبيّين والغربيّين الذين سيحرّضون على الحرب مع أمريكا الإسبانيّة.

هذه المرّة، قام جيمس ويلسون من بنسلفانيا بتحدّي ابن بلده موريس. فقد ألحّ على أنّ «أغلبيّة الناس أينما وجدت» لا بدّ أن تحكم «في كل القضايا». وبإنكار ذلك المبدأ، فقدت بريطانيا العظمى كلّ مستعمراتها الأمريكيّة. ومن المؤكّد أنه لا يجدر بالأمّة الجديدة أن ترتكب الخطأ نفسه بإنكار حقوق الغربيّين.

في اليوم التالي، السبت 14 يوليو، كشف مندوبو ماساتشوستس عن مقترح لاحتواء التأثيرات الخبيثة للغرب. ذكر ألبريدج أنه سيرحّب بالولايات الغربيّة «على أساس التسامح»، لكنّه لا يستطيع تأييد «أن نصبح رهينة بأيديهم». فعند إمساكهم بالسلطة «سيسيء الغربيّون، مثل كل الناس، استعمالها»، ثمّ «سيقمعون حركة التجارة وسيفرغون ثروتنا في بلادهم الغربيّة».

مثّل الحلّ الذي اقترحه جيري ودعّمه روفوس كينغ ضمانة لأن يكون لمجموع الولايات الثلاث عشرة الأصليّة وبصفة دائمة ممثّلون أكثر مما لكلّ الولايات الأخرى مجتمعةً. ولاحظ بتواضع أنّ هذا الإجراء «سيؤمّن حرّيات الولايات التي اتّحدت بعد في إطار كنفدرالي».

أخفق جيري في تمرير مقترحه بفارق صوت واحد. فقد صوّتت أربع ولايات لصالحه، واعترضت عليه خمس ولايات، فيما انقسمت ولايةٌ (بنسلفانيا) على نفسها. فبفارق شعرة رفضت الولايات الثلاث عشرة الاحتفاظ بالتحكّم في الحكومة بصفة دائمة.

كان مبدأ المساواة في معاملة الولايات الجديدة، وهو المبدأ الذي وافق عليه الكونغرس بالإجماع في نيويورك ووافق عليه مؤتمر فيلادلفيا بامتعاض أكبر، ظاهرة جديدة. فبدءا بروما مرورا بالبندقيّة، نمت الجمهوريّات بالغزو والاستعمار، لكنها لم تشمل أراضيها الجديدة بالتساوي في المكانة. ستتخّذ أمريكا مقاربة مختلفة. ستكون الولايات الجديدة متساوية مع سابقاتها. وفي هذه المسألة، طلب مايسون وويلسون وماديسون من المندوبين الثبات على مُثُلهم الجمهوريّة. فلا يمكن للمستعمَرين السابقين أن يصبحوا مستعمِرين.

كان ينبغي أن تشجّع قرارات الأسبوع الثاني من يوليو الغربيّين. ففي كلّ من نيويورك وفيلادلفيا، طُبّقت لمسة الريشة، ودار الدولاب بشكل حاسم في اتّجاه العدالة والمساواة لصالح الغرب.

وفي موضوع العبوديّة، ستكون النتيجة أقلّ وضوحا بكثير.

الفصل الثاني عشر

معجزة إبسويتش

13 يوليو

ربّما جاز تسميتها بمعجزة إبسويتش لأن الرجلين الأكثر مسؤوليّة عنها –ناثان داين ومانانسّه كتلر– ينحدران من تلك المدينة الصغيرة التي تقع شمال بوسطن قرب البحر. قلّة من الناس يعلمون بأمر المعجزة، ومن يعلم بأمرها كثيرا ما يضعها موضوع تساؤل، أو يحاول ربطها بالدستور. حتّى داين لم يتوقّع البتة من الكونجرس أن يضمّن تعديله المناهض للعبوديّة في مرسوم الشمال الغربي. ومثل كلّ معجزة، فإن التفسيرات التي تقدّم بشأنها لا توفّر جوابا شافيا.

في صيف 1787 مثّل داين ماساتشوستس في الكونجرس الكنفدرالي . انحدر داين من وسط فلاحي، والتحق بجامعة هارفارد في سنّ الحادية والعشرين، وقام بإعالة نفسه بواسطة التدريس في المعهد. كان مولَعا بالدراسة أكثر منه بالحرب، وقد تخرّج سنة 1778، ودرس القانون، ولم يؤدّ الخدمة العسكريّة في القوّات الثوريّة. وبعد أن عمل في مجلس الولاية مدّة ثلاث سنوات، أحرز في 1785 مقعدا في الكونغرس.

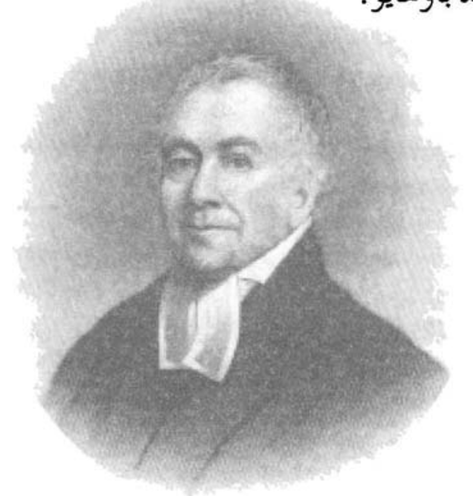
في السنة التالية عمل داين في لجنة مهتمّة بمقاطعة الشمال الغربي، وكانت هذه اللجنة تشتغل على وقع حركة الكونغرس المتقلّبة. غير أنّ اللجنة تلقّت في 1787 ضربة شديدة من الأب مناسّه كتلر ابن بلد داين والمقيم بإبسويتش والمرشّح غير المتوقّع لأنّ يصبح أحد أوّل وأكثر الأشخاص الناشطين في صلب جماعة الضغط نجاعة في أمريكا.

كان الأب كتلر رجلا ذا اهتمامات واسعة وانجازات رائعة، حصل على شهادات من

ييل وهارفارد. وقد جعلت منه المهن المختلفة التي اشتغل بها نسخة مصغّرة من الدكتور فرانكلن.

درس داين القانون، وانضمّ إلى سلك المحاماة، لكنّه أصبح سنة 1771 كاهنا، ودُعي إلى المنبر في إحدى كنائس إبسويتش حيث أصبح راعيا للأبرشيّة خلال الخمسين سنة التالية. وحين تطوّع طبيب المدينة للعمل في الجيش، شرع كتلر في دراسة الطبّ، وقد انقطع عن هذه الدراسة لفترة قصيرة حين تطوّع ككاهن ملحق بالجيش. أكمل تدرّبه الطبّي، ودرس في الوقت نفسه علم الفلك وعلم الأرصاد الجوّية وعلم النبات. كما أصدر أوّل تصنيف للحياة النباتيّة في نيوإنجلند، وأدار مدرسة في بيته مدّة خمس وعشرين سنة.

بحلول شهر يونيو 1787، أخذ هذا الرجل النهضوي على عاتقه مشروعا من لون آخر تماما. فعند انتهاء الحرب كتب زهاء 300 ضابط في الجيش القارّي عريضة للكونغرس للمطالبة «بأراض في شكل هبة» تقع في قطاع الشمال الغربي كانوا قد وُعِدوا بها مكافأة على الخدمة العسكريّة. وفي أوائل 1786 التقى زعماء المجموعة في فندق «بانش أوف جرايب» لتكوين جمعيّة تسهر على متابعة المطالبات المتعلقة بالأراضي. وقد سمّوْا الأب كتلر في الهيئة المديرة لمؤسّسة المنتسبين الجديدة بأوهايو.



الأب مناسّه كتلر

ورغم أن المؤسّسين كانوا رجالا بارزين يعرفون هم أنفسهم كثيرا من أعضاء الكونغرس، فإنّهم اختاروا هذا المحامي الكاهن والطبيب العالم المربي لتمثيلهم. وقد ثبت أنّه اختيار ملهم.

على امتداد فترة خمسة أسابيع من شهري يوليو وأغسطس 1787 حوّل كتلر مخطّط الأراضي التائه إلى واقع. وفي الأثناء سجّل رواية مثيرة لرحلته عبر كل رواق من أروقة السلطة التي وفّرتها الأمّة الجديدة. ومن بين الشخصيّات الأمريكيّة البارزة التي كانت تقيم بين بوسطن وفيلادلفيا ذلك الصيف، لم يتحاش سوى الجنرال واشنطن الكاهنَ غيرَ القابل للزجر، كتلر.

كانت شركة أوهايو ترمي إلى شراء 1,7 مليون أكرة من الأراضي الحكوميّة الواقعة حول ماريتا الحاليّة، أوهايو، بقيمة دولار واحد للأكرة. وبما أنّ الشركة ستدفع الثمن بسندات قروض منخفضة القيمة صادرة خلال الحرب، فإنّ الثمن الحقيقي سيكون أكثر انخفاضا بكثير. ومع إكمال الصفقة، دفعت شركة أوهايو 8 سنتات مقابل الأكرة الواحدة.

ولإتمام هذه الصفقة الجذّابة، احتاجت شركة أوهايو لإجراءين من الكونغرس الكنفدرالي. كان على الكونغرس أن يوافق أوّلا على الصفقة. وكان ثانيا سيعيد توفير الطمأنة اللازمة للمستوطنين المحتملين بإنشاء حكومة مستقرّة في القطاع الشمالي الغربي. ولمدّة تجاوزت سنتين، ظلّ الكونغرس متأرجحا بين كلا الإجراءين. إلى أن دخل الأب كتلر مسرح الأحداث.

كان الأب كتلر رجلا طويل القامة كامل الجسم، ومع ذلك «خفيف الحركة إلى أقصى حدّ». وبفضل طيبة قلبه المُريحة كسب ثقة نوّاب الكونغرس في نيويورك، بمن فيهم ممثّل مدينته الأصليّة ناثان داين. وصف أحد أعضاء الكونغرس من فرجينيا كتلر بأنّه «نيوإنجلندي منفتح، صريح ونزيه، إنّه إنسان غير عادي». ورغم أنه قسّيس، لم يكن زاهدا في الدنيا. ويتذكّر أحد أفراد عائلته أنّه كان مغرما بالمبارزة بالسيف، ولا تفارقه «علبة النشوق أبدا، وكان يملك مكتبا مموّنا تموينا جيّدا بالمشروبات الكحوليّة».

في بداية شهر مايو، انكبّت لجان الكونغرس على دراسة طلب شركة أوهايو شراء الأراضي

آخذة في الوقت نفسه بعين الاعتبار نسخة أولى من مرسوم الشمال الغربي. ومثلما بدأت مناقشة هذا المقترح المستقبلي فجأة، توقفت فجأة. فقد غادر بعض أعضاء الكونغرس إلى مؤتمر فيلادلفيا، وتغيّب بعضهم الآخر. ولمدّة شهرين تقريبا، توقّف نشاط الكونغرس لعدم توفّر النصاب.

حين وصل الأب كتلر إلى نيويورك يوم 5 يوليو كان يبدو كالإعصار في بدلته السوداء المخمليّة المميّزة ذات الإبزيمات الفضّيّة عند الركبتين والحذاء. وعلى امتداد الأيّام العشرة التالية تضافرت عديد العوامل التاريخيّة التي لم يكن الأب كتلر بمنأى عن التأثير في أغلبها، حتّى أن المؤرّخين يجدون صعوبة في وضع القصّة التي تفسّر كل هذه العوامل.

في 6 يوليو قام أحد الفرجينيّين بتقديم الأب كتلر في الطابق الأرضي من الكونغرس. ثمّ حدث لقاء في الطابق الثاني من مبنى مدينة نيويورك. وبعد أن حيّا كاهن إبسويتش داين وبعضَ أعضاء الكونغرس، تغدّى مع أعضاء آخرين من الكونغرس وتعشّى مع عدد أكبر من ذلك. واستمع إلى محاضرة من أحد الوجوه اللاهوتيّة البارزة في موضوع «النفاق». وبابتهاج لا يعرف الوهن وصف كتلر الخطاب بأنه مسلّ «رغم جفاف الموضوع ورداءة الإلقاء». إن المرء ليتساءل: أين الجزء الجيّد إذن؟

طيلة يومين، انضمّ داين إلى اجتماعات لجنة الكونغرس التي كانت تُعدّ مرسوم الشمال الغربي وعقد الأراضي المتعلّق بشركة أوهايو. عقد الأب كتلر حلفا مع جمعيّة أخرى للمطالبين بالأراضي يتزعّمها وليام ديور مندوب نيويورك. ولحسن الحظّ، كان ديور رئيس لجنة الشؤون الماليّة في الكونغرس، وكان بعض المستثمرين الراجعين بالنظر إلى لجنته أعضاء في الكونغرس. لقد أثّر ديور تأثيرا شديدا في الكاهن الناشط في إحدى جماعات الضغط. كتب كتلر: يعيش النيويوركي «عيشة النبلاء». «فقد قدّم ما لا يقلّ عن خمسة عشر نوعا من الخمر... إلى جانب أفضل أنواع خمر التفّاح المعلّب في القوارير، والجعة الحادّة المذاق، وبعض الأنواع الأخرى من شراب الجعة القوي». سيكون ديور حليفا ثمينا.

في العاشر من يوليو قدّم الأب كتلر للجنة ملاحظاته في ما يخصّ التشريع بالتوازي مع

بعض التعديلات المقترحة. وبعد سنوات أسرّ لابنه الذي كان آنذاك سياسيّا مناهضا للعبوديّة في أوهايو أنّه أعطى داين تعديلا لحظر العبوديّة في مقاطعة الشمال الغربي. شرح الأب كتلر قائلا: كان هذا التعديل ضروريّا لأنّه كان «يعمل لصالح شركاء وأصدقاء وجيران لن ينخرطوا في هذا المشروع ما لم يتمّ تثبيت هذه المبادئ المناهضة للعبوديّة بصورة لا تقبل التغيير».

حظي مشروع القانون المعدّل بقراءة أولى في الكونغرس الكنفدرالي في اليوم التالي، 11 يوليو، لكنّ كتلر لم يكن هناك لسماعها. ومع تحويل الكونغرس اهتمامه إلى مرسوم الشمال الغربي عوضا عن مسألة أهمّ بكثير بالنسبة إليه وهي عقد الأراضي «رأى كاهن إبسويتش أنّ هذه هي أفضل فرصة مواتية ليذهب إلى فيلادلفيا». وصل إلى هنالك مساء الثاني عشر من يوليو، وقد سبقته رسالة تقديم من حاكم ماساتشوستس إلى ألبريدج جيري».

لم تكن الغاية من زيارته القصيرة إلى فيلادلفيا، حيث أقام ليومين فقط، واضحة تماما. وحسب الرواية الواردة في يوميّاته، لم يكن كتلر أكثر من سائح مفرط في الحركة قليل النوم ويلتهم مناظر المدينة على جرعات كبيرة تترك القارئ مقطوع الأنفاس ولكنّه مبتهج. بحث بعضهم عن هدف أكثر عمقا لرحلته يفسّر سبب مغادرته نيويورك في اللحظة التي بدأ فيها الكونغرس بتناول مرسوم الشمال الغربي، وهو إحدى مسألتين كان مهتمّا بهما.

حسب ما ورد في يوميّاته، لم يضيّع الأب كتلر لحظة واحدة في فيلادلفيا. فبعد وصوله بساعة إلى فندق «إنديان كوين»، اجتمع مع مندوبَين اثنين من ماساتشوستس مقيمَين هناك (غورهام وكالب سترونغ) وأخذ يحشد لحفل عشاء. غادر جيري إقامة عائلته وانضمّ إلى العشاء مع ماديسون ومايسون من فرجينيا، واثنين من نورث كارولينا وكاروليـنيّين جنوبيّين (جون راتليدج والمدعو «السيّد بينكني»، وهو على الأرجح تشارلز). وتفترض السهولة التي جُمِع بها المدعوّون إثر إخطار مقتضب أنّ تلك الليلة كانت ليلة بطيئة في فندق «مدينة الحبّ الأخوي» (City of Brotherly Love)؛ ومرّة أخرى، ربما تعكس جدول أعمال خاصّ كان الأب كتلر يرغب في تنفيذه.

ظلّ الكاهن مستيقظا إلى «الحادية والنصف» مع مندوبي ماساتشوستس الثلاثة، يخوضون

في مسائل تخصّ ولايتهم. وبعد ليلة قصيرة تناول فطور الصباح في الخامسة والنصف مع سترونغ وجيري، ثم استمتع بجولة على عربة في فيلادلفيا ومنازلها الريفيّة. وقد تناول غداء الظهيرة مع الدكتور بنجامين راش –وهو أحد أعرق مواطني فيلادلفيا–، وتناقش معه حول علم النبات ونظام لينايوس (Linnaeus) للتصنيف[1]. ثم تحوّل إلى بيت تتشارلز ويلسون بيل لاستعراض لوحات هذا الرسام في قاعة العرض ومجموعة متحجّرات السيّدة بيل. هتف كتلر في يوميّاته وكانت تحيط به لوحات زيتيّة لجنود وطنيّين من رسم بيل: «تخيّلت نفسي وقد وقع تقديمي لكلّ القادة العسكريّين الذين كانوا في ساحة المعركة أثناء الحرب».

انتقل الأب كتلر إلى دار الولاية، وهو «مبنى سام» كان الوحيد في المدينة الذي أوصدت أبوابه في وجهه: «الحرس مزروعون في الخارج والداخل لمنع أيّ شخص من الاقتراب، ويبدو أنّهم يقظون جدّا أثناء أداء واجبهم». بعد ذلك جاء دور جامعة بنسلفانيا المستقبليّة التي تفقّد كتلر مرافقها الأساسيّة وهيئة التدريس فيها.

جاءت اللحظة الهامّة في زيارته ذلك المساء، عندما قام جيري والكاهن بزيارة الدكتور فرانكلن «أعجوبة أوروبّا ومجد أمريكا». ظلّ الأب كتلر هناك لخمس ساعات. ثم تسلّل مع الدكتور بعيدا عن تجمّع أوسع لمراجعة «العجائب» العلميّة ونصّ مكثّف في علم النبات. كتب الأب كتلر: «بدا الدكتور شديد الشغف بتناول المواضيع الفلسفيّة، في حين ابتلعت السياسة السادة الآخرين. وكانت هذه فرصة ملائمة بالنسبة إليّ». روى كاهن إبسويتش بحماس أنّ لفرانكلن «ميلا لا يتوقّف إلى الفكاهة، مع حيويّة غير مألوفة تبدو طبيعيّة ولا إراديّة مثل تنفّسه».

أغرت جاذبيّة الكاهن كتلر الدكتور فرانكلن بأن يبدأ سرد حادثة وقعت مؤخّرا في أحد المؤتمرات. بدأت القصّة حين رسم الحكيم زاحفة برأسين، وهي استعارة توحي بدلالات سياسيّة. ومن المؤسف أنّ أحد الحاضرين استحضر مبدأ السرّية المعمول به في المؤتمر، وأوقف حكاية فرانكلن في منتصف سرده لها.

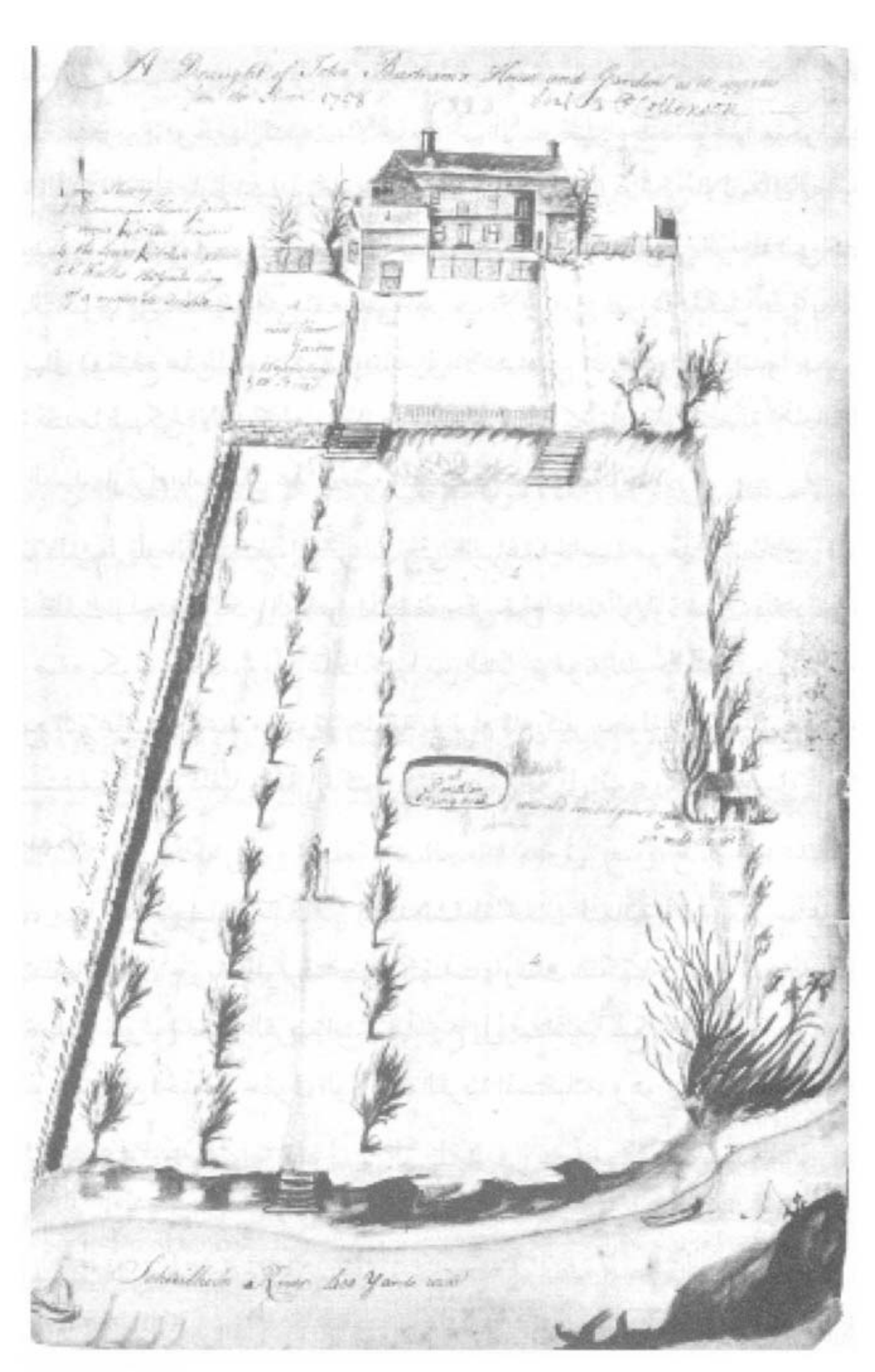
---

(1) هو نظام للتصنيف نسبة إلى كارل لينيوس، سويدي الجنسيّة، ولد في 23 مايو 1707، وهو رائد علم التصنيف الحديث (Taxonomy)، وهو أيضا عالم نبات وطبيب وجيولوجي وعالم حيوان (م).

بعودته إلى فندق «إنديان كوين» في الساعة العاشرة مساء، انضمّ كتلر إلى «مائدة فاخرة» رفقة ستّة مندوبين. وحين اكتشف الآخرون أنّ الأب كتلر حدّد موعدا مبكّرا لمشاهدة الحديقة النباتيّة لعائلة بارترامز، ارتفعت الجلبة في كلّ مكان رغبة في الالتحاق به. وقد قام ماديسون وراتليدج ومايسون وابنه وكاروليّنيّان شماليّان بالتسجيل في الرحلة التي تنطلق في الخامسة صباحا إلى الحديقة التي تقع على الجانب الأخر من نهر شويلكيل على بعد حوالي أربعة أميال (وتدفع هذه الحوادث العرضيّة إلى الاشتباه في أنّ المندوبين كابدوا شعورا كبيرا بالرتابة عندما لم يكن الأب كتلر موجودا معهم). وبحركة نادرة ومقتضبة لاحظ الكاهن تفاجؤ السيد بارترام باستقبال هذا الجمع المهيب في ساعة مبكّرة.

رغم ذلك لم يَأْوِ الأب كتلر إلى فراشه حتّى الساعة الخامسة موعد الانطلاق. قد تكون الحرارة أقلقت راحته، ولكنّ الكاهن استيقظ حتّى قبل عادته لزيارة سوق فيلادلفيا الشهير الذي وصفه بكونه عجيبة، وبأنّ عددا كبيرا من الناس يؤمّونه لدرجة أنه يبدو «مثل آخر يوم من جمع التبرّعات». وعند مغادرته حديقة بارترام قام كتلر بجولة في حدائق فندق غراي، وزار مستشفيات فيلادلفيا رفقة الدكتور راش، ثمّ اتّجه إلى نيويورك في المساء مخلّفا وراءه مدينة منهَكة.

إذن، ماذا كان وراء هذا الكاهن المتّقد نشاطا خلال الثمانية والأربعين ساعة الجنونيّة في فيلادلفيا؟ إنّ الأجوبة المتوفّرة محض تكهّنات، وتلك التكهّنات هي التمرين التاريخي الأكثر تسلية. تقول إحدى الفرضيّات إنه أسرع إلى فيلادلفيا لمنع الحاكم موريس ومندوبي ماساتشوستس من الحدّ من حقوق الولايات الغربيّة المستقبليّة، وهو ما كان سيفسد مخطّطات شركة أوهايو للتوطين.



رسم تخطيطي لحديقة برترام، إيرل عقار دربي

يفترض هذا التخمين سلسلة الأحداث التالية. في الأسبوع الأوّل من شهر يوليو سافر بعض مندوبي المؤتمر إلى نيويورك لكي يؤدّوا واجبهم الموازي باعتبارهم أعضاء في الكونغرس. أشار مندوب عضو في الكونغرس على نحو ما، بالرغم من أنه كان مقيّدا بقاعدة السرّيّة، إلى أن المؤتمر قد لا يمنح الغرب معاملة متساوية. أو ربما يكون الخبر قد نما عن ممثّلَيْنِ في الكونغرس كانا في فيلادلفيا خلال اليوم الرابع من يوليو.

وأيّا كانت الطريقة التي نما بها الخبر فإنه قد دفع الممثّل الخارق للعادة لشركة أوهايو إلى أداء زيارة خاطفة لفيلادلفيا، وسرّع في عقد اجتماعات لأعضاء من الوزن الثقيل في المؤتمر، مثل جيري وراتليدج وماديسون.

إن ما يدحض بشدّة هذه الفرضيّة هو أن الأب كتلر لم يسجّل البتة هذه الحادثة، خصوصا وأنّه لم يكن يتوانى عن حفظ تفاصيل نشاطه في جماعات الضغط بنيويورك. وفي كلّ الأحوال، جاء تحدّي معاملة الغرب على قدم المساواة تماما من أولئك المندوبين عن ماساتشوستس الذين قضى الأب كتلر معظم الوقت معهم. والثابت أن جيري وروفوس كينغ ألحّا بعد تلك الزيارة الصباحيّة إلى حديقة بارترام يوم 14 يوليو على مقترحهما بأن تكون للولايات الثلاث عشرة وبصفة دائمة أغلبيّة في الكونغرس. وإذا كان الأب كتلر يرمي إلى إقناعهما بمعاملة الغربيّين بطريقة عادلة، فقد كان فاشلا في مسعاه على نحو غريب.

حاول آخرون ربط زيارة الأب كتلر بمعجزة إبسويتش التي حدثت في نيويورك يوم 13 يوليو في حين كان خارجها. كان ذلك هو اليوم الذي أقرّ فيه الكونغرس مرسوم الشمال الغربي. ففي اللحظة الأخيرة من نقاشات أعضاء المؤتمر تحرّك ناثان داين لإضافة فصل سادس إلى المرسوم نصّ على «ألاّ يكون هناك رقّ ولا استعباد قسري في القطاع المذكور». لقد فرض هذا الفصل إلغاءً صريحا للعبوديّة، ذلك الإلغاء الذي كان مصدرَ قلقِ كلِّ جنوبي، وكان موضوعَ الفقرة الشرطيّة التي ادّعى الأب كتلر كتابتها. وعلى سبيل التنازل لمالكي العبيد في أجزاء أخرى من البلاد تضمّن الفصل السادس «مادّة تتعلّق بالعبد الآبق» تقتضي ردّ العبيد الفارّين إلى أسيادهم. تمّت الموافقة على فصل داين السادس بالإجماع، وأصبح

جزءا مشرّفا من الوثائق التأسيسيّة للأمّة.

خلال وصفه للحدث في رسالة لروفوس كينغ كان إحساس داين بالمفاجأة والغبطة واضحاً:

حين سَحَبْتُ المرسوم... لم تكن لي فكرة عمّا إذا كانت الولايات ستوافق على الفصل السادس الذي يلغي العبوديّة، إذ لم تحضر من الولايات الشرقيّة سوى ماساتشوستس، ولذلك أسقَطْت الفقرة من المسوّدة. لكنّني لما لاحظت أنّ المجلس أظهر موقفا إيجابيّا من هذه المسألة قمت بتحريك الفصل وتمّت الموافقة عليه دون اعتراض بعد أن أنهينا الأجزاء الأخرى.

كان من بين تلك الولايات التي ساندت فصل داين السادس الولايات المالكة للعبيد والشديدة البأس: فرجينيا ونورث كارولينا وساوث كارولينا وجورجيا.

كيف حدثت هذه المعجزة؟ وبصفة أخصّ، كيف حدث في الوقت نفسه أنْ هدّد الرائد بتلر مندوب ساوث كارولينا بتزعّم انسحاب الولايات الجنوبيّة من المؤتمر لأنّه كان يشتبه في أن الشماليّين يريدون إلغاء العبودية.



عضو الكونغرس ناثان داين (ماساتشوستس)

بعد أكثر من أربعين عاما وفّر داين تفسيرا بسيطا يتناسب مع كلٍّ من جهود شركة أوهايو الهادفة إلى جلب مستوطنين إلى وادي أوهايو ورواية الأب كتلر للأحداث. كتب داين: في ثمانينات القرن الثامن عشر كان يُتوقَّع أن يكون قطاع الشمال الغربي على ملك «مستوطني ولاية نيوإنجلند أساسا». لذلك «أحال عليهم» الفصل السادس «بصورة أكثر تخصيصا». وبعد ثلاثة أيّام فقط من تبنّي المرسوم وضّح داين تلك النقطة في رسالته إلى روفوس كينغ، ملاحظا أن أراضي الشمال الغربي «سيستوطنها بلا ريب السكّان الشرقيّون (نيوإنجلند) أساسا».

وأضاف كتلر في رسالته سنة 1830: بما أن سكّان نيوإنجلند لم يكن لهم عبيد فإن الفصل السادس لم يُثِرْ أيَّ جدل، إذ لم يكن للجنوبيّين في الكونغرس مبرّر كاف للمحافظة على العبوديّة في الشمال الغربي؛ ومن المؤكّد أنهم قد يفضّلون تسريب المستوطنين المناهضين للرقّ إلى هناك، بعيدا عن المناطق التي أدخلت إليها العبوديّة. اتّبع داين الأسلوب نفسه في التفكير حين دعّم اشتراط نورث كارولينا تقنين العبوديّة في الأراضي الغربيّة التي تنازلت عنها للولايات المتّحدة (التي أصبحت تدعي تينيسي). وقد خلص داين إلى القول إنّ «العبوديّة قد تجذّرت» بعدُ في تلك الأراضي.

كان تيموثي بيكرينغ مندوب ماساشوسيتس، الذي سيصبح كاتب دولة، قد توجّه لكينغ بتلك المحاججة سنة 1785:

أن نعاني من استمرار وجود العبيد حتى يمكنهم أن يتحرّروا تدريجيا في ولايات اجتيحت مِنْ قِبَلِهِمْ، فذلك أمر قد يكون مغتفرا لأنه لا يمكن تجنّبه من دون أن نخاطر بحدوث شرّ أعظم. ولكن أن ندخلهم إلى أراض لا يوجد بها الآن أيّ عبد، أراض هي حديث الناس، نفاخر بها، باعتبارها ملاذا للمضطهدين، فهذا أمر لا يمكن غفرانه إطلاقاً.

قدّم وليام غرايسون، أحد ممثّلي فرجينيا في الكونجرس، تفسيرا آخر للموافقة على فقرة إلغاء الرقّ. فقد كتب إلى جيمس مونرو أنّ أعضاء الجنوب وافقوا على الفقرة الشرطيّة «بهدف منع زراعة التبغ والنيلة على الجانب الشمالي الغربي من أوهايو». وبالرغم من أنّ هذا التفسير

يبدو مصطنعا، لم يكن لدى غرايسون أي سبب وجيه ليتكتّم على مونرو في موضوع قمع المنافسين في أسواق التبغ والنيلة. ولكنّ غرايسون أضاف أنّ للجنوبيّين «عدّة أسباب سياسيّة أخرى» لدعم إلغاء الرقّ لم يتوسّع في شرحها.

قد يكون أحد الأسباب السياسيّة نشأ عن الصراع مع إسبانيا حول نهر ميسيسبي. تقول النظريّة: لو شعر الشماليّون بروابط قرابة أوثقَ مع المستوطنين الغربيّين لكانوا حينئذ أشدّ اهتماما بمسيسبي الذي كان عاملا حاسما للجنوب والغرب. فبقبولهم إلغاء الرقّ في قطاع الشمال الغربي حيث لم يكن يُتوقّع أن تزدهر العبوديّة، كان بإمكان الجنوبيّين أن يأملوا في مزيد من إحكام ربط سكّان نيوإنجلند بالغرب.

بعد حوالي سبعين عاما من انعقاد المؤتمر، جاء تفسير آخر من إدوارد كولز الذي كان كاتبا شخصيّا لماديسون. كتب كولز سنة 1856 ناسبا إلى ماديسون قوله إن الكونغرس والمؤتمر أجريا تسوية منسّقة في «مسألة العبودية المحيّرة». وحسب كولز، كانت التسوية المنسّقة تقتضي من الشماليّين قبول الشروط المتعلقة بفرار العبيد في كلّ من الدستور ومرسوم الشمال الغربي لضمان استرداد الجنوبيّين ملكيّتهم الفارّة. ومن المفترض أن يكون ذلك الاتّفاق «خلق الإجماع الكبير الذي سمح بإقرار مرسوم الشمال الغربي» الذي حظر العبوديّة وجعل الدستور «مقبولا أكثر لدى مالكي العبيد».

بشيء من الجهد يمكن قولبة حكاية كولز في شكل نظرة تآمرية إلى زيارة الأب كتلر لفيلادلفيا. ربما كانت أمسيات العشاء في فندق «إنديان كوين» والرحلة إلى حديقة بارترام فرصا لإجراء مناقشة معمّقة لموضوع التسوية المتعلّقة بالعبوديّة والتي وصفها كولز بعد ذلك بحوالي سبعين عاما. ورغم أنّ لفكرة اتّفاق متزامن حول العبوديّة جاذبية غريزيّة فإن الدليل عليها ضعيف جدا. ومن المؤكّد أنه لا أحد من أعضاء الكونغرس أو المندوبين الحاضرين هناك أشار إلى وجود مثل تلك الصفقة.

بالرغم من أن واضعي مسوّدة الدستور كانوا متحفّظين فيما يتعلّق بالملاحظات اللاحقة حول نقاشات المؤتمر فإنّهم قد فسّروا فعلا أغلب القرارات الجوهريّة. لكنّ أيّا منهم لم يقترح

قطّ –ليس حتّى خلال النقاشات المرّة حول تسوية ميسوري في سنتي 1819 و1820 حيث كان روفوس كينغ وتشارلز بينكني على طرفي نقيض في الكونغرس، فيما كان ماديسون يتفرّج من موقع جانبي– أن يكون قد حدث اتّفاق منسّق حول العبوديّة. بالرغم من أنّ رواية كولز قد تشبع بالتأكيد الرغبة البشريّة في ترتيب الوقائع في أنساق، فإن تقريره المبني على إشاعات جاء متأخّرا للغاية لكي يفرض كثيرا من الاحترام.

والأهمّ من ذلك أنّ مندوبي المؤتمر لم يتصرّفوا بعد منتصف يوليو 1787 كما لو كان ثمة ترتيب منسّق حول العبوديّة. فلو كان مثل هذا الاتّفاق موجودا لما احتاج جون راتليدج إلى المناورة من أجل إجراءات حماية إضافيّة لصالح العبوديّة في لجنته للتفصيل في أوائل شهر أغسطس، ولما اضطُرَّ الحاكم موريس إلى إطلاق صيحته الغاضبة ردّا على ذلك، ولما تأجّجت الصراعات حول تجارة الرقّ في نهاية ذلك الشهر. تصرّف عدد كبير من المندوبين الرئيسيّين خلال الأسابيع القليلة القادمة كما لو لم يكن أيّ اتّفاق منسّق حول العبوديّة.

يُطْرَح السؤال الأوّل مرّة أخرى: كيف حدثت معجزة إبسويتش في نيويورك يوم 13 يوليو؟ وكيف تمكّن أولئك الأشخاص المجهولون المغمورون في الكونغرس من إلغاء الرقّ (وإن كان محدودا جغرافيّا) في الوقت الذي رفض واضعو مسوّدة الدستور في فيلادلفيا –واشنطن وفرانكلن وماديسون وهاملتون– بحذر إثارة الموضوع؟ إنّ غموض الكونغرس في حدّ ذاته قد يوفّر بعض الجواب. فتعرّضه للحجب من قبل المؤتمر قد يكون منحه حرّيّة الحركة للقيام بالفعل الصحيح. وبما أن أراضي الشمال الغربي كانت تضمّ عددا قليلا جدا من العبيد وكانت في أغلبها غير مأهولة بالسكّان، فإن ذلك عزّز بالتأكيد تلك الحرّيّة في التحرّك.

بعد 1787 أعطى الرجلان المنحدران من إبسويتش الأمّة سنوات طويلة من العمل رغم أنّهما لن يكونا قط قريبين جدا من مركز الأحداث. فعلى امتداد عشر سنوات عمل داين في حكومة ماساتشوستس إلى أن أبعده الصمم عن الحياة العموميّة وعن ممارسة المحاماة في النهاية. وقد سخّر العقدين الأخيرين من حياته لتأليف مختصر في القانون الأمريكي هو النصّ

القانوني الرائد في زمنه. لم يفقد داين بتاتا رغبته في تطوير القيم الأخلاقيّة. ففي سنة 1813 ساعد على تكوين أوّل منظّمة لمكافحة المشروبات الكحوليّة، وهي جمعيّة ماساتشوستس لإلغاء الإدمان على الكحول.

تحصّل الأب كتلر على عقد ملكيّة الأرض في فترة لاحقة من صيف 1787 بعد حملة ضغط شرسة. وقد وجد رجل الدين أن «الأمور سارت على وجه أفضل بكثير» بعد أن أقرّ تعيين رئيس الكونغرس الجنرال آرثر سان كلير حاكما أوّل للقطاع الجديد. لم يكن للأب كتلر شيء كثير يتعلّمه من ممارسي فنّ الضغط في القرن الحادي والعشرين:

للوصول إلى بعض أعضاء الكونغرس وللتأثير بقوّة في عقولهم كنّا مجبرين على استخدام ثلاثة أشخاص أو أربعة.... وفي بعض الأحيان استخدمنا شخصا واحدا استخدم بدوره ثانيا، والثاني ثالثا، وهكذا وصولا إلى الشخص الرابع قبل أن نحقّق غايتنا.

في سنة 1788 سافر الكاهن غربا مع المجموعة الثانية من مستوطني شركة أوهايو. وهناك درس كومات غير عاديّة من التراب خلص إلى أنها بنيت من قبل الأمريكيّين الأصليّين، كما ألّف كتابا عن رحلاته. وبعد أن خدم في الهيئة التشريعيّة للولاية وأمضى فترتين نيابتين في الكونغرس، تقاعد ليتابع الأنشطة الأدبيّة والكهنوتيّة في إبسويتش، ولم يعاود ممارسة الضغط أبدا.

رغم أنّ الأب كاتلر فرّ من فيلادلفيا بعد يومين فقط فإن مندوبي المؤتمر واصلوا عملهم لأكثر من شهرين. لقد اتّفقوا على مجلس تشريعي بغرفتين، إحداهما مؤسّسة على التمثيل النسبي والأخرى تضمن التساوي في الأصوات بين الولايات. كما اتّفقوا على معاملة الغرب بطريقة عادلة. ولكن على أيّ صورة ينبغي أن تكون الهيئة التنفيذيّة؟ وما السلطات التي يجدر أن تكون للكونغرس أو الولايات أو الرئيس أو المحاكم؟ وكيف يتسنّى اختيار الرّئيس؟

كان الوقت ينفد والأمزجة تزداد حدّة.

الفصل الثالث عشر

الفوضى الرئاسيّة

17–26 يوليو

حين وقف جورج مايسون يوم الخميس 26 يوليو كأوّل متدخّل كان ينوي تعديل مسار مداولات المؤتمر المتعرّجة حول الرئاسة. وعلى رأي مايسون، كان المندوبون يدورون في حلقة مفرغة بشأن هذه المسألة لمدّة طالت أكثر من اللازم. وقد أرادهم أن يعيدوا تأكيد وصفة خطّة فرجينيا القاضية باختيار رئيس لفترة واحدة تدوم سبعة سنوات.

لم يكن ماديسون بالرجل الضخم، إلا أنه كان يشدّ الانتباه بقامته المنتصبة وأسلوبه الرسمي ورؤاه الثاقبة. فمنذ الأيام الأولى للمؤتمر، اندفع بحماس إلى المناقشات، بلغته الحادّة أحيانا والتي عرف بها، لكنه لم يحاول إملاء أحكامه بعد. كان رجال مثل ويلسون وماديسون وراتليدج قد أطّروا أغلب المبادرات. فرغم أنّهم أصغر سنّا من مايسون، فقد ارتقَوْا خشبة المسرح الوطني لمدّة سنين عندما اختار هو أن يظلّ على مقربة من مزرعته في غانستون هول.

بعد أن أمضى مايسون شهرين في فيلادلفيا شعر بالراحة في هذه الحلبة الأوسع. كان مستعدّا لفعل المزيد. في هذا اليوم، وفيما كان المطر الغزير يقرع نوافذ دار الولاية، أمسك مايسون بزمام مسألة الرئاسة، وهو موضوع شغل حيّزا كبيرا من العشرة أيام الأخيرة. كيف سيتمّ اختيار الرئيس؟ وكم ستدوم مدّة رئاسته؟ هل يمكن أن يُنتَخَب لأكثر من ولاية رئاسيّة؟ لقد بدا المندوب أقرب إلى الإجابة عن هذه الأسئلة أكثر من أيّ وقت مضى.

خلال المناقشات حول الرئاسة انقسم المندوبون إلى صفوف أصبحت مألوفة الآن. خشي

الجنوبيّون أن يغمرهم الشمال الأكثف سكّانا. وعبّر مندوبو الولايات الصغرى عن قلقهم من أنّ مندوبي الولايات الكبرى وحدهم سيكونون مؤهّلين للرئاسة. ومع ذلك كانت المناقشات تفتقر للكثافة المتوهّجة التي ميّزت معارك التمثيل البرلماني. ورغم أنّ ذلك النزاع خلّف كدمات نفسيّة واستياء طال أمده، ظلّت تسوية فرانكلن صامدة، إذ لم يهدّد أيّ وفد بالخروج منذ أن غادر النيويوركيّون في بداية يوليو.

ثمّ وصلت أخبار سارّة يوم 23 يوليو. فقد حلّ مندوبان من نيوهامشاير ممّا أعاد عدد الحاضرين في المؤتمر إلى أحد عشر وفدا. وبتوفّر ولاية أخرى ممثّلة، ومائدة أخرى مشغولة، ارتفعت معنويّات المندوبين.

وبالأهمّية نفسها تقريبا، انخفضت الحرارة. فبفضل العناية الإلهيّة، ساد طقس معتدل وادي ديلاوار خلال الأسبوع الثالث من يوليو. وساعد هذا الاعتدال كلّ شيء، بما في ذلك جهود ألكسندر هاميلتون لتفادي مبارزة بين مندوب جورجيا وتاجر بريطاني. فعندما قدّم هاميلتون اعتذار التاجر عن سلوكه، عبّر الجورجي عن رضاه، وسحب تحدّيه.

رغم ذلك، لم يكن توقيت مايسون هو الأفضل. فقد كان يوم 26 يوليو يوم انطلاق العطلة وآخر دورة للمؤتمر قبل أن يمنح المندوبون أنفسهم راحة أحد عشر يوما. وخلال تلك العطلة، سيلتقي خمسة منهم بوصفهم لجنة للتفصيل، وذلك بالرغم من أنّ هذه اللجنة ستطرح مسائل تتجاوز بكثير مجرّد التفاصيل. وفي حين كان المندوبون الآخرون يقفزون مرحا خلال أيّام الصيف فإن الخمسة الذين اختيروا سينشئون ميثاقا للحكومة من القرارات المتباينة التي كان المؤتمر قد تبنّاها ونقّحها وأعاد تنقيحها وتبنيها.

لم يكن مايسون في تلك اللجنة. مرّة أخرى اختير الرجال الأصغر سنّا، ولكن قبل أن يفترق المندوبون وتعود اللجنة إلى أعمالها أعدّ لهم مايسون عملا يؤدّونه.

حدّ عامل مهيمن من الطابع الملحّ للنقاشات حول الرئاسة: إنه الرجل الطويل القامة الذي ترأّسهم. لقد قدّر كلّ مندوب وأغلب الأمريكيّين أن جورج واشنطن سيكون أول رئيس.

كيّف هذا التوقّع النقاشات، وقد تضمّن ذلك بمعنى ما كتابة وصف لمهمّة الرئيس المستقبليّة. فحين جلس المندوبون لأوّل مرة باعتبارهم لجنة الكلّ في بداية يونيو، وجدوا الحديث عن الرئاسة في حضوره أمرا غير ملائم. ألا تؤدي ملاحظة غير مقصودة إلى إيذائه؟ وما هي العواقب غير السارة التي قد تنجم عن ذلك؟ لقد علّق كلّ من راتليدج وماديسون على شعور المندوبين «بالخجل» المبكّر في شأن الموضوع. وحثّ الدكتور فرانكلن المندوبين على «التعبير عن مشاعرهم» في موضوع الرئاسة لأنّها «مسألة في غاية الأهمية».

في الأسابيع السبعة اللاحقة تجرّد المندوبون من حيائهم، لكنّ الجنرال لا يزال حاضرا بقوّة. فلم يكن أيّ مندوب ليضع أهليّة واشنطن لأن يكون أوّل رئيس موضع تساؤل. لقد دخلت زعامته للحرب باب الأسطورة الوطنيّة. كان التحدّي المطروح على المندوبين هو تخيّل الرئيس الذي سيأتي بعد جورج واشنطن. وكان عليهم أن يصمّموا رئاسة على مجرّد مقاس ذلك الكائن الفاني.

في 17 يوليو تناول أحد الكارولينيّين الشماليّين هذا الشأن برفق. فحذّر من أنه رغم أن الأمريكيّين الحاليّين يعرفون كلّ «الشخصيّات المتميّزة» التي قد تشغل منصب الرئاسة، فإن الأمر في المستقبل «لن يكون كذلك». وحسب الرائد بتلر منح المندوبون الرئيس سلطة مفرطة لأنّ:

عديد المندوبين صوّبوا نظرهم إلى الجنرال واشنطن ورسموا أفكارهم عن السلطات التي ستمنح للرئيس بناء على تقديرهم لفضائله، بحيث يكون في التقليل من شأن الرجل الذي أسهم بوطنيّته وفضيلته إلى حدّ كبير في تحرير بلده، وكان الأداة البريئة لقيامه، ظلم له.

كانت المسائل المتعلّقة بالرئاسة تبدو هيّنة للوهلة الأولى، غير أنها تغدو مثبّطة للعزائم حين يُنْظَر إليها عن كثب. وكان أغلب المندوبين يريدون رئاسة تتميّز بالنشاط والطاقة والحيويّة أو أيّ كلمة تعبّر عن إحباطهم بسبب ضعف الكونغرس الواقع تحت سلطة البنود. مع ذلك، ينبغي ألاّ يكون الرئيس قويّا أكثر من اللازم لأنّ ذلك ينطوي على خطر المَلَكيّة والاضطهاد. كان الهدف سهل الطرح صعب التحقيق.

أين هي النماذج التي يتعيّن نقلها؟ قلّة من الأمم في القرن الثامن عشر كانت تمتلك أجهزة تنفيذيّة غير وراثيّة. فهولندا التي يُفترض أنّها جمهوريّة كانت تحت إمرة حاكم مجلس البرتقال[1]، وهي هيئة وراثية. وكان المندوبون ينظرون بامتعاض إلى الأساليب الانتخابيّة الفاسدة للإمبراطور الروماني المقدّس وملك بولندا.

لم تكن دساتير الولايات الثلاثة عشر توفّر إجماعا على أفضل طريقة لانتخاب السلطة التنفيذيّة العليا. ففي عديد الولايات كانت المؤسّسة التشريعيّة تقوم بالاختيار، ولكنّ بعضاً منها كان يسمح بانتخاب الحاكم مباشرة. وكانت بنسلفانيا تستعمل نظاما أكثر تعقيدا، إذ ينتخب الشعب أعضاء مجلس تنفيذي فيما يختار مجلس النوّاب رئيسا من ذلك المجلس.

ركّز المؤتمر على بعض ملامح الرئاسة: كيفيّة اختيار الرئيس، ومدّة ولايته، وما إذا كان بإمكانه أن يطلب فترات حكم إضافيّة. والأمر المهمّ الآخر هو كيفيّة إزاحة رئيس سيء من سدّة الحكم، وهل يملك الرئيس سلطة نقض التشريعات.

كانت الأجوبة عن هذه الأسئلة مترابطة لذا فإنّ تغيير جواب واحد قد يغيّر الأجوبة عن الأسئلة الأخرى. إذا كانت مدّة الولاية الرئاسيّة طويلة، فهل ينبغي حصر الرئيس في مدّة واحدة؟ وإذا كان بإمكانه أن يحكم لولايات رئاسيّة متعدّدة، أفلا يجدر أن توفّر طريقة اختيار الرئيس حصانة ضدّ المخطّطات الفاسدة لحصوله على ولايات إضافيّة؟ إنّ طريقة إزاحة الرئيس مرتبطة بكل هذه الأسئلة.

أيّا كان السبب –الحضور المُطَمْئِن للجنرال واشنطن، أو محدوديّة النماذج الواقعيّة المطبّقة، أو الترابط بين العوامل التي يتوجّب موازنتها– فإنّ المؤتمر كان يخوض صراعا في مسألة الرئاسة. وجد ماديسون النقاشات في هذا الموضوع «مضجرة ومكرّرة». وتذكّر جيمس ويلسون الذي اقترح نظام الاقتراع البالغ التعقيد الذي تبنّاه المؤتمر، أن المندوبين «لم يربكهم

(1) هو فرع عن مجلس ناسّو (Nassau) الأوروبّي، لعب دورا رئيسا في الحياة السياسيّة لهولندا وأوروبّا في فترات عديدة لاسيما في الفترة التي نظّم فيها وليام الأوّل ثورة ضدّ الحكم الإسباني أدّت إلى إحراز هولندا على استقلالها بعد ثمانين سنة من الحرب. وقد شارك العديد من أعضاء المجلس إبّان هذه الثورة في الحرب بصفتهم حكّاما. وتحت إدارة مجلس البرتقال تحوّلت هولندا إلى النظام الملكي بعد أن عاشت مدّة طويلة في ظلّ نظام جمهوري (م).

أيّ جزء من هذه الخطّة مثلما أربكتهم طريقة اختيار الرئيس».

حين تناول المندوبون موضوع الرئاسة يوم الثلاثاء 17 يوليو بدأوا بتقرير لجنة الكلّ. لقد نصّص ذلك التقرير على أن فردا واحدا سيرأس الفرع التنفيذي. وقد شغل هذا الموضوع حيّزا كبيرا من النقاشات القادمة. واقترح التقرير أيضا أن يختار الكونغرس الرئيس لفترة سبع سنوات غير قابلة للتجديد، غير أنّ عديد المندوبين أثاروا شكوكا حول تلك الترتيبات.

جادل مايسون والدكتور فرانكلن بنجاح من أجل عزل الرئيس بناء على اتّهام نيابي، وهو تقليد إنجليزي في إعفاء وزراء الملك. ولأن مايسون لم يكن طموحا على الصعيد السياسي ولم يكن يحفل كثيرا بإيذاء الجنرال، فقد طرح المسألة بصراحة: «هل ثمّة شخص فوق القانون؟ وفوق كل شيء، هل يمكن لذلك الشخص القادر على ارتكاب أشدّ أنواع الظلم أن يظلّ فوق القانون؟». وشدّد فرانكلن على أنّه بدون اتّهام نيابي تغدو الطريقة الوحيدة لإزاحة قائد غير عادل هي الاغتيال. إنّ الاتّهام النيابي يسمح بـ«عقوبة قانونية» أو «بتبرئة مشرفة».

وبعد أن حدّد المندوبون طريقة إزاحة الرئيس، كافحوا من أجل تحديد طريقة اختياره.

طلب الحاكم موريس أن يصوّت الشعب مباشرة للرئيس. وبالرغم من أنه بعيد من أن يكون من عامّة الناس، كان يزدري فكرة إعطاء الكونغرس تلك السلطة. وألحّ على أنّ اختيار الكونغرس «سيكون ثمرة المكائد والدسائس والنزاعات الحزبيّة: وسيكون مثل انتخاب البابا من قبل مجمع الكرادلة حيث نادرا ما تكون الكفاءة الحقيقيّة عنوان التعيين».

اشتكى آخرون من أن الانتخاب الشعبي سيضمن وصول رؤساء سيّئين، أو من كونهم كانوا يأتون دائما من الولاية ذات الكثافة السكّانية العالية. شدّد مايسون على أنّ الشعب لا يمكن الوثوق به، وقال إنّ الانتخابات الشعبيّة «غير طبيعيّة»، فهي مثل «إحالة اختبار في الألوان على رجل أعمى».

قُبِرت دعوة موريس إلى انتخاب شعبي بنتيجة تصويت 1–9، لكنّ ذلك لم يفتّ في عزمه. فبعد يومين دعا مندوب بنسلفانيا إلى مراجعة القرار. وجادل في أن الرئيس سيكون «حارسا

للشعب، وحتى للطبقات الشعبيّة، من الاستبداد التشريعي». أما إذا اختير من قبل الكونغرس، فسيكون «أداة فصيل حزبي تابع لزعيم غوغائي». ينبغي أن يختار الشعب حارسه.

رغم أن مايسون ما زال يلقى تأييداً محدوداً أحيا النقاش فكرته التي تعود إلى أوائل شهر يونيو: يمكن للشعب أن يصوّت لـ«ناخبين» يتمثّل واجبهم الوحيد في اختيار الرئيس. سيكون الناخبون عقلاء، أو هكذا جرى الحجاج. أما الجماهير فهي جاهلة، ويمكن تضليلها بسهولة. صفّق ماديسون للمقاربة باعتبارها توفّر مزيدا من التأثير للولايات الجنوبيّة. فإن تلك الولايات ستعاني في ظلّ انتخابات شعبيّة «بالنظر إلى العدد الكبير للزنوج»، إذ لم يكن باستطاعة عبيد تلك الولايات التصويت، غير أنه يمكن احتسابهم أثناء تحديد الناخبين.

صوّت المندوبون لنظام الناخب، لكنهم نصّوا بعد ذلك على أن الهيئات التشريعيّة التابعة للولايات، وليس الشعب، هي التي تختار الناخبين. عبّر ويلسون عن أسفه لتحريف فكرته. فهو لم يكن ينوي البتة منح الولايات تلك السلطة. مع ذلك، كان الوقت مبكّرا على الشعور باليأس، فالنقاش المتقلّب حول الرئاسة بدأ بالكاد يحمى.

في اليوم التالي، 20 يوليو، تبنّى المؤتمر مقترحا من جيري مندوب ماساتشوستس، وإلسورث مندوب كونكتكوت. ففي الدورة الانتخابيّة الأولى، في ظلّ الدستور الجديد، سيكون لكلّ ولاية ناخب واحد أو اثنان أو ثلاثة، حسب حجم تلك الولاية، وهو ما سيخدم بصورة حادّة الولايات الصغرى. كان هذا التنازل بلا معنى إلى حدّ بعيد، إذ أن واشنطن كان واثقا من انتخابه عن طريق التصفيق من الدورة الأولى. بعد الدورة الأولى سيكون لكلّ ولاية نفس عدد الناخبين بما أنّ لها أعضاء في مجلس النوّاب. منحت تلك المقاربة الجنوبيّين نسبة الثلاثة أخماس التي تحدّد عدد مقاعدها في المجلس. وقد تعطّل ذلك الحلّ مدّة أربعة أيام.

في 24 يوليو تحرّك مندوب من نيوجيرسي لإعادة اختيار الرئيس عن طريق الكونغرس. ما حجّته؟ «إنّها عدم توقّع اضطلاع رجال مقتدرين من ولايات أبعد بمهمّة الناخبين». بدأ المندوبون في التعبير عن هواجسهم حول المسألة الرئاسيّة. وارتدّ النقاش إلى أفكار ارتجاليّة حملت عواقب لا يمكن التنبؤ بها.

اقترح أحد الكارولينيّين الشماليّين تقسيم البلاد إلى ثلاث مقاطعات، تنتخب كل منها مسؤولا تنفيذيّا رئيسيّا. فإن ذلك سوف يحمي الشمال والجنوب أحَدَهُمَا من الآخر، وسوف يحول دون تحوّل مسؤول تنفيذي واحد إلى «ملك منتخب». واعتقد راعى الفكرة أنه «من المؤكَّد إلى حدّ ما... سيكون لنا في وقت أو آخر ملك»، لكنّه تمنّى «تأجيل الحدث إلى أطول مدّة ممكنة». كان الحديث عن المَلَكيّة، بالنسبة إلى ذلك الموظّف المترئّس القاسي الوجه، غير مناسب، بل مُهينا. فهل يكون لأمريكا نسخة أخرى من الملك جورج؟

أراد جيري مندوب ماساتشوستس تعبئة جهاز من الضبّاط العموميّين لانتقاء الرئيس. سوف تختار هيئات الولايات التشريعيّة الناخبين. وإذا لم يحصل أيُّ مرشّح على تأييد أغلبيّة الناخبين فإن مجلس النوّاب ينتقي حينئذ مرشَّحَيْن من بين الأربعة الذين حصلوا على أكبر عدد من الأصوات، ويختار مجلس الشيوخ الرئيس من بين المترشِّحَيْن للجولة الأخيرة. إنّ حكّام الولايات، استنادا إلى طريقة جيري، هم الوحيدون الذين لا يلعبون أيّ دور. وحسب ماديسون: «كانت اللاءات غالبة» إلى درجة أن تمّ الاستغناء عن تلاوة أسماء ناخبي الولايات.

رغم ذلك صوّت المندوبون بأغلبيّة 7–4 لصالح ردّ سلطة اختيار الرئيس إلى الكونغرس، مدّشنين بذلك جولة جديدة من الخشية من هيمنة الكونغرس عليه. فإذا امتلك أعضاء الكونغرس مفتاح ترشّح الرئيس لولاية ثانية فقد يصبح «تابعا ذليلا لرجال نافذين». فهل تساعد ولاية رئاسيّة أطول على حلّ الإشكال؟ إنّ رئيسا يحكم لمدّة طويلة سيكون أقلّ ميلا إلى عقد صفقات غير لائقة مع الكونغرس.

كان لوثر مارتن مندوب مريلاند بطل فكرة ولاية رئاسيّة أطول. فقد اقترح فترة أحد عشر عاما. وبتأثير من أحدهم اقترح جيري خمسة عشر عاما. وصاح روفوس كينغ متهكّما على مناخ المزاد العلني داخل مجلس النوّاب «عشرون عاما!»، مضيفا «هذا هو متوسّط حياة الأمراء». حتّى ماديسون أطلق ابتسامة، مسجّلا أنّ الملاحظة «قد يُقصد بها التهكّم على المقترحات السابقة».

كان جيمس ويلسون يضمر خطّة لوقت الحاجة. لِمَ لا يتمّ اختيار عدد صغير من أعضاء الكونغرس عن طريق القرعة، «عدد لا يتجاوز الخمسة عشر عضواً»، ولندع هؤلاء «يتقاعدون فورا وينظّمون عمليّة انتخاب» الرئيس؟ ولأنّه لا أحد يعرف أيّ خمسة عشر سينتقون الرئيس إلى أن تسحب عمليّة القرعة، فسيكون بالإمكان «اجتناب المكيدة... وستتضاءل تبعيّة الرئيس للكونغرس». وقد اعترف ويلسون باستخفاف أنّ خطّته «ليست فكرة سائغة وأنّها قابلة لاعتراضات قويّة».

أحسّ الحاكم موريس بالفزع لسقوط النقاش في المتاهات فطلب تأجيل الموضوع، وشدّد على أنّ مسألة السلطة التنفيذيّة هي أهمّ موضوع يطرح أمام المندوبين، إذ أنّ الرئيس قادر على أن يجعل من نفسه «طاغية أمريكا»:

إنّ أصعب مهمّة على الإطلاق هي موازنة السلطة التنفيذيّة بطريقة صحيحة. إن جعلتَ الرئيس ضعيفا للغاية اغتصب الجهاز التشريعي صلاحيّاته. وإن جعلته قويّا للغاية اغتصب هو الجهاز التشريعي.

إقرارا منهم بعدم إحرازهم أيّ تقدّم وافق المندوبون على التأجيل.

لفّ الرعد والمطر فيلادلفيا في الصباح التالي، وظلّ ضباب كثيف عالقا بمداولات المؤتمر. واللافت أنّ المندوبين كانوا قد حبكوا مزيدا من المخطّطات لاختيار الرئيس.

اقترح إلسوورث مندوب كونكتكوت ألا ينتخب الكونغرس الرئيس إلا إذا طلب شاغل المنصب إعادة انتخابه. في تلك الحالات ينبغي أن تختار هيئات الولايات التشريعيّة الناخبين الذين يتولّون انتقاء الرئيس، وهو ما يجرّد شاغل المنصب من كلّ مبرّر للاستجابة لرغبات الكونغرس. أدان جيري هذه المقاربة، واقترح أن يختار حكّام الولايات الرئيس (مقترحا بذلك ألا يُستعمَل إلا مسؤولو الولايات والمسؤولون الوطنيّون الذين تم حذفهم من تصوّره السابق).

فقد المؤتمر السيطرة على دفّة النقاش في هذه المسألة. فابتعد ماديسون عن مائدة الكتابة

واتّخذ لنفسه هيئة الرجل الجادّ المفكر. وأصبح المندوبون يعرفون الآن ما يُتوقّع منه: التفكير الدقيق والتحليل الشامل وليس الألعاب الناريّة. وكما تذكّر جورجيٌّ: كان ماديسون دائما «أكثر الناس اطّلاعا على كلّ نقطة تطرح في الحوار»، بالرغم من أنّه لا يمكن نعته بـ«الخطيب». ووصف ملاحظ آخر ماديسون بأنّه «هادئ الأعصاب» وأنّه «على الأصحّ مغرق في النظريّة».

بدأ ماديسون الكلام بتروّ: «ثمّة اعتراضات على كلّ صيغة اقتُرِحت أو يمكن أن تُقترَح». غير أنّه يجب اختيار الرؤساء ويجب أن يتولّى ذلك مسؤولو الولايات أو المسؤولون الوطنيّون أو «الشعوب نفسها». راجع الفرجيني بجدّ كلّ طريقة من طرق الاختيار. وبالنسبة إليه، كان الاختيار الحقيقي منحصرا في «التعيين بواسطة الناخبين» أو «التعيين بواسطة الشعوب».

قال ماديسون إنّه بالرغم من أن استعمال نظام الناخبين قد ينجح، فإنّ الانتخاب الشعبي أفضل. وأقرّ بأنّ مندوبي الولايات الكبرى ربما كانوا محظوظين في مثل هذه النزاعات، وأنّ الولايات الجنوبيّة ستتضرّر بما أن العبيد هناك لن يتمكّنوا من التصويت. وشدّد على أنّ تلك المشكلات كانت صغيرة بالقياس إلى الاعتراضات على البدائل الأخرى.

مرّة أخرى تجاهل المندوبون دعوة جليّة من ماديسون إلى التعقّل. أعاد ماديسون تأكيد تفضيله اختيار الرئيس بواسطة الكونغرس، فيما ساند الرائد بتلر مندوب ساوث كارولينا نظام الناخبين. والمذهل أنّ الحاكم موريس ساند خطّة ويلسون القائلة بإجراء القرعة لانتقاء خمسة عشر عضوا من الكونغرس يتولّون اختيار الرئيس.

قال مندوب نورث كارولينا مقاطعا: ماذا لو صوّت كلّ مواطن لثلاثة مرشّحين؟ بتلك الطريقة سيكون لمندوبي الولايات الصغرى فرصة أفضل للنجاح.

ثارت ثائرة ألبريدج جيري مجدّدا وهو يتعتع ويرمّش عينيه. كان اقتراح نورث كارولينا «خبيثا بصورة جذريّة». سيسمح «جهل الشعوب» لأشخاص «منتشرين على امتداد رقعة الاتّحاد ويعملون بالاتّفاق فيما بينهم بتضليلها في كلّ موعد انتخابي». وأشار جيري إلى جمعيّة سينسيناتي باعتبار أعضائها متآمرين محتملين في الانتخابات. لقد استهدف المثال عن

قرب وبصورة مزعجة الجنرال واشنطن الذي ترأّس مؤخّرا منظّمة الضبّاط السابقين تلك.

رغم نبرته المتعالية والمعادية للديمقراطيّة عكست شكوى جيري من جهل الناس محدوديّة الاتّصالات في سنة 1787. كان من الصعب الحصول على المعلومة. فقد كان ثمة بالبلاد حوالي الثمانين صحيفة، كثير منها أسبوعيّات تتكوّن من صفحتين أو من أربع صفحات مركّزة في المناطق الحضريّة. وتعود جذور المؤتمر بالتأكيد إلى ندوة ماونت فيرنون لسنة 1785، حيث لم تكن لشخصيّة مميّزة مثل جورج مايسون أدنى فكرة عن تعيينه للتفاوض على اتّفاق بشأن نهر بوتوماك مع مريلاند.

تقدّم جون ديكنسون مندوب ديلاوار بفكرة من أجل دراسة مشكلة الإعلام: سيكون بإمكان ناخبي كلّ ولاية تسمية «ابن مفضّل» لمنصب الرئاسة بما أنهم سيكونون على دراية بالرجال في ولايتهم؛ بعد ذلك يستطيع الكونغرس أو الناخبون انتقاء رئيس من بين تلك الخيارات الثلاثة عشر.

مع رفع الجلسة عصر ذلك الأربعاء كان المندوبون مشوّشين أمام بدائل لم يحظ أيّ منها بتأييد يستحقّ الذكر. ومع انطلاقهم لتناول العشاء بقيت أغلب الأسئلة المتعلّقة بموضوع الرئاسة مفتوحة.

وهكذا أخذ مايسون في الصباح التالي من يوم الانصراف إلى العطلة الكلمةَ، متشوّقا إلى تخليص هذا النقاش التائه من بؤسه. كانت وجهات نظر الفرجيني حادّة. وكما لاحظ جيفرسون، فإنّ لغة مايسون «ازدادت قوّة بوابل من السخرية اللاذعة بعد أن جعل الاستفزاز ذلك ملائما». وقد أحسّ مايسون في هذا اليوم بأنّه استُفِزّ.

لاحظ مايسون «صعوبة الموضوع وتنوّع الآراء فيه»، لكنّه انتقد سبعة مقترحات أمام المؤتمر ورفض كلاّ منها. وبالرغم من أنّ الرؤساء يجب أن ينتقيهم الأفضل دراية بالمترشّحين فإن الانتخاب الشعبي قد يُسند هذا الانتقاء إلى «أولئك الذين هم أقلّ دراية». ولاحظ بجفاف بشأن مقترح ويلسون المستند إلى مبدأ الحظّ أنه «لا يبدو أنّ هنالك طلبا كبيرا على التذاكر».



نصب تذكاري لجورج مايسون، واشنطن دي سي

استخلص مايسون أنّ كلّ هذه الأفكار السيّئة برهنت على حكمة الهيكل الذي تبنّته لجنة الكلّ: انتخاب الكونغرس للرئيس لولاية من سبع سنوات دون حقّ في الترشّح ثانية. وقال إنّ هذه المقاربة هي الوحيدة الكفيلة بخدمة «عروس» معتقداته السياسيّة الخاصّة، ألا وهي «حفظ حقوق الشعب».

بنقاش قليل فعل المندوبون بالضبط ما ألحّ عليه مايسون، بتصويت 6–3–1. وكانت الولاية المتكافئة الأصوات هذه المرّة هي فرجينيا. وسجّل ماديسون على نحو خاصّ أنه هو شخصيّا والجنرال واشنطن عارضا مقترح مايسون.

جرّأ مايسون نجاحُه على تشكيل مزيد من المقترحات. اقترح ألا يخدم أحد في الكونغرس إلا إذا كان من «مالكي الأراضي»، وليست لديه «حسابات غير مسوّاة» مع الحكومة. وأوضح أنّ عددا كبيرا جدّا من الدائنين كانوا يدخلون مجالس الولايات من «أجل تطوير

قوانين تغطّي ديونهم المتأخّرة»، وأن «هذا الشرّ قد زحف إلى الكونغرس».

ردّ المندوبون على هذا الكلام بحذر. اعترض جون ديكنسون على «إقحام تمجيد الثروة في دستور جمهوري». ولم يحبّذ ماديسون اشتراط مِلكيّة «الأراضي»؛ فماذا عن رجال الأعمال الذين لا يملكون أرضا؟ رأى البعض أنه من غير الإنصاف أن نشطب الذين كانت لهم مطالب ضدّ الحكومة أو وقفوا ضدّ مزاعم للحكومة؛ فإنّ ذلك سيسمح للبيروقراطيّن (أشيرَ إليهم بغموض بـ«المستمعين») بطرد أناس من الكونغرس عبر تأجيل التسويات.

حاول مايسون إنقاذ المقترح بالإشارة إلى أن البرلمان البريطاني لما فرض شروطا مماثلة طيلة «حكم الملكة آنّ» حظيت تلك الشروط باستحسان الجميع. غير أننا نعيش الآن بعد سبعين سنة من ذلك الوقت، في جمهوريّة جديدة تقع على الجانب الآخر من الأطلسي. في هذا الزمن الجديد والمكان الشديد الاختلاف لم يكن لأهليّة التملّك سوى القليل من الجاذبيّة. وهكذا أسقط المؤتمر شروط مايسون شرطا بعد شرط حتّى لم يبق من مقترحه شيء.

لم تفلّ قرارات المؤتمر من عزيمة الفرجيني، فانتقل إلى موضوع ثالث. حاجّ مايسون قائلا إنّ العاصمة القوميّة لا ينبغي أن تكون في المدينة نفسها مثل عاصمة أيّ ولاية. فقد أغسطس الكونغرس في سنواته الثلاثين عدّةُ أماكن شملت نيويورك وفيلادلفيا وأنابوليس وترينتن وبرينستون ولانكاستر وبنسلفانيا. وحذّر مايسون من أنّ وجود الولاية والحكومة القوميّة في المكان نفسه «ينزع إلى إضفاء طابع محلّي على المداولات القوميّة».

مرّة أخرى كان المندوبون حذرين. فلم يكونوا قد سبروا أغوار المسألة بعد. ظهرت عدّة عوامل في تحديد مكان العاصمة. فوق ذلك، كان من الممكن أن تبدأ عطلة الأحد عشر يوما في أيّ لحظة الآن، بمجرّد رفع جلسة المؤتمر. وقد أعدّ أغلب المندوبين خططا لتمضية الراحة.

حين لاحظ مايسون الاستقبال الفاتر لقراره سحبه «مؤقّتا». لقد انتصر في المسألة الكبرى: الرئاسة. وقد يجد مداخل لإثارة القضايا الأخرى بعد الاستراحة. في الجملة، لم يكن عمل يوم سيّء.

بإجماع حماسي عرّج المؤتمر بسرعة على الشؤون المتبقّية. أحال على لجنة التفصيل كامل القرارات التسعة عشر التي تبنّاها عند مراجعة خطّة فرجينيا مع خطّة شارل بينكني الأصليّة للحكومة وخطّة نيوجيرسي المرفوضة. بعد ذلك رفع المؤتمر أشغاله مدّة أحد عشر يوما تاركا وراءه أعضاء لجنة التفصيل الخمسة.

عندما عاد المندوبون في 6 أغسطس لمراجعة مسوّدة دستور اللجنة تعرّفوا على الوثيقة بصعوبة. إنّ الأعمال الجريئة لتلك اللجنة ستغيّر من تركيز المؤتمر على عدّة قضايا. وسيجدّد المؤتمر النظر أيضا في مسألة الرئاسة عائدا المرّة تلو المرّة إلى هذه المسألة الممجوجة.

بالنسبة إلى مايسون أيضا، ستكون العطلة حدّا فاصلا. وعلى الجهة الأخرى من ذلك الحدّ بدأت تنشأ خيبة أمله من الدستور الوليد. وبالرغم من إمساكه المتكرّر بمقاليد الحكم في أغسطس وسبتمبر فإنّه لن يمسك بها مجدّدا. أخيرا سينزل من العربة دفعة واحدة.

الفصل الرابع عشر

راتليدج يختطف الدستور

27 يوليو – 6 أغسطس

حين شارفت عطلةُ المؤتمر على النهاية في أواخر شهر يوليو أحسّ جون راتليدج بأنّ اللحظة قد اقتربت، وعزم على استغلالها على أفضل وجه.

بدأت الحواراتُ الخاصّةُ بين المندوبين في منتصف شهر يوليو، وبعد مداولات دامت ستّة أسابيع أو أكثر لم يتمكّن المؤتمر إلا من إجراء تحسينات على مقرّرات مخطّط فرجينيا التي وصلت الآن إلى تسعة عشر إعلان مبادئ لا ترقى إلى درجة دستور. ومثلما كتب بالدوين من فرجينيا: أنتج المؤتمرُ «الأسس وأحجار الزاوية وكلّ ما تبقّى من أحجار»، لكنّه يحتاجُ إلى «اليد العاملة لرصف هذه الحجارة».

كان لا بدّ من وجود شخص يصل القرارات بعضها ببعض، ويملأ الفراغات الفاصلة بينها، وينشئ ميثاقا حقيقيّا للحكم. لم يكن بوسع ثلاثين أو أربعين رجلا مجتمعين في الغرفة الشرقيّة أن يُنجزوا هذا العمل على الوجه الصحيح، لكنّ لجنة صغيرة يمكنها فعل ذلك. لاحظ مندوب من نورث كارولينا وجود اتّفاق «على المبادئ والخطوط العامّة لنظام ما»، ورأى أنّ توفّر لجنة قد يمنح النظام «الكساء المناسب». ستسمّى هذه اللجنة لجنة التفصيل، وسيكونُ راتليدج مسؤولا عنها.

على امتداد أحد عشر يوما أمسك المحامي القادم من نورث كارولينا بالدستور بين يديه. وتمكّن، بفضل قوّته الذهنيّة وعنايته واهتمامه بالرجال الأربعة الآخرين في اللجنة، من رسم ملامح الأمّة ومستقبلها.

وباعتباره شخصيّة قياديّة لم يكن راتليدج الطويل القامة والممشوق القدّ ليخجل من التحدّيات. فعندما كان حاكما لساوث كارولينا سنة 1778، تبنّى المجلسُ التشريعي دستورا لم يمنحه حقّ نقض القوانين. فقام راتليدج بهدوء بنقض الدستور الجديد ثمّ استقال من منصبه. وفي السنة التالية عاد إلى مكتبه مُظفَّرا في ظلّ دستور يمنحهُ حقّ النقض. لقد شاطر كثيرون وجهة نظر الدبلوماسي الفرنسي، ووصفوه بكونه «أكثر الناس غرورا وعجرفة» في أمريكا.

مع ذلك، كانت لراتليدج مواهبُ تتجاوز مجرّد قوة الشخصيّة. فقد كان بمقدوره أن يكون مضيفا كريما ورفيقا جذّابا. كان يفهمُ معدن الرجال، ويقدّرُ قيمة أعضاء اللجنة، ويحكمُ بما هو هامّ لكلّ منهم وما ليس بهامّ، ويعيّن ما إذا كان ينبغي استعمال أسلوب الفخر أو التملّق وأسلوب الإقناع أو التخويف. وكان في الدّوائر المقرّبة منه لا يُقاوَم، مثل النار في الهشيم.

كان التوازن الجغرافي في لجنة التفصيل مثاليّا إلى حدّ يدفعُ إلى التكهّن بأنّها كانت قد أُعدَّت مسبقا بإحكام. كان الأعضاء من الشمال إلى الجنوب:

من ماساتشوستس ناتانيال غورهام

من كونكتكوت أوليفر إلسورث

من بنسلفانيا جيمس ويلسون

من فرجينيا إدمونود راندولف

من ساوث كارولينا جون راتليدج

وكان راتليدج رئيس اللجنة ربما لأنه تحصّل على أكثر الأصوات في الانتخابات.

كان عمل اللجنة أدقّ مهمّة مفردة خلال الصّيف: كتابة أول مسوّدة للدستور. تطلّبت المهمّة عديد المهارات: التقدير المتوازن لتطبيق الاتّفاقيّات المضمَّنة في القرارات التسعة عشر التي تبنّاها الكونغرس؛ الرّؤية والخيال لتوسيع تلك القرارات الأوّلية إلى برنامج حكم صريح، طلاقة لسانِ محامٍ لتحقيق الدقّة المطلوبة حين يكون الاتّفاق واضحا، والمواربة حين يكونُ

الاتّفاق بعيد المنال.

اشتملت القرارات التسعة عشر على 1200 كلمة فقط، وستكون مسوّدة لجنة راتليدج أطول من ذلك بثلاث مرّات ممتدّة على ثلاثة وعشرين بندا تضمُّ واحدا وأربعين قسما. كان لا بدّ من كتابة الأجزاء الناقصة وإزالة الغموض ونسج كلّ شيء في وثيقة متناسقة.

لم يترك أعضاء اللجنة الخمسة خلفهم سوى أثر متواضع. فمن إحدى زوايا النظر، كانت المسوّدة التي كتبوها عبارة عن عمل لافت من القصّ والإلصاق تجاوز حدود التسعة عشر قرارا ليقتبس فقرات من بنود الكنفدرالية المزدراة ومن دساتير الولايات وحتّى من مخطّط تشارلز بينكي شِبْه المنسي.

غير أنّهم أنجزوا أكثر من ذلك بكثير، لقد أضافوا فقرات لم يناقشها المؤتمر بتاتا، وبدّلوا اتّفاقات حسّاسة كان المندوبون قد أقرّوها، وبدفع من راتليدج، أعادوا تصوّر سلطات الحكومة الوطنيّة، وحدّدوا من جديد سلطات الولايات، وقدّموا تنازلات جديدة في تلك المسألة الأكثر تفجّرا وهي العبوديّة. وليس من المبالغة القول إن راتليدج ولجنته قد اختطفا الدستور، وبعد ذلك أعادا صياغته.

باستثناء ناثانيال غورهام، كان أعضاء اللجنة محامين مجتهدين مُتميّزين. وسيصبح أربعة منهم شخصيّات قانونيّة بارزة في الحكومة الجديدة. كان راندولف أوّل مدّعٍ عامّ. وخدم ويلسون وإلسوورث وراتليدج في المحكمة العليا الجديدة. وحتّى غورهام الذي لم يكن رجل قانون ولم يتابع الدراسة لمدّة طويلة، عمل قاضيا بمحاكم الولاية.

منذ خدمتهم في الكونجرس الفيدرالي كان خمستهم يعرفون بعضهم بعضا ويعرفون ضعف تلك الحكومة. اشتغل إلسوورث وراندولف في الكونغرس الكنفدرالي سنة 1782، فيما عمل الآخرون كلّهم باستثناء راندولف في كونغرس السنة التالية حين ازدادت مشكلات الكنفدرالية المالية حدّة. لقد أظهر ويلسون وراتليدج ما يكفي من الودّ للكاروليني الجنوبي الذي أقام مع ويلسون حين وصل أول مرّة إلى فيلادلفيا. ولم يكن راندولف يبلغ من العمر سوى أربعة وثلاثين عاما، أمّا الآخرون فكان عمرهم

يتراوح بين اثنين وأربعين وتسعة وأربعين.

لقد برزوا كلّهم بشكل لافت خلال المؤتمر. قدّم راندولف مخطّط فرجينيا، وبرع ويلسون وراتليدج في صياغة التسوية المتعلّقة بنسبة الثلاثة أخماس. وساعد إلسوورث على دفع الولايات الصغرى باتّجاه الصوت الواحد للولاية الواحدة في مجلس الشيوخ. وكرّر غورهام رئيس لجنة الكلّ دعوته إلى التسوية خلال فترة النقاش الحادّ في موضوع التمثيل.

كان أعضاء اللجنة أكثر من مجرّد أشخاص ناشطين، كانوا ذوي أفكار بنّاءة. فقد أظهر كلّ منهم التزاما بإنهاء كتابة الدستور. وأثاروا اعتراضات وأسئلة، ولكنّهم وجدوا أيضا حلولا. وحين رُفضت اقتراحاتهم لم يستاؤوا، بل فاوضوا وطالبوا وتحرّكوا من أجل إعادة الاعتبار لمطالبهم.

كانت بعض عمليّات الحذف من جانب هذه اللجنة جليّة، ولم تكن أيّ منها بمثل وضوح ما قام به ماديسون، إذ لم تكن لأيّ مندوب دراية بالدساتير تفوق درايته، ولم يعمل أحد بجدّ أكثر منه لإنجاز مهمّة المؤتمر، غير أنّ راندولف كان هو رجل فرجينيا في اللجنة.

قد يكون المندوبون سمعوا عددا هائلا من المحاضرات من المعلّم ماديسون، ويُعتقدُ أنّ اشتغاله بتدوين أعمال المؤتمر قد يكونُ أخذ ما يكفي من وقته. ربّما بدا ماديسون، و«قد استحوذ عليه حماس ذهني كبير» لإنجاز الدّستور، اختيارًا سيّئًا فيما يخصُّ التسوية والمصالحة. وأيًّا كانت الأسبابُ، فلا بدّ أنّه قد اغتاظ لرؤية الآخرين يجبنون عن الاضطلاع بهذه المهمّة الدقيقة.

يُمكنُ تفسيرُ عمليّات الحذف الأخرى بسهولة أكبر. فرغم كلّ تألّقه تغيّب الحاكم موريس ثلاثة أسابيع عن المؤتمر في شهر يونيو. ولم تكن المواهب العظيمة للجنرال واشنطن مُلائمة لمهمّة اللجنة، فيما أزاح الكبر والأمراض الدكتور فرانكلن من المنافسة. وكان روجر شيرمان يُسرعُ بالعودة إلى نيوهافن لحضور حفل زفاف ابنته، ومن المرجّح أن تكون الحساسيّة قد أقصت مايسون مندوب فرجينيا وجيري مندوب ماساشوسيتس.

كان للّجنة كثير من العمل خلال أحد عشر يوما، لذلك شرعت في العمل فورا. ومن المحتمل أن يكون أعضاؤها الخمسة قد اجتمعوا في الطابق الثاني من دار الولاية. وكان بإمكانهم أيضا أن يلتقوا في قاعة استقبال جيمس ويلسون بماركت ستريت، أو في الغرف التي اكتراها عضو لجنة آخر.

بالنسبة إلى راتليدج كانت اللجنة مكانا مثاليّا للالتقاء. وفي ظلّ الأجواء الحميميّة لقاعة اللجنة لم يكن المهمّ هو الخطابةُ بل سلطة الإقناع والعلاقاتُ الشخصيّةُ. وعلى الدرجة نفسها من الأهمّية، كان راتليدج يعرف ما يُريدُ: حكومة مركزيّة أضعف وآليّات حماية لا لَبْسَ فيها للجنوب ولنظام الرقّ فيه. وقد عكست الأجزاء الأكثر جرأة من مسوّدة اللجنة أهداف راتليدج.

وفّر جيمس ويلسون للجنة أكبر قدر من المعرفة. وكما كتب أحدُ المندوبين: «إنّه يستطيعُ رصد الأسباب والنتائج لكلّ ثورة منذ أولى مراحل الكومنولث اليوناني إلى الوقت الحاضر». مع ذلك أثبت ويلسون على أرضيّة القاعة الشرقيّة —وفي معركة حصن ويلسون سنة 1779— أنّه لم يكن ذلك الأكاديمي المنكمش والميّال إلى الاعتذار. كان ويلسون يُعوّلُ على قوّة التفكير أكثر منه على السلوك المهذّب. لقد كان ندًّا لراتليدج في الحالة الأولى، ودونه بكثير في الحالة الثانية. وكما يتذكّرُ أحد المحامين الرجل الأسكتلندي:

كان أسلوب ويلسون يتميّزُ بالإملاء أكثر منه بالإقناع، ويبدو أنّ جهده العادي يقومُ على الإخضاع ويُقصي الحلول التوفيقيّة. إنّ الانطباع الذي يتركهُ هو أنهُ على الأرجح رجل صارم يُريدُ من الآخرين الإذعانَ لإرادته، لا غازيا عطوفا.

وبقدر ما كان راتليدج وويلسون على الدرجة ذاتها من التصلّب في الرأي كان كلّ منهما يُقدّرُ هذه الصفة في الآخر. والأمرُ الذي قد يتّسقُ مع شخصيْن غير عاطفيّيْن هو أنّه لا أحد منهما ترك أي أثر للمراسلات بينهما، ولا لأيّ من واضعي مسوّدة الدستور في المسائل السياسيّة. إنّنا لا نملكُ إلا التخمين في كيمياء الشخصيّة والروح الوطنيّة اللتين سمحتا لهذين المحاميْن المدفوعيْن بطاقة هائلة بالعمل معا.

يستحقُّ الأعضاءُ الثلاثةُ الآخرون في اللجنة اهتماما خاصّا بهم. فرغم أنّه لُقّب بـ«إلسوورث الذي لا نهاية له» لخطاباته المسهبة، ورغم أنّه كان في عديد الأحيان موضوع محاكاة ساخرة لتنشّقه السّعوط، لم يكن مندوب كونكتكوت أوليفر إلسوورث الرجل الذي يُمكنُ الاستهانة به. ففي النقاش والنشر كان يستعمل السخرية القاسية التي ورثها من الفترة التي كان فيها مراهقا مشاغبا وقع طرده من ييل بسبب حيل مضحكة شملت تسميم خبز المطبخ الجماعي.

كانت كتابات إلسوورث بعد المؤتمر التي ساند فيها الدستور أعمالا فجّة لدرجة أن أحد كتّاب السيرة وصفها بـ«السامّة حقّا». فقد تحدّث إلسوورث عن أحد نوّاب المؤتمر باعتباره كاذبا، وعن آخر باعتباره واقعا تحت تأثير الجنون. ويَبرُز جانب مرعب من شخصيّته في رسالة بعث بها إلى زوجته يوم 21 يوليو قبل ثلاثة أيّام فقط من تعيينه في لجنة التفصيل. فبعد رؤيته لمومياء مصريّة أسرّ بأنّ «اللحم الذي حاولتُ قطعه بسكّيني يبدو مثل لحم بقر تمّت معالجته بالدخان وترك حتّى يتصلّب». ربّما كان الرجل يمزح.

باعتباره من المُؤيّدين بقوّة لحقوق الولايات، بحث إلسوورث عن تسييج سلطات الحكومة الوطنيّة الجديدة، وسيلعبُ دورا معتبرا بعد العطلة أيضا.

اتّخذ راندولف وغورهام مواقف أكثر اعتدالا في صلب اللجنة. كان راندولف بشكل خاصّ عصبيا جدّا وعالي الحساسيّة تجاه الرياح السياسيّة المتقلّبة. وسوف تخدمه تلك الحساسيّة بشكل سيء في الأيّام الختاميّة للمؤتمر حين احتار في أمر التوقيع على الدستور، ثم قرّر ألا يفعل ذلك، ليناقض نفسه بعد ذلك ببضعة أشهر. وقد أحال أحدُ كتّاب السيرة بتعاطف إلى هذه السمة باعتبارها «موهبة راندولف الغريبة في تحديد الموقف الوسط».

قوّم المعاصرون راندولف بخشونة أكبر. ففي صورة لا يمكنُ إلاّ لأحد الأقارب أن يرسمها، شبّه سليطُ اللسان جون راندولف، من روانوك، ابن عمّه إدموند بـ«الحرباء فوق شجرة الحَوْر، دائم الارتعاش، دائم التقلّب». وكتب فرجيني آخر سنة 1788 أنّ راندولف كان «بطبعه خجولا ومتردّدا». ولما رأى أحد المؤرّخين لفَّ راندولف ودورانَه لاحظ ببساطة: «لم

يكن أحد واثقا على أيّ جانب كان راندولف يقف».

ترك أقلُّ أعضاء اللجنة براعة، وهو غورهام، من ماساشوسيتس، وراءه أخفّ سجلّ. تُبين صورته عن رجل ذي ألغاد، وهي صورة تتّسق مع وصفِ معاصرٍ له بالشخص «القوي البنية» ذي «التصرّف المقبول والمريح». استثمر تلك المواهب في رئاسة الكونغرس سنتي 1786– 1787 حيث قدح في جيمس مونرو باعتباره «شخصا بولغ كثيرا في قيمته». ترك غورهام أثرا ضئيلا في المحصّلة النهائيّة لعمل اللجنة.

لم يُدوّن أيّ من الأعضاء الخمسة وصفا لجلسات اللجنة، لذا ينبغي تجميع أجزاء القصّة من سجلاّت محدودة. لقد نجت ثلاث وثائق رئيسيّة: موجز أوّل بخطّ راندولف (مع نشرات راتليدج)، وملاحظات موسّعة ومسوّدة ثانية كتبها ويلسون (مرّة أخرى مع نشرات رتلدج)، والتقرير الختامي المقدَّم أمام المؤتمر. تضع هذه الأدلّة القلمَ الذي كُتِبت به مسوّدة الدستور في أيدي أولئك الرجال الثلاثة.

يمكن قراءة الموجز الأصلي لراندولف باعتباره نتاجا مشتركا، كما لو أنّ أعضاء اللجنة اشتغلوا على صياغة فقرات الدستور في الوقت الذي كان فيه حاكم فرجينيا يدوّن أفكارهم في شكلٍ مختصر. بدأ المخطّط بقاعدتين لصياغة «دستور أساسي»: تشمل إحداهما وجوبا «المبادئ الضروريّة فقط» وتجتنب الفقرات الشرطيّة الصغيرة التي تتغيّر بمرور الزّمن؛ وتقتضي الثانية أن يتمّ صوغ هذا الدستور «بلغة بسيطة ودقيقة».

تضمّنت مسوّدة ويلسون، وقد مثّلت جهدا مصقولا على نحو أبعد بكثير، المحاولة الأولى لما أصبح يُعْرف بالديباجة الطنّانة للوثيقة النهائيّة («نحن شعب الولايات المتّحدة...»). في هذه المحاولة الأولى لم يعالج ويلسون إلاّ الناحية الأكثر إنشائيّة: «نحنُ شعوب ولايات نيوهمشاير، ماساشوسيتس، رود آيلند»، إلى غير ذلك. واستنادا إلى ظاهر مسوّدة ويلسون، يمكن الحكم بأن أعضاء اللجنة قد تقدّموا ببطء في الإنجاز الجماعي للمسوّدة في قاعة مفعمة بالبخار، وازنين كلّ كلمة وفاصلة، بالتوازي مع ما كان مقصودا بالكلمات والفواصل التي حُذفت. وقد تعرّض الانتظام المنضبط للخطّ الأنيق لمسوّدة ويلسون لتشويه دوري بفعل ما

أدخله راتليدج عليها من خربشات لا تكاد تُقْرأُ.

بدءا بمخطّط راندولف، أضافت اللجنة عديد الفقرات التي لم يُناقشها المؤتمرُ البتة، ولم يكن من المتوقّع أن تُشكّل مصدر جدال كثير. يُمكنُ تسميةُ هذه الفقرات بـ«التفاصيل» حتى وإن كان حجمها كبيرا. تتضمّنُ الأمثلةُ فقرة الخطاب والنقاش التي تمنحُ الحصانة لأعضاء الكونغرس حيال التعاليق الصادرة منهم أثناء عملهم، وفقرات تنظّم عمل مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ.

إنّ العمل الأكثر طموحا هو قرار اللجنة بأن يتولّى مجلسُ الشيوخ مناقشة المعاهدات مع البلدان الأجنبيّة وتسمية السفراء. لم يكن أيّ مندوب قد اقترح مثل تلك الترتيبات، وهو ما عكس الآمال التي عقدتها اللجنةُ على مجلس الشيوخ حتّى «يجذب شخصيّات محترمة» تكون أجدر بالثقة من الرئيس. لقد عزّز ذلك التغييرُ سلطة الولايات الصغرى التي سيكون لها تأثير أكبر في مجلس الشيوخ.

ورغم أنّ الصيغة النهائيّة للدستور ستقلّص من دور مجلس الشيوخ في توفير «المساعدة والموافقة» للرئيس في موضوع المعاهدات والسفراء فإنّ ذلك الدور، حتى وإن كان مقلّصا، قد سمح لمجلس الشيوخ بعرقلة اتّفاقيّات في أهمية معاهدة كيوتو[1] حول الاحتباس الحراري ومعاهدة فرساي[2] بعد الحرب العالميّة الأولى.

(1) تمثّل هذه الاتّفاقيّة خطوة تنفيذيّة لاتّفاقيّة الأمم المتّحدة المبدئيّة بشأن التغير المناخي، وهي معاهدة بيئيّة دوليّة رأت النور في مؤتمر الأمم المتّحدة المعني بالبيئة والتنمية، ويعرف باسم قمّة الأرض التي انعقدت بعاصمة البرازيل، ريو دي جانيرو بين يومي 3 و14 يونيو 1992. هدفت المعاهدة إلى حمل الدول المشاركة على تثبيت تركيز الغازات الدافئة في الغلاف الجوّي عند مستوى يحول دون إضرار البشري خطير بالنظام المناخي. وقد تضمّن اتّفاقيّة كيوتو مجموعتين من الالتزامات المحدّدة من أجل تحقيق المبادئ العامّة التي أقرّتها اتّفاقيّة الأمم المتّحدة الإطاريّة بشأن تغيّر المناخ. تضمّنت المجموعة الأولى الالتزامات التي تتكفّل بها جميع الأطراف المتعاقدة، في حين اختصّت المجموعة الثانية بجملة الالتزامات التي تتحمّلها الدول المتقدّمة إزاء الدول النامية (م).

(2) هي اتّفاقيّة وقّع عليها سنة 1919 بقصر فرساي بباريس، فرنسا، المنتصرون في الحرب العالميّة الأولى من جهة والطرف المنهزم متمثّلا في ألمانيا من جهة أخرى. دامت المفاوضات التي سبقت الاتّفاقيّة ستّة أشهر، وتضمّنت اعتراف ألمانيا بمسؤوليّتها عن الحرب وما يترتّب عليها من تعويضات لصالح الأطراف المتضرّرة. وقد تمخّض عن الاتّفاقيّة تأسيس عصبة الأمم التي حلّت محلّها بعد الحرب العالميّة الثانية منظّمة الأمم المتّحدة (م).



جون راتليدج (ساوث كارولينا)

لم تصمد بعض عمليّات التجديد التي أدخلها راتليدج في صلب اللجنة. فقد عيّنت اللجنة رئيس مجلس الشيوخ ليخلف الرئيس إذا تُوفّي وهو في سدّة الحكم، ولكنّ المؤتمر أنشأ منصب نائب الرئيس عوضا عن ذلك. ونقضت اللجنة قرار المؤتمر القاضي بأن تتولّى الحكومة الوطنيّة سداد أجور أعضاء الكونغرس، معوّضة إيّاها بالولايات. في مرحلة لاحقة، تزعّم إلسوورث مجهودا للعودة إلى القرار الأوّل محرّرا بذلك المشرّعين الوطنيّين من «التبعيّة المفرطة للولايات».

أعادت ثلاثةُ من تغييرات لجنة راتليدج تشكيل الحكومة بشكل جوهري. تناول اثنان منها لبّ المشكلة المتعلّقة بكيفيّة موازنة السلطة بين الولايات والحكومة الوطنيّة. ورغم ذلك، لم تدفع تلك التغييرات إلى أيّ انشقاق من جانب مندوبين آخرين. أمّا التغيير الثالث فقد فتح باب الانقسام بين الشمال والجنوب على مصراعيه.

بقيادة راتليدج، اتّجه أوّلُ تغيير قامت به اللجنة إلى جوهر القضيّة، ألا وهو سلطات

الكونغرس.

في الأيّام الأولى من المؤتمر، اعترض راتليدج على منح مخطّط فرجينيا الكونغرس سلطات مفتوحة، ودعا إلى «إحصاء دقيق» لها. فبالرغم من أن راتليدج كان يرغبُ في حكومة وطنيّة أقوى، لم تكن له مصلحة في حكومة ذات سلطة مطلقة. وألحّ على ألاّ تُمنح الحكومة الجديدة إلاّ سلطات محدّدة. ردّ إدموند راندولف في أواخر شهر مايو بأنّه لا يمكن تعريف سلطات الكونغرس بصورة أفضل، وهي منازعة تردّد صداها في كلام ويلسون.

في منتصف يوليو، طلب راتليدج مجدّدا «تحديدا لسلطات» الكونغرس، ووافقه راندولف على ذلك هذه المرّة. واحتجّ راندولف قائلا: إنّه بدون مثل هذا التحديد يستطيع الكونغرس «انتهاك كلّ قوانين الولايات ودساتيرها». غير أنّ المؤتمر وافق على قرار بمنح الكونغرس سلطة واسعة للتشريع:

في كلّ الحالات التي تقتضيها المصالحُ العامّة للاتّحاد، وفي الحالات التي تكون فيها الولايات غير مؤهّلة بمفردها لذلك، وحين يُعيقُ تشريع ولائي منفرد الانسجام القائم بين الولايات المتعدّدة.

في قاعة اللجنة اتّجه راتليدج مباشرة إلى جوهر الموضوع. رغم اقتناعه بأنّ الفدرالية الهزيلة لم تكن «تساوي بنسا» كان الكاروليني الجنوبي يخشى مجلس كونغرس بمثل هذه السلطات غير المحدّدة. وبمعيّة إلسوورث الذي هو أيضا نصير قوي لحقوق الولايات، جذب راتليدج راندولف إلى موقفه الجديد المعلَن المؤيِّد لحقوق الولايات.

لم تهدر اللجنة وقتها في تعديل اللغة الفضفاضة التي أجازها المؤتمر منذ أسبوعين تحديدا. فتجاهل ملخّص راندولف تلك الفقرة معوّضا إيّاها بثماني عشرة سلطة «محصاة» استُقِي كثير منها من بنود الكنفدرالية. بدأت تلك السلطات الثماني عشرة بسلطة فرض الضرائب وتواصلت عبر سلطة شنّ الحرب وانتهت بإعلان ما يمثّل خيانة. بهذا التغيير جعلت اللجنة من الحكومة الجديدة حكومة ذات سلطات محدودة، وقد فعلت ذلك من دون أدنى إشارة إلى أنّ المؤتمر كان يرغب في التغيير.

لم يكن أيّ عضو في اللجنة متفانيا في خدمة الولايات بقدر تفاني راتليدج. أما جيمس ويلسون فكان مرتابا بحكومات الولايات، ولم يكن في أي مجال من المجالات أقرب إلى راندولف كما كان في مرونته. هدّد ملخّص راندولف رؤية ويلسون لحكومة مركزيّة قويّة. وأيّا كانت مكانة راتليدج فإنّ ويلسون لن يتزحزح عن مبادئه. تولّى سكوت مسؤوليّة صياغة مسوّدة الميثاق التالية. وأدخل ويلسون الذي كان يشتغل على مكتبه الهادئ بقلم وورق مزيدا من التغييرات الحاسمة.

رغم احتفاظ ويلسون بطلب إحصاء سلطات الكونغرس فإنّه أضاف سلطة ذات شأن: سلطة «سنّ كلّ القوانين التي ستكون ضروريّة ومناسبة» لاضطلاع الكونغرس بمسؤوليّاته. قبل سنتين حاجّ ويلسون في أنّ البنود منحت الكونغرس فعليّا سلطة التصرّف «حين لا تملك ولاية بعينها الأهليّة» للقيام بذلك. وقد أدرج الآن في الدستور سلطة مماثلة. وستعمل هذه الفقرة كـ«سلّة فضلات» توسّع بنية سلطات راتليدج المحصاة. وباعتباره أمينا للخزينة سيستعمل ألكسندر هاملتون ببراعة هذه الفقرة في الدفاع عن سياسته للمبادرات، بما في ذلك سداد ديون الحروب التي تخوضها الولايات وإقامة مصرف وطني.

في مراجعة ثانية، فرض ويلسون ثمانية حدود للولايات حائلا دونها والدخول في معاهدات، وإصدار سندات اقتراض أو عملة، وفرض الضرائب على الواردات، أو شنّ الحرب. إنّ هذه الفقرات التي عوّضت تقييدات راتليدج للكونغرس لم تكن لها أسس أيضا في القرارات التي ارتضاها المؤتمر.

عدّل ويلسون فقرة العلويّة المتبنّاة من قبل المؤتمر والتي ترمي إلى جعل القانون القومي «أعلى» من قوانين الولايات غير المتجانسة. قد يكون ما أثار شكوك ويلسون هو كون الفقرة كتبها لوثر مارتن من مريلاند، وهو مدافع صلب عن الولايات. ولاحظ ويلسون في هدوء قاعة اللجنة أن لغة مارتن جعلت القانون القومي أعلى من قوانين الولايات، لكنّها كانت صامتة حيال شروط الولاية الدستوريّة، وهو صمت سيسمح لدساتير الولايات بمناقضة القانون الفيدرالي. وبإزالة تلك الثغرة خلق ويلسون الأداة التي ستستعملها المحاكم لسدّ

الطريق أمام أعمال الولايات التي كانت تنتهك الدستور.

لمّا عرض راتليدج تقرير اللجنة على كلّ المؤتمر لم تنشأ نزاعات حول تحويل الحكومة إلى حكومة لا تملك من السلطات إلا تلك التي سُمّيت تحديدا، ولا حول تقييدات ويلسون للولايات. قد يكون إذعان المؤتمر الصامت ناجما عن الوقع المتوازن للتغييرات، بعضها يقيّد الحكومة القوميّة وبعضها الآخر يضيّق على الولايات. وقد تكون اللجنة، باستنادها إلى المحاورات الخاصّة وفحوى النقاشات، قدّرت جيّدا التوازن بين سلطات الولايات وسلطات الحكومة الفيدراليّة، وهو توازن سيرضي المندوبين.

هكذا توصّل راتليدج وويلسون إلى حلّ خلاّق لهذه المسألة المستحدثة أمام المؤتمر: كيف التوفيق بين السلطات الفدرالية وسلطات الولاية في بنية فاعلة؟ أبقى هذا الحلّ على سيادة كلتا الحكومتين وعلى انفصالهما وترابطهما وعلويّة إحداهما على الأخرى. كان حلاّ ذكيا وحيويّا، حلاّ أعاد كلُّ جيل تعريفه، ولكنّه يمثّل إنجازا بارزا للمؤتمر.

كان ثالث تغيير للدستور أنجزته اللجنة أقلّ نجاحا بكثير. وسيثير في الواقع ثورة في القاعة الشرقيّة.

أنشأ أعضاء اللجنة ثلاث فقرات جديدة تماما كانت عزيزة على الجنوبيّين. ضمنوا أوّلا ألاّ يتوقّف توريد العبيد إطلاقا. ثمّ ألغوا كلّ الضرائب على البضائع المصدّرة. واشترطوا أخيرا أن تكون «قوانين الملاحة» (أي التشريع الذي يهمّ التجارة البينيّة للولايات والتجارة الخارجيّة) محلّ موافقة ثلثي الأصوات في كلّ من غرفتي الكونغرس.

لم يتضمّن أيّ عمل سابق للمؤتمر هذه الفقرات الثلاث بأكملها. كانت الفقرات تحابي تماما الجنوب إلى درجة أنّ أحد الدارسين سمّاها وهو يشيد مكرها بمهارات راتليدج: «معلما للبراعة والصلف الجنوبيَّيْن». كان بوسع ضمان تجارة الرقيق أن يفيد الولايات الجنوبيّة فحسب، في حين سوف يحمي حظر ضرائب التصدير التبغ والأرزّ والنيلة الجنوبيّة.

يعكس شرط تصويت الثلثين القلق الجنوبي من أنّ مثل هذه القوانين قد تضطرّ الولاياتِ

إلى نقل بضائعها عبر السفن الأمريكيّة، وبهذه الطريقة ترتفع تكاليف الشحن بالنسبة إلى المزارعين. قبل الثورة عانى الجنوبيّون من «قوانين الملاحة» البريطانيّة التي أقصت ملاحة الشحن المنافسة ورفعت من تكلفة الشحن. كانت تلك القوانين أيضا مرادفة للضرائب المجحفة المفروضة من قبل البريطانيّين والتي لعبت دورا كبيرا في إطلاق شرارة الثورة. وككسب إضافي للجنوب، سيسمح شرط ثلثي الأصوات لتلك المنطقة بلجم أيّ تشريع في الاتّجار بالرقيق.

كان قد حصل عرض أوّلي واحد لهذه الفقرات المزعجة. بينما كان المندوبون يستعدّون في 23 يوليو لبعث لجنة التفصيل وجّه الجنرال اللطيف بينكني تهديدا مكشوفا:

ذكّر المؤتمرَ بأنّ اللجنة إذا فشلت في طمْأنة الولايات الجنوبيّة بعض الشيء إلى أنّه لن يقع تحرير للعبيد وفرض للضرائب على الصادرات فإنّه سيجد نفسه ملزما بحكم واجبه نحو ولايته بأن يصوّت ضدّ تقريرهم.

بالرغم من أنّ المندوبين لم يناقشوا هذه القضايا فإنّ لجنة راتليدج اقترحت إعطاء الجنرال بينكني والجنوبيّين كلّ ما أرادوا. ما الذي يفسّر هذه الهديّة المجانيّة الملحميّة؟

كان النصر بوضوح نصرا لراتليدج بالرغم من أنّ اللجنة قد احتشدت لتأييده، بدءا براندولف. وأيّا كان مقدار تبرّم حاكم فرجينيا من العبوديّة فإنّه كان يمثّل ولاية تعتبر العبوديّة أمرا مسلّما به. ولحماية مستقبله السياسي كان على راندولف أن يعود إلى ولايته بإجراءات حمائيّة للعبوديّة ذات معنى.

كان راتليدج هو المحظوظ من بين الشماليّين في اللجنة، خصوصا مع غياب الحاكم موريس. لم يكن ويلسون البنسلفاني من مؤيّدي إلغاء الرقّ. فلم يكتف برعاية نسبة الثلاثة أخماس وتدعيم سلطة الجنوب السياسيّة، بل كان أيضا يمتلك عبدا يعمل كلّ يوم في مطبخه الواقع على مسافة مبنيين بالضبط عن دار الولاية. وفي الأسابيع القادمة سيُظهر إلسوورث من كونكتكوت حرصا ثابتا على القضايا التي تشغل الجنوبيّين. وسيجادل المندوب الكونكتكوتي ضدّ كلّ محاولة للإخلال بالعبوديّة. لقد أيّد غورهام من ماساتشوستس نسبة

الثلاثة أخماس، ولم ينتقد نظام الرقّ أبدا خلال الصيف.

لا يبدو أنّ الشروط الاقتصاديّة للهديّة الجنوبيّة –حظر المكوس على الصادرات والحدّ من قوانين الملاحة– قد أزعجت ويلسون ولا إلسوورث. فكون ولايتيهما كانتا تصدّران الكثير من البضائع قد يكون جعلهما قابليْن لتلك الشروط.

كان أكبر خاسر في ظلّ فقرة قانون الملاحة هي الولايات المعتمدة على الشحن، وقد كانت ضعيفة التمثيل في المؤتمر. فقد عاد مندوبو نيويورك إلى ديارهم، بينما لم ترسل رود آيلند أيّا منهم. مثّل غورهام تجّار ماساتشوستس، لكنّه لم يكن ندّا لراتليدج. وعند وفاته سيؤبَّن لمزاجه الذي كان «لطيفا وتوفيقيّا، ولصبره وحذره»، وهي خصال رائعة تنفع في العديد من الأغراض ليس من بينها الصمود أمام رجل شارلستون القوي.

بينما كانت لجنة راتليدج تكتب الدستور، ذهب واشنطن إلى صيد السمك. ولأنّ عربته كانت في حاجة إلى الإصلاح فقد سافر مع الحاكم موريس «في عربته تقودها جيادي» إلى جوار وادي.

في يوم خروجهما الأوّل «بينما كان السيّد موريس يصطاد السمك» زار الجنرال أشباح ذلك المكان حيث كان هو وجيشه قد قضّوا شتاء 1777 القارس. ولأنّه وجد الأشغال «ركاما» فإنّه لم يدوّن المشاعر القويّة التي لا بدّ أن تكون الزيارة قد أثارتها. سجّل بالتأكيد محاورته مع الفلاّحين المحلّيّين حول حنطتهم التي كانت «علفا ممتازا للخيول» وصالحة «لتسمين الخنازير» أيضا.

بعد أيّام قليلة هرب واشنطن وموريس مجدّدا من المدينة. سافرا هذه المرّة إلى ترنتون صحبة عائلة روبرت موريس. لم يكن يوم صيدهما الأوّل «موفَّقا جدّا»، ولكن في 4 أغسطس «عاد الجنرال ليصطاد، بنجاح أكبر (بالقصبة)».

هرب كثير من المندوبين من فيلادلفيا طيلة الاستراحة. فقد غادرها روجر شيرمان ووليام صموئيل جونسون مبكّرَيْن بعدّة أيّام قصد الوصول إلى نيوهافن في الوقت المناسب لحضور

زواج ابنة شيرمان. وزار ألبريدج جيري والرائد بتلر عائلتيهما في نيويورك. كما اصطحب الرائد بينكني زوجته الجديدة إلى «بيت لحم» ببنسلفانيا بحثا عن هواء أبرد. وكان بإمكان مندوبي نيوجيرسي وديلاوار ومريلاند إدراك بيوتهم بسهولة نسبيّا.

ومع اقتراب الاستراحة من نهايتها عاد المندوبون ليواجهوا بعض أسخن أيّام الصيف. وكان انتظارهم اللذيذ إنهاء أشغالهم يمتزج بجزعهم من حرّ فيلادلفيا الجهنّمي. سيرون قريبا مسوّدة الدستور وقد أعدّتها لجنة راتليدج. وسيخطو العمل العظيم خطوة واسعة إلى الأمام. لقد واجهوا قضايا صعبة كثيرة وحلّوها. فماذا بقي من تحدّيات تخرجهم عن السكّة؟

الفصل الخامس عشر

العود إلى العمل

6 أغسطس

كانت رائحة الحبر الطري عالقة في القاعة الشرقيّة يوم الاثنين 6 أغسطس. ومع استمرار بعض المندوبين في سلوك طريق العودة من العطلة كان الحضور ضعيفا ذلك الصباح. فقد كانت ثماني ولايات فقط تملك عددا كافيا من المندوبين الحاضرين للتصويت.

كان الرجال متشوّقين لرؤية العمل الذي أنجزته لجنة راتليدج، آملين دخول البيت بما يسمح به جهدهم. غير أنّ بعضهم خشي من أن يقاد المؤتمر إلى الاتّجاه الخطأ، صوب حكومة وطنيّة ذات سلطة مفرطة. لقد أصيب كلّ المندوبين بخيبة أمل حين بدت لهم فيلادلفيا أشدّ حرارة ورطوبة ممّا يذكرونه عنها، وزاد تهديد المطر في ذلك الصباح المناخَ الثقيلَ تفاقما.

حين أقرّ الجنرال واشنطن براتليدج متكلّما أوّل استدارت كلّ الأنظار إلى مائدة نورث كارولينا في طرف الغرفة. اشرأبّت الأعناق إلى الكاروليني الجنوبي المكتمل القامة الفخور بنفسه حين أعلن أنّ اللجنة أنهت عملها. وبوقار يُناسب مقام اللحظة خطا خطوات واسعة إلى مقدّمة القاعة، وسلّم تقرير اللجنة إلى كاتب المؤتمر. وُزّعت نسخ حديثة الطبع من التقرير تحتوي على هوامش عريضة لتدوين الملاحظات. وخلال نهاية الأسبوع كان المندوبون قد سمعوا أخبارا مشتّتة عن التقرير. وقد انكبّوا الآن على نسخهم بحثا عن الفقرات التي تهمّ كلاًّ منهم أكثر من أيّ شيء آخر.

مع عودة راتليدج إلى مقعده تلا الكاتب التقرير بصوت عال رتيب على امتداد سبع صفحات من مسوّدة الدستور. كانت اللحظة بالنسبة إلى راتليدج وأعضاء آخرين في لجنته

لحظة ارتياح غامر. سيعمل المؤتمر الآن انطلاقا من مسودتهم هم، وسيكون أعضاء اللجنة الخمسة أكثر علما من أيّ طرف آخر بما كان في تلك المسوّدة وما لم يكن. ومن هذه اللحظة فصاعدا سيتصرّفُ أربعة منهم –راتليدج وويلسون وإلسوورث وغورهام– ككلاب غنم ترعى قطيع المندوبين خلال المناقشات، تفسّر الفقرات الشرطيّة، وتقترح لغة بديلة، وتدفع المؤتمر برفق إلى مواصلة العمل على المسوّدة. في مقابل ذلك، سيقلّب أدموند راندولف الرأي من جميع وجوهه ويزدادُ تردّده بشأن مخطّط الحكومة.

كان راتليدج رئيسَ كلاب الغنم بدءا من ذلك اليوم الأوّل الذي مضى، 6 أغسطس. بعد تلاوة التقرير، اقترح بعض المندوبين أخذ يوم عطلة إضافي «حتّى يجدوا متّسعا من الوقت لدراسة التقرير»، وقد تمّ إفشال اقتراحهم بسهولة.

في الأيّام القادمة، كان راتليدج ينظر بجزع إلى المندوبين وهم يخوضون نقاشا في قضايا صعبة ثمّ لا يملكون سوى تأجيل التصويت عليها. وبحلول 15 أغسطس، لم يعد قادرا على التحمّل. وفي نهاية المطاف كان راتليدج قد أصيب بالإحباط في منتصف شهر يوليو لأنّه قضّى ضعف الفترة التي كان يتوقّعها في فيلادلفيا.

تعرّف واشنطن على الكاروليني الجنوبي. وحسب الملخّص المقتضب لماديسون، كان راتليدج مرّة أخرى «معارضا بشدّة للتأجيل». «لقد اشتكى كثيرا من رتابة المداولات»، وانضمّ إليه إلسوورث زميله في اللجنة متحدّثا «باللغة نفسها» ومتوقّعا أنه «إذا لم نقرّر سريعا، فإنّنا لن نكون قادرين على اتّخاذ أيّ قرار».

بعد ثلاثة أيام، نفد صبر راتليدج مرّة أخرى. وعلى أمل غرس شعور بضرورة التحرّك بسرعة «لاحظ طول الجلسة، واحتمال نفاد صبر الجمهور والقلق المفرط لعدد كبير من أعضاء المؤتمر الراغبين في وضع حدّ لهذه المسألة». اقترح راتليدج زيادة ساعة إلى الجدول اليومي. ينبغي أن يجتمعوا « بالضّبط عند الساعة العاشرة» صباحا ويرفعوا الجلسة «على الساعة الرابعة بالضبط»، و«لا ينبغي أن يُسْمَحَ برفع الجلسة قبل ذلك الوقت». أُذّب المندوبون، فوافقوا.

بعد أربعة أيّام فقط، نشأت حركة تدعو إلى إلغاء الجلسات الأطول. لقد نجح راتليدج في إفشال ذلك الجهد ولكنّه لأنَ بعد يومين من ذلك. أحدثت الساعة الزائدة شعورا بالامتعاض لدى المندوبين الذين كانوا مرهقين، يعانون من الحرارة ويتوقون إلى الذهاب إلى موائد العشاء. ثمّ عاد المؤتمر إلى توقيته السابق، رافعا جلساته على الساعة الثالثة مساء.

أدخل تقرير لجنة راتليدج المؤتمر في طور جديد. كانت القرارات التسعة عشر لمخطّط فرجينيا تتّسم بطابع نظري، إذ لم تكن أكثر من موجز من المقترحات والمفاهيم. لقد أضاف التقرير الجديد الخصوصيّات والعمق. وبالنسبة إلى رجال تعوّدوا على العمل على دساتير الولايات وبنود الكنفدرالية، كانت بنية التقرير مألوفة ولا مجال فيها للغلط. كان هذا دستورا.

تعدّدت ردود الأفعال بتعدّد المندوبين أنفسهم. خلص مندوب نورث كارولينا إلى القول بمرح: «بما أنّ الخطوط الكبرى قد اتّضحت الآن»، فبإمكانه أن يعود إلى فيلادلفيا، إذ «أنّ بقيّة العمل ستكونُ مملّة أكثر منها صعبة».

وعبّر بعض المندوبين عن أملهم في أن يُنهي المؤتمرُ أشغاله في بداية شهر سبتمبر أو منتصفه، وأوحى ماديسون المجدّ بأنّ الأمر قد يستغرقُ «أشهر» أخرى لإنهاء العمل، وهي نظرة كانت ستصيبُ زملاءه بالجزع.

في الحقيقة، كان الوقت ينفد، وكان المندوبون يدركون ذلك. لم يكن البلد لينتظر بلا نهاية، ولم يكن المندوبون قادرين على الإقامة في فيلادلفيا لعدّة أشهر أخرى. ولم يكن راتليدج وحده متوتّر الأعصاب. فبحلول الأسبوع الثالث من شهر أغسطس، كتب الجنرال واشنطن بحنق إلى زميله القديم في الجيش، هنري نوكس: إنّ تقدّم المؤتمر كان «بطيئا»، وتمنّى لو كان بإمكانه أن يضيف: «بالتأكيد». وعلّق ساخرا إذا لم يأت أيّ خير من المداولات «فلا يجدر حمل النقائص بأسلوب لبق على العجلة التي أنجز بها العمل».

لكسر دائرة التعديل وإعادة الاعتبار والتعديل وإعادة الاعتبار، سيقنع راتليدج المندوبين باللجوء مجدّدا إلى مناورتهم الإجرائيّة المألوفة: إحالة القضايا الصعبة إلى اللجان. واصلت

لجنة راتليدج للتفصيل اجتماعاتها إلى بداية شهر سبتمبر لحلّ عدد متنوّع من القضايا الجديدة. وسوف يتمّ تأسيس أربع لجانٍ أحد عشرية أخرى تبلغ أوجها في النهاية بتكوين هيئة شاملة، لجنة الأجزاء المؤجّلة، وهي تسمية بيروقراطيّة تعكس صراحتها الكبيرة. وأخيرا هناك لجنة الأسلوب، وهي هيئة من خمسة أفراد ستنتج المسوّدة النهائيّة البارعة للدستور تحت إشراف الحاكم موريس.

تظلّ عمليّة اختيار أعضاء اللجنة لغزا إلى حدّ ما. فحسب قوانين المؤتمر، صوّت كلّ مندوب لأعضاء المؤتمر، وهي ممارسة منحت نفوذا أكبر للولايات التي أرسلت عددا أكبر من المندوبين، ثمانية من بنسلفانيا، خمسة من فرجينيا (عاد اثنان منهم إلى بيوتهم) وخمسة من ديلاوار الصغيرة جدّا (وهي مفارقة في حدّ ذاتها).

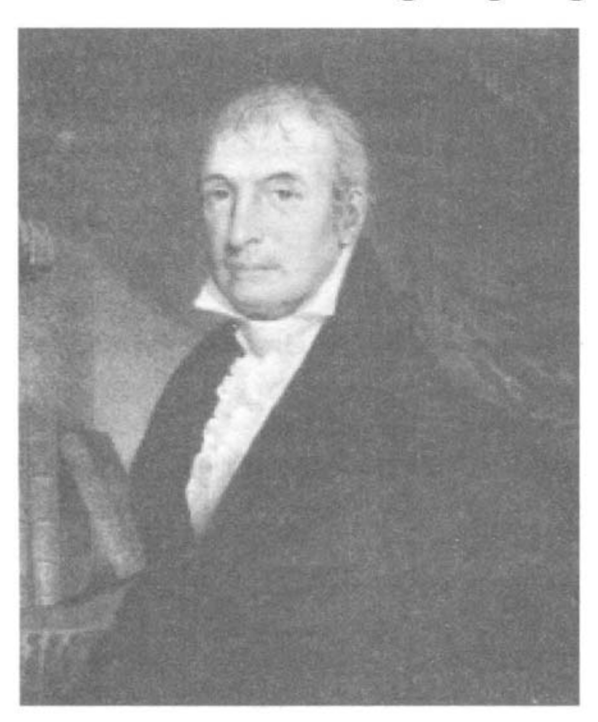
لكن كيف توصّل المندوبون إلى الاتّفاق على أعضاء اللجنة؟ فبإمكان تلك الطريقة أن تحدّد نتاج عمل اللجنة، مثلما تجلّى ذلك في تقرير لجنة راتليدج المساند للجنوب. هل دخل سماسرة السلطة مثل راتليدج وروجر شيرمان من كونكتكوت إلى الدهاليز للاتّفاق على «قائمة»؟ وبالنسبة إلى اللجان الأحد عشرية، هل مكّن نوع من المجاملة كلّ وفد من تعيين من سيعملُ من تلك الولاية في اللجنة؟ هل انعقد الإجماعُ على المرشّحين تلقائيّا في قاعة الجلوس بالقاعة الشرقيّة؟ وهل استعملت ولايات نيوإنجلند بمهارة تأثيرها الخاصّ لأنّها صوّتت الأولى بناء على أولويّة التصويت من الشمال إلى الجنوب؟

لا نعرف طريقة اختيار أعضاء اللجنة على وجه الدقّة، ولكنّنا نعرفُ أنّ مقاييس الاختيار لا بدّ أن تختلف بالنسبة إلى كلّ ولاية. بالنسبة إلى الوفود الصغيرة كانت الخيارات محدودة. إذا كان أحد مندوبي نيوهامشير يعمل في لجنة نشطة، فكان لا بدّ للآخر أن يذهب إلى اللجنة التالية. وبالنسبة إلى بعض الولايات، مثل كونكتكوت، كانت آراء المندوبين متطابقة إلى حدّ كبير، لذا لم يكن يهمّ كثيرا من سيتمّ اختياره. أمّا فيما يخصُّ وفودا مثل بنسلفانيا التي تضمّنت شخصيّات متنوّعة، فإنّ الاختيار كان يؤدّي إلى فارق معتبر: كان الدكتور فرانكلن رمزا للتسوية، وكان جيمس ويلسون يُدافعُ عن حكومة مركزيّة قويّة وعمل جدّي،

أمّا الحاكمُ موريس فيرمز إلى الخلق والابتكار، فيما سيخنق أحد الأعضاء صوت بنسلفانيا. نعرف أنّ الخصال الشخصيّة للمندوبين أُخِذت بعين الاعتبار؛ فقد كتب إلسوورث بعد المؤتمر إنّ عديد اللجان تخلّت عن لوثر مارتن بسبب «ثرثرته التي لا تنتهي».

لكن قبل أن تنطلق اللجان في العمل، كان على المندوبين أن يهضموا مسوّدة الدستور. جاء التدوينُ الأكثرُ اكتمالا لذلك الجهد الأوّل من وفد مريلاند المهمل. فقد نزل تقريرُ لجنة راتليدج على المريلانديّين المشاكسين كالصاعقة.

لم ترسل مريلاند مواطنيها الأكثر تميّزا إلى المؤتمر، فمن بين خمسة مندوبين اختارهم مجلسُ الولاية، اعتذر أربعة عن الذهاب، مفضّلين البقاء في بيوتهم لخوض معركة إصدار الأوراق النقديّة في ولايتهم. أجّل ذلك الصراعُ السياسي تسمية وفد الولاية إلى يوم 22 مايو، أي بعد ثمانية أيام من التاريخ المبرمج لافتتاح المؤتمر.



لوثر مارتن (مريلاند)

منذ تعيينهم، لم ينل مندوبو مريلاند الخمسة جوائز في البذل والاجتهاد، إذ لم يحضر أيّ منهم أعمال المؤتمر كاملة، وإن كان دانيال كارول ودانيال جنيفر اقتربا من تحقيق ذلك. تراوحت أعمارهم بين ثمانية وعشرين عاما (جون فرنسيس ميرسر) وأربعة وستّين عاما (جنيفر)، وكان من بينهم عضوان من أرستقراطيّة الزراعات الكبرى، (جنيفر وكارول)، والمدّعي العامّ الهائج (لوثر مارتن)، وطبيب إيرلندي المولد من عائلة معروفة بممارسة التجارة (جيمس ماكهنري)، وميرسر غير المعروف كثيرا والذي لم ينتقل من فرجينيا إلا في السنة السابقة.

في يوم 6 أغسطس، وللمرّة الأولى، كان الأعضاءُ الخمسة كلّهم في القاعة الشرقيّة لدار الولاية في الوقت نفسه. سجّل الدكتور ماك هنري، الذي تغيّب خلال شهري يونيو ويوليو لمرض أحد أفراد عائلته، ردود المريلانديّين على تقرير لجنة راتليدج. ورغم أنّ الإيرلندي كان مساعدًا مقرّبا من الجنرال واشنطن أثناء الحرب، فقد فشل في التأثير على مندوب واحد على الأقل. كتب ذلك المندوب:

إنّ ماك هنري رجل ذو مواهب خادعة، وهو لا يملكُ شيئا من العبقريّة اللازمة لتطوير هذه المواهب. وباعتباره رجلا سياسيّا لا يوجد شيء لافت لديه، وليس له رشاقة الخطيب وأناقته.

غير أنّ ملاحظات ماك هنري توفّر نظرة إلى المندوبين بعيدا من قاعة المؤتمر. إنّها لمحة عن ذلك الجزء من حياتهم الذي يظلّ، مثل جبل الثلج، مستترا تحت خطّ ماء الماضي.

بالنسبة إلى المريلانديّين، كان تقرير اللجنة إفصاحا عن نوع الحكومة المستقبليّة، ولم يكن هذا الإفصاح مرغوبا فيه. وباقتراح من ماك هنري، اجتمع أعضاء الوفد على الساعة الخامسة مساء من اليوم الذي تسلّموا فيه التقرير، اجتمعوا في إقامات كارول بجيرمن تاون المجاورة. وعبّر ماك هنري عن رغبته في أن «نُعِدّ أنفسنا للعمل متّحدين». لقد كانت الوحدة هدفا بعيد المنال بالنسبة إلى المريلانديّين، وستظلّ كذلك.

خلال أسابيع عديدة، قبل العطلة، لم يحضر المؤتمرَ إلاّ جنيفر ومارتن. وبتأييد جنيفر

لحكومة قويّة واعتراض مارتن عليها، أبطل كلّ منهما تصويت الآخر في ثماني عشرة عمليّة انتخاب منفصلة، بما فيها مسألة ما إذا كان سيتمّ التصويت على أساس الصوت الواحد للولاية الواحدة في مجلس الشيوخ ومسألة الاختيار بين مخطّطي نيوجيرسي وفرجينيا. تسبّبت هذه الإخفاقات في الوصول إلى اتّفاق في فشل الهيئة الانتخابيّة. وازداد الأمر سوءا بسبب اعتداد مارتن بنفسه. وكما عبّر أحد المندوبين عن ذلك، كان مارتن «شديد الإطناب في الحديث إلى درجة أنّه لا يتكلّم البتة من دون أن يرهق كلّ الذي يستمعون إليه».

إنّ توفّر عدد فردي لمندوبي مريلاند قد يُنهي المآزق، لكن واصل المندوبون نقاشهم حول ما إذا كان ينبغي للمؤتمر أن يُعدّل البنود فقط أو يكتب دستورا جديدا. سأل ميرسر الذي وصل حديثا إن كان سكّان الولاية سيساندون الحكومة الجديدة تماما كما حدّدتها لجنة راتليدج. تنبّأ مارتن بأنّهم لن يفعلوا ذلك، ثمّ استدار نحو جنيفر رمز الانتقام لديه على امتداد عدّة أشهر ساخنة. وبدعم من جنيفر زمجر المدّعي العامّ من شدّة الغضب، بما أنّهما كانا سيمنعان المؤتمر من كتابة دستور جديد تماما.

كان جنيفر يكبر مارتن بخمسة وعشرين عاما، وكان قد تفاوض مع جورج مايسون في مؤتمر ماونت فيرنون منذ سنتين خلتا. عند هذه اللحظة من المؤتمر لم يعد جنيفر يتحمّل نزعة مارتن العدائيّة. أجاب ببرود شديد: إنّ دعم مارتن سيكون «عديم الجدوى».

«التمس ماك هنري من السادة المندوبين الحفاظ على النظام». وأظهر تعاطفه مع مارتن، وتمنّى أن تعود مريلاند بالمؤتمر إلى نظام الصوت الواحد للولاية الواحدة الوارد في البنود. وألحّ على أنّه في صورة فشل ذلك الجهد «ينبغي أن نتّفق على جعل النظام الوارد في التقرير أقرب ما يمكنُ إلى الكمال».

اعترض كارول على ذلك مؤكّدا أن مجرّد تعديل البنود لن يكون أمرا كافيا. وفي إطار بحثه المتواصل عن الإجماع قال ماك هنري معترضا: إنّ التعديلات قد «تنعش هذا النظام بما يكفي ليتواءم مع متطلّبات الوقت». وقد دفع ذلك مارتن وجنيفر إلى التعبير عن عدم موافقتهما، وإن كان ذلك من زاويتين مختلفتين. ردّد جنيفر موقف كارول، فيما أراد مارتن

تعديلا طفيفا جدّا للبنود. فالأمريكيّون لا يحتاجون إلا «إلى كنفدرالية ليستطيعوا العمل معا في حالات الطوارئ القوميّة». ولمّا استحال الاتّفاق على المسائل الكبرى اقترح ماك هنري أن يجتمع المندوبون مجدّدا لدراسة قضايا خصوصيّة حول تقرير اللجنة.

في اليوم التالي من المؤتمر عرض ماك هنري على الآخرين بعض التعديلات المخصوصة على تقرير اللجنة (كان عدد مندوبي مريلاند قد انخفض إلى أربعة، بما أن مارتن غادر إلى نيويورك ذلك الصباح). عبّرت مقترحات ماك هنري عن مصالح مريلاند باعتبارها ولاية صغيرة مالكة للعبيد ولها تجارة نشطة عبر ميناء بلتيمور.

أراد ماك هنري لمجلس الشيوخ أن يملك سلطة موازية لإصدار القوانين في قضايا الجباية وإنفاق الأموال («الأوراق الماليّة»)، وإن كانت تسوية الدكتور فرانكلن في الرابع من يوليو قد خصّت مجلس النواب بتلك السلطة. واقترح أيضا ألا يتمّ «سنّ أيّ قانون ملاحي» إلا إذا صوّت ثلثا ممثلي كلّ ولاية لصالح ذلك القانون. وسيرفع هذا المقترح من سقف العراقيل في وجه هذا التشريع إلى مستوى أعلى حتّى من ذاك الذي أدرجه راتليدج والقاضي بأنّ قوانين التجارة تُسنُّ بأغلبيّة الثلثيْن في كلّ من غرفتَيْ الكونغرس.

وفي ردّ إيجابي على مقترحات ماك هنري، وافق المريلانديّون على انعقاد اجتماع آخر ذلك المساء.

في غياب مارتن النزّاع إلى القتال دار الاجتماع الثاني في جوّ أكثر هدوءا. وصل ماك هنري أوّلا، ووجد كارول وحيدا عند الساعة الخامسة. اتّفق الرجلان على أنّ منح المجلس الحقّ الحصري في جمع الأموال وإنفاقها سيلحق ضررا بالغا بالولايات الصغرى قد يؤدّي إلى تحطيم الاتّحاد. واتّفقا أيضا على الحاجة إلى تشديد القيود على قوانين الملاحة لحماية «المصالح التجاريّة الأعزّ» على مريلاند. «كاد المريلانديّون يرتجفون» من الفكرة القائلة بمنح الكونغرس سلطة بلا قيود لفرض الضرائب وتنظيم التجارة. لم يكن بوسعهم أبدا دعمُ تلك الفكرة. كانوا يخشون بشدّة أن تؤمّن فرجينيا تشريعا يشترط على السفن التوقّف في نورفولك قبل أن تتابع سيرها في خليج شيسابيك.

عندما وصل جنيفر وافق على مساندة مقترحات ماك هنري مثلما فعل ميرسر عند وصوله. ولكنّ ميرسر ألحّ أمام المؤتمر على «أنّ هذا النظام لم ينل إعجابه». فبعد حضور المؤتمر طيلة يومين كاملين كان الرّجل الشابّ متأكّدا من قدرته على «إنجاز شيء أفضل من ذلك».

لم يسجّل ماك هنري أيّ مداولات أخرى لمندوبي مريلاند، ربما لأنّه ثبت أن نتائجها لم تكن ذات شأن، ولم يعرض مقترحاته على المؤتمر لأنها كانت على الأرجح بعيدة جدّا عن اتّجاهه. كانت تسوية فرانكلن فيما يخصّ التمثيل لا تزال إلى حدّ ذلك الوقت صامدة، في حين أن الصيغة النهائيّة للدستور ستقوّي من سلطة الحكومة القوميّة على التجارة ولن تُضعفها، وهي خطوة لا بدّ أن تكون دفعت المريلانديّين إلى الشعور بما يفوق الارتعاش، شعور مباشر بالرجفة والصدمة.

جاءت المساهمة الوحيدة والملموسة لولاية مريلاند في المؤتمر في اليوم الأخير من المداولات حين تحرّك ماك هنري من أجل تحسين حالة الموانئ والملاحة الذي تحتاج إليه شيسابيك. ومثلما كان قد فعل منذ سنتين في مؤتمر ماونت فيرنون، أيّد جورج مايسون مندوبي مريلاند، ونجح المقترحُ.

لم يحجب ذلك الإنجاز حالة الاضطراب التي كان عليها وفد مريلاند. فلا ميرسر ولا مارتن وقعا على الدستور رغم إمضاء الثلاثة الآخرين عليه. لقد تمّ الوقوف على المشاعر الصعبة المتولّدة عن الأيّام التي تعذّر فيها الاتّفاق في محادثة وقعت بين مارتن وجنيفر.

قل مارتن لجنيفر مشيرا إلى الصيغة النهائيّة للدستور: «سأتعرّض للشنق إذا عنّ لسكّان مريلاند أن يوافقوا عليها ذات يوم». وردّ عليه جنيفر: «أنصحك إذن أن تبقى في فيلادلفيا خشية أن تشنق».

برهن جنيفر على صحّة قوله، إذ صادقت ولاية كاليفورنيا على الدستور بفارق كبير.

في لحظة فارقة من التاريخ عاد المندوبون في 7 أغسطس مدفوعين بالإحساس بالواجب إلى مسوّدة لجنة راتليدج. كما فعلوا مع خطّة فرجينيا شرعوا من البداية ووقفوا عند كلّ فقرة

مناقشين ومصوّتين على التعديلات ثمّ مصوّتين على كلّ فقرة سواء عُدّلت أو لم تعدّل. كانت كثير من المسائل تستحقّ أيّاما من التحليل، لكنّ الوقت لم يكن متيسّرا لذلك. فإذا استعصت خصومة على الحلّ تجاوزوها. الدارسون وحدهم يحتاجون إلى فهرسة كلّ قضيّة عالجها المندوبون خلال أغسطس، لكنّ بعضها يظلّ ذا أهمية بالغة، بدءا بسؤال إلى أيّ حدّ ينبغي أن تكون الحكومة الجديدة ديمقراطيّة؟

في 7 أغسطس اشترط الحاكم موريس توفّر أصول ملكيّة للتصويت في الانتخابات الوطنيّة. قال: يجب أن يصوّت مالكو الأرض وحدهم كما جرى العمل به في عدّة انتخابات ضمن الولايات. كان استدلاله ملتويا: قال إنّ الديمقراطيّة الحقيقيّة تتطلّب حرمان الذين لا ملكيّة لهم من التصويت وإلاّ فإنّهم «سيبيعون الأغنياء أصواتهم».

اعترض على موريس من لجنة راتليدج ويلسون وإلسوورث كلاهما، وفعل مثلهما الدكتور فرانكلن. وضع راتليدج حدّا عنيفا للمناقشة عندما نعت قرار موريس بـ«غير المنصوح به جدّا» لأنّه «قد يحدث انقساما في صفوف الشعب ويصنع» من أولئك الذين حُرموا من التصويت «أعداء».

غير أنّ الكارولينيّين الجنوبيّين بدأوا بعد ثلاثة أيام يتحرّكون من أجل اشتراط الملكيّة في أولئك المحتلّين لمناصب قوميّة. ألحّ شارل بينكني على أنّ الرئيس يجب أن يكون حائزا على 100,000 دولار من الملكيّة وأن يحوز القضاة وأعضاء الكونغرس نصف ذلك المبلغ، فإنّ ذلك سيضمن أن يكون أولئك المسؤولون «مستقلّين ومسؤولين». دعّم راتليدج هذا الرأي مبيّنا أنّ لجنته لم تضمّن مثل هذا الشرط لأنّها «كانت محرجة من الخطر المتأتّي من جهة أولى من الإساءة إلى الشعب برفع سقف الاشتراطات ومن جهة ثانية من جعل تلك الاشتراطات تافهة بخفضها».

قلّل الدكتور فرانكلن من المقترح بواسطة التهكّم. ذكر أنّه لاحظ أنّ «حوز الملكيّة زاد من الرغبة في مزيد من الملكيّة»، وأنّ «بعض أكبر الأوغاد الذين كان على معرفة بهم كانوا أثرى الأوغاد». رُفض قرار ساوث كارولينا «بـ لا ساحقة» إلى درجة أنّه لم تتمّ المناداة على

الولايات للتصويت.

كانت معركة جيمس ويلسون التي خاضها باسم المهاجرين أمثاله من أجل الحدّ من مدّة الإقامة المشروطة لتقلّد المناصب الرسميّة أشدّ ضراوة. اشترط تقرير اللجنة ثلاث سنوات فقط من الإقامة بالنسبة إلى أعضاء مجلس النوّاب وأربع سنوات بالنسبة إلى مجلس الشيوخ. تحدّى جورج مايسون الشرط في 8 أغسطس. ورغم تفضيله «فتْح الباب واسعا أمام للمهاجرين» فإنّه لم يكن راغبا في أن يقوم «الأجانب والمغامرون بسنّ القوانين لنا وحُكمِنا». أيّدت كلّ الولايات باستثناء واحدة اشتراط سبع سنوات لدخول مجلس النوّاب.

في اليوم التالي ألحّ الحاكم موريس على أربع عشرة سنة من الإقامة لدخول مجلس الشيوخ. ووفّر الرائد بتلر من جنوب كارولينا وهو مهاجر إيرلندي دعما مفاجئا. قال للمندوبين: لو كان تقلّد مسؤوليّة عند وصوله إلى أمريكا «لكانت عاداته الأجنبيّة وآراؤه وارتباطاته قد جعلته موظّفا غير صالح في الشؤون العامّة».

جعل ويلسون من المسألة قضيّة شخصيّة. لاحظ أنّه كان مهاجرا، وهي حقيقة تتجلّى دائما من لكنته، وأبدى انزعاجه من إمكانيّة أن «يجرَّد من حقّ احتلال مكان في ظلّ الدستور نفسه الذي كان ويلسون أحد من عُهِدَ إليهم صنعُهُ». روى ويلسون أنه حين كان يعيش في مريلاند وضعته صفته كمهاجر «تحت بعض حالات العجز القانوني التي لم تكفّ عن توليد الحزن في نفسه». فحتّى لو لم يكن المرء راغبا في المناصب العموميّة فإنّ «كونه ممنوعا من التسميةِ مؤذٍ له».

وعندما أُفْشِلَ مقترح الأربع عشرة سنة ألحّ راتليدج على وجوب أن تكون مدّة الإقامة المشترطة لدخول مجلس الشيوخ أطول من السبع سنوات التي أقِرّت في مجلس النوّاب. وبناء على ذلك تمّ فرض اشتراط تسع سنوات.

سوف لن يلين ويلسون. فبعد أربعة أيام حاول اختصار اشتراط دخول المجلس إلى أربع سنوات. بدعم من ماديسون وهاملتون (وهو مهاجر آخر) أشار ويلسون إلى أنّ كلّ قادة بنسلفانيا طيلة الثورة كانوا أجانب بالمولد مثلما كان ثلاثة من مندوبيها إلى المؤتمر. وتلا من

دستورها ما يفيد منحه المهاجرين حقوقا كاملة بعد سنتين من الإقامة. لكنه لم يحرز أيّ تقدّم، وظلّت اشتراطات الإقامة دون تغيير.

انتهت حملة أخرى إلى الفشل في أغسطس ذاك. وعلى امتداد أسابيع حاجّ ماديسون من دون نجاح في وجوب أن يتمتّع الكونغرس بسلطة نقض قوانين الولايات. اهتمّ الشابّ شارل بينكني بالقضيّة في 23 يوليو. ومن أجل تجنّب تصويت فوري على الفقرة المثيرة للاختلاف اقترح ماديسون إيكالها إلى لجنة تدرسها. لم يكن المعترضون على الإجراء محتاجين إلى أيّ دراسة إضافيّة. تساءل مايسون إن كان كلّ طريق أو جسر في البلاد يجب أن يكون موضوعا لفيتو الكونغرس؟ كان جون راتليدج قاطعا. إنّ هذه الفقرة بتقييدها الولايات «من اليدين والرجلين ستفسد الدستور، وينبغي لها ذلك». وقد رفض المندوبون بهامش ضيّق إحالة المسألة على لجنة.

لم يكن هذا الرفض يعني أنّ الولايات تستطيع تجاهل الدستور الجديد. فبمنحه المحاكم الفدرالّة «السلطة القانونيّة» لتطبيق الدستور، أسند المؤتمر إلى تلك المحاكم مهمّة مراجعة قوانين الولايات فيما يتعلّق بالانتهاكات الدستوريّة. كانت محاكم الولايات قد باشرت بعدُ بتطبيق دساتير الولايات على تلك القوانين، وتوقّع أغلب المندوبين (وإن لم يكونوا كلّهم) من المحاكم الفدرالية أن تقوم بمراجعة مماثلة.

في قضيّتين اثنتين، قاد عنصرا المال والسلطة الفاتنان المندوبين إلى طرق مسدودة. القضيّة الأولى افتتحها ذلك العنيد المؤجّج للفتن الحاكم موريس. اقترح المندوب البنسلفاني يوم الخميس 16 أغسطس إلغاء سلطة الكونغرس «على إطلاق الأوراق الماليّة باسم الولايات المتّحدة». ورغم ضبابيّة العبارة بالنسبة إلى القارئ الحديث فإنّ موريس رمى إلى منع الحكومة القوميّة من إصدار الأوراق الماليّة.

عارض قلّة من المندوبين الفكرة، لكنّ أكثرهم تنافسوا على التصفيق لها. كان الرائد بتلر ملحّا في تأييده، بينما فضّل مندوب من نيوهمشاير رفض الدستور على الاحتفاظ بعبارات «وإطلاق الأوراق الماليّة». وخطب مندوب من ديلاوار قائلا: إنّ تلك الكلمات الثلاث إذا

لم تحذف «ستكون مرعبة إرعاب سمة الوحش الأسود المذكورة في سفر الرؤيا».

بتبنّيهم مقترح موريس، اعتقد كثير من المندوبين موقنين أنّهم أعاقوا الحكومة الوطنيّة عن إصدار الأوراق الماليّة. لكنه اتّضح أنّ الأمور لم تأخذ ذلك المنحى. لقد أبطل المؤتمر سلطة الكونغرس على إصدار الأوراق الماليّة، لكنّه لم يحظر عليه بالفعل القيام بذلك.

اتّخذ المؤتمر تلك الخطوة الإضافيّة تجاه الولايات منكرا عليها سلطة إصدار الأوراق الماليّة في تصويت قُصِد منه بعبارات روجر شيرمان «سحق الأوراق الماليّة». ترك المندوبون من خلال عدم إنكارهم هذه السلطة على الكونغرس الادّعاء بأنّ السلطة كانت تملك صلاحية ضمنيّة لاتّخاذ الإجراءات «الضروريّة والمناسبة» (أدرجها ويلسون في مسوّدة اللجنة) مسألة مفتوحة. بعد سبع وتسعين سنة كان ذلك بالضبط هو ما أخذت به المحكمة العليا مبيحة «سمة الوحش الأسود» على حقائب الأمريكيّين.

تركّزت نقطة التقاطع الثانية بين المال والسلطة على ما إذا كان ينبغي أن يتفرّد مجلس النوّاب بسلطة ضرب المكوس وصرف الأوراق الماليّة. كانت تلك السلطة الحصريّة جزءا من التسوية التي توسّط فيها الدكتور فرانكلن ضمن اللجنة الأحد عشرية الأولى. كان المقصود منها مكافأة الولايات الكبرى لقبولها بمبدإ الصوت الواحد للولاية الواحدة في مجلس الشيوخ. إنّ منح المجلس سلطة إصدار الأوراق الماليّة من شأنه أن يقوّي الولايات الكبرى ممّا قد يؤدّي إلى هيمنته على ذلك الفرع من الكونغرس.

بدأ الغموض يظهر يوم الأربعاء 8 أغسطس عندما تحرّك الشاب بينكني لإلغاء فقرة الأوراق الماليّة «باعتبارها لا تحقّق أيّ فائدة خاصّة لمجلس النوّاب، وتعيق عمل الحكومة». ساند ماديسون وويلسون زعيمَا الولايات الكبرى الكاروليني الجنوبي. صرف ماديسون النظر عن الفقرة باعتبارها «مصدرا للمشاحنات المؤذية بين مجلسي» الكونغرس، فأُسقطت بتصويت 7–4 مع تأييد فرجينيا وبنسلفانيا وساوث كارولينا الأعضاء السابقين في تحالف الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة.

انزعج مندوبو ولايات أخرى كبيرة، فطالب راندولف مندوبُ فرجينيا بإعادة النظر في

فقرة الأوراق النقديّة. وبعد أن أقرّ بأنّه لا يكترث بها كثيرا ألحّ على أنّ الولايات الكبرى ينبغي أن تحصل على الأقلّ على ما كانت وُعدت به في تسوية فرانكلن. قدّم مايسون حجّة أكثر مبدئيّة: إنّ مجلس النوّاب مثله مثل مجلس العموم سينتخبه الشعب وينبغي أن يسيطر على المسائل الماليّة.

تجنّب ويلسون وماديسون مطلب راندولف. وانحدر جون راتليدج إلى اللغة السوقيّة حين نعت الفقرة بكونها محاولة «لتهييج» الجمهور و«مجرّد مركب للحوت»، محيلا على عادة البحّارة في القذف بمركب في الماء لإلهاء الحوت عن الإضرار بسفينتهم.

قال إنّ ساوث كارولينا كان لها مثل هذا الاشتراط، ولكنّه لم يكن فاعلا. جاء في تصريحه: «إذا كان تعديل مجلس الشيوخ مرضيا للمجلس الآخر فإنّهم يغضّون الطرف عن العدوان. وإن لم يَرُقْ لهم فإنّهم يستنجدون بالدستور».

لاحظ جون ديكنسون من ديلاوار أنّ ثمانية دساتير ولائيّة تضمّنت مثل هذه الفقرة، كما كان الشأن بالنسبة إلى بريطانيا العظمى. واحتكاما إلى نظام العرف الذي يشاطره في اعتماده عديد المندوبين ألحّ على «أنّ التجربة يجب أن تكون دليلنا الأوحد. فالعقل يمكن أن يغالطنا».

أضاف ديكنسون مسألة سياسيّة. فقال: في معركة التصديق «ستكون كلمة السرّ هي الأرستقراطيّة؛ شارة خصومها السرية». فبتفضيلها مجلس النوّاب الديمقراطي على مجلس الشيوخ الأرستقراطي فإنّ فقرة الأوراق الماليّة ستطمئن الشعب.

لقد تفوّق العقل على التجربة. ففي 13 أغسطس سقطت فقرة الأوراق الماليّة بتصويت 4–7 وبصفة خاصّة دعّمت فرجينيا الآن الفقرة بانضمام الجنرال واشنطن إلى راندولف ومايسون للفوز على ماديسون في التصويت.

ولكن بعد يومين تحصّل راندولف على دعم راتليدج لصالح الفقرة بعد أن أقنعه بأنّها لم تكن فقّاعة أو مركبا للحوت. أجّل المؤتمر القضيّة. ومثل قضايا أخرى كثيرة جدّا ستنتهي

القضيّة أمام لجنة الأقساط المؤجّلة.

مع تقدّم أغسطس بدأت الفقرات الموالية للجنوب في تقرير لجنة راتليدج تبرز باعتبارها العائق الأساسي أمام تقدّم المؤتمر. لقد تمّت تلبية كلّ رغبة من رغبات الجنوبيّين، لكنّ النزاع لم يتوقّف. ظلّ الفيل نفسه قابعا في قاعة الاستقبال، ولكنّ شيئا ما تغيّر. أصبح مندوبو الولايات غير العاملة بنظام العبوديّة يريدون الآن مواجهته.

الفصل السادس عشر

لعنة السماء

8 – 29 أغسطس

مثلما حدث في الماضي، برزت مسألة العبوديّة بطريقة جانبيّة. ففي اليوم الثاني من مناقشة تقرير لجنة راتليدج، كان المؤتمر بصدد معالجة مسألة تحديد المقاعد في مجلس النوّاب. وقد أراد أحد المندوبين الشماليّين توضيح كيفيّة تطبيق نسبة الثلاثة أخماس، وتمّ تبنّي مقترحه. تعرّف الجنرال على روفوس كينغ مندوب ماساتشوستس. كان كينغ غاضبا، قال وهو يقذف بكلماته اللاذعة: إنّ نسبة الثلاثة أخماس: «هي الحالة الأكثر إزعاجا».

كان كينغ من الأشخاص الذين وُلِدوا محظوظين. رجل متوسّط القامة، أسمر، وسيم، ذرب اللسان. وُلِد في عائلة ثريّة تتعاطى التجارة، وتزوّج امرأة أكثر ثراء. ورغم أنه لم يبلغ من العمر إلا اثنين وثلاثين عاما، فإن هذا المحامي الذي تلقّى دراسته في جامعة هارفارد أحرز تقديرا عاليا في المؤتمر. سجّل أحدُ المندوبين وجود «شيء قويّ وثريّ على نحو متميّز في طريقة تعبيره، شيء واضح ومقنع في حججه». منذ الفترة التي عمل فيها في الكونغرس الكنفدرالي كان كينغ معروفا بمعارضته للرقّ، وقد أسهمت جهوده الرامية إلى إلغاء العبوديّة من قطاع الشمال الغربي في وضع أسس معجزة إبسويتش. ولأنّه كان عمليّا بالطبع فقد كان يتّخذ في العادة مواقف تراعي مشاعر الآخرين. لكنّه أحسّ يوم الأربعاء 8 أغسطس بعد استيعاب الفقرات المساندة للجنوب في مسوّدة الدستور، بحرارة في جسمه تضاهي حرارة طرقات الآجرّ خارج دار الولاية.

قال كينغ للمندوبين إنّه مستعدّ للقبول بنسبة الثلاثة أخماس ثمنا لإنشاء حكومة وطنيّة

قويّة. لقد «وضع» تقرير لجنة راتليدج «حدًا نهائيًا لكلّ هذه الآمال» بضمان تواصل توريد العبيد وحظر الضرائب على الصادرات. انطوت النتيجة على «قدر هائل من الحيف واللامعقوليّة» إلى درجة أنّ «الولايات الشماليّة لن تستطيع البتة أن تتصالح مع نسبة الثلاثة أخماس».

لم يكن كينغ مستعدًا للذهاب إلى ما هو أبعد من حذف العبوديّة. كانت شكواه تتمثّل في أن الجنوب يحصل على ما يفوق الحدّ اللازم: إذ زادت نسبة الثلاثة أخماس من قوّة الجنوب، ووفّر حظر الضرائب على الصادرات حماية لاقتصاده، كما ضمنت تجارة العبيد الحفاظ على نظامه القمعي. لقد كان ذلك فوق طاقة تحمّل كينغ. كان يرجو «أن يتمّ على الأقلّ تحديد الفترة الزمنيّة لتوريد العبيد –فلم يكن قادرا على السماح بتوريدهم من دون حدود زمنيّة– وأن يتمّ تمثيلهم بعد ذلك في الهيئة التشريعيّة».

رغم شدّة لهجته صرّح كينغ بأنّه مستعدّ لعقد صفقة، وأضاف: ربّما أمكن إسقاط نسبة الثلاثة أخماس، أو إخضاع الصادرات للضريبة.

حاول روجر شيرمان تهدئة الأجواء، لكنّ هذا المندوب الفظّ من ولاية كونكتكوت أقرّ بأنّ تجارة العبيد «عمل شرّير». لقد كانت كذلك بالطبع. لكنّه أصرّ على أنّ المؤتمر كان قد تبنّى نسبة الثلاثة أخماس منذ زمن بعيد، لذلك لا يمكن تحدّي هذا القرار الآن.

لم تؤثّر كلمات شيرمان الناعمة في الحاكم موريس. حفّزت سَوْرَةُ غضب كينغ البنسلفانيَّ على الانتصاب على ساقه الخشبيّة وقد طفحت نفسه حنقا وإحساسا بأنه على صواب. فاقترح أن يقع إسناد عدد الممثّلين بحسب «عدد المواطنين الأحرار»، شاطبا بذلك نسبة الثلاثة أخماس. وصرّح بعد ذلك بأنّه «لن يوافق على دعم العبوديّة المحلّية». لقد ألقى أوّل خطاب داع إلى إلغاء العبوديّة في الحياة السياسيّة الأمريكيّة.

أعلن شيرمان أنّ العبوديّة «مؤسّسة مشينة: إنّها لعنة السّماء على الولايات التي تسودها هذه الظاهرة». وعلى النقيض من الولايات التي لا يوجد بها عبيد والتي تنعمُ بالرخاء والنظام، جلبت العبوديّة «الشّقاء والفقر» لـ«لأراضي القاحلة في فرجينيا ومريلاند والولايات الأخرى

التي يوجد بها عبيد». لخّص شيرمان بمرارة تأثير نسبة الثلاثة أخماس:

إنّ مواطنَ جورجيا أو ساوث كارولينا الذي يذهب إلى ساحل إفريقيا، ويجتثّ، في تحدّ لأقدس القوانين الإنسانيّة، إخوته البشر من أعزّ روابطهم، ويحكم عليهم بأقسى أنواع العبوديّة، سيحصلُ على عدد أوفر من الأصوات في حكومة أنشئت لحماية الحقوق البشريّة مقارنة بمواطنِ بنسلفانيا أو نيوجيرسي الذي ينظر برعب حميد إلى هذه الممارسة المشينة.

سأل شيرمان: وما الذي كانت الولايات الشماليّة ستحصل عليه مقابل ذلك؟ فبسبب خطر انتفاضات العبيد، يجب أن توفّر الميليشيّات في الشمال حماية للولايات الجنوبيّة من «أولئك العبيد أنفسهم». سيدفع الشماليّون ضرائب على التوريد بينما يستورد الجنوبيّون مزيداً من العبيد دون دفع الرسوم الجمركيّة. وهكذا «ستزداد أصواتهم في الحكومة الوطنيّة»، وستنمو صادراتهم غير الخاضعة للضرائب. ثمّ أعلن بتأنّق بلاغي أنّه يفضّل دفع ضريبة لشراء كلّ عبد «على رهن مستقبل الأجيال القادمة بمثل هذا الدستور».



الحاكم موريس (بنسلفانيا)

لم يساند موريس إلا صوت واحد. فقد قام جوناثان دايتون مندوب نيوجيرسي وأصغر رجل سنّا في القاعة بدعم مقترحه.

حاول روجر شيرمان مرّة أخرى التخفيف من ضغط الوضع، مستعملا حججا غير منطقيّة قاربت مستوى الهراء. فقد أكّد للمندوبين أنّ نسبة الثلاثة أخماس تعني فقط «أنّ الرجال الأحرار في الولايات الجنوبيّة» سيمثّلون «حسب الضرائب التي سيدفعونها، ولن يتمّ تضمينُ الزنوج إلا في إطار العمليّة التقديريّة للضرائب». لم يشر أيّ كان إلى المغالطة المزدوجة في ملاحظة شيرمان: فالعبيد لم يكونوا ضرائب، والرجالُ الأحرار في الشمال لن ينالوا تمثيلا على أساس الضرائب التي دفعوها.

لقد وقع التطرّق إلى المسألة في مقترح موريس. ولم يكن المدافعون عن العبوديّة في حاجة إلى حجج متناسقة، فلم تصوّت بنعم سوى نيوجيرسي.

هدأت في الوقت الحاضر العاصفة المتعلّقة بالعبوديّة، ولكنّ الشماليّين لم يشعروا بالتعب. لقد قاد جون راتليدج لجنته ليعطي الجنوب كلّ شيء يريده. ولم تكن طبيعته تسمح بأقلّ من نصر كامل، لكنّه بالغ في طموحه، فأخفق، منتهكا بذلك القاعدة الأساسيّة لهذا المؤتمر: لا أحد يستطيع الحصول على كلّ ما يريدُ.

بتركيز نيرانه على تجارة العبيد، هاجم موريس الفقرات الأكثر هشاشة المتعلّقة بمناصرة الجنوب. كانت وحشيّة الانتقال من إفريقيا ونسبة الوفاة المرتفعة بين المستعبدين موضوع تشنيع على نطاق واسع. فأثناء انعقاد المؤتمر قدّمت مجلّة من فيلادلفيا وصفا مؤثّرا للرحلة:

يسرّع تموّج البحر من زفرات القلوب، وتفلت الأرواحُ المتنهّدة من أجسادها! ... أنّات مائة رجل، وتحسّر مائة امرأة، وصيحات مائة طفل، هي شيء واحد! ... يسودُ الصمتُ، وتُلقَى الجثث لأسماك القرش المترصّدة ذات الفكوك المفترسة التي أشبعت بلحم البشر! الأسواق في الغرب مليئة بالعبيد. وآباء القمع موجودون هناك: قلوبهم المتحجّرة تعتبرهم دوابّ لحمل الأثقال.

بالإضافة إلى ذلك، كان تحدّي تجارة العبيد باعتباره موقفا سياسيّا أيسر من إلغائها عمليّا.

إذ لم يُهدّد هذا التحدّي مالكي العبيد بخسائر اقتصاديّة فوريّة، ولم يُثر الإشكالَ المحيّر المتعلّق بما يُمكنُ أن يُصْنَع بالسود الذين كانوا عبيدا سابقا في مجتمع يعرِّف نفسه بأنّه أبيض. وأخيرا فإنّ إنهاء تجارة العبيد قد يُبطّئ انتشار العبوديّة إلى أن يتيسّر تدبير سياسة أخرى لنقضها.

حتّى في الجنوب، كانت السياسات المتعلّقة بتجارة العبيد معقّدة. فبحلول صيف 1787، كانت جورجيا ونورث كارولينا هما الولايتان الوحيدتان اللتان تسمحان بتوريد العبيد. وقبل انطلاق المؤتمر بثلاثة أسابيع بالضبط، نقلت صحيفة إيفنينغ كرونيكل الصادرة في فيلادلفيا أنّ ساوث كارولينا ألغت توريد العبيد مدّة سنتين. فبعد خسارة كثير من العبيد أثناء الثورة، غرق مزارعو تلك الولاية في الديون إلى الأذقان من أجل إعادة تموين مزارعهم. وعندما هبطت أسعار النيلة تخلّف المزارعون عن سداد ديونهم، وانهارت مداخيل التجّار. وهكذا من أجل إصلاح سمعة الولاية المشروخة وميزان التجارة –وإنقاذ المزارعين من أنفسهم– أساسا دفع المُشرّعون باتّجاه إنهاء توريد العبيد.

لم تُعْدَمْ تجارة العبيد مدافعين عنها. فقد كان الجنرال بينكني يتكلّمُ باسم الكثيرين حين أعلن سنة 1788 التزامه بها:

طالما ظلّت هناك أُكرة واحدة من المستنقعات من دون تطهير في ساوث كارولينا، سأرفعُ صوتي ضدّ تقييد توريد الزنوج. إنّني مقتنع تماما مثل ذلك السيد النبيل، بأنّ طبيعة مناخنا وأرضنا المنبسطة والكثيرة السباخ تفرضُ علينا فلح أراضينا بواسطة الزنوج، وأنه من دونهم ستغدو ساوث كارولينا قريبا أرضا يبابا.

في الملاحظات نفسها أكّد الجنرال بينكني أنّ عديد المندوبين الحاضرين في المؤتمر اعترضوا على تجارة العبيد، وقد ردّ ذلك إلى «التحامل الديني والسياسي لولايات الشرق والوسط»، في الوقت الذي كانت فرجينيا «تعترضُ بقوّة على استيرادنا لمزيد من العبيد».

رغم هشاشة تجارة العبيد ورغم كلمات موريس الناريّة، مرّت أيّام عديدة من دون إشارة إضافيّة إليها. لقد مرّ أسبوعان تقريبا قبل أن يصل المندوبون إلى موضوع حظر الضرائب على الصادرات الوارد في تقرير لجنة راتليدج.

كان يوم الثلاثاء 21 أغسطس يوما حارّا وممطرا من أيّام فيلادلفيا التي لا تنضب على ما يبدو من الحرارة الخانقة. وعندما تحرّك بعض المندوبين لتخفيف الحظر على الضرائب المفروضة على الصادرات، ردّ الجنوبيّون بتوجيه إنذارات نهائيّة صارمة. فقد «عارض» الرائد بتلر «بشدّة» الضرائب على الصادرات، فيما تكهّن أحدُ الكارولينيّين الشماليّين بأنّ منح الكونغرس سلطة فرض مثل هذه الضرائب «سيدمّرُ آخر أمل في تبنّي الدستور». لقد أفشلت الولايات الخمس العاملة بنظام العبوديّة وحلفاؤها من كنكتكوت مقترحا يسمح للكونغرس بفرض مثل هذه الضرائب بأغلبيّة ثلثي الأصوات.


TO BE SOLD on board the Ship *Bance-Yland*, on tuesday the 6th of *May* next, at *Ashley-Ferry*; a choice cargo of about 250 fine healthy

NEGROES,

just arrived from the Windward & Rice Coast. —The utmost care has already been taken, and shall be continued, to keep them free from the least danger of being infected with the SMALL-POX, no boat having been on board, and all other communication with people from *Charles-Town* prevented.

Austin, Laurens, & Appleby.

N. B. Full one Half of the above Negroes have had the SMALL-POX in their own Country.

إعلان عن عمليات بيع للعبيد (1770)

حافظ الجنوبيّون على حظر الضرائب على الصادرات، وكانوا محصّنين من قبل أحد أبنائهم. وإثر عودة لوثر مارتن من رحلته إلى نيويورك، رسّخ عن نفسه صورة المندوب الأقلّ اهتماما بإزعاج زملائه. في نهاية الجلسة يوم 21 أغسطس، بدأ يتكلّمُ باعتباره شماليّا.

وقد جادل لصالح فرض ضريبة على الواردات من العبيد أو إلغاء تجارة الرقّ. وأصرّ على أنّ المتاجرة بالبشر «لا تنسجمُ ومبادئ الثورة، وتجلبُ العار للشخصيّة الأمريكيّة».

سارع راتليدج إلى الدفاع عن العبوديّة. وكانت كثافة ردّه تعكس الخطر الذي يمثّله مقترح مارتن. لم يتناول راتليدج مبادئ أخلاقيّة، إذ لم يكن ذلك أسلوبَهُ، وكانت تلك الأمور بعيدة عن الأرضيّة الأكثر صلابة التي يقف عليها. بدل ذلك، أخذ راتليدج يتحدّث في السياسة والمال بجدّ. قال متحدّيا كلّ مندوب: «ليس للدين والإنسانيّة أيّ علاقة بهذه المسألة».

المصلحة وحدها هي المبدأُ المتحكّم في الأمم. إنّ السؤال الحقيقي الآن هو ما إذا كانت الولايات الجنوبيّة ستشكّلُ جزءا من الاتّحاد أم لا. فإذا كانت الولايات الشماليّة تراعي مصالحها فلن تعترض على زيادة العبيد، إذ سيزيدُ ذلك من كمّية البضائع التي سيصبحون هم حامليها.

نأى راتليدج بالمندوبين عن أخلاقيّة قضيّة الرقّ، ونقلهم إلى واقع عالم السياسة الوحشي. لم يكن للولايات الأخرى أيّ خيار. فإذا كانت ترغب في أن تكون ساوث كارولينا في الاتّحاد يجبُ عليها أن تتراجع عن طلب إلغاء الرقّ. وإذا فعلت ذلك، ستكسبُ المال.

ساندت كونكتكوت مرّة أخرى الجنوب. فقد أيّد أوليفر إلسوورث نظرة راتليدج الباردة، وقال: «إنّ أخلاقيّة الرقّ أو حكمته» «اعتبارات تعود إلى الولايات نفسها»، إذ ليست الحكومة الوطنيّة بحاجة إلى الاهتمام بمسألة العبوديّة.

وافق آخرُ متكلّم في ذلك اليوم، وهو تشارلز بينكني، على أنّ ساوث كارولينا لن تنضمّ إلى بلد يحظر تجارة الرقّ (رغم إلغاء تجارة العبوديّة الذي كان سائدا آنذاك). وأضاف قائلا: «إذا تُركت الولاية وشأنها في هذا الموضوع فقد تُقدم على إلغاء التجارة من تلقاء نفسها».

في اليوم التالي من صباح 22 أغسطس، وقد ازداد فيه الجوّ اعتدالا، بدأ المندوبون في ممارسة ملحوظة للنفاق الجماعي. غير أنّ الهجوم على العبوديّة استؤنف من جانب آخر غير متوقّع: انتصب جورج مايسون مندوب فرجينيا ومالك بضع مئات من العبيد لإدانة

التجارة، «هذه المتاجرة الجهنّمية». وفي ترديد لتذمّر موريس، قال مايسون للمندوبين إنّ تجارة الرقّ تؤذن «بإنزال قضاء السماء» على أمريكا:

بما أنّ الأمم لا يمكن أن تُكافأ أو تُعاقب في العالم الآخر، فيجب أن يتمّ ذلك في هذا العالم. فبواسطة سلسلة الأسباب والنتائج التي لا يمكن تجنّبها، تُعاقب العناية الإلهيّة على الخطايا القوميّة بالكوارث القوميّة».

لم يشعر مايسون بأيّ حرج بخصوص ممتلكاته الخاصّة من العبيد. بل ألقى اللوم على البريطانيّين والنيوإنجلنديّين لـ«طمعهم في الربح» الذي أطال أمد «هذه المتاجرة الشنيعة».

أجهد روجر شيرمان وأوليفر إلسوورث، ذانك الرجلان المَرِنان من كنكتكوت، نفسيهما لتحاشي الهجوم. فقد كرّر شيرمان بإخلاص معارضته لتجارة الرقّ، ولكنّه أنكر أن تكون «المصلحة العموميّة» تتطلّبُ نهاية لها. لقد تكهّن الرجل الذي كان يرتدي عدسات ورديّة اللون بأنّ «الفطرة السليمة للولايات» ستقودها إلى إلغاء العبوديّة «على مراحل». وكرّر إلسوورث ذلك الادّعاء، وتكهّن بأن العبوديّة لن تمثّل في المستقبل «وصمة لبلدنا». وفي دلالة على سوء فهمه الكامل للطبيعة البشريّة تكهّن بأن الخوف من انتفاضات العبيد سيدفع المالكين إلى توسيع نطاق «معاملاتهم الحسنة لهم».

لن يتنازل المدافعون عن العبوديّة عن الأسس الأخلاقيّة السامية لمايسون مالكِ العبيد. أشار إلسوورث إلى أن المسألة إذا نُظِر إليها «في ضوء الأخلاق» (وهو أمر لم يكن إلسوورث يتمنّى فعله)، فسيكونُ على المؤتمر «أن يذهب أبعد، ويحرّر أولئك الموجودين أصلا في البلاد». وأشار الجنرال بينكني إلى أن فرجينيا تملك عددا كبيرا من العبيد إلى حدّ أنه إذا وقع حظر على توريدهم فسوف يخدمُ ذلك فعلا مصلحة الفرجينيّين الذين سيكون بمقدورهم بيع العبيد الزائدين لولايات أخرى بأثمان أعلى».

أعلن تشارلز بينكني بغضب متجاوز حدود العقل في معرض دفاعه عن العبوديّة باعتبارها مصلحة عمومية إيجابيّة: «لو كانت العبوديّة غير لائقة «لوجدت تبريرها في ممارسة العالم كلّه لها». لقد سمحت الأمم القديمة والحديثة بالرّق، و«على امتداد كلّ العصور، كان نصف

الإنسانيّة متكوّنا من العبيد».

أكّد ابن عمّ تشارلز بينكني، الجنرال بينكني بشكل مباشر أنّ «ساوث كارولينا وجورجيا لا يمكن أن تستغنيا عن العبيد». ومرّة أخرى، رسم جون راتليدج الحدّ الفاصل:

إذا كان المؤتمر يظنّ أنّ نورث كارولينا وساوث كارولينا وجورجيا ستوافق يوما على المخطّط، شرط ألا تُمسّ حقوقُها في توريد العبيد، فإنّ هذا الأملَ لا طائل منه، إذ لن تكون قطّ شعوبُ تلك الولايات على درجة من الحمق بحيث تستغني عن مصلحة بمثل هذه الأهمّية.

لم تحقّق التهديدات الجنوبيّة النتيجة المرجوّة. فلأوّل مرّة خلال ذلك الصيف استفزّت العبوديّة همم المندوبين من بقيّة أنحاء البلاد، فأصرّوا على أن تكون للحكومة الجديدة سلطة على تجارة العبيد.

انتصب جون ديكنسون مندوبُ ديلاوار المحترم واقفا. كانت لكلماته قوّة خاصّة، فبعد أن ورث سبعة وثلاثين عبدا قام بتحريرهم كلّهم قبل مرور عام على ذلك. وبمقتضى قانون ديلاوار لم يفقد قيمة العبيد فقط، بل كان عليه أن يودع صكّا ماليّا عن كلّ عبد أعتقه. قال ديكنسون للمندوبين: «ليس من المقبول وفق كلّ مبادئ الشرف والسلامة السماح بتوريد العبيد».

أدرك الكارولينيّون الجنوبيّون أنّ إنذاراتهم لم تجد نفعا، فبدأوا يُخطّطون للتسوية.

ظهر أوّل تصدّع في التعنّت الجنوبي حين اعترف الجنرال بينكني أنه من الممكن فرض ضرائب على العبيد المستوردين. وردّ الشماليّون بطريقة غير مباشرة. فانتقد جيمس ويلسون استثناء العبيد من الضرائب المفروضة على الواردات، في حين وصف روفوس كينغ مندوب ماساتشوستس ذلك الاستثناء «بالحيف الذي لن تقصر الحصافة التجاريّة للولايات الشماليّة وولايات الوسط عن إدراكه».

في هذه اللحظة المفصليّة الحرجة، دخل مالك عبيد مزدوج الشخصيّة من فرجينيا المعركة. فأثناء عمله في لجنة راتليدج، ساعد إدموند راندولف في إنتاج حزمة من الفقرات الشرطيّة

الداعمة للجنوب. وجريا على عادته المتقلّبة دائما، أعلن الآن أنه لن يستطيع الموافقة على دستور يعفي واردات العبيد من الضرائب، وهو ما «سيثير غضب الكويكيرز والميثوديّين، وآخرين كثيرين في الولايات التي لا تملك عبيدا». ثمّ أضاف مجدّدا إنّ التصديق على هذه الفقرة قد يدفع بساوث كارولينا وجورجيا إلى خارج الاتّحاد. سيكونُ على اللجنة أن تبحث عن مساحة وسطى، ولن يكون راندولف بالتأكيد قادرا على ذلك.

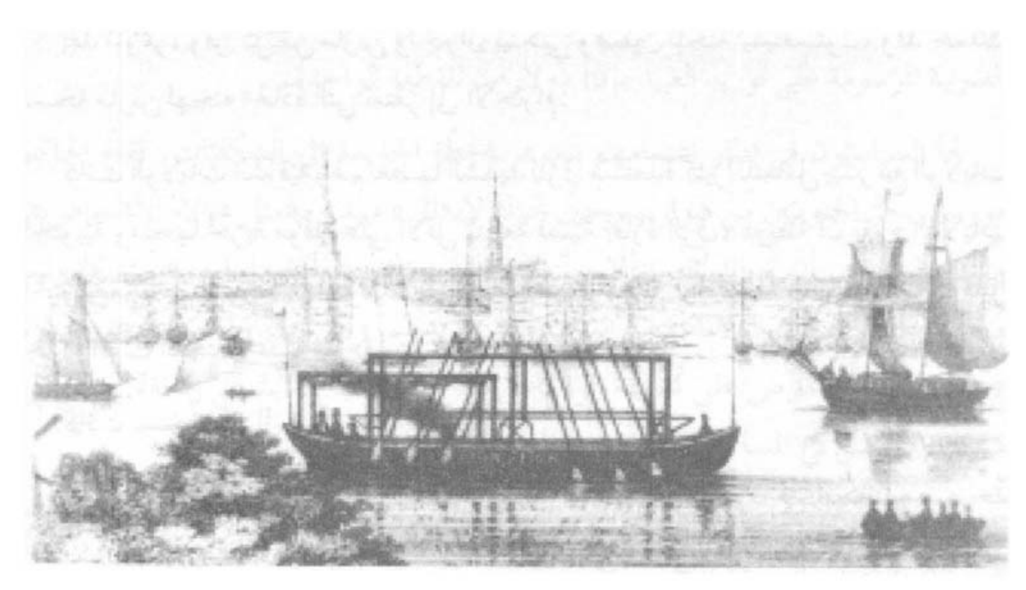
اختار المؤتمر لجنة من أحد عشر عضوا لمعالجة كلّ من تلك المسألة ومسألة قدرة الكونغرس على تنظيم التجارة، مثلما اقترح موريس. وقد أملى المزاج المتّجه إلى التسوية طريقة اختيار أعضاء اللجنة. فمن فرجينيا لم ينتق المندوبون مايسون المقاتل، بل ماديسون الذي كانت له رغبة شديدة لا تُضاهى في الانتهاء من مسألة العبوديّة. ولم يأت من ساوث كارولينا راتليدج العنيف ولا الرائد بتلر المعربد، بل الجنرال بينكني المشهور الذي وصفه أحد المعاصرين بأنّه «صريح ورجولي وتحرّري». كما تجاهل المندوبون ويلسون وموريس من بنسلفانيا منتقين جورج كلايمر، التاجر المتواري عن الأنظار في أغلب الأحيان. ولم تختر كونكتكوت شيرمان ولا إلسوورث الذي كان تحالفه مع الجنوبيّين يزدادُ انكشافا، بل وليام صموئيل جونسون اللطيف.

إثر مناقشات اليوم المكثّفة انسحب عديد المندوبين إلى ضفاف نهر ديلادوار لمشاهدة تجربة باخرة من نوع جديد صمّمها جون فيتش من كونكتكوت. عند هذه المرحلة من المؤتمر كانت كلّ تسلية هبة من الله. فقد قام كينغ وغورهام من ماساتشوستس خلال إحدى الأمسيات الأخيرة بتسلية نفسيهما بمراجعة أبحاث في علم شعارات الأنساب بمكتبة محلّية، «باحثَيْن عن أغطية أسلحة تعودُ إلى أغلب معارفنا من الأشخاص».

سبق قارب فيتش برسفيرنس (Perseverance) بعقدين تقريبا سفينة روبيرت فولتن التي يهلّل بها في أغلب الأحيان باعتبارها أوّل سفينة بخاريّة. كانت ضيّقة، وتبدو كجسم غريب المظهر مدفوع بدواليب مسنّنة من الجانبين. كان فيتش، وهو مروّج مشاريع لا يَكِلُّ، قد التقى سابقا بعض مندوبي المؤتمر بمن فيهم واشنطن وماديسون ووليام هوستن من نيوجيرسي.

لقد فشل في تحقيق غايته القصوى المتمثّلة في كسب دعم الدكتور فرانكلن، أحد المخترعين الرئيسيّين في البلاد. وفيما يتعلّق بالبواخر، كان الدكتور فرانكلن يفضّل نوعا من الدفع النفثي على تصميم فيتش.

بحلول شهر أغسطس، بلغت سرعة برسفيرنس أربعة أميال في الساعة وهي تعبر نهر ديلوار بكامل حمولتها مدفوعة بقوّة البخار. عرض المخترع ركوبَ الباخرة على مندوب كونكتكوت جونسون وعلى أيّ مندوب آخر يجرؤ على ذلك. فكان الردّ حماسيّا. شهد جلّ المندوبين العرض على ما يذكر فيتش، وإن كان واشنطن لم يحضر (وقد يفسّر غياب الجنرال بتأييده تصميما منافسا لباخرة جيمس رامزي الذي لم يبلغ قط مرحلة الإنتاج التجاري). وأضاف فيتش أنّ «الحاكم راندولف وبعض أعضاء فرجينيا كانوا سعداء بمنح مشروعه كلّ دعم يقدرون عليه». وفي 1790 سيّر فيتش بانتظام بواخر بين فيلادلفيا وترنتون، لكنّه توقّف عن هذه الخدمة بعد تسجيله خسائر ماليّة في كلّ رحلة.



باخرة فيتش

لم تصرف باخرة فيتش المندوبين عن المشكلة الشائكة المتعلّقة بالعبودية والتجارة إلا فترة وجيزة. تقدّم الحاكم وليام ليفنغستون مندوبُ نيوجيرسي المعيَّن على رأس اللجنة الأحد عشرية الجديدة من دوائر الظلّ في المؤتمر إلى مركز الجدل.

ولد ليفنغستون في عائلة نافذة بنيويورك، وانسحب في منتصف عمره إلى نيوجيرسي، غير أنّه أُقحِم بعدئذ في السياسات الثوريّة. لقد أصبح أوّل حاكم لتلك الولاية سنة 1777، واحتفظ بالمنصب حتّى وفاته سنة 1790. وعلى غرار مندوبي نيوجيرسي الآخرين، كان مناهضا للعبوديّة.

كان ليفينغستون قد انضمّ إلى جمعيّة نيويورك لإلغاء الرّق قبل سنتين. وفي سنة 1786، دفع من خلال الهيئة التشريعيّة لنيوجيرسي إلى حظر تجارة الرقّ وإصدار صكّ يحرّر العبدين اللذين كانا بحوزته. كتب ليفينغستون: إن العبوديّة «لا تنسجم بالمرّة مع المبادئ المسيحيّة والإنسانيّة، وهي بالنسبة إلى الأمريكيّين الذين كادوا يسبغون على الحرّية صفة الكمال، بغيضة وشائنة على وجه خاصّ». وبوجود جون ديكنسون ولوثر مارتن أيضا في اللجنة الجديدة، سيكون الجنرال مشغولا إلى أبعد حدّ.

بعد المؤتمر، وفّر كلّ من مارتن والجنرال بينكني وصفين للجنة ليفينغستون، وقد حملت نسخة مارتن لهجته الحادّة التي تفتقرُ إلى الاحترام:

كانت الولايات الشرقيّة رغم بغضها الشديد للرّق مستعدّة كثيرا للتعامل بيسر مع الولايات الجنوبيّة ومنحها حرّية موقّتة على الأقلّ لمتابعة قضيّة تجارة الرقّ، شريطة أن تقوم الولايات الجنوبيّة من جانبها بترضيتها، وذلك بعدم وضع أيّ قيد على قوانين الملاحة. وبعد وقت قليل جدًّا وافقت اللجنةُ بأغلبيّة ساحقة على التقرير.

كانت نسخةُ الجنرال بينكني أقلّ حدّة:

قال أعضاءُ الولايات الشرقيّة: «أمهلونا بعض الوقت حتّى يكون في إمكاننا وضع حدّ –إذا شئنا– لتوريد هذه المخلوقات الضعيفة (العبيد)، وسنسعى –مواءمة لطلباتكم– إلى الحدّ

من عوامل التحامل الديني والسياسي لشعوبنا في هذا المجال». لم تقدّم إلينا ولايات الوسط وفرجينيا مثل هذا الاقتراح، فقد كانت تدعمُ منعا فوريّا وشاملا للرق.

قدّم ليفينغستون تقرير اللجنة يوم الجمعة 24 أغسطس، بعد تسمية أعضاء اللجنة بيومين فقط. وكان الجنرال بينكني قد تنازل في بعض المسائل. مع استعماله عبارات ملطَّفة في إشارته إلى العبيد («مثل هؤلاء الأشخاص الذين ينبغي أن تفكّر بعض الولايات... بشكل صحيح في الاعتراف بهم») ستتواصل تجارة الرقّ إلى سنة 1800، ولكنّ الكونغرس سيتمكّن من إنهائها بعدئذ. إضافة إلى ذلك يمكن فرض ضريبة على واردات العبيد مثل الواردات الأخرى. وأخيرا، لن ينطبق شرط أغلبيّة الثلثين على قوانين الملاحة.

عندما نظر المؤتمر في هذا التقرير في اليوم التالي وكان يوم سبت، كان الجنرال بينكني بصدد إعادة التفاوض عليه. لقد تحرّك مدعوما بغورهام مندوب ماساتشوستس لإضافة ثماني سنين إلى فترة حماية تجارة العبيد، حتّى سنة 1808. قال ماديسون متذمّرا: «سوف تُنتج العشرون سنة كلّ الأذى الذي يُخشى حدوثه نتيجة حرّية توريد العبيد». كان الانقسامُ القطاعي في التصويت شديدا. فقد التحقت ثلاث ولايات من نيوإنجلند بأربع ولايات جنوبيّة في التصويت بنعم، مع بقاء فرجينيا والولايات الوسطى متأرجحتين. وقد حدّد المندوبون الضريبة المرسومة على توريد العبيد بـ 10 دولارات للقطعة الواحدة.

لجأ السياسيّون في إطار اهتمامهم بجوهر الخطّة الجديدة إلى الشكليّات. فقام الحاكم موريس بجرّ الجنوبيّين من شواربهم حين تحرّك لإبدال «عبيد» بـ«مثل هؤلاء الأشخاص»، والتنصيص على أنّ توريد العبيد لا يسمحُ به إلا في نورث كارولينا وساوث كارولينا وجورجيا، إذ أن تلك الولايات هي الوحيدة التي تريدهم. وافق جورج مايسون على عبارة «عبيد»، ولكنّه اعترض على تسمية الولايات الثلاث «خشية أن تُشكّل إهانة». وعارض شيرمان موريس في المسألتين معا، إذ وجد لغته المقترحة «غير مرضية».

قادت شيرمان مشاعره المرهفة إلى الاعتراض بأنّ فرض ضريبة على واردات العبيد «يضطرّ الناس إلى الإقرار بأنّهم بضاعة». وأشار الجنرال بينكني إلى الاعتراض معتبرا إيّاه ثمنا ضئيلا

مقابل ربح عشرين سنة من توريد العبيد. وقد أجّل المؤتمر دراسة شرط التصويت بأغلبيّة الثلثيْن المتعلّق بقوانين الملاحة.

لم يفقد الكاروليّنيّون الجنوبيّون قيمتهم. فبعد ثلاثة أيّام من اختتام الجلسة يوم الثلاثاء 28 أغسطس اقترح الجنرال بينكني والرائد بتلر إضافة شرط «التخلي عن العبيد والخدم الهاربين باعتبارهم مجرمين». وكان الكونغرس قد أدرج تلك الفقرة الشرطيّة في مرسوم الشمال الغربي ثمنا لمعجزة إبسويتش.

استقبل المندوبون المادّة المتعلّقة بالعبد الآبق بارتياب. فاشتكى ويلسون من كلفة تعقّب العبيد الهاربين ثمّ التخلّي عنهم. ولم «ير شيرمان في الملكيّة العامّة لعبد والتخلّي عنه بعد ذلك ما يزيد قيمة على ملكيّة حصان». سحب الكاروليّنيّون الجنوبيّون المقترح، لكنهم كانوا مشغولين تلك الليلة مع شيرمان والنيوإنجلنديّين. ولتأمين مادّة العبد الآبق وافقوا على التخلّي عن شرط الثلثين فيما يتعلّق بقوانين الملاحة.

في اليوم التالي أشبع الجنرال بينكني «الولايات الشرقيّة» ثناء، فقد سجّل الخسائر التجاريّة لنيوإنجلند أثناء الثورة، و«سلوكها المتسامح» تجاه ساوث كارولينا في المؤتمر و«المنفعة التي جنتها الولايات الجنوبيّة الضعيفة من اتّحادها مع الولايات الشرقيّة القوية». لقد أسرف في التملّق حين قال:

قال الجنرال بينكني: كانت له هو نفسه أحكامه المتحيّزة ضدّ الولايات الشرقيّة قبل مجيئه إلى هنا، ولكنّه سيقررّ بأنّه وجدهم كرماء ونزهاء مثل أيّ رجال آخرين.

وبناء على القيمة الممتازة لرجال نيوإنجلند، أعلن الجنرال بينكني أنه سيتخلّى عن شرط التصويت بأغلبيّة الثلثيْن فيما يخصّ قوانين التّجارة.

ساند راتليدج الخطّة مُفضّلا الأهداف الوطنيّة على المصلحة الجهويّة. وقال إنّ قانونا واحدا للملاحة قد يُلْحِق «ولو لفترة وجيزة» ضررا بالجنوب، ولكنّنا «بصدد وضع أسس لإمبراطوريّة عظيمة. ينبغي أن ننظر إلى المسألة نظرة ثابتة وألا نلتفت إلى اللحظة

الراهنة فقط».

في التصويت الأخير انضمّت ساوث كارولينا إلى الولايات الست الواقعة شمال مريلاند في رفضها شرط الثلثين المتعلّق بقوانين الملاحة.

تحرّكت ساوث كارولينا فورا لأخذ نصيبها من الصفقة. فقد جدّد الرائد بتلر مقترحه الخاصّ بالعبيد الآبقين، وتمّ إقراره بالإجماع دون نقاش.

في الأسبوع الأخير من المؤتمر قام جون راتليدج بتدقيق جانب فضفاض من مسألة العبوديّة. فقد ضمن عدم تعديل الفقرة المتعلّقة بتمديد تجارة العبيد لعشرين سنة. كانت تلك الفقرةَ الوحيدةَ في الدستور التي تتمتّع بتلك الحماية.

مثّلت العبوديّة الخطيئة الأولى التي تَحدّد مفهوم الأمّة من خلالها. كان الحاكم موريس وروفوس كينغ يعرفان ذلك، وقالا الكلام نفسه. وكان جون ديكنسون ووليام ليفينغستون يعرفان ذلك، فقاما بعتق العبيد الذين كانوا بحوزتهما. كما كان المندوبون المنتمون إلى جمعيّات إلغاء الرقّ، مثل فرانكلن وهاملتون وليفينغستون، يعرفون ذلك بالتأكيد. وذكر أوليفر إلسوورث الذي وقف بثبات إلى جانب حلفائه الجنوبيّين المندوبين بأنه إذا نُظر إلى المسألة «في ضوء الأخلاق» فسيتوجّب تحرير كلّ عبد، وكان يعرف ذلك. واعتبر روجر شيرمان تجارة العبيد عملا شرّيرا، وكان يعرف ذلك. وكان كلّ من أولئك الفرجينيّين المزدوجي الشخصيّة –مايسون وماديسون وراندولف والجنرال نفسه– يعرفون ذلك. وكان رجال كاليفورنيا الجنوبيّة يعرفون ذلك بالتأكيد. وذكر تشارلز بينكني أنّه سيصوّت ضدّ تجارة العبيد داخل ولايته هو؛ أما جون راتليدج فلن يناقش أخلاقيّة الرّق لأن ذلك جدال يعرف أنه لا يُمكنُ إلا أن يخسره.

حين عادالجنرال بينكني إلى ساوث كارولينا، فاخر بالإجراءات الحمائيّة التي حقّقها مع زملائه في موضوع العبوديّة:

لقد أمّنّا توريد عدد غير محدّد من الزنوج لمدّة عشرين سنة... لن تستطيع الحكومة الوطنيّة

أن تحرّرهم قطّ لأنّها لا تملكُ سلطة من هذا القبيل... لقد تحصّلنا على حقّ استرجاع عبيدنا في أيّ جزء من أمريكا قد يفرّون إليه، وهو حقّ لم نكن نملكه سابقا. اختصارا... لقد حقّقنا أفضل الشروط التي كان بإمكاننا تحقيقها لتأمين هذا النوع من الملكيّة. ولو كان في وسعنا أن نُنجز ما هو أفضل لفعلنا. ولكنّني على العموم، لا أعتقدُ أنها نتائج سيّئة.

كان الشماليّون أقلّ انشراحا بهذا الشأن. فقد زعم جيمس ويلسون أنّ فقرة تجارة العبيد سـ«تضعُ الأساس لطرد العبوديّة خارج هذا البلد... وذلك رغم أنّ المرحلة أبعدُ ممّا كنت أتمنّى» وأضاف بأسف: «كان ذلك كلّ ما يُمكن الحصول عليه. وإنّني آسف لأنه لم يكن بالإمكان الحصول على أكثر من ذلك».

بعد خمسة عشر عاما انصبّ ندم روفوس كينغ على نسبة الثلاثة أخماس التي «رجّحت كفّة الولايات التي تملكُ العبيد على الولايات الأخرى». لقد كانت إحدى «أكبر شوائب» الدستور. وقال كينغ: إنّ مندوبي الولايات غير العاملة بنظام العبوديّة وافقوا «من دون تبصّر» على النسبة لأنّهم اعتقدوا أنها تعني أنّ الجنوب سيدفعُ ضرائب إضافيّة مباشرة. غير أنّ الحكومة القوميّة –التي كانت تعكس النفوذ الزائد للجنوب بفضل نسبة الثلاثة أخماس– نادرا ما فرضت ضرائب مباشرة. لذلك لم يحصلْ الشمالُ إطلاقاً على الفائدة الماليّة التي بحث عنها.

ألقى ماديسون باللائمة على ساوث كارولينا وجورجيا لمحافظتهما على تجارة الرّق مُضيفا: «إذا كان هذا الشرّ عظيما فإنّ تفكّك الاتّحاد سيكون شرّا أعظم منه». أبدى ماك هنري الملاحظة نفسها، مؤكّدا أنّ أغلب المندوبين أرادوا منع هذه التجارة فورا، وهي وجهة نظر عكسها ماديسون في مراسلات خاصّة بعد عدّة سنين.

كان لإجراءات المؤتمر المؤيّدة للعبوديّة عواقب مروّعة. لقد سمح التمديدُ بعشرين سنة لتجارة الرّق بتوريد ما لا يقلُّ عن 170000 إفريقيّا. ولم تكن السنوات الثماني الإضافية من تجارة الرّق التي حصل عليها الجنرال بينكني من المؤتمر عن طريق التزلّف (1800–1808) شأنا هيّنا. وكانت ساوث كارولينا قد استوردت 75000 إفريقيّا بين 1804 و1808 حين ألغى

الكونغرس في النهاية توريد العبيد.

على امتداد سبعة عقود بعد المؤتمر، منحت نسبة الثلاثة أخماس ساسة الجنوب نفوذا زائدا استخدموه بمهارة لحماية نظام العبوديّة، متّبعين النموذج الذي رسمه راتليدج والجنرال بينكني. لقد ثبت أنّ فقرة العبد الآبق شكّلت همزة وصل مهمة بين سلاسل العبوديّة الأمريكية، مما جعل الحريّة أكثر إفلاتا أصلا بالنسبة إلى عبيد الجنوب وترك السود في الولايات الحرّة مُعرّضين دائما للحجز والاستعباد. ففي دعوى قضائيّة متّصلة بفقرة العبد الهارب، حالة دراد سكوت، أعلنت المحكمة العليا سنة 1857 أنّ البشر المستعبدين بضاعة، وهو ادّعاء تنصّل منه حتّى شيرمان مندوب كونكتكوت.

عاش روفوس كينغ وجيمس ماديسون إلى حدود القرن التاسع عشر، وهي حياة طويلة بما يكفي لكي يريا النزاعات حول العبوديّة تزداد حدّة. كانا نادمَيْن على الأعمال التي حدثت في صيف 1787، وقد حملت ردودهما وجوه تماثل صارخة.

في سنة 1819 رسم ماديسون المتقاعد مخطّطا تفصيليّا لبيع الأراضي الغربيّة واستعمال الإيرادات في شراء العبيد وشحنهم إلى إفريقيا. وفي سنة 1833، حين بلغ الثمانين من عمره، أصبح رئيسا لجمعيّة التوطين التي كانت ترمي إلى إرسال السود إلى إفريقيا. وقبل ثماني سنوات من ذلك التاريخ، استحدث كينغ، وكان آنذاك عضوا في مجلس الشيوخ، قرارا بإنفاق الإيرادات المتأتّية من بيع الأراضي العموميّة في تحرير العبيد ونقلهم إلى الأجزاء غير الآهلة من البلاد.

لكنّ كينغ وماديسون تقدّما في السنّ، وكانت الحلول التي طرحاها خياليّة. إنّ المشكلة التي استعصت على قرار 1787 لم تزدد إلا استعصاء. وحين أطلقت نيران جنوبيّة على «حصن سامتر» في أبريل 1861 كتب أحدُ أحفاد جون آدامز في مذكّراته: «لقد كُتب علينا نحن أبناء الجيل الثالث والرابع أن ندفع ضريبة التسويات التي قام بها الجيل الأوّل».

الفصل السابع عشر

رئاسة دافيد بريرلي

24 أغسطس – 7 سبتمبر

في الأسبوع الثالث من شهر أغسطس اشتكى مندوب نيوجيرسي دافيد بريرلي من أنّ «الجدل حول كلّ بند قد استؤنف من جديد بالجدّيّة والتعنّت نفسهما كما في السابق». وقريبا سيكون بريرلي، القاضي الرئيسي بالمحكمة العليا لولايته، محقّا أكثر في الندم على ذلك النمط من الجدل.

بعد أن كتب بريرلي رسالته بأربعة أيام وصل المندوبون إلى البند الرئاسي في تقرير لجنة راتليدج. كان يوم جمعة، 24 أغسطس، وكاد الأوان يفوت على مراجعة العناصر التي بذل جورج مايسون جهدا للانتهاء منها في اليوم الأخير قبل العطلة: أن يختار الكونغرس رئيسا لفترة واحدة تستغرق سبع سنوات. وسمّى التقرير الرئيس قائدا عامّا محدّدا سلطاته الرئيسة بكونها تتمثّل في تنفيذ القوانين وتعيين المسؤولين الحكوميّين.

في ذلك الصباح الساخن من يوم الجمعة تجنّب المؤتمر التهويمات الخياليّة التي لوّثت نقاشه في موضوع الرئاسة قبل شهر. لم يقترح أحد إجراء القرعة لانتقاء أعضاء الكونغرس الذين سيختارون إما الرئيس أو ثلاثة رؤساء تنفيذيّين جهويّين، أو فترات رئاسة تستغرق خمس عشرة سنة. ومع ذلك لم يظهر أيّ إجماع حول الرئاسة، ولم يحاول أحد أن يكيّف النقاش. كان مايسون الشديد الحرص على هذه المسألة في اليوم الذي سبق العطلة، صامتا.

كانت النقاشات الافتتاحيّة مألوفة، بل مزعجة. وبدعم من ويلسون اقترح مندوب مريلاند دانيال كارول انتخاب الرئيس «من قبل الشعب»، وقد سقط المقترح بفارق كبير.

انخرطت الولايات الصغرى والولايات الكبرى في لعبة لَيِّ الذراع من أجل تحقيق مصالحها. فكسب راتليدج الموافقة على تولّي غرفتي المجلس انتخاب الرئيس باقتراع سري مشترك، وهو ما سيُضعِف من مكاسب الولايات الصغرى في مجلس الشيوخ. وعارض دايتون مندوب نيوجيرسي أن تدلي كلّ ولاية بصوت واحد عندما يصوّت الكونغرس على الرئيس، وهو ما سيبطل مقترح راتليدج. وقد سقط مقترح دايتون بفارق صوت واحد.

باعتبار الحاكم موريس معارضا بشدّة لاختيار الكونغرس للرئيس قام بإحياء فكرة ويلسون عن تصويت الشعب لناخبين يتولّون اختيار الرئيس. وعند طرح «المسألة النظريّة» لاستعمال الناخبين تشابكت دواليب المؤتمر بإحكام؛ كان أربعة مندوبين مؤيّدين للفكرة، وأربعة ضدّها، فيما انقسمت ولايتان وتغيّبت ماساتشوستس. أدّى مقترح بإحالة المسألة إلى إحدى اللجان إلى حالة أخرى من انعدام الاتّفاق، 5–5، وانقسام ولاية على نفسها. ولمّا يئس المؤتمر من جدوى الاقتراحات المقدَّمة تخلّى عن الموضوع «بناء على طلب من نوّاب نيوجيرسي».

في غياب وليام باترسون الذي كان قد عاد إلى بيته، تزعّم القاضي الأوّل بريرلي، مندوبي نيوجيرسي، متصدّيا للموضوع عدّة مرّات في الخامس والعشرين من أغسطس. كان بريرلي البالغ اثنين وأربعين عاما والذي طواه النسيان من زمن بعيد قد خدم ثماني سنوات في أعلى محكمة بالولاية. ترسم المرويات القليلة عنه صورة شخصيّة مفكّرة وثابتة، قليلة الرغبة في الأضواء.

تُظهر الانطباعات المسجّلة عن الرجل مدحا باهتا له، ولكنّ ذلك لا يعني إنزال اللعنة التامّة عليه. قال أحدهم: «إنّه رجل ذو صفات جيّدة أكثر منها رائعة». وسجّل آخر «أنّه بالكاد شخصيّة متألّقة، ولكنّه مقتدر ومحترم». كانت النيوجيرسي جورنال أكثر سخاء حين أسبغت عليه «جلاء الحجة والبلاغة المقنعة التي تحمل معها اليقين».

لم يتغيّب بريرلي إلا يومين خلال المؤتمر، لكنّه تكلّم أقلّ من اثني عشرة مرّة. وقد لاحظ أحد زملائه المندوبين أنه «لا يملك في مجال الخطابة شيئا كثيرا يفاخر به»، وهو ما قد يفسّر

تحفّظه. كانت مساهماته بعيدا عن القاعة أكبر، بدءا بصياغته بديل نيوجيرسي الفاشل عن خطّة فرجينيا.



دايفد بريرلي (نيوجيرسي)

أوصى أطول خطاب ألقاه بريرلي في المراحل الأولى من تمرّد الولايات الصغرى بتقسيم البلاد إلى ولايات متساوية الحجم، وهو اقتراح تهكّمي قصد به إلى إظهار عبثيّة بحث الولايات الكبرى عن التساوي في التمثيل.

لم تكن هناك أي مآخذ على الصدقيّة الثوريّة لبريرلي. فقد قاد والده أيضا دافيد بريرلي أعمال الشغب حول ملكيّة الأراضي ضدّ أصحاب الأراضي من مَلَكِيّي نيوجيرسي سنة 1747. وبعد أن سُجن بريرلي الأب لاتّهامه بالخيانة العظمى أُطلق سراحه من قبل حشد من الجيران. وقد عاش إلى أن رأى أبناءه يطردون البريطانيّين من البلاد.

ارتقى بريرلي الأصغر إلى رتبة عقيد للميليشيا بعد ثلاث سنوات من المعارك، بما في ذلك

معارك براندواين (Brandywine) ومونماوث (Monmouth). كانت مبادئه صلبة. وما إن أصبح قاضيا أوّل حتّى ألغى التجارة مع البريطانيّين. وبعد بضعة أشهر فقط من أداء واجب القتال حكم بريرلي بأن الدستور أبطل قانونا يسمح لهيئة محلّفين مؤلّفة من ستّة أشخاص فقط (لا اثني عشر) بالاستماع إلى محاكمات مثل هذا السلوك الخياني. فحتّى في مقاضاة الخونة لن يسمح بريرلي بالمسالك المختصرة. ومثّل هذا القرار المرّة الأولى التي تجد فيها محكمة أمريكيّة قانونا غير دستوري.

كانت الأجواء المنعشة والممطرة في استقبال المندوبين يوم الاثنين 27 أغسطس. كانوا مجموعة فاقدة للصبر. فبعد ثلاثة أسابيع من الانكباب على تقرير لجنة راتليدج كان لا يزال عليهم أن يعالجوا اثني عشر من الثلاثة وعشرين بندا. ولتسريع الأمور واصل المندوبون إحالة القضايا الخلافية إلى اللجان أو تأجيلها فورا. كان الوقت يضغط عليهم وكانوا يحتاجون إلى تحقيق تقدّم.

استُهِلّ يوم السابع والعشرين بموضوع الاتّهام النيابي. وحين أبدى الحاكم موريس اهتمامه بهذه المسألة صُرف النظر عن الموضوع. كان بإمكان الثرثار موريس أن يعطّل تقدّم النقاش لساعات.

تناول المندوبون موضوع الشخص الذي يخلف رئيسا غير قادر على إتمام ولايته الرئاسيّة. واعترض موريس على ذلك مجدّدا، فتمّ تجاوز المسألة أيضا، إذ كان عليهم أن يواصلوا تقدمهم.

بنهاية أخر أسبوع من أغسطس، كانت استراتيجيّة التعجيل قد نجحت إلى حدّ ما. فحين اقتربت ساعة رفع الجلسة يوم الجمعة 31 أغسطس، كان المندوبون قد وصلوا إلى نهاية تقرير اللجنة، وهو البند 23 الذي حدّد طريقة التصديق على الدستور.

ساند جورج مايسون الذي ازداد سخطا تأجيل المسألة معلنا عن حزنه العميق على مسوّدة الدستور. وأكّد أنه لكي يتم إبطال الأذى الذي تسبّب فيه المؤتمر، قد يتوّجب عقد مؤتمر آخر. استُفِزّ الحاكم موريس، فردّ على الطلق الناري. وصرّح بأنه كان «من زمان يتمنّى انعقاد مؤتمر

آخر يملك الحزم لتوفير حكومة قويّة».

ترك المندوبون المواقف المسرحيّة جانبا، ووافقوا على نسخة معدّلة من فقرة التصديق على الدستور. لقد بلغوا نهاية مسوّدة لجنة راتليدج، غير أنه لم يكن ثمّة وقت للإحساس بنشوة النصر. لقد أُرسِل جدول أعمال شهر من الأسئلة الصعبة إلى اللجان، وظلت تلك الأسئلة بلا حل.

كانت لجنة راتليدج تفكّر في منح الكونغرس سلطات إضافيّة، وفي الحفاظ على حقّ إحضار السجين أمام المحكمة للنظر في شرعيّة سجنه، وفي حريّة الصحافة واقتراح مجلس تنفيذي لمساعدة الرئيس. كانت لجنتان يرأسهما ليفينغستون قد أنهتا اشتغالهما (على تجارة العبيد أوّلا ثمّ على تحمّل الولايات لديون الحرب). ولكنّ هيئة يرأسها روجر شيرمان كانت تفكّر في وضع إطار لمعاملة الموانئ الأمريكيّة على قدم المساواة.

إلى جانب ذلك، كانت عديد المسائل مؤجّلة، بدءا بمسألة الرئاسة. ومن أجل حلّها شكّل المؤتمر لجنة العناصر المؤجّلة.

عكس اختيار أعضاء هذه اللجنة نفاد صبر المندوبين. كانوا يريدون قرارات، لا نقاشا. وكان البلد ينتظر بلهفة ميثاق الحكومة الجديدة. وكانت للمندوبين التزامات شخصيّة تتطلّب الاهتمام. وقد عزّز الطقس الذي ازداد انتعاشا وتبشيره بتبدّل الفصول الحاجة إلى التحرّك بسرعة.

كانت لجنة الأجزاء المؤجّلة تعجّ بالكفاءات العقليّة. فقد كان ضمنها روفوس كينغ من ماساتشوستس وروجر شيرمان من كونكتكوت. وكانت بنسلفانيا ممثّلة في شخص الحاكم موريس. ومثّل جون ديكنسون ولاية ديلاوار. وبخصوص فرجينيا، شارك ماديسون أخيرا في لجنة مصيريّة.

على غير المتوقّع، جاء على رأس هذه الشخصيّات البارزة دافيد بريرلي ذو «الخصال الجيّدة، بل الممتازة». ربّما كانت الأشهر التي قضّاها في العمل الصامت قد جلبت له الاحترام

من زملائه، وهو احترام نسي التاريخ إيراده. وربّما كانت كفاءته المتّزنة الأداة الحقيقيّة لنحت اتّفاق بمعيّة أشخاص أكثر تألّقا منه. وأيّا كان السبب، فقد تحمّل قاضي نيوجيرسي الأوّل مسؤوليّات جسيمة.

كان جدول أعمال اللجنة مخيفا. فقد كان عليها أن تحدّد سلطات الكونغرس في فرض الضرائب وإعلان الحرب وأن تقرّر ما إذا كان يمكن السماح بحقوق النشر والتأليف وبراءات الاختراع والتخطيط لمقرّ الحكومة الجديدة. فكيف يمكن إدارة العلاقات مع القبائل الهندية؟ وكان على لجنة بريرلي أن تخوض صراعا حول الإشكال الذي لا ينتهي والمتعلّق بما إذا كان لمجلس النوّاب سلطة حصريّة على الأوراق الماليّة. لكنّ إشكال الرئاسة أدّى إلى تقزيم المسائل الأخرى، إذ لم يصل المؤتمر إلى اتّفاق بعدُ على تركيبة فرع كامل من الحكومة.

بعد أقلّ من مائة ساعة، قدّم بريرلي تقرير اللجنة حول الرئاسة. وقد أظهر رجل نيوجيرسي أثناء وقوفه «في مكانه» بالقاعة الشرقيّة يوم الثلاثاء 4 سبتمبر بعض الشعور بالفخر وهو يقرأ التقرير بصوت عال قبل تقديمه للكتابة في قراءة ثانية، ولم يكن فخره في غير محلّه تماما. لم تكن لجنة بريرلي تجتمع إلاّ خلال عطلة المؤتمر، وقد أعادت تحرير الفقرة المتعلّقة بمسألة الرئاسة بصورة شاملة.

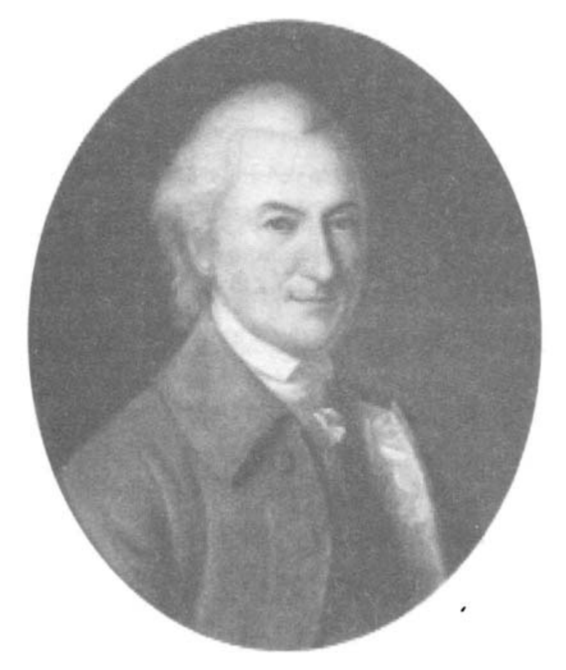
كان جون ديكنسون هو الوحيد الذي ترك رواية عن مداولات اللجنة. ففي رسالة كتبها بعد خمسة عشر عاما، افتخر بدفعه اللجنة إلى تبنّي نظام الناخب الذي كان ويلسون قد اقترحه في شهر يونيو. وما يضفي تناسقا على الرواية هو كون ويلسون بدأ مسيرته الحقوقيّة موظّفا في مكتب ديكنسون للشؤون القانونية.

في صباح الاثنين 3 سبتمبر وصل ديكنسون متأخّرا إلى أحد اجتماعات اللجنة. ولأنّه كان عرضة لمرض الصداع النصفي، اعترف بأنّه كان «كثير التوتّر خلال كامل وقت المؤتمر»، فارتبطت صورته دائما بسمة الهشاشة. وقبل أكثر من عقد رسم جون أدامز صورة لا تُنسى عن المحامي المنهك:

إنّه شبح طويل القامة، ولكنّه نحيف كالقصبة وباهت كالرماد. سوف يذهب في اعتقاد

المرء حين يراه لأوّل مرّة أنّه لن يعيش لشهر آخر. غير أنّه عند تفحّصه بانتباه أكبر يبدو كما لو أنّ ينابيع الحياة فيه كانت قويّة بما يكفي لتدوم سنين طويلة.

عند دخول ديكنسون قاعة المكتبة في الطابق الثاني لدار الولاية «وجد أعضاء اللجنة وقوفا» يتهيّئون للمغادرة. ومجاملة له قرأوا عليه محضر جلستهم الذي تضمّن قرارهم «بوجوب اختيار الرئيس من قبل الهيئة التشريعية».



جون ديكنسون (ديلاوار) رسم واقعي لتشارلز ويلسون بيل، 1782–83

اعترض ديكنسون بأسلوبه الهادئ ولكن الملحّ. قال: سيكون للرئيس مثل هذا القدر الهائل من السلطات، ممّا يحتّم عليه أن يكون «رجل الشعب بالمعنى الدقيق للعبارة»، فقد يتمّ رفض الدستور إذا لم يكن للشعب دور في اختيار الرئيس.

ردّ الحاكم موريس بأسلوب ودّي: «أيّها السادة، تعالوا نجلس مرّة أخرى لنجري مزيدا من النقاش في هذا الموضوع». وواصل ديكنسون القصة:

ثمّ جلسنا جميعا، وبعد أن تشاورنا، أمسك جيمس ماديسون بقلم وورقة، ورسم مخطّطا إجماليّا لنظام اختيار الرئيس يتّفق مع الفقرة الحاليّة في الدستور. على هذا وافقنا، وقدّمنا تقريرا طبقا لذلك.

كانت الأدوار الموكلة إلى المندوبين مألوفة: فقد كان الثرثار موريس يرغب دائما في مناقشة المسائل مرّة أخرى. أمّا ماديسون مصلح الدستور دون معرفة كافية، فكان يخطّ رؤوس الأقلام على الورق.

احتوى البند الجديد المتعلّق بالجهاز التنفيذي، كما تلاه بريرلي في 4 سبتمبر، خمسة أجزاء عوض اثنين، وتضمّن تسوية متعدّدة الجوانب. واختصرت اللجنة مدّة الرئاسة من سبع سنوات إلى أربع، وتركت للرئيس حريّة التماس فترة انتخابيّة ثانية. لقد أنشأوا منصبا لنائب الرئيس تنحصر مهامّه في رئاسة مجلس الشيوخ وخلافة رئيس لا يستطيع إكمال ولايته. كانت الآليّة الانتخابيّة، وهي لبّ الفقرة الشرطيّة، معدّة بإتقان.

سيكون لكلّ ولاية عدد من الناخبين مساو للعدد الجملي لأعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب، وستقرّر الهيئة التشريعيّة لكلّ ولاية كيفيّة اختيار ناخبيها. وسيقترع الناخبون في اجتماع في ولاياتهم مرّتين، إحداهما على الأقل تكون لشخص من ولاية أخرى. وسيصبح الشخص الذي يملك أعلى مجموع من أصوات الناخبين رئيسا إذا تحصّل على الأغلبية. أمّا الذي ينهي العمليّة الانتخابيّة ثانيا فسيكون نائبا للرئيس. وإذا لم يحصل أيّ مندوب على الأغلبيّة ، فسيختار مجلس الشيوخ الرئيس ونائب الرئيس من بين الخمسة الأوائل المتحصّلين على أكثر الأصوات.

مزجت اللجنة بين عديد العناصر لاجتذاب أوسع دعم ممكن. إنّ نظام الناخبين سيروق لويلسون وموريس اللذين أرادا دورا للشعب وخشيا من الاحتيال لو قام الكونغرس وحده بالاختيار. وسيعجب تساوي عدد الناخبين وجملة أعضاء مجلسي الشيوخ والكونغرس الولايات الكبرى. وقد منحت اللجنة أيضا مزيدا من الناخبين للولايات العاملة بنظام العبوديّة

من خلال نسبة الثلاثة أخماس. ولإرضاء الولايات الصغرى، ستصوّت كلّ ولاية بالتساوي مع الولايات الأخرى عندما يقرّر مجلس الشيوخ إجراء الانتخابات.

غيّرت لجنة بريرلي الرئاسة بطريقتين أخريين. فقد نقلت سلطات مهمة من مجلس الشيوخ إلى الرئيس الذي سيعقد الآن المعاهدات ويعيّن السفراء وقضاة المحكمة العليا (بعد موافقة مجلس الشيوخ). كما نقلت اللجنة محاكمات الرئيس من المحاكم إلى مجلس الشيوخ، ممّا يجعل هذه المحاكمات تأخذ طابعا سياسيا أكبر.

بعد أن قدّم بريرلي تقريره، جلس صامتا خلال الأيّام الثلاثة التالية من النقاش، مكتفيا بترك موريس والآخرين يفسّرون المقترحات ويدافعون عنها. أثناء ذلك النقاش لم يتعرّض المندوبون إطلاقاً للثغرات التي برزت بمجرّد أن بدأت الأمّة تنتخب الرؤساء. وعوضا عن ذلك، ركّزوا اهتماماتهم على مجلس الشيوخ.

في أغلب الانتخابات اعتقد المندوبون أنّ الناخبين «باعتبارهم غرباء عن عديد المرشّحين»، سيختزلون دائرة المرشّحين في خمسة أعضاء، وسيقوم مجلس الشيوخ باختيار الرئيس.

توقّع جورج مايسون أنّه «في تسع عشرة حالة من عشرين، سيتمّ اختيار الرئيس من قبل مجلس الشيوخ» الذي رآه «هيكلا غير مناسب للغرض». وقد أقلق ذلك الاحتمال أيضا ألبريدج جاري مندوب ماساتشوستس وألكسندر هاملتون (الذي عاد من نيويورك لحضور الأيّام الأخيرة من المؤتمر).

ردّ جيمس ويلسون بأنّ الناخبين سيكونون على معرفة بالمترشّحين، وقال: «ستتضاعف عدد الشخصيّات القاريّة كلّما اتّحدنا أكثر» بالرغم من أنه لم يكن يحبّذ كثيرا دور مجلس الشيوخ أيضا. وبحلول اليوم التالي ازداد إحساسه بالقلق، فهاجم سلطات مجلس الشيوخ لأنّها تخلق «نزوعا خطيرا نحو الأرستقراطيّة». وسيكون بإمكان مجلس الشيوخ التصديق على المعاهدات وتوجيه الاتّهامات النيابيّة وإقرار التسميات في الجهازين التنفيذي والقضائي. قال: كانت النتيجة أنّ:

الرئيس لن يكون رجل الشعب مثلما يتوجّب عليه ذلك، بل تابعا لمجلس الشيوخ. إنّه لا يستطيع حتّى تعيين مفتّش جمارك (مسؤول جمركي صغير) دون إذن من مجلس الشيوخ».

[اقترح بعضهم إحالة مسألة اختيار الرئيس إلى مجلس النوّاب أو إلى الغرفتين معا في جلسة مشتركة. فاعترضت الولايات الصغرى على ذلك خشية فقدان نفوذها. فقام روجر شيرمان بتركيب هجين: سوف يتولّى مجلس النوّاب اختيار الرئيس إذا لم يحصل أي مرشّح على أغلبيّة الناخبين، غير أنّه سيكون لكلّ وفد من الولايات صوت واحد. أُنهك المندوبون، فوافقوا على الحل بتصويت 10–1.

أمضى المندوبون يومين إضافيّين في دراسة الفرع التنفيذي. لم يكن بعضهم يحبّذ رئاسة نائب الرئيس لمجلس الشيوخ خوفا من تأثيره في ذلك الجهاز. ولأنّ شيرمان كان عمليّا دائما فقد ردّ قائلا: من دون تلك المهمّة سيكون نائب الرئيس «بلا عمل». لقد استبق شيرمان وجهة نظر جون أدامز أوّلِ نائب رئيس، حين وصف المهمة بكونها «الوظيفة الأكثر تفاهة التي ابتدعها الإنسان على الإطلاق».

كان جورج مايسون منزعجا من الفقرة المتعلّقة بالاتّهام النيابي. ونظرا إلى قلقه من القصر المفرط لقائمة جرائم الخيانة والرشوة، تحرّك لإضافة «الجرائم الكبرى والجنح» إليها. وافق المندوبون وتبنّوا بذلك تعبيرا يعود إلى القرن السابع عشر كان عتيقا بعدُ سنة 1787، وأصبح أكثر غموضا منذ ذلك الوقت.

على أنّ المندوبين لم يعودوا البتة إلى العمليّة الانتخابيّة التي أنشأوها. وسوف يتّضح سريعا أنّ هذا النظام أخرق وعرضة للتلاعب ويتطلّب الإصلاح بعد أن أجريت في ظلّه أربعة انتخابات فحسب. لقد حلّ التعديل الثاني عشر الذي لم يقع تبنّيه سنة 1803 المشكلات الأكثر حدّة، ولكنّ نظام الناخب ما زال يفرز رؤساء أحرزوا أصواتا أقلّ من خصومهم «الخاسرين».

لا تضاهى الجهود التي بذلها المندوبون في موضوع الرئاسة بحال تلك التي بذلوها في مخطّطهم التفصيلي للكونغرس، أو ترتيبهم البسيط والفعّال للجهاز القضائي الوطني.

وعندما قرأ توماس جيفرسون الدستور وصف الرئاسة بكونها «نسخة سيّئة من ملك بولوني». وبالفعل، كانت فترات الحكم الرئاسيّة وخلافة الرئيس موضع تعديلات خلال القرن العشرين.

كان رأي ماديسون الذي وَلِيَ الرئاسةَ مرّتين متفاوتا. فبعد أن لاحظ أنّ «التسوية النهائيّة» في موضوع الرئاسة حدثت «في المرحلة الأخيرة من الدورة»، اعترف سنة 1823 بأنّها «لم تكن خالية من شيء من التأثير المتسرّع الناتج عن التعب ونفاد الصبر». وبعد أن أطمأنّوا إلى احتمال انتخاب الجنرال واشنطن أوّلَ رئيس لأمريكا، ونظرا إلى افتقارهم إلى نماذج سابقة حول انتخاب السلطة التنفيذيّة الوطنيّة، وبسبب ضغط الوقت، كانت الجهود التي بذلها المندوبون في مجال السلطة التنفيذيّة قاصرة.

لم يكن التاريخ سخيّا مع دايفيد بريرلي، إذ غالبا ما تمّ تجاهل دوره في إنشاء الرئاسة الأمريكيّة. وحين طُلب منه حلّ المشكلة الأكثر صعوبة والتي ظلّت مطروحة أمام المؤتمر وأن يفعل ذلك في جدول زمني مستحيل، أنجزت لجنته حلاّ يمكن للمؤتمر قبوله. لقد أمكن إصلاح العيوب الرئيسة في المستقبل، وربما مازال بعضها الآخر قابلا للإصلاح. لقد أحسّ بريرلي بالارتياح لتأدية واجب ثقيل أنيط بعهدته هو بدلا من أولئك الذين يتمتّعون بسمعة أكثر إشعاعا.

الفصل الثامن عشر

المعارضة الوفية

31 أغسطس

بالنسبة إلى أولئك المندوبين الأكثر ارتيابا في مسوّدة الدستور، ازداد الشعور بالإحباط خلال شهر أغسطس. وقد انفجر ذلك الاستياء على نطاق واسع يوم الجمعة 31 أغسطس، وهو يوم منعش وممتع، حين وصل المؤتمر إلى نهاية تقرير لجنة راتليدج. وكان لوثر مارتن ورقة المؤتمر المنفلتة هو الذي فجّر ذلك الاستياء.

كان الحاكم موريس يريد من مؤتمرات تصديق الولايات أن تجتمع «على عجل»، وحذّر من أنّ الشعب بالرّغم من أنه سيفضّل الدستور في البداية، فإنّ مسؤولي الولايات «سيحبكون الدسائس ويقلبون التيّار الشعبي عليه»، معرّضين بذلك عمليّة التصديق للخطر.

وجد مارتن مندوب مريلاند، الخصم الأكثر عنادا للدستور والذي كان لا يزال يقيم في فيلادلفيا، فرصة سانحة. ففي عمليّة التفاف على موقف موريس، وافق مارتن على أنّ الشعب لن يصدّق على الدستور «ما لم يُدفع إلى ذلك على حين غرّة».

ربّما خطّط المنشقّون الآخرون لإعلان معارضتهم ذلك اليوم. أو قد يكون استفزّهم أيضا اقتراح موريس بألاّ يُمنَح الشعب وقتا كثيرا للنظر في الدستور. وأيّا كان السّبب الذي دفعهم إلى ذلك، فإنّ ثلاثة مندوبين بارزين استغلّوا الفرصة لتحدّي الميثاق الوليد. تكلّم مندوب ماساتشوستس ألبريدج جيري أوّلا. وقد أعلن التاجر الثري في كلمته التي غلب عليها التردّد والتشنّج عن اتّفاقه مع مارتن. قال: إنّ النّظام الجديد «مليء بالنقائص»، وبعد أن شدّد على أنّ المؤتمر لا يملكُ أيّ سلطة لتعويض بنود الكنفدرالية، تحرّك جيري لتأجيل بند التصديق.

ساند جورج مايسون المقترح، فهو لم يكن من النوع الذي يتروّى في الكلام، ولم يترك أيّ شكّ حول طبيعة مشاعره. فقد تعهّد «بقطع يده اليمنى» بدلا من التوقيع على المسوّدة الحاليّة للدّستور. وشدّد على أنّه في غياب المراجعات فإنّ السبيل المناسبة الوحيدة هي «إحالة المسألة برمّتها على مؤتمر عامّ آخر».

ضمّ حاكم فرجينيا الذي لا يمكن التنبّؤ بأفعاله صوتَه إلى جوقة المنشقّين. فقد أعلن إدموند راندولف أنه إذا تواصل رفض الدستور فينبغي على مؤتمرات الولايات أن تقترح تعديلات له يتعيّن رفعها أمام مؤتمر عامّ آخر.

هل كان المنشقّون جادّين في عقد مؤتمر آخر؟ لقد أدمى هذا الاحتمال قلوبَ عديد المحاضرين في القاعة الشرقيّة.

كانوا جدّين، وفرضوا اهتمام المؤتمر بهم، لكنّهم بعد أن وصلوا إلى تسويات مؤلمة لقمع تمرّد الولايات الصغرى ثمّ للتمويه على مسألة العبوديّة، هاهم الآن يسمعون احتجاجات جوهريّة على كامل البنية الدستوريّة.

أثار آخرون الاعتراضات نفسها. فقد أدان لوثر مارتن مسوّدة الدستور لأنها تهدف إلى «إلغاء الحكومات التابعة للولايات والقضاء عليها». غير أنّه كان بالإمكان صرف النظر عنه باعتباره ثرثارا مزعجا، هذا إذا سلّمنا بأنّه ذكيّ. لقد تمّ كسبُ بعض المنشقّين، فيما انسحب آخرون من المؤتمر. أمّا المحافظان من نيويورك، لانسينغ ويايتس، فقد غادرا منذ سبعة أسابيع. ومن جهة أخرى لم يستغرق الظهور الشرفي لميرسر من فيلادلفيا إلا أحد عشر يوما فقط.

على أنّه لم يكن من السهل تجاهل هؤلاء المنشقّين الثلاثة، إذ كانوا مندوبين محترمين لعبوا دورا مركزيّا خلال الصيف. كان راندولف قد قدّم خطّة فرجينيا ثمّ شارك في لجنة راتليدج البالغة الأهمّية. أمّا جيري فقد ترأّس اللجنة الأولى للمؤتمر التي تبنّت تسوية فرانكلن لحلّ مأزق الولايات الكبرى في مواجهة الولايات الصغرى.

وكان مايسون شخصيّة ممتازة: فهو صديق الجنرال واشنطن، ورجل الدولة المسنّ المحترم،

والقوّة المحرّكة لمؤتمر ماونت فيرنون، في بداية الطريق إلى فيلادلفيا. لقد أحدث وقعا في نفوس كلّ الحاضرين في المؤتمر. ولم يكن أحد مندوبي جورجيا في حاجة إلى مؤهّلات خاصّة حين وصفه بأنّه «بلا شكّ أحد أفضل السياسيّين في أمريكا».

كان المنشقّون ثلاثة فقط، إلاّ أنّهم عكسوا وجهات نظر عديد الأمريكيّين الذين كانوا يخشون حكومة مركزيّة قويّة ستؤدّي إلى حكم الأرستقراطيّة أو حتّى الملكيّة. لكن في انقلاب يرقى إلى درجة الخيال، سيلعبُ انشقاقهم دورا كبيرا في النجاح الأخير للدستور الذي شكّوا في إنجازه.

قبل ذلك، في أغسطس، كان المندوبون يداعبون فكرة الانشقاق عن الدستور. فمع عرض مسوّدة ميثاق حقيقيّة، أثار تقرير لجنة راتليدج قدرا هائلا من الانشغال. ومثلما يتذكّرُ لوثر مارتن، دعا جيري إلى عقد اجتماعات بين أولئك الذين اعتقدوا بأنّ التقرير «ينحو إلى تدمير حقوق الولايات المتّحدة وحرّياتها». استضاف جيري ومايسون بعض الدورات للمتشكّكين حضرها مندوبون من كونكتكوت ونيوجيرسي وديلاوار وجورجيا وساوث كارولينا. وقد كتب مارتن أنّ تجمّع المنشقّين هذا كان يستهدف تنقيح المسوّدة «لجعلها أقلّ خطورة».

لم يكن تجمّع المنشقّين سرّا بالنسبة إلى المندوبين الذين عاشوا وعملوا في مثل هذه الأماكن القريبة. كان قادة المؤتمر، مثل ويلسون وراتليدج وماديسون وموريس، يعرفون كيفيّة إحصاء الأصوات. كانوا ينصتون لانشغالات المتشكّكين، يحاورونهم ويلفتون انتباههم إلى أهمّية الوصول إلى اتّفاق ويرتّبون معهم التسويات. غير أنّ مايسون وجيري وراندولف صمدوا. لقد وصل كلّ منهم إلى نقطة الانشقاق من سبيل مختلفة.

كان اعتراض راندولف هو الأقلّ حزما والأقلّ مبدئيّة والأقلّ جدارة بالاحترام. فبعد المؤتمر، كتب ماديسون بلباقة أنّ حاكم فرجينيا لم يوقع على على الدستور، لذا فإنّه سيكون «حرّا في الاحتكام إلى اعتبارات أخرى في هذا الشأن». وقد ألمح كاتب سيرة راندولف إلى أنّ الحاكم «كان يغطّي على كل خياراته حتّى يدعم الموقف الذي يبدو الأكثر شعبيّة في

اللحظة التي تُنْشَرُ فيها الوثيقة للعموم». تجنّب راندولف بفظاظة الكشف عن أوراقه خشية إغضاب الفرجينيّين، بينما كان باتريك هنري والآخرون متحفّزين للهجوم على الدستور. وبحلول اليوم الأخير من المؤتمر، شدّد راندولف على أنّه قد يدعمُ الدستور في لحظة ما من المستقبل.

عبّر راندولف عن اعتراضات محدّدة على مسوّدة لجنة راتليدج. وقد أصرّ على أن يمنح المؤتمر مجلس النوّاب سلطة حصريّة لإصدار الأوراق الماليّة. وأضاف أنّ رفض ذلك الشرط سيعرّضُ «سلامة هذه البلاد» للخطر. أثار راندولف المسألة يوم 13 أغسطس بلغة مؤثّرة:

لدينا مشكلات عديدة وهائلة، ونحن بالتأكيد لسنا في حاجة إلى الزيادة في عددها. وحين ينظر الناس إلى مجلس الشيوخ بمظهره الأرستقراطي وإلى الرئيس الذي يبدو مثل عاهل في أقلّ الأحوال، ألن يكون بوسعهم دقُّ نواقيس الخطر بما يكفي دون أن يأخذوا من ممثّليهم المباشرين حقّا كان لفترة طويلة مخصّصا لهم؟

في فترة لاحقة من شهر أغسطس، قال راندولف للمؤتمر إنّه «يفضّلُ المخاطرة بالدستور» على أن يوافق على الفقرة الشرطيّة التي دعمّتها لجنة راتليدج (التي عمل فيها) والتي تديم تجارة الرقّ وحظر فرض الضرائب على توريد العبيد. غير أنّ راندولف استاء من توصية لجنة ليفنغستون بشأن إلغاء شرط الثلثين المتعلّق بقوانين الملاحة. كانت هذه مسألة تهمّ ناخبي فرجينيا، ممّا دفع راندولف يوم 29 أغسطس إلى التهديد بأنّ:

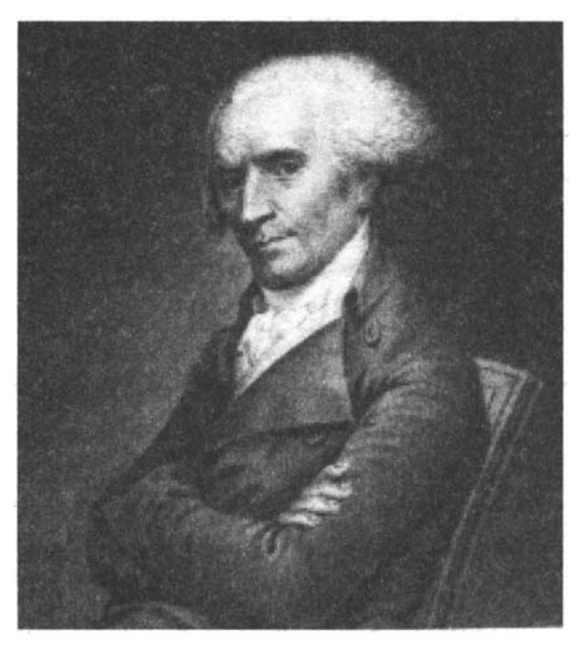
في الدستور صفات بغيضة مثلما يتّضح الآن، إلى حدّ أنّه شكّ في قدرته على الموافقة عليها. إنّ رفض المقترح (الذي يستدعي تصويت الثلثين في خصوص قوانين الملاحة) سوف يكمل رسم صورة لنظام منحرف.

شاطر جيري راندولف عدم ثقته بمجلس الشيوخ، ولكنّه كان يكره بالخصوص احتمال تشكيل قوّة عسكريّة قوميّة وجيش قائم الذات، وهو انشغال شاركه فيه قلّة من المندوبين الآخرين.

خلال أيّام المؤتمر الأولى دفعت تجربة تمرّد شايز جيري إلى معاداة الديمقراطيّة. فقد ذكر أنّ «أسوأ الرجال هم الذين يدخلون الهيئة التشريعيّة» في ماساتشوستس. وأضاف قائلا: إنّهم «رجال معوزون، جهلة ومن سقط المتاع، وهم لا يعدمون وسيلة مهما كانت قذرة لفرض أهدافهم على رجال يترفّعون عن الحيل المتّبعة». لقد عبّر عن شوقه لأمريكا التي لم يمض عليها سوى عقد من الزمن:

> في بداية الحرب، كنّا نملكُ أكثر من الفضيلة الرومانيّة، ويبدو لي الآن أنّ العكس هو الذي حصل. إنّنا نملك الآنِ من وسطاء سماسرة الأوراق الماليّة أكثر ممّا في بقعة أخرى من الأرض.

غير أنّ جيري، بحلول منتصف أغسطس، انقلب على نفسه. فقد أصبح قلقا من أنّ مجلس شيوخ متفرّدا بالسلطة سيكون أقوى من اللازم. وفي يوم 14 أغسطس اشتكى من أنّ مسوّدة صياغة الدستور «لم تكتسب يوما المواصفات الأرستقراطيّة الكاملة مثلما اكتسبته هذه الصياغة».



البريدج جيري (ماساتشوستس)

عبّر مندوب ماساتشوستس يوم الجمعة 17 أغسطس عن انشغاله بالشأن العسكري عندما ناقش المؤتمر مسألة ما إذا كان يمكن لحكومة قوميّة أن ترسل قوّات لمواجهة تمرّد حتّى وإن لم تطلب حكومة أيّ ولاية المساعدة. فبعد المعارك مع القائد شايز وأبناء ولايته، غدا من الصعب وصف المسألة بأنها أكاديميّة. قال جيري معترضا: من دون طلب الولايات جلب هذه القوّات، «سيكون ذلك بمثابة فكّ أسر عبيد الولايات المتّحدة». غير أنّ المؤتمر تجاهل اعتراضه.

في اليوم التالي تساءل جيري عن سهو وقعت فيه لجنة راتليدج، إذ لم يكن في تقريرها شيء يمنع وجود جيش دائم زمن السلم. وفي هذه النقطة تذكرُ المرويّات الشفويّة لحظتيْن أكثر استهتارا لم يسجّل ماديسون المتمسّكُ بالفضيلة أيا منهما. يُعتقد أنّ جيري استلهم مجاز القضيب الذكري في مقارنة عقدها بين انتصاب الجيش و«انتصاب العضو الذكري»، وكان ذلك «تأكيدا ممتازا للهدوء الداخلي، لكنّه مثّل إغراء خطيرا بالمغامرة الأجنبيّة». ولأنّ هذا المجاز صدر عن جيري فإنه كان ذا وقع خاصّ. وبعبارات الأب ميناسّة كتلر: «قلّة هم العزّاب المسنّون... الذين كانوا أكثر حظّا في الحياة الزوجيّة من جيري». فرغم أنّه كان يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما وكان متواضع المظهر (كان متواضعا إلى حدّ أنّ الأب كتلر قدّر عمره بخمسة وخمسين عاما) فإنّ زوجته وُصِفت بأنّها «شابّة جميلة جدّا وودودة للغاية».

بعد كلام جيري الجنسي الفاحش، طالب بألا يتجاوز عدد أفراد الجيش الدائم ثلاثين ألف رجل، وهو طلب استدعى ردّا من مصدر غير متوقّع. فقد اتّضح أنّ الجنرال الوقور واشنطن كان يتابع باهتمام. اقترح الجنرال في حديث جانبي أن تضاف إلى اقتراح جيري فقرة شرطيّة تنصّ على «ألاّ يغزو عدوّ أجنبي في أيّ وقت الولايات المتّحدة بجيش يفوق الثلاثة آلاف جندي». وهكذا بتنحيته عن كرسي الرئاسة فقد جيري الحجّة الكافية للإقناع.

بحلول 21 أغسطس كان جيري يميل إلى معارضة الدستور، وقد كشف لزوجته: «لا أخفي عنك سرّا إذا قلت لك أنني لا أتوقّعُ أن أمنح صوتي لهذا الدستور». ورغم ذلك لم

ينسحب من المعركة. فبعد يومين عارض بشدّة منح الحكومة القوميّة سلطة على ميليشيا الولايات واصفا ذلك بـ«نظام للاستبداد». قال جيري ساخرا:

فلندمّر حكومات الولايات فورا، وننشئ جهازا تنفيذيّا مدى الحياة أو قائما على الوراثة، ومجلس شيوخ مناسب، وبعدها سيكون ثمة نوع من الانسجام في منح سلطات كاملة للحكومة القوميّة.

بعد خمسة أيّام قاسم جيري زوجته مخاوفه من المستقبل. فقد كتب: «إني مغتمّ للغاية بسبب مداولات المؤتمر. وأنا شبه متيقّن أنّهم إن لم يتغيّروا، سيضعون وبشكل محسوس الأساس لحرب أهليّة». وبحلول 29 أغسطس كتب جيري: «لقد كنت متفرّجا لفترة من الزمن إذ أنّ مبادئي السياسبة مختلفة كثيرا عن مبادئ زملائي». وقد شرح جيري بعد ثلاثة أيّام أنه بقي في فيلادلفيا لسبب وحيد، وهو أن «أمنع زملائي من القول بأنني حطّمت» بعثة ماساتشوستس.

يبدو أنّ ماديسون أدرك رتبة المنشقّ بعد الآخرين. فقد كان الفرجيني، مثل راندولف وجيري، يكرهُ مجلس الشيوخ الأرستقرطي، وعبّر عن وجهة نظره في 8 أغسطس باستعارة مألوفة:

إنّ الجسم الارستقراطي، مثل المفكّ في الميكانيكا الذي يشقّ طريقه بدرجات بطيئة ويُطْبِق بسرعة على كلّ ما يحصل عليه، ينبغي أن يكون دائما في موضع اشتباه في نزوعه إلى تخطّي حدوده.

غير أنّ مايسون اعتبر بعد يومين، في 10 أغسطس، أن مسوّدة الدستور «تقوم على مبادئ سليمة». وخلال شهر أغسطس، انخرط في نقاش قاعدي حول إصدار الفواتير الماليّة، وحول الميليشيّات واستعمال الأوراق الماليّة وتحديد المكاتب التي يمكنُ لأعضاء الكونجرس أن يشغلوها. ورغم أنّ ملاحظات الفرجيني كانت لاذعة أحيانا فإنّه لم ييأس بصورة واضحة من حصيلة المؤتمر. فخلال النقاش حول تجارة الرقّ حذّر من أنّ الخطايا الوطنيّة تعاقَب بالكوارث الوطنيّة، ولكنّه عاد إلى الحديث بنبرة أكثر توازنا في الأيّام المقبلة.

تغيّر موقف مايسون بعد أن أنجزت لجنة ليفنغستون الثانية توصيتها بالتخلّص من شرط ثلثي الأصوات بخصوص قوانين الملاحة. ففي تحدٍّ لذلك الإجراء، بدا مايسون للمرّة الأولى مثل فرجيني ضيّق النظر:

هل يُتوقّعُ من الولايات الجنوبيّة أن تُسلّم نفسها مغلولة الأيدي والأرجل للولايات الشرقيّة وأن تسمح لها بالإعلان في مناسبة ما بعبارات كرومويل: «إنّ الله سلّمهم لنا خاضعين»؟

لم يكن جائزا اتّهامُ مايسون ببيع نفسه لنظام الناخب في فرجينيا الذي لم يكن أبدا ينوي مواجهته. غير أنّه عندما التحق بالمنشقّين بعد يوميْن، اضطرّ المندوبون الآخرون إلى لاستغراب من صنيعه ذاك. ففي نهاية المطاف، كان الفرجيني قد أعلن عن أنّه يفضّلُ «دفن عظامه» في فيلادلفيا على المغادرة بدون دستور.

في حوار مع جيفرسون قبل أسبوع واحد من وفاته سنة 1792، قال مايسون: إنّ المنعرج بالنسبة إليه تمثّل في الصفقة التي عُقدت حول تجارة الرقّ وقوانين الملاحة. إلى ذلك الوقت كان مايسون، بحسب ملاحظات جيفرسون، «سيبايع الدستور بيده وقلبه»، وفي رأيه أنّ التحالف بين نيوإنجلند وساوث كارولينا غيّر «المبادئ العظمى للدستور».

واصل المنشقّون الثلاثة نزاعهم على المسائل الكبيرة والصغيرة، فيما شارف المؤتمر على النهاية في شهر سبتمبر (غادر لوثر مارتن فيلادلفيا في 5 سبتمبر ولم يعد). وعندما اقترحت لجنة بريرلي أن يقوم مجلس الشيوخ باختيار الرئيس إذا لم يحظ أيُّ مرشَّح بأغلبيّة الناخبين، نبّه راندولف إلى أنّ بعض أجزاء الخطّة «سدّدت ضربةً شُجاعة للمَلَكيّة»، فيما ستفعلُ هذه الفقرة «الشيء نفسه للأرستقراطيّة». وقد وافق مايسون معلنا أنّه «يفضّل حكومة بروسيا» على هذا الترتيب الذي «سيثبّت أرستقراطيّة أسوأ من المَلَكيّة المطلقة». لقد اعترض مايسون وجيري على خطّة نائب الرئيس، أما مندوب ماساتشوستس فواصل تنديده بقيام جيش دائم.

في الأيام الأخيرة، عمل مايسون وجيري في لجان المؤتمر، وقدّما في بعض الأحيان تعديلات منسّقة في محاولة لتطويع المعاهدة لرؤيتهما. لقد أفلح مايسون في إدراج «الجرائم الخطيرة والجنح» في الفقرة المتعلّقة بالاتّهام النيابي، وأضاف إلى ذلك منح الولايات سلطة

فرض الضرائب على الصادرات لتسديد نفقات المراقبة.

وفي 10 سبتمبر تحرّك جيري من أجل إعادة النظر في طريقة تعديل الدستور، إذ لم تكن لجنة راتليدج قد سمحت إلا بطريقة واحدة للتعديل: إذا طلب ثلثا الولايات ذلك فإنّ الكونغرس يعقد مؤتمرا للنظر في التعديلات. والآن ها أنّ المندوبين أضافوا آليّة جديدة استعادوا بمقتضاها الفقرة الشرطيّة في مخطّط فرجينيا، وهي فقرة تسمحُ للكونغرس باقتراح تعديلات يتمّ التصديق عليها من قبل ثلاثة أرباع الهيئات التشريعيّة الولائيّة. لقد خلقت تلك المراجعة الأساسيّة الحاصلة في اللحظة الخيرة الآليّةَ التي سمحت بتبنّي التعديلات السبعة والعشرين كلّها.

رغم هذه النجاحات واجه المنشقّون أوقات عزلة. فقد وقفوا على مسافة من ستّة وثلاثين زميلا كانوا قد عملوا معهم مدّة أربعة أشهر. كانوا بصدد الانسلاخ عن مبادرة قوميّة مصيريّة مدعومة من أعظم شخصيّتين في أمريكا، الجنرال واشنطن والدكتور فرانكلن. فهل يكرّمهم الأمريكيّون لإيمانهم بمبادئهم؟ أم يستهينون بهم باعتبارهم مبتذلين وأنانيّين؟ ماذا سيقول التاريخ؟

إضافة إلى هذا، جلبت الأيّام الأخيرة من المؤتمر خلافات شخصيّة. فقد أصبح المندوبون مع ظهور خطّ النهاية للعيان أقلّ تسامحا في النقاش. وفي كتابة لاحقة وصف ماديسون مايسون في الأيّام الأخيرة بأنه «بالتأكيد في حالة مزاجيّة سيّئة للغاية» تعودُ إلى «عدد من العوامل الصغيرة المتولّدة جزئيّا عن الشعور بنفاد الصبر الذي ساد عند قرب نهاية الأشغال».

إلاّ أنّ مثابرة المنشقّين جوزيت في آخر لحظة ممكنة. فبحركة ملهمة أنشأوا إرثا ثمينا للأمّة.

بحلول 12 سبتمبر، وهو يوم أربعاء، بدا الجهد الذي بُذل مكتملا إلى حدّ بعيد. إذ كانت لجنة صياغة الأسلوب[1] المؤلّفة من خمسة أشخاص قد سلّمت المسوّدة النهائيّة للدستور

(1) عندما شارفت أشغال المؤتمر الدستوري على نهايتها يوم 8 سبتمبر 1787 سمّى المندوبون لجنة تكوّنت من وليام صموئيل جونسون من كونكتكوت رئيسا وألكسندر هاملتون من نيويورك والحاكم موريس من بنسلفانيا وجيمس ماديسون من فرجينيا وروفوس كينغ من ماستشوستس أعضاء، وسمّوا تلك اللجنة بلجنة صياغة الأسلوب. وكانت مهمّتها مراجعة أسلوب البنود المتّفق عليها وإعادة ترتيبها (م).

الجديد. وكان الحاكم موريس منهمكا في إعداد رسالة بيانيّة للكونغرس سترافق الميثاق الجديد. ويقينا أنّ الوقت لم يعد يكفي لإحداث تغييرات كبرى. أما المسائل الصغيرة فربّما كان بالإمكان ترتيبها.

أثار مندوب من نورث كارولينا مشكلة. فبالرغم من أنّ الدستور ضمن محاكمة بواسطة هيئة محلّفين في القضايا المتعلّقة بالجرائم، فإنّه بقي صامتا في شأن هيئات المحلّفين في القضايا المدنيّة. تحيّن جيري الفرصة، وقال إنه يتوجّبُ إحالةُ هذه المسألة إلى لجنة الأسلوب لإعداد فقرة إضافيّة عن حقّ المثول أمام محكمة تتوفّر فيها هيئة محلّفين. فوافق مايسون على ضمان توفّر هيئة محلّفين في القضايا المدنيّة، ورأى في ذلك فرصة كبرى:

تمنّى لو تمّ التمهيد للخطّة بوثيقة للحقوق، وأضاف أنه لو قُدِّم مقترح في هذا الشأن لدعّمه. فإنّ ذلك سيوفّر شعورا كبيرا بالراحة للناس، وبمساعدة بيانات الحقوق التي تملكها الولايات يمكنُ إعداد وثيقة في سويعات قليلة.

قام جيري بإعداد المقترح، ووفّر مايسون الدّعم الموعود. كانا يدركان أنه من الممكن إعداد وثيقة حقوق بسرعة، إذ كان لوثر مارتن قد أعدّ مسوّدة قبل مغادرة فيلادلفيا منذ أسبوع، إلا أنها لم تعرض على المؤتمر.

كان شيرمان مندوب كونكتكوت هو الوحيد الذي تكلّم ضدّ المقترح. لقد ساند «حقوق الشعب»، لكنّه كان متيقّنا من أنّ دساتير الولايات حمت تلك الحقوق بشكل مناسب. وهكذا صوّتت كلّ بعثة من الولايات ضدّ وثيقة للحقوق. كانت هناك أسباب وجيهة لإبطال مقترح مايسون– جيري، إذ أنه جاء متأخّرا جدّا وفاحت منه رائحة تشبه رائحة مناورة تأجيل. لقد حمت دساتير الولايات عديد الحقوق التي يمكنُ أن تكون كافية. وبعد أشهر، شدّد جيمس ويلسون على أنّه لا حاجة إلى وثيقة حقوق «بما أنّ الحرّية قد تكون متاحة، ويمكنُ ضمانها من دون هذه الوثيقة». زيادة على ذلك تساءل ويلسون: لم تعداد الحقوق إذا كان السهو عن ذكر أيّ حقّ «سيُعَدّ إسقاطا متعمّدا؟».

غير أنّه كان من السهل تفنيدُ هذه الأسباب، ذلك أنّ الميثاق الفدرالي «الأعلى» سيلغي

دساتير الولايات، كما كان يعلم ويلسون؛ وعلى أي حال، كان هو من كتب ذلك الجزء من الدستور. ثمّ إذا كانت وثيقة للحقوق غير ضروريّة، فلماذا تبنّتها إذن بنسلفانيا وسبع ولايات أخرى؟ ولماذا أدرجت دساتير ولايات أخرى قائمة من الحقوق المحدّدة باعتبارها غير قابلة للمصادرة؟

كان إسقاط وثيقة للحقوق خطأ سياسيّا فاضحا من الدرجة الأولى. فمن جملة الانتقادات العديدة الموجّهة إلى الدستور أثناء معركة التصديق لم يكن أيّ منها بالشدّة نفسها التي استهدفت غياب الحماية للحقوق الفرديّة، فكيف نَسِيَ زعماءُ الثورة الذين حاربوا البريطانيّين دفاعا عن الحرّية الأمريكيّة تضمين تلك الحقوق في الدستور؟

في معرض تفسير المنشقّين لرفضهم التوقيع على الدستور، أعدّوا عديد الاعتراضات، بدءا بافتقار البلاد إلى وثيقة للحقوق. لقد أدان ثلاثتهم مجلس الشيوخ الأرستقراطي، وكانوا كلّهم يخشون قدرة الكونغرس على سنّ قوانين «ضروريّة وملائمة لتنفيذ» سلطاته الأخرى. اعترض راندولف وجيري على سلطة حشد الجيوش من دون حدود. أما راندولف ومايسون فقد ألحّا على شرط ثلثي الأصوات في خصوص قوانين الملاحة. وأخيرا فإنّ مايسون لم يستطع هضم تواصل تجارة الرقّ.

تكهّن المنشقّون بحدوث فوضى كبيرة. كتب جيري: إنّ «سيادة الولايات أو حرّيّتها ستدمَّر». في حين تنبّأ راندولف بأنّ الدستور «سينتهي إلى حالة من الاستبداد». أما مايسون فلم يتمكّن من الحسم بين نهايتين منكَرتين:

ستبدأ هذه الحكومة مسيرتها في شكل أرستقراطيّة معتدلة: من المستحيل التكهّنُ في الوقت الراهن إن كانت، أثناء اشتغالها، ستفرزُ نظاما ملكيّا أو أرستقراطيّة فاسدة ومستبدّة؛ وغالبُ الظنّ أنّها ستتردّد لسنوات بين هذين الوضعيْن، ثمّ تنتهي إلى هذا أو ذاك.

رغم ثبوت خطأ هذه التكهّنات الرهيبة كان المنشقّون مطمئنّين إلى قدرتهم على طلب إنجاز وثيقة للحقوق في اللحظة الأخيرة. لقد أصبح ذلك الطلبُ نقطة تجميع كبرى لمعارضي التصديق على الدستور. ومثلما قال باتريك هنري لمؤتمر فرجينيا للتصديق:

لديكم وثيقة حقوق تحميكم من حكومة الولاية المسلوبة من أي سلطة، غير أنه ليس لديكم أيّ شيء في مواجهة الكونغرس رغم امتلاكه الكامل والحصريّ لكلّ سلطة! إنّكم تتسلّحون ضدّ الضعفاء والعزّل، وتعرّضون أنفسكم وأنتم عراة للمسلّحين والأقوياء».

وافق جيفرسون من فرنسا على أنّ وثيقة للحقوق أمر أساسي: «إنّها الوثيقة التي لا يمكنُ لحكومة عادلة رفضها».

أثناء معالجة موضوع تصديق المؤتمر في نورث كارولينا، أبدى تشارلز بينكني صراحة قويّة في الحديث عن سبب عدم دعمه لوثيقة للحقوق، فقال: «إنّ مثل هذه الوثائق عادة ما تبدأ بالإعلان عن أنّ كلّ الناس يولدون أحرارا. وعلينا أن نعلن الآن عن ذلك بتأنّق رديء جدّا، في الوقت الذي يتكوّن فيه جزء كبير من ملكيّتنا من رجال ولدوا في الواقع عبيدا».

رغم أنّ الولايات صدّقت على الدستور من دون توفّر وثيقة للحقوق، فقد صوّت البعض لصالح تعديلات أرادوا إضافتها. ففيما اقترحت فرجينيا إعلانا للحقوق يتضمّن عشرين عنصرا، طرحت ماساتشوستس تسعة تعديلات، ونيوهمشاير اثني عشر، ونيويورك أكثر من ثلاثين. أما نورث كارولينا فدعت إلى إعلان للحقوق بعشرين بندا وستّة وعشرين تعديلا. وقد ردّ الكونغرس الأوّل على هذا السيل الجارف من المطالب الشعبيّة. وبحلول 25 سبتمبر 1789، وافق الكونغرس على اثني عشر تعديلا للدستور دخلت بعد سنتين عشرة منها حيّز التنفيذ على أساس أنّها وثيقة الحقوق (Bill of Rights).

تتضمّن تلك التعديلات الحقوق التي يتعلّق بها الأمريكيّون أكثر من أيّ شيء آخر ويربطونها بالدستور، وهي حرّية التعبير والعبادة والصحافة والحماية من التفتيشات اللامعقولة وحقّ المثول أمام هيئة محلّفين في القضايا ذات الطابع الإجرامي والمدني وضمان التقاضي المستحقّ وفق القانون والوعد بالتعويض العادل إذا انتزعت الحكومة أملاك الناس وحظر العقوبات الوحشيّة وغير العاديّة. لقد تظافرت عديد الأيادي والأصوات لجلب تلك الحقوق إلى حيّز الوجود، وعملت أياد وأصوات أكثر من ذلك طوال قرون للحفاظ عليها، إلا أن أول تلك الأيادي والأصوات كان لجورج مايسون وألبريدج جيري.

الفصل التاسع عشر

رغم كلّ سلبيّاته

8 – 17 سبتمبر

بطريقة تكادُ تكون فجائيّة ومع نهاية الأسبوع الأوّل من سبتمبر، شارفت المهمّة على النهاية.

في يوم السبت 8 سبتمبر وبعد أن حُلّت الأسئلة المتعلّقة بالرئاسة، كانت قوّة الدفع باتّجاه النهاية قويّة. ففي ذلك الصباح لم تتمّ الموافقةُ إلا على واحد من التعديلات السبعة المتعلّقة بإبرام المعاهدات.

تواصلت المداولات بنسق حثيث، واتّجه انتباه المندوبين إلى التقرير النهائي لبريرلي، وهو تقرير وفّر تسوية للمسألة المضجرة المتعلّقة بإصدار الأوراق الماليّة. اقترحت اللجنة منح مجلس النوّاب سلطة حصريّة لإصدار الأوراق الماليّة، ولكنّها سمحت لمجلس الشيوخ بالقيام بكلّ تعديل يرغب فيه. لقد جعلت التسوية سلطة مجلس النوّاب بعيدة من أن تكون حصريّة. وبعد قليل من النقاش وقع تبنّي المقترح، وانتصرت الولايات الصغرى مرّة أخرى.

لقد حان الوقت لالتقاط الأنفاس. مرّة أخرى كان لا بدّ لأحد من جمع مسوّدة الدستور التي لُفِّقت أجزاؤها من مسوّدة لجنة راتليدج ومن تقارير اللجان الخمس التي عملت خلال شهر أغسطس ومن تعديلات المؤتمر. ولإنجاز المهمّة انتقى المندوبون لجنة أسلوب مكوّنة من خمسة أشخاص. وبتسمية هذه اللجنة الأخيرة، لم يدّع المندوبون إقامة توازن جغرافي بين الجهات أو بين الولايات الصغرى والولايات الكبرى، أو بين أولئك الذين ينشدون إقامة حكومة مركزيّة قويّة وأولئك الذين يفضّلون حقوق الولايات.

كان رئيس اللجنة رجلا مسنّا ووجها توفيقيّا، وهو مندوب كونكتكوت، جونسون. إلا أن الأعضاء الأربعة الآخرين كانوا في الثلاثين من عمرهم، وهم جميعا معادون لمنح الولايات سلطات واسعة، كما أنهم كلّهم منحدرون من ولايات كبرى متعدّدة الأجناس. وسيلحظ أولئك الذين يبحثون عن تأثير الجنرال واشنطن أنّ ثلاثة من أعضاء اللجنة كانوا محسوبين عليه، وكان أربعتهم جميعا أشخاصا لامعين.

كان ثلاثة منهم قد وجدوا خلال الصيف الكثير مما يجمعهم. فقد نال جيمس ماديسون وروفوس كينغ والحاكم موريس مواقعهم تلك بفضل عملهم الجادّ واشتراكهم غالبا في الدفع من أجل تعزيز حكومة قوميّة، على أنّ العضو الآخر في اللجنة شكّل اختيارا مفاجئا.

كان ألكسندر هاملتون قد أمضى من الوقت بعيدا عن فيلادلفيا أكثر مما أمضاهُ هناك، ولم يعد إلا قبل ثلاثة أيّام من تعيين هذه اللجنة. ولم يستطع حتى الإدلاء بصوته. ومع استمرار عضوين من نيويورك في مقاطعة المؤتمر لم تكن للولاية بعثة حاضرة بشكل رسمي. في الأسبوع الثالث من شهر يونيو، مثّل خطاب هاملتون الذي استغرق يوما كاملا فشلا محرجا. وبالفعل، لاحظ هاملتون في اليوم الأخير للمؤتمر أنّه «ما من أفكار بعيدة من روح الدستور مثل أفكاري». إلاّ أنّه بفضل مواهبه التي لا يرقى إليها الشكُّ والتزامه بقيم الأمّة الجديدة، ضُمَّ إلى هذه اللجنة النهائية.

ائتمن المندوبون هؤلاء الرجال الأصغر سنّا على اللجنة متجاهلين الاعتبارات السياسيّة لأنّ عملهم كان إسناديّا بالأساس. كتب ماديسون أنّ مهمّتهم كانت تتمثلُ في «مراجعة أسلوب البنود التي وافق عليها مجلسُ النوّاب، وترتيبها». وحسب ملاحظات الدكتور ماك هنري، كان من المتوقّع أن تقوم اللجنة «بمراجعة تلك الأجزاء العديدة وإدراجها تحت عناوينها المناسبة».

بعد ذلك الصيف الطويل من النزاع، اقترب المؤتمر من الوصول إلى قمّة بدت ضخمة الملامح، وكان احتمال مغادرة فيلادلفيا مُسمّما للأجواء، كما راسل كلّ من راندولف وجيري ودايتون من نيوجيرسي عائلته للإعلام بعودتهم القريبة. وحتّى الجنرال واشنطن

سمح لنفسه بذلك القدر من الرغبة في العودة، معترفا: «إنّني أشعر بالغربة حقّا».

توقّع أحد مندوبي نيوهمشاير أن يدعّم الدستور قيمة الدَّيْن العمومي والعملة الورقيّة. وفي نسخة من الخبير التجاري تعود إلى القرن الثامن عشر (وإن كانت موجّهة لصالح الهيئات العموميّة)، حثّ حاكم ولايتِهِ على الانقضاض على الفرصة المتوفّرة في السوق ودفع المدن إلى إعادة شراء السندات والأوراق الماليّة التي انخفضت قيمتها. وإن لم تفعل ذلك، فستكونُ هذه المدن «مضطرّة إلى شرائها من السماسرة والباعة المتجوّلين والمضاربين والمتلاعبين بما يعادلُ ستّ أو ثماني مرّات قيمتها الحاليّة».

عزف وليام ليفنغستون على وتر ساخر في رسائل بعثها إلى صهره، جون جاي. فقد أخطره في 4 سبتمبر بأنّ «الجبال ستتمخّض قريبا»، وحذّر من أنّ التأجيل المتكرّر للمؤتمر جعل الناس «يخشون أن يلد المؤتمر.. فأرا أقلّ من خشيتهم أن يلد وحشا خرافيّا مروّعا». وبعد أسبوع، اشتكى ليفنغستون من أنّ تاريخ عودته «قد حُجِب بسبب وجود مخلوقات في هذا العالم معجبة بخطاباتها الشخصيّة أكثر من قدرتها على إقناع أيّ طرف آخر».

لم يتمكّن المندوبون من المغادرة إلا بعد إعداد آخر وثيقة، ومع ذلك أصبح لديهم مزيد من الوقت للانصراف إلى شؤونهم الخاصّة. ازدادت قلوبهم انشراحا، وقد ساعد هواء سبتمبر المنعش على ذلك. أمضى العجوز روجر شيرمان أمسية على ضفاف نهر شويلكل مع أحد مندوبي نيوهمشاير ورجلين من فيلادلفيا يعملان في إصطبل.

استأنف الجنرال واشنطن تجواله في المدينة. وفي جولة الأحد توقف في حدائق بارترام النباتيّة وزار الدكتور فرانكلن لفحص «مجفّفة» وهي آلة «لعصر الملابس بعد غسلها عوض كيّها». وبناء على تجربته العمليّة قدّر الجنرال أنّ هذه الأداة ستعمل بشكل جيّد إذا استخدمت لعصر «مفارش الموائد والملابس التي لا تحتوي ثنيات أو طيّات غير منتظمة، وستكون مفيدة جدّا للعائلات الكبيرة». وفي أحد الأيّام تناول الجنرال واشنطن الغداء في فندق مسز هاوس، وقد يكونُ فعل ذلك للتباحث مع ماديسون ومندوبين آخرين كانوا يقيمون هناك، كما شرب الشاي مع عائلة بنغهام الراقية. وبصورة غير رسميّة، التقى مرتين دييغو غواردوكي ممثّل

إسبانيا الذي وصل حديثا، إذ ربّما كان يمسك بمفتاح التجارة على نهر ميسيسيبي. وقد أعدّت فرقة فيلادلفيا لايت هورس حفل عشاء على شرف الجنرال، كما دعي إليه آخرون من قبل الدكتور فرانكلن وتشارلز بيدل، نائب رئيس بنسلفانيا.

في الوقت الذي بدأ فيه بعض المندوبين يخلد إلى الراحة، ظلّت شهيّة ماديسون للعمل متيقّظة. فقد روى الفيرجيني في كتاب وجّهه إلى جيفرسون يوم 6 سبتمبر أن ذلك اليوم كان «أوّل يوم يتحرّر فيه من أعباء اللجنة قبل أوقات المؤتمر وبعدها». ورغم أنّ ماديسون كان لا يزال تحت طائلة قانون السرّية، فإنّه قد قدم نظرة شاملة عن الحكومة الجديدة متعهّدا بأن يصبح الدستور في متناول العموم قبل وصول رسائله إلى فرنسا بوقت طويل. كان لا يزال محبطا لعدم امتلاك الكونغرس سلطة نقض قوانين الولايات. واشتكى أيضا من أنّ الخطّة لن «تمنع حدوث حالات من الأذى على الصعيد المحلّي، الأمر الذي يثير في كلّ مكان الاشمئزاز من حكومات الولايات».

كتب ماديسون بعصبيّة عن الأمّة وهو وراء القاعة الشرقيّة لدار الولاية. فقد أكّد لجيفرسون «ألا شيء يمكن أن يفوق حالة التلهّف العامّ إلى الحدث المتمثّل في هذا الاجتماع». لقد كثرت التقارير والتخمينات حول طبيعة الخطّة التي سيقع اقتراحها». ويمكن رصدُ توق الناس إلى الأخبار في تقرير صدر أواخر شهر أغسطس بإحدى جرائد فيلادلفيا. كانت الجريدة ترغب في إعادة طمأنة قرّائها رغم أنها لا تملك أيّ خبر تبلّغه، فانحدرت إلى مدح العادات اليوميّة لعمل المندوبين:

إنّ التزام أعضاء المؤتمر بدقّة المواعيد في اجتماعهم كلّ يوم في ساعة ما، والوقت الطويل الذي يمضونه في المداولات كلّ يوم (سبعة ساعات أحيانا) لدليلان يثبتان من بين أشياء أخرى، كم أنّهم جديرون بالثقة الشاملة للشعب الأمريكي.

اعترف ماديسون لجيفرسون بأن الرأي العامّ «يجهل فعلا» الدستور الجديد، ولكنّه كان أكثر انزعاجا لكون «المؤتمر يجهل أيضا نوعيّة القبول الذي سيلقاه الدستور». فهل سيهتف الناس له، أم سيشتمونه؟ ورغم أنّ «بعض الأشخاص سيشنّون حربا على أيّ إصلاح»، أمل

ماديسون أن يقبل الأمريكيون «أيّ شيء يعدُ باستقرار المجالس العموميّة وأمن الحقوق الخاصّة». إلاّ أنّه أضاف قائلا: «إذا أضعنا اللحظة الراهنة، فمن الصعب أن نعرف ما قد يكون عليه مصيرنا».

اتّضح أنّ لجنة الأسلوب كانت فرصة الحاكم موريس للتعويض عن أدائه المتقلّب خلال الصيف. فمثلما اعترف بعد سنوات: «لقد كُتب الدستور بالأصابع التي تكتب هذه الرسالة». وقام ماديسون بتأكيد الادّعاء، إذ كتب سنة 1831 أنّ جونسون رئيس اللجنة طلب من موريس و«بالاتّفاق الجاهز مع الآخرين» أن يُعدّ المسوّدة الأخيرة.

لكن لماذا موريس؟ للوهلة الأولى، يبدو الاختيار محفوفا بالمخاطر، إذ لم يكن متّفقا مع المؤتمر في عديد النقاط. وبالنسبة إلى الجنوبيين كان مزعجا، وكان يدين العبوديّة بأشدّ العبارات قسوة، وكان أيضا معارضا للمساواة مع الغربيّين، ولطلب الولايات الصغرى الحصول على أصوات معادلة للولايات الكبرى في مجلس الشيوخ. ولا بدّ أن تكون ثرثرته قد أزعجت أكثر من مجرّد عدد قليل من المندوبين. ففي أغلب الأحيان، كان يتكلّم أكثر من أيّ مندوب آخر، رغم تغيّبه ثلاثة أسابيع في شهر يونيو.

غير أن ميزتين هما اللتان جعلتا موريس الشخص المناسب للمهمّة. فمثلما اعترف ماديسون بعد سنوات، كان مندوب بنسلفانيا يملك موهبة التعبير عن نفسه بوضوح، وهي موهبة قدّرها ماديسون عاليا باعتبارها من خصائص كاتب المؤتمر. وكتب ماديسون «إنّ سلامة لغة موريس تناسبُ بشكل خاصّ شخصا يعمل مقرّرا». فبعد تعديلات وتعديلات مضادّة كسيت البنود الرئيسة لتقرير لجنة راتليدج طبقات من اللغة تشوّش الأذهان أكثر ممّا تنيرها. وسيكون موريس في مستوى المهمّة ليعالج الجمل الملتوية والمعقّدة، ويعيد ترتيب الوثيقة بكاملها.

وبالدرجة نفسها من الأهمّية، كان موريس مستعدّا للعمل مع أولئك الذين يفوقونه دهاء. فقد لاحظ ماديسون أنّ موريس أضاف :

إلى عبقريّته اللامعة شيئا نادرا جدّا، وهو التنازل بطيب خاطر عن آرائه إذا اقتنع في ضوء النقاش بأنّ تلك الآراء صيغت بشكل متسرّع جدّا، والاستعداد للمساعدة في صنع أفضل القرارات التي سبق أن لقي اعتراضا في شأنها.

كانت روح التعاون لدى موريس أساسيّة في هذه المرحلة. لقد ولّى عهد ذلك النوع من المصادرة التي كان راتليدج يمارسها في لجنة التفصيل. وهكذا كان لا بدّ للمسوّدة أن تكون وفيّة لأعمال المؤتمر، وكان موريس جديرا بالثقة الكافية للقيام بذلك.

ولأنّ المؤتمر كان كلّه في انتظاره، عمل موريس بسرعة. ففي البداية اجتمعت لجنة الأسلوب مساء السبت، 8 سبتمبر. وبعد أربعة أيّام، وزّعت نسخة مطبوعة من الدستور على المندوبين، في صباح الأربعاء 12 سبتمبر.

كان موريس يقيم عند السيّدة بيلي بماركت ستريت لأنّ بيته الحقيقي في نيويورك، وإن كان مندوبا عن بنسلفانيا. وأثناء جلوسه إلى طاولة الكتابة في الغرفة التي حجزها، لمحت عينه الناقدة البنية المعقّدة لتقرير لجنة راتليدج. تضمّن التقرير ثلاثة وعشرين بندا، فألقى بالفصلين الأوّلين جانبا باعتبارهما زائدين عن الحاجة، ثمّ قام بتوحيد الفصول السبعة اللاحقة. وبتقدّم الأمور اكتسب العمل إيقاعه الذاتيّ.

بعد أن جمّع موريس الفقرات ذات الصلة وفرض بنية مبسّطة، اختزل البنود الثلاثة والعشرين في سبعة فقط، وأفرد بندا واحدا لكلّ من الكونغرس والسلطتين التنفيذيّة والقضائيّة. ووصف الفصل الرابع كيفيّة تفاعل الحكومة مع الأفراد والولايات، أمّا الفصل الخامس، فتناول مسألة التعديلات. ومن ناحية أخرى، ثبّت الفصل السادس علويّة الحكومة القوميّة، وتولّى ديون الكنفدرالية وحجّر الاختبارات الدينيّة للحصول على مناصب. وأعلن الفصل الأخير أنّ الدستور سيصبحُ نافذ المفعول إذا صدّقت عليه تسع ولايات.

لقد بسّطت التركيبة الجديدة الميثاق، وهو واقع عزّزه موريس بفضل دقّة التحرير؛ وكان المثال الجيّد على ذلك هو إسناد المقاعد في مجلس النوّاب. أمّا التسوية النهائيّة فكانت مركّبة: أُسند إلى كلّ ولاية عدد محدّد من الممثلين في أوّل انتخابات، إلا أنّه سيتمّ في المستقبل إسنادُ

المقاعد بحسب مجموع عدد السكّان. لقد شرح تقرير لجنة راتليدج التسوية في ثلاث فقرات امتدّت على طول 268 كلمة، ووضعها موريس في فقرة واحدة تقلّ بمائة كلمة عن تقرير لجنة راتليدج.

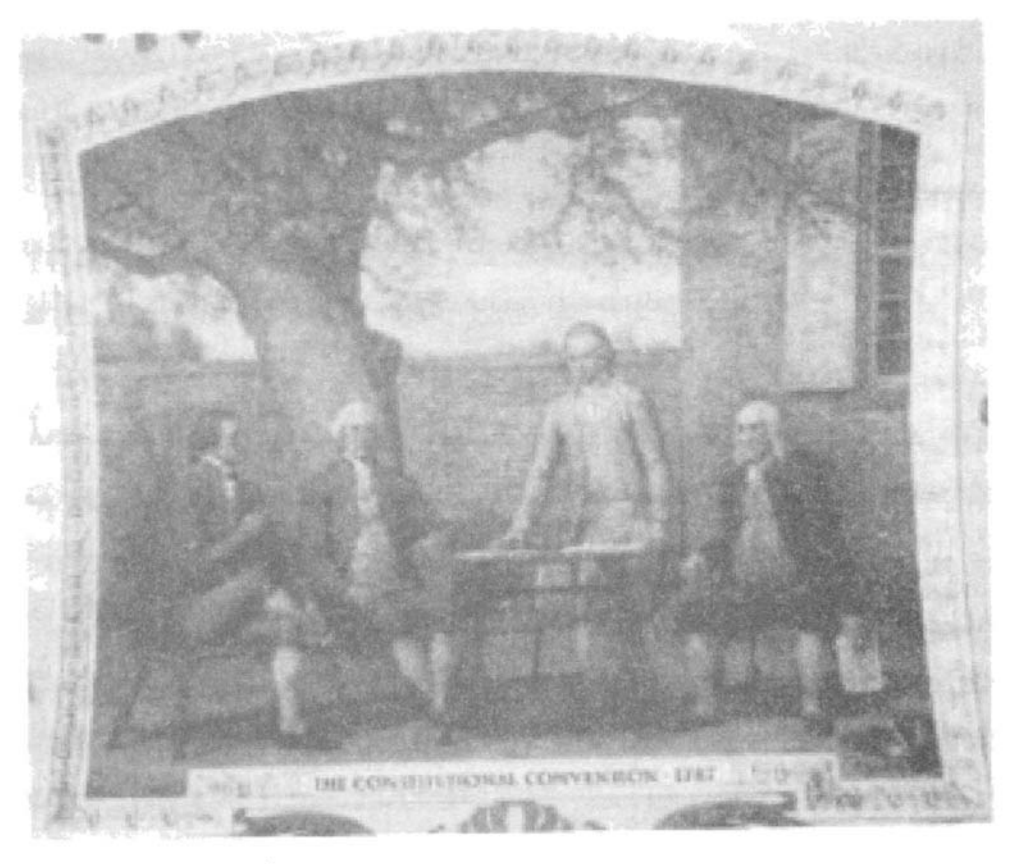
إضافة إلى ذلك، ألّف موريس ديباجة جديدة. وكُتبت أناشيد في مدح التغيير الذي أدخله على مدخل الدستور من «نحن شعوب ولايات نيوهمشاير وماساتشوستس»، إلخ... إلى «نحن شعب الولايات المتّحدة...». وهكذا، فمن خلال عدم إحالته إلى كلّ ولاية على حدة، أعلن موريس قيام حكومة جديدة مبنيّة على موافقة الشعب. ويقول المنظّرون بحماس هنا إنّ السيادة الشعبيّة تقف على أسس ثابتة.

ثمّة سبب عملي يساعد على تفسير التغيير، فقد كان إدراجُ الولايات في قائمة سيبدو عملا متعجرفا وحتّى أحمق لأنّ تصديق كلّ ولاية على حدة لم يكن نتيجة محسومة مسبقا. وبالفعل ظلّت ولايتا رود آيلند ونيويورك غائبتين إلى حدّ ذلك الوقت.

ثمّة قدر أكبر من الإجماع يحيطُ بتوازن ديباجة موريس، وهو توازن يرشح بأهداف الحكومة: «إقامة العدالة، وضمان الاستقرار الداخلي، وتوفير أسباب الدفاع المشترك وتأمين نعم الحرّية لنا ولأجيالنا القادمة». لقد كُتبت دساتير عديدة منذ ذلك الوقت، كان لفرنسا أكثر من عشرة منها، فيما يتوفّر حاليّا ما يناهز المائتي دستور حول العالم، ناهيك عن المواثيق الدوليّة، مثل البيان العالمي لحقوق الإنسان ومسوّدة دستور الاتّحاد الأوروبي. غير أنّه لا أحد منها يفوق ديباجة موريس، وقليلة هي الدساتير التي تنافسها. لقد استحسن ماديسون «الموهبة والذوق اللذين طبع بهما المؤلّف» الدستور: «لم يكن بالإمكان اختيار شخص أفضل من موريس، مثلما أثبت ذلك إنجازه للمهمّة».

لم تبتعد لجنة الأسلوب عن جهود المؤتمر إلا في نقطة واحدة. ففي 22 أغسطس حثّ روفوس كينغ على منع الولايات من التدخّل في شأن العقود الخاصّة، غير أنّ المؤتمر لم يصوّت قطّ لصالح مقترحه. وبعد أن أحيا المسألة في قاعة اللجنة، لقي كينغ نجاحا أكبر. فقد أدرج موريس مادّة تقضي بألا تسنّ أيّ ولاية قانونا «يغيّر من العقود المستوجبة أو يفسدها».

أنجز موريس وثيقتين بالإضافة إلى الدستور. تضمّنت الأولى قرارين يوضّحان كيفيّة التصديق من قبل المؤتمرات «التي اختارها الشعب في كلّ ولاية». ومع تصديق تسعة ولايات، تضع القرارات الخطوات المتّبعة لاختيار الكونغرس وناخبي الرئيس، وإنشاء حكومة جديدة. وحتّى شخص محنّك مثل موريس لا بدّ أن يكون قد شعر برعشة وهو يدوّنُ تلك الإجراءات.



هاملتون وويلسون وماديسون رفقة الدكتور فرانكلن تحت تُوتَتِهِ

كانت آخر وثيقة لموريس، وهي رسالة ترافق إحالة الدستور إلى الكونغرس الكنفدرالي، مسألة أكثر تواضعا. أقرّت الرسالة بأنّه «يجب على الأفراد المنضمّين إلى المجتمع أن يتنازلوا

عن جزء من الحرّيّة للاحتفاظ بالبقيّة». ورغم أنّه يظلّ دائما من الصعب «أن يُرسم بدقّة الحدُّ الفاصل بين تلك الحقوق التي يتوجّب التنازل عنها وتلك التي يمكن الاحتفاظ بها»، كانت الصعوبة في المؤتمر أكبر بسبب «الفارق بين عديد الولايات بشأن وضعها، وامتداد رقعتها الجغرافيّة، وعاداتها واهتماماتها الخاصّة». لذلك شدّد موريس على أنّ هذا الدستور هو دستور التسويات:

كانت كلّ ولاية أقلّ تصلّبا في مسائل لا ترقى إلى الأهمّية التي كان من المتوقّع أن تحظى بها، لذلك فإنّ الدستور الذي تقدّمه الآن هو ثمرة روح الوئام والاحترام المتبادل والتنازل الذي صار ضروريّا بحكم خصوصيّة وضعنا السياسي.

رغم أنّ موريس هو الذي ألّف المسوّدة الأخيرة، فإنّه كان متحفّظا في مدح الدستور، فقد كتب: «إنّي لم أقبله كما يقبل رجل زوجته، في السرّاء والضرّاء فقط، بل مثلما يفعل قلّة من الرجال إزاء زوجاتهم، لقد قبلته وأنا مدرك كلّ صفاته السلبيّة».

تسلّم المؤتمر يوم الأربعاء 12 سبتمبر مراجعة موريس. وخلال اليومين التاليين، اشتدّ الدفعُ باتّجاه النهاية رغم أنّ قلّة كانت تقاومُ ضدّ التيّار القوي. وقد ألقى جورج مايسون محاضرة في توقيت غير مناسب «حول الغلوّ في سلوكنا، والاستهلاك المشطّ للبضائع الأجنبيّة الزائدة عن الحاجة وضرورة الحدّ منها». كان المندوبون متلهّفين لإسكات الفيرجيني، فعيّنوا لجنة من المندوبين الخمسة الأكبر سنّا (من دون نقاش) للنظر في الحاجة إلى اتّخاذ «إجراءات محدِّدة للنفقات»، مثل تلك التي كان هنري الثامن اتخذها للحدّ من الملابس التي ترتديها طبقات شعبيّة مختلفة. كان من الحكمة إذن ألاّ ترفع اللجنة أيّ تقرير إلى المؤتمر، وألاّ يوجد أيّ محضر لاجتماعها.

أصبحت الأمورُ أكثر توتّرا حين انخرط موريس في جدال فارغ حول كيفيّة إحصاء الأيّام بشأن «فيتو الجيب» الممنوح للرئيس. ابتدأ التصويت بينما كان موريس في منتصف إلقاء خطبته المنمّقة «لأنّ عددا من الأعضاء قد نفد صبرهم إلى حدّ كبير».

أنكر المندوبون على الكونغرس سلطة مدّ القنوات، وتأسيس الشركات أو الترخيص في

إحداث جامعة قوميّة. كما رفضوا إعطاء الضمانات بإجراء المحاكمات أمام هيئة محلّفين في القضايا المدنيّة، وحرّية الصحافة. وفي رفض للمقترح الأخير، شدّد روجر شيرمان على أنّ «سلطة الكونغرس لا تشمل الصحافة».

جاء الدفق الأخير من النشاط ذات سبت طويل جدّا من يوم 15 سبتمبر. فمن جملة أكثر من 24 عمليّة تصويت، لم يوافق المندوبون إلا على تغيير واحد مدرجين الطريقة الثانية لتعديل الدستور في صلب عمل الكونغرس وتصديق الولايات.

بعد ذلك، لم تعد هناك أيّ مقترحات أخرى، فقد وقف إدموند راندولف، الرجل الذي افتتح المداولات من مائدة فرجينيا، وسط القاعة. وبعد أن أقرّ «بالمعاناة التي أحسّ بها لمباينته عموم الحاضرين في المؤتمر»، ألحّ مجدّدا على أن يُسمح للولايات باقتراح تعديلات خلال مؤتمر ثان. كما شدّد مايسون، في مساندة لإدموند راندولف، على سرّيّة مداولات المؤتمر، وهو ما عنى أنّ الدستور قد «أنشئ من دون معرفة الشعب ومن دون أن يكون له رأي في شأنه». وأضاف قائلا: «إنّ مؤتمرا ثانيا سيكون أكثر إدراكا لإحساس الشعب، وسيكون قادرا على توفير نظام أكثر تناغما معه». وعبّر تشارلز بينكني عن أسفه «لهذه التصريحات الصادرة عن أعضاء يحظون بدرجة عالية من الاحترام». غير أنّ الولايات كلّها صوّتت ضدّ مقترح راندولف.

كانت الساعة تشير إلى حوالي السادسة مساء، وكان المندوبون مجتمعين منذ ثماني ساعات دون استراحة. ورغم أنّهم كانوا مرهقين ولم يتناولوا طعامهم، فإنّ جلال اللحظة لم يكن لتخطئه العينُ. ومع بدء المداولات، نادى كاتب المؤتمر إلى تصويت نهائي على «الدستور معدّلا». لم تجب نيويورك ورود آيلند، وكذا فعلت نورث كارولينا، إذ قد يكون مندوبوها غادروا بحثا عن العشاء. أمّا الولايات العشر الباقية فصوّتت كلّ منها بنعم.

إنّ كل ما تبقّى هو إدراج التغييرات الأخيرة في الوثيقة، والتوقيع عليها. وكان أمام المندوبين يوم الأحد لإعداد ترتيبات السفر.

في ذهن الرأي العامّ، كان مندوبان قد تفوّقا بشكل بارز على الآخرين. وقد لخّص جون أدامز باستياء ساخر الرواية الشعبيّة لولادة الأمّة:

ما إن ضرب عمود الدكتور فرانكلن الكهربائي الأرضَ بشدّة حتّى برز الجنرال واشنطن. فشحنه فرانكلن بعموده. ومن ثمّ قاد هذا الثنائيّ كلّ السياسات والمفاوضات والتشريعات والحرب.

بالرغم من أنّ الجنرال والدكتور كانا أكثر المندوبين بروزا فقد اجتنبا خلال الصيف في أكثر الأحيان لعبة الشدّ والجذب التي مورست في المؤتمر. ومثلما كتب مندوب من نورث كارولينا في شهر يوليو، تصرّف المندوبان «بحذر لا يُصدَّق» وعيا منهما بالوقع الخاصّ لأفعالهما وأقوالهما.

وحين تعلّق الأمرُ بتصوّر تركيبة الحكومة وتحليل المقترحات المضادّة وعقد تسويات وشقّ الطريق لإبرام الصفقات، تولّى جون راتليدج وجيمس ويلسون وجيمس ماديسون والحاكم موريس وأوليفر إلسوورث وجورج مايسون قيادةَ المؤتمر. جلس مايسون في مقدّمة القاعة، وكان رصين المظهر لكنّه صامت. أمّا فرانكلن فلم يكن مشاركا منتظما. غير أنّ الدكتور فرانكلن والجنرال واشنطن عادا في اليوم الأخير من المؤتمر، مع انتهاء العمل، إلى موقعيهما الطبيعيّين في مركز القاعة. لقد أدّيا الأدوار التي لا يمكن لغيرهما أداؤها، أدّياها على الوجه الأكمل.

طوال الشهر السابق، تحدّث الدكتور فرانكلن قليلا، وكان ذلك في أغلب الأحيان دفاعا عن المنشقّين. فحين دعا جورج مايسون إلى إنشاء مجلس تنفيذي لمساعدة الرئيس، أيّد فرانكلن المقترح بحرارة. وحين حثّ راندولف على أن يُسمح لمؤتمرات الولايات باقتراح تعديلات للنظر في عقد مؤتمر ثان، دعّم فرانكلن المقترح.

بعد أن كسب فرانكلن جولات انتخابيّة عديدة، وتقديرا منه للدور الذي يؤدّيه باعتباره أكبر المندوبين سنّا، صمّم على لأم الجراح التي انفتحت خلال الصيف الطويل. وبعد أن تلا الكاتب النسخة النهائيّة من الدستور يوم الاثنين 17 سبتمبر، وقف فرانكلن «وبيده نصّ

خطاب»، ومثلما فعل سابقا طلب من ويلسون قراءته، كما سلّم ماديسون نسخة لضمان حفظها للتاريخ. لقد كانت تلك النسخة بما تضمّنته من حكمة وتواضع وبعد نظر تستحقّ أن يُحتفظ بها.

بدأ فرانكلن بالقول: «إنّ في الدستور أجزاء لا أوافق عليها في الوقت الراهن». وبعد أن أضاف مجموعة من السلبيّات المربكة قال: «لست متأكّدا إن كنت سأوافق عليها أصلا». على امتداد حياة طويلة أجبِر فرانكلن

بسبب حصولي على معلومات أفضل أو تقدير أشمل للأوضاع على تغيير آراءَ... كنت أعتقد للوهلة الأولى أنّها صحيحة، ولكنّني وجدتُ أنّها خلاف ذلك. وهكذا، بقدر ما أتقدّمُ في العمر تزدادُ قدرتي على وضع أحكامي الخاصّة موضوع شكّ، وعلى إيلاء أحكام الآخرين مزيدا من الاحترام.

بعد إطلاق ملاحظتين ساخرتين، شدّد فرانكلن قائلا: «أوافق على هذا الدستور بكلّ أخطائه، إذا جاز أن نسمّيها أخطاء، لأنّني أعتقدُ أنّ حكومة عامّة ضروريّة لنا». ولن يكون مؤتمر ثان أفضل حالا لأنّ الناس يحملون معهم دائما «كلّ أحكامهم القبليّة، ووجهات نظرهم الخاطئة، ومصالحهم المحلّية، وآراءهم الذاتيّة». كان انتصار فرانكلن لصالح للدستور حاسما:

يدهشني إذن، سيّدي، أن أجد أنّ هذا النظام قد اقترب من الكمال إلى هذا الحدّ الذي تحقّق مع الدستور. وأعتقد أيضا أنّه سيدهشُ أعداءنا... لذا أوافق، سيّدي، على هذا الدستور لأنّني لا أتوقّعُ وجود ما هو أفضل، ولأنّني لستُ متأكّدا من أنّه ليس الأفضل. أمّا الآراءُ التي أتبنّاها عن الأخطاء الواردة في صلبه، فإنّني أضحّي بها في سبيل المصلحة العامّة».

حسب الدكتور ماك هنري مندوب مريلاند، كان خطابُ الدكتور «صريحا وملمّحا ومقنعا» و«محيطا بكلّ جوانب النظام». وأضاف ماك هنري بطريقة لاذعة «لقد حمى الخطاب شهرة الدكتور». وأنهى فرانكلن خطابه بتوجيه نداء إلى المنشقّين:

إنّني لا أملك بهذه المناسبة سوى التعبير عن أمنيتي في أن ينضمّ إليّ كلّ عضو في المؤتمر قد لا يزال لديه اعتراض على الدستور ويشكّ قليلا في عصمته الشخصيّة. ولكي نُظهر بجلاء إجماعنا، أتمنّى أن يوقّع كلّ عضو على هذه الوثيقة.

ولتأمين تلك التواقيع الثمينة، دبّر الحاكمُ موريس حيلة لفظيّة. فبدل أن يحمل الموقعين على الشهادة بأنّهم وافقوا شخصيّا على الدستور، أعدّ البيان التالي ليظهر أعلى الإمضاءات:

أنجز في المؤتمر ووافقت عليه الولايات بالإجماع،]أي ليس إجماع المندوبين الحاضرين[، يوم 17 سبتمبر. نشهد بذلك، وهنا نوقع.

بهذه الطريقة أكّد المضمون أنّ الولايات وحدها هي التي صوّتت على الدستور، وهو ما فعلته حقّا.

لم تحقّق خدعة موريس، كما عرضها فرانكلن، سوى نجاح جزئي. فقد عبّر مندوب من نورث كارولينا كان يعتزم عدم التوقيع «عن ارتياحه للشكل المقترح»، ووافق على التوقيع عليه، غير أنّ العناصر الرئيسة التي استهدفتها الخدعة –مايسون وجيري وراندولف– ظلّت ثابتة على مواقفها. فقد أعلن جيري وراندولف أنهما لن يوقعا، أمّا ماديسون فجلس صامتا في حالة من الغضب، ولم يوقع أيضا.

رغم موافقة وفود الولايات على الدستور، ظلّت مشكلة أخيرة مطروحة. فقد أثار غورهام مندوب ماساتشوستس مسألة التمثيل، وهي القضيّة التي استهلكت أكبر قسط من وقت المؤتمر. لقد نصّ الدستور على أن يمثّل كلّ عضو في الكونغرس عددا من المواطنين أقصاه 40,000 شخص. فاقترح غورهام تخفيض العدد إلى 30,000، وهو ما سيوفّر مزيدا من الممثّلين للمقاطعات الأصغر حجما. قبل تسعة أيّام من ذلك كان مندوب من نورث كارولينا قد اقترح الشيء نفسه، مدعوما بهاملتون وماديسون، ولكنّه خسر بفارق صوت واحد. وفي الأثناء، كان ماديسون وهاملتون قد طلبا دعْمًا من أكثر المندوبين نفوذا في القاعة الشرقيّة.

قام الجنرال واشنطن ليتكلّم. كان قد لزم الصمت خلال الصيف الخانق الحرارة، ولم

يظهر نفوذه الهائل في أيّ نزاع كان. كان يحافظ على نفوذه مدّخرا إيّاه للوقت المناسب، ويستعمله بطريقة دقيقة.

قال واشنطن وهو مدرك بأنّه كان صامتا إلى حدّ ذلك الوقت: «إنّه لا يملك إلاّ التعبير عن أمنيته بأن يحدث التغيير المقترح»، وحذّر من «أنّ صغر نسبة الممثّلين لا يوفّر الأمان الكافي لحقوق الشعوب ومصالحها».

من سيعترض على الرئيس الأوّل المفترض في أمنيته الوحيدة التي تخصّ الحكومة الجديدة؟ لقد وقع تبنّي المقترح دون المناداة إلى التصويت.

حان وقت التصويت. وباعتباره رئيس المؤتمر، صوّت واشنطن أوّلا، راسما على الورق وبشكل بارز الاسم الذي أراد الأمريكيّون رؤيته أكثر من أيّ شيء آخر. واصطفّ المندوبون أمام القاعة لإضافة أسمائهم ابتداء بوفود الولايات الشماليّة مرورا إلى الوفود الجنوبيّة، مثلما كانوا قد فعلوا كلّ شيء في ذلك الصيف.

سوف يتراجع عدد كبير من تلك الأسماء إلى الصفحات الخلفيّة للتاريخ بدءا بجون لانغدون ونيكولاس جيلمان مندوبا نيوهمشاير، وانتهاء بوليام فيو وأبراهام بالدوين عن جورجيا. لقد وقع هاملتون رغم أنّه لم يكن ينتمي إلى أيّ وفد، وكما كتب واشنطن تلك الليلة، أنجزت تلك الوثيقة من قِبَل «11 ولاية والعقيد هاملتون».

لقد وقعت بعض الولايات بالقوّة الكاملة التي تملكها، وتعاقب البنسلفانيّون الثمانية كلّهم بقيادة الدكتور فرانكلن على الإمضاء. أما جيمس ويلسون الفخور بنفسه وموريس ذو الساق الخشبيّة فقد وقفا في مؤخّرة الوفد. لم يحضر سوى أربعة مندوبين من ديلاوار، ولكنّ أحدهم تولّى التوقيع نيابة عن جون ديكنسون الذي توارى عن الأنظار بعد أن عاوده مرض الصداع النصفي. ومن جانبه قاد جون راتليدج، ذلك الرجل النحيف الفخور بنفسه، الكارولينيّين الجنوبيّين إلى طاولة التوقيع.

كان عدد وفود الولايات الأخرى قد انخفض بشكل كبير، بما في ذلك، تلك الوفود التي قادت الثورة من ماساتشوستس وفرجينيا، إذ لم يوقع عن ولاية نيوإنجلند سوى غورهام

وكينغ. أمّا ماديسون وجون بلير الصامت فقد انضمّا إلى الجنرال باعتبارهما الفرجينيَّيْنِ الوحيدَيْنِ اللذين وقعا.

كانت للعديد منهم هواجسهم. وقد رجّع ماك هنري صدى موقف الدكتور فرانكلن: فبالرغم من أنّ المريلانديَّ لم يحبّ الوثيقة كثيرا «فإنّني أضع موقفي موضع شكّ، خصوصا وأنّه يتناقض مع رأي أغلبيّة السادة الذين يتمتّعون بملكات وروح وطنيّة من الدرجة الأولى». وخلص إلى أنّ الدستور القابل للتعديل يعد بما هو أفضل من «الشرور التي نعمل في ظلّها». كتب جيلمان مندوب نيوهمشاير في اليوم التالي: «لقد أُنجِز الدستور بالمساومة والتسوية»، ولكن بصرف النظر عن عيوبه، «فإنّ مدى تحوّلنا إلى أمّة جديرة بالاحترام مرتهن (حسب رأيي المتواضع) بتبنّيه».

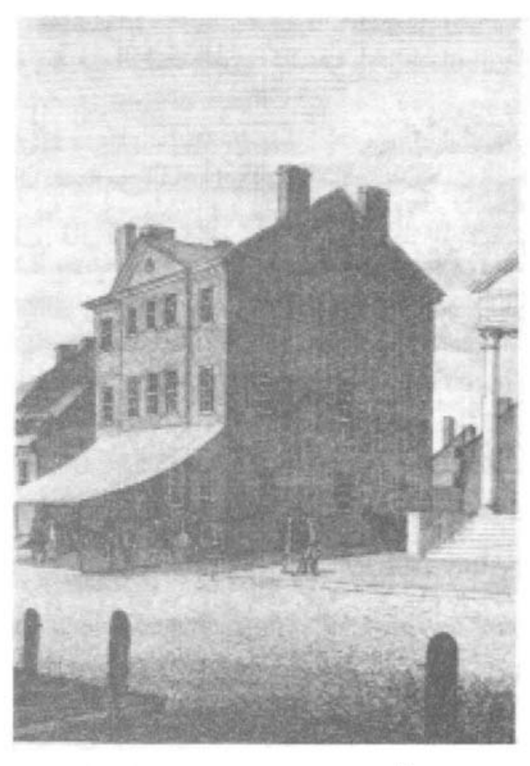
كان من واجب الدكتور فرانكلن أن يوفّر مسك الختام. وكانت طرفة كثيرة التداول الموضوع الرئيس لمحاورته في الوقت الذي كان فيه آخر المندوبين الجنوبيّين يوقعون على الوثيقة. أشار فرانكلن إلى نقش شمس مرتسم على مؤخّرة كرسي واشنطن (لا يزال إلى اليوم موضوعاً في المكان نفسه من القاعة). فالتقط ماديسون تلك اللحظة، وسجّلها في ختام ملاحظاته خلال الصيف. قال فرانكلن إنّه كان غالبا ما ينظرُ إلى النقش

دون أن يتمكّن من القول إن كانت مشرقة أو غاربة. لكنّني الآن وفي النهاية، أشعر بالسعادة لأنّني أعرف أنّها شمس مشرقة وليست شمسا غاربة.

لم يضيّع المندوبون أيّ وقت في مستهلّ العمليّة الحاسمة لتأمين تصديق الولايات. فقد حمل توماس فيتزيمونس مندوب بنسلفانيا الدستور إلى الطابق الأعلى، وعرضه على مجلس بنسلفانيا الذي كان منعقدا حينئذ. وكان الدكتور فرانكلن سيرفع تقريرا رسميّا إلى ذلك الهيكل في الصباح. كما أُرسِلت نسخ إلى جهات مختلفة عبر البلاد. وبعث فيتزيمونس نسخة إلى نواه وبستر الذي كان قد انتدبه لكتابة منشور يدعم التصديق. وفي ظرف ثلاثة أسابيع، أنتج وبستر «بحث في المبادئ الأساسيّة للدستور الفدرالي»، وقد تمّ توزيعه على نطاق واسع من قبل قوى مؤيّدة للتصديق.

قبل أن يفترق المندوبون، اجتمعوا في تلك الظهيرة لتناول آخر غداء بفندق المدينة. وفي الطريق إلى ذلك المكان توقّف واشنطن لشراء ترجمة لكتاب دون كيشوت كان المبعوث الإسباني غواردوكي قد نصح بها. ففي النهاية قد يجد الجنرال الوقت والطاقة للمطالعة.

في فضاء «سيتي تافيرن» ذي السقف المرتفع، شرب المندوبون نخب بعضهم بعضا وإحساسهم بالألفة والمودّة نابعَيْن من القلب. فبعد أن تصبّبوا عرقا خلال الصيف، تدفّأ المندوبون أمام النار في أبرد يوم من أيّام المؤتمر، إذ لم تتجاوز الحرارة 50 درجة فرنهايت. وبحضور رجال خفيفي الظلّ مثل هاملتون والحاكم موريس، كان التجمّعُ بهيجا. كان فرصة لاستحضار البلايا التي يتقاسمها الرجال حين يمضون وقتا معا بعيدا عن بيوتهم.



فندق المدينة، نقش، و. بيرتش وابنه (1800)

فأيّ مندوب وصل ذاتَ صباحٍ مرتديا زوجين مختلفين من الأحذية وملابس كتّانية ملطّخة؟ ومن الذي غالبا ما غشّاه النوم أثناء النقاش أو جلب أكثر قدر من التعاسة لغيره؟ ومن الذي أحيا ليلة أو أكثر إلى وقت متأخّر جدّا، وجاء من الغد بحال أسوء من شدّة التعب؟ ومن الذي قامر باستهتار أو بحث عن رفقة النساء بكلّ لهفة أو اشتاق لدرجة الشفقة إلى العودة إلى زوجة نائية؟

لقد تذكّر الحاضرون الغائبين الآن من دون احترام كبير بالتأكيد، بدءا بلوثر مارتن. وبالرغم من أنّ حضور المنشقّين الثلاثة لا بدّ أن يكون قد أخمد أيّ شعور حقيقي بالغبطة، فقد جلب الصيف الطويل الإحساس النادر بانخراط الرفاق في حدث عظيم.

لمّا حان وقت شرب النخب، كما هو الأمر دائما، سينخفض الجوّ المرِح وستتمّ الإشادة بالجنرال والدكتور مبكّرا، ولكنّ هويّة المندوبين ستكون معروفة أيضا. سوف يؤدّي هؤلاء الرجال، رجال الولايات المتّحدة الجديدة، أجلّ تحيّة شرفيّة للاتّحاد ولدستوره الجديد.

لم يبق المندوبون طويلا في الفندق، فقد غادر العديد منهم في الصباح. كانوا يدركون جميعا أنّ العمل لم ينته، بل سينتقلون الآن إلى مؤتمرات تصديق الولايات.

وهكذا «ودّع بعضهم بعضا بحرارة»، كما روى الجنرال واشنطن الذي انسحب إلى غرفته في بيت آل موريس. وقد تسلّم هناك أوراق المؤتمر التي أؤتمن على حفظها. وهناك أيضا «تأمّل العمل الجسيم الذي تمّ إنجازه». وشارك في ذلك التأمّل تسعة وثلاثون رجلا من فيلادلفيا وتعجّبوا ممّا قد أنجزوه.

السعادة دائمةً وخلاف ذلك

4 يوليو، 1788

أحسّ جيمس ويلسون وهو يجول بنظره في حشد من 17000 نسمة بضواحي فيلادلفيا برضا لم يكن قد تخيّله من قبل. قبل اثنين وعشرين عاما من ذلك اليوم الرابع عشر من يوليو سنة 1788 قدم من اسكوتلاندا، ولم يكن يملك غير الموهبة والحافز وبضعة رسائل للتعريف بنفسه. وكانت مخاوف تلك الأيّام وما تولّده من إثارة تصحبه دائما.

أثبت هذا اليوم كم كان ويلسون محقّا في تركه العيش المحدود الأفق الذي منحته إيّاه اسكوتلاندا. أيُّ اعترافٍ أعظمُ بوسع هذا المهاجر الجليل أن يلقاه؟ فقد كان كاتبا أساسيّا للمسوّدة الأولى للحكومة التي تبنّاها «الشعب». وبعد ثلاثة أسابيع فقط من انفضاض المؤتمر سلّم الردّ على نقد جورج مايسون للدستور. كان خطاب «ساحة دار الولاية» لويلسون متداوَلا على نحو واسع في أنحاء البلاد. وقد ناضل لتأمين أن تكون بنسلفانيا هي الولاية الثانيةِ التي تصدّق في 12 ديسمبر، 1787، موفّرا القوّة الدافعة للجهد المبذول من أجل التصديق. والآن كان ويلسون هو الخطيب المميَّز في احتفال الأمّة الأكبر بالدستور الجديد.

احتشد جمع فيلادلفيا إثر بلاغ قصير، بما أنّ التصديق قد تمّ قبل أسبوعين فقط، وذلك عندما غدت نيوهمشاير الولاية التاسعة الموافقة على الدستور. ومنذ ذلك الوقت صدّقت فرجينيا أيضا بهامش اقتراعي ضيّق، وهكذا أصبحت للأمّة عشر ولايات.

انخرط آخرون في حرب الكلمات. فقد كتب هاملتون وماديسون تحت الاسم المستعار «ببليوس» (Publius) (مع مساعدة ثانويّة من جون جاي) عشرات المقالات القويّة في تفسير

الدستور (جمعت لاحقا تحت عنوان أوراق فدرالية).

صدّقت بعض الولايات بسرعة وبفوارق ساحقة. كانت ديلاوار الأولى، وقد صدّقت بالإجماع، وساد الإجماع نيوجيرسي وجورجيا أيضا. واكتسحت القوى الموالية للدستور في كونكتكوت ومريلاند المعارضةَ المتواضعةَ. ورغم ذلك كانت ماساتشوستس نوعا من دانيبروك[1] جاءتها المقاومة الشديدة من المدن الواقعة في الجزء الغربي من الولاية حيث كان رجال شايز ما يزالون مرتابين بكلّ الحكومات. وبالرغم من اعتراض المندوبين الشايزيّين على الدستور بفارق 2—1 صدّقت ماساتشوستس عليه بنتيجة 187 صوتا مقابل 168.

بانتصار مريح في ساوث كارولينا وآخر ضيّق في نيوهمشاير، أدركت حملة التصديق الحدّ الأدنى المحتاجَ إليه. وكانت موافقة فرجينيا في يونيو ثمرة عشرة أيّام من الدفاع الملهم الذي بذله ماديسون في مواجهة معارضة مايسون وباتريك هنري الشرسة. كان ماديسون قد استفاد من التبدّل المستمرّ لميول راندولف. فبعد مزيد من المعاناة انقلب الحاكم إلى مؤيّد للدستور. وقد دفع هاملتون نيويورك بواسطة الترويع إلى نوع من التصديق المكرَه في أواخر يوليو، ومع ذلك لم تتبعها نورث كارولينا حتّى سبتمبر من السنة القادمة. وانضمّت رود آيلند على مضض إلى الاتّحاد في مايو سنة 1790.

مع وصول أنباء عن تصويت نيوهمشاير، انتقل إعداد فيلادلفيا لاحتفالات الرابع من يوليو إلى مستوى آخر. لقد قدّم معظم الأربعين ألف ساكن بكبرى مدن البلاد حفلا مشهودا.

بدأ الحفل عند الفجر مع رنين أجراس كنيسة السيد المسيح وقصف مدفعي من سفينة الشمس الطالعة (the Rising Sun) الراسية في نهر ديلاوار. واصطفّت عشر سفن أخرى من الشمال إلى الجنوب، وقد رفعت كلّ منها علما أبيض مرفرفا وُشّح باسم ولاية مصدّقة. اتّخذت نيوهمشاير موقعا مناسبا خارج محيط نورذرن ليبرتيز (Northern Liberties)، في حين كانت راية جورجيا مرفوعة قُبالَةَ شارع الجنوب. كان الاحتفال مشبعا بالرمزيّة إلى حدّ

(1) اسم مشتقّ من الاسم الإيرلندي دومنهاك بروك (Domnhach-Broc)، ويعني: كنيسة بروك. لكنّ هذا الاسم يرتبط اليوم بالعنف. ويحدّد معجم أكسفورد الإنجليزي دانيبروك بأنّها «ساحة للصخب والفوضى». وقد تولّد هذا المعنى من الممارسات العنيفة التي كانت ترافق مهرجان دانيبروك (م).

أنّه سمّي «مهرجان الحكاية المجازيّة».

صرّح الدستور بأنّ الذي كتبه هو «نحن الشعب»، لذلك أشرك المنظّمون كلّ الشعب. ضمّ الاستعراض المجموعات الاعتياديّة: الفرق والجنود والوجهاء. لكنّ المشاركين البارزين في الاستعراض كانوا عمّالا متحدّرين تقريبا من خمسين مهنة وحرفة، من الجزّارين إلى صانعي الحبال، ومن النجّارين إلى الموظّفين، ومن بائعي القبّعات إلى صانعي البراميل. لقد أرت فيلادلفيا العالَم كيف تسجّل جمهوريّة مولدها.

بالنسبة إلى بداية يوليو كان الطقس مواتيا. فقد برّد نسيم جنوبي منعش مسلك الاستعراض، في حين وَقَتْ السحبُ الطرقَ المغطّاةَ بالحجارة من شمس الصيف.

بدأ خمسة آلاف فيلادلفي يتجمّعون على الساعة الثامنة صباحا استعدادا للسير على امتداد ثلاثة أميال عبر مركز المدينة وخروجا منها إلى عقار تلّة بوش الذي كان يملكه وليام هاملتون. أبرز الموكب خمسة من مندوبي بنسلفانيا إلى المؤتمر؛ وكان حفيد فرانكلن هناك بصفته طبيبا مرموقا.

كان لجيمس ويلسون فخر الانتماء إلى المكان. وقد سار الأسكتلندي اليد في اليد مع تسعة فيلادلفيّين آخرين، وكان عَشَرَتُهم يمثّلون الولايات المصدّقة (مجازا!). ساروا خلف «عربة زينة فارهة على صورة نسر كبير» معلنين عن الدستور وعن «الشعب». كانت العربة «المهيبة حقّا» والجياد الستّة تجرّها «مرتفعة على كلّ شيء آخر». وقد حمل ويلسون علما كُتب عليه اسم بنسلفانيا بأحرف من ذهب.

تهادى خلف ويلسون مباشرة «المبنى الفيدرالي العظيم»، وهو المعلم الرمزي الرفيع، وجرّت عشرة خيول بيضاء منصّة تحمل بناية مقبّبة تُظهر بتباه ثلاثة عشر عمودا (ثلاثة منها –وهي دلالة رمزيّة– غير مكتملة). وقد رسمت في أعلى القبّة الشاهقة عبارة الوفرة (Plenty). وحمل المبنى الفيدرالي رسالة: بالاتّحاد يقف البناء متماسكا (IN UNION THE FABRIC STANDS FIRM)، بينما جلس عشرة سادة (مجازا) داخله. وألقى ويلسون خطاب الظهيرة من هذا المبنى الفيدرالي الجديد.

خلف ذلك مباشرة وضعت سفينة بكاملها على مركبة أخرى تجرّها عشرة خيول. وبلغ طول السفينة اتّحاد (Union) ثلاثة وثلاثين قدما، وحملت عشرين مدفعا وطاقما من خمسة وعشرين رجلا على ظهر بارجة بريطانيّة كان جون بول جونز قد احتجزها خلال الحرب.

حملت عربة آلة نسيج وبعض النساء وهنّ يطبعن على القماش القطني. واشتغل حدّاد على آلة أخرى، وكان يبيع المسامير العاديّة والكبيرة الرأس التي تنتجها آلته. كما قاد عمّال الطباعة عربتهم الخاصّة بهم وهم يطبعون نسخا من قصيدة غنائيّة ألّفها رئيس الحدث فرانسيس هوبكنسون، ورموا بها إلى الحشود. وطبعوا أيضا قصيدة غنائيّة ثانية بالألمانيّة إشادة بالتنوّع السكّاني قاموا بتوزيعها أيضا على المتفرّجين.

لكنّ ذلك اليوم احتوى على أكثر بكثير من عربات ذات منصّة ومن أرقام العشرة والثلاثة عشر. فقد كان قبل كلّ شيء مصدر شرف للناس وللعمل الذي أنجزوه. وقد كتب الدكتور بنجامين راش بعد ذلك: «لقد تناسى الناس للحظة المسافات الاجتماعيّة التي تفصل بينهم». شارك في المسيرة ثمانون نسّاجا و450 نجّارا و330 باني سفينة و300 صانع حبال و250 خيّاطا و200 حدّادا و70 بائع سجائر و40 حمّالا و40 حارسا ليليّا. وشارك الموظّفون بفخر في الموكب وراء رجل يحمل «دفترا كبيرا». وكان في مؤخّرة المسيرة (على الترتيب) أعضاء الكونغرس ومسؤولون محلّيّون وحرّاس الليل ومحامون ورجال دين وأطبّاء.

ارتدى العديد من أصحاب المهن ألوانا موحّدة لترك انطباع أكثر وضوحا. فقد لبس الجزّارون والخبّازون «فساتين بيضاء نظيفة»، في حين سار عمّال القصدير في مآزر خضراء، والشمّاعون في مآزر زرقاء، وصانعو الحبال في مآزر بيضاء.

لم يُبد المشاركون في المسيرة أيّ حرج في الترويج لمنتوجاتهم. فقد أعلن صانعو المركبات في إحدى الرايات التي رفعوها: لا ضرائب على العربات الأمريكيّة. ونادى صانعو القبّعات في العلم الذي رفعوه: بفضل صناعة فرو القندس ندعم حقوقنا. وكان شعار البنّائين: المباني والمساطر كلاهما من صنع أيدينا. أمّا صانعو الجعة فوضعوا على راياتهم: الجعة (BEER) والمِزر (ALE) والبورتر (PORTER): المشروب المناسب للأمريكيّين. وقد عكس علم

الخبّازين الفترات الصعبة التي عاشوها في السنوات الأخيرة حيث كتبوا متوسّلين: لعلّ الحكومة الفدرالية تعيد تنشيط تجارتنا.

احتشد آلاف المتفرّجين في الطريق نساء وأطفالا «على الأسوار والأساقيل وأسطح المنازل». ولكنّ الرواية الأصعب قبولا هي تأكيد رئيس الموكب بأنّ الطريق كان هادئا:

ساد صمت مهيب في الشوارع وعند نوافذ المنازل، وقد يعود هذا إلى روعة المشهد والمتعة التي أثارها في كلّ عقل، إذ أنّ الأشياء المهيبة والمتعة البالغة لا تقصران البتة عن إنتاج الصمت.

رغم هذا المشهد الممتدّ على ثلاثة أميال بلا انقطاع والمجسّم لفضيلة الجمهوريّة الرصينة، فإنّ من المؤكّد أنّ «هتافات الفرح والنصر» والتلويح بالقبّعات قد انطلقت بضع مرّات على الأقلّ.

تدفّق المشاركون في المسيرة وأغلب المتفرّجين إلى ساحة عقار بوش هيل حيث انتظمت مجموعة من الموائد في الظل وُضعت عليها «أطعمة خفيفة باردة». وتمثّلت المشروبات في الجعة وشراب التفّاح الأمريكيَّيْن. سُحب «المبنى الفيدرالي العظيم» إلى الوسط بين الموائد، وقبل أن يؤذن للـ 17,000 ألفِ محتفل بالأكل والشرب صعد جيمس ويلسون إلى المبنى الذي كان قد فعل الكثير، مجازا، لتشييده.

ورغم أنّ الكثير من الحاضرين في الحشد وقفوا بعيدا جدّا وتعذّر عليهم سماع جيمس ويلسون، فقد رأوا رجلا طويل القامة عريضا مرتدّ الرأس إلى الخلف تتلألأ عدستا نظّاراته وتوحي حركاته بالقوّة. لقد بذل حتى البعض من الذين وقفوا قربه جهدا لتمييز الكلمات التي كان يجلجل بها في لكنة مميّزة. ابتهج ويلسون لأفق رؤية:

أناس أحرار مستنيرين يؤسّسون نظاما للحكم ويصدّقون عليه، نظاما كانوا قد فكّروا فيه وتدارسوه ووافقوا عليه! هذا هو المشهد الذي اجتمعنا للاحتفال به، إنّه اكثر المشاهد جلالا يظهر على سطح كوكبنا إلى حدّ الآن.



بوش هيل

عقار بوش هيل، موقع احتفال 4 يوليو، 1788

وجد ويلسون ذلك الدستور أفضل من مواثيق إسبارطة وأثينا وروما حيث «كانت الشعوب إمّا غير مؤهّلة لأن يوثق بها أو كان الطموح المفرط للمشرّعين لا يسمح بالثقة بها».

ابتهج ويلسون لموضوع الموكب، «فنون السلام»، فعدّد الزراعة والصنائع والتجارة والعلم و«فضائل» التوفير والاعتدال والصناعة. وألحّ قائلا: لإنجاز هذه الفنون «فإنّ دستورا جيّدا هو أفضل النعم التي يمكن لمجتمع أن يستمتع بها». ولكنّ حكومة جديدة لن تكون أفضل من الناس الذين يعملون فيها. لذلك حثّ ويلسون كلّ أمريكي على «أن يعتبر سعادة الناس جميعا متوقّفة على تصويته الفردي». لقد كان يرمي بهذه الرؤية الفردوسيّة إلى إلهاب

خيال الحشد الحاضر:

إنّ الأنهار والبحيرات والبحار تغصّ بالسفن، وسواحلها مغطّاة بالمدن... وتتجلّى الفنون في تنوّع جميل. بقلب يشعر بالرضا، ينظر الكدّ إلى ثماره وقد أينعت في أمان. ويمشي السلام مطمئنّا غير قلق... أمّا الحرّيّة والفضيلة والدين فتسير بانسجام يدا بيد، تحمي الجميع وتنعشهم وتعلي من شأنهم! أيّها البلد السعيد! دامت سعادتك.

ثمّ حان وقت ولائم شرب الأنخاب. كان لا مناص من إعداد عشر ولائم، أُعلن عن كلّ واحدة منها بالنفخ في الأبواق. وأطلقت بعد ذلك عشر طلقات مدفعيّة جاوبتها سفينة الشمس الطالعة. شرب الحشد نخب «الشعب» والمؤتمر والجنرال واشنطن وملك فرنسا وهولندا وحلفاء آخرين أجانب والفلاحة والصنائع والتجارة وأبطال سقطوا في الحرب، لكي «يفصل العقل لا السيف، من الآن فصاعدا، في كلّ الخلافات الوطنيّة». وكان «النخب الأخير إجلالا لكلّ العائلة البشريّة».

في نهاية اليوم تفرّق الحشد، وأعيد سحب المبنى الفيدرالي إلى ساحات دار الولاية «مصحوبا بهتافات عالية». لقد مضى زمن الصمت بوضوح.

وفي المساء انتقل الاحتفال إلى السماء. فقد «تزيّنت السماوات بنور الشفق القطبي الشمالي الجميل».

بالنسبة إلى كثير من المندوبين سيكون المستقبل بهيجا. فسيكون الجنرال واشنطن، بالطبع، رئيسا، بينما سيخدم ماديسون أيضا لفترتين في تلك المؤسّسة. ولن يكون نائب الرئيس ماديسون خلال ولايته الثانية شخصا آخر غير ألبريدج جيري الذي كان قد رفض التوقيع على الدستور وكان أيضا «ضدّ وجود أيّ نائب للرئيس». (كان أكبر تأثير دائم لجيري في السياسة الأمريكيّة سنة 1812 حين وقع بصفته حاكم ماساتشوستس على قانون أنتج مناطق انتخابيّة مشوّهة لدرجة أنّها شُبّهت بالسمندل أو بـ«الدوائر الانتخابيّة المزيّفة»). وقد أخفق ثلاثة مندوبين (الجنرال بينكني وروفوس كينغ وجارد أنغرسول) في الترشّح لمنصب الرئيس أو نائب الرئيس.

سوف يصبح خمسة مندوبين قضاة بالمحكمة العليا، وهم راتليدج وويلسون ووليام باترسون وجون بلير مندوب فرجينيا وأوليفير إلسوورث. وسيكون لستّة عشر مندوبا مقاعد بمجلس الشيوخ، كما سيحتلّ ثلاثة عشر مندوبا مناصب في مجلس النوّاب (وقد نهض جوناثان دايتن مندوب نيوجيرسي برئاسة تلك الهيئة). وسوف يكون أربعة مندوبين كتّاب دولة.

رغم دعاء جيمس ويلسون الحارّ «بسعادة دائمة» تحطّمت آمال عدد كبير من المندوبين على صخور المستقبل الأمريكي. لقد عكست أقدارهم المتباينة الحياة الوعرة لديمقراطيّة جديدة صاخبة في نهاية القرن الثامن عشر وخصائص القدر نفسه القائمة على الصدفة.

لقد توفّي اثنان في مبارزة نشأت عن النزاع السياسي. إنّ وفاة ألكسندر هاملتون على يد هارون بور أسطوريّة، ولكنّ قليلا من الناس يعرفون أنّ ريتشارد سبايت مندوب نورث كارولينا لقي نفس النهاية على يد مندوب فدرالي كان يتنافس معه على مقعد في الهيئة التشريعيّة. وقد يكون مقتل سبايت أكثر لفتا للاهتمام بسبب الحقد المستحكم بين الطرفين المتبارزين. فقد أخفق كلّ منهما في رمياته الثلاث الأولى. وهكذا اختار كلاهما في ثلاث مناسبات إعادة شحن سلاحه والبدء من جديد إلى أن خرّ سبايت ميّتا.

توفّي مندوبان آخران في ظروف غامضة، إذ يعتقد أنّهما قُتلا. وفي سنة 1806 قام حفيد شقيق جورج وايت مندوب فرجينيا ووريثُهُ، بإطعام جورج السمّ. كما اختفى جون لانسينغ مندوب نيويورك سنة 1829 بعد أن أقام في غرفة بفندق.

شاهد مندوبان اثنان مسيرتهما العموميّة تتفكّك بفعل اتّهامات بالخيانة. كان وليام بلانت عضوا في مجلس الشيوخ عن ولاية تينيسي سنة 1797 حين برزت أدلّة على السطح عن تآمره في التجنيد لصالح الجيش البريطاني أثناء احتلال فلوريدا ولويزيانا، فطرد من مجلس الشيوخ. كما وجّه الاتّهام إلى جوناثان دايتون وهارون بور سنة 1806 لانخراطهما في مغامرة مماثلة. وبعد أن برّئ بور (بفضل المحاميَيْنِ اللذين رافعا عنه، وهما المندوبان السابقان أدموند راندولف ولوثر مارتن) أسقطت التهم الموجّهة إليه.

أدّت الخسائر الماليّة إلى سقوط عديد المندوبين. فقد سجّل روبرت موريس «الرأسمالي» مندوب فيلادلفيا أكبر عمليّة إفلاس مذهلة، وكان قد تقاسم بيته الرائع مع الجنرال واشنطن خلال المؤتمر. بدأت إمبراطوريّته الماليّة تتهاوى منذ سنة 1787. وفي أواخر يونيو كتب واشنطن في يوميّاته: لقد تمّ إبطال الاعتراف بسندات ديون موريس، وهو ما قال عنه بتحفّظ إنّه «في غير موضعه قليلا».

ومن سنة 1798 إلى سنة 1801 أوهن سجنُ الدائنين موريس. وقد رتب الحاكمُ موريس (ليس هناك أيّ علاقة تربطه به) إطلاق سراحه ومعاشا للسنوات المتبقّية من حياته. أمّا ناثانيال غورهام مندوب ماساتشوستس وتوماس ميفلين وتوماس فيتزيمونس مندوبا بنسلفانيا ووليام بيرس مندوب جورجيا فقد تحمّلوا أوضاعا من الإفلاس أقلّ فظاعة.

كان لوثر مارتن طيلة حياته يعاقر الخمرة ويدير شؤونه الماليّة بشكل اعتباطي ممّا جعله ينتهي إلى العوز والحماقة في شيخوخته. ولفترة من الزمن، فرض مجلسُ مريلاند إتاوة على كلّ محام في الولاية لفائدة مارتن. وحين نفدت الإعانة الماليّة تولّى هارون بير أحد حرفائه السابقين إيواءه.

اشتغل الحاكمُ موريس في الحكومة الجديدة سفيرا لدى فرنسا في أيّام الثورة من حياة ذلك البلد، وكان أيضا عضوا في مجلس الشيوخ. وفي الأخير تزوّج ذلك الفاسق الساخر في الثامنة والخمسين من عمره وعاش حياة زوجيّة مستقرّة. إلا أنّه أضطرّ إلى العيش على هامش الحياة السياسيّة. لقد عارض بشراسة الحرب سنة 1812، وكتب أنّه لدى قراءته خطاب الافتتاح الثاني سنة 1813، «بدا لي وكأنّه خرج عن مداركه العقليّة». وقد عزا موريس تلك الحرب إلى تزايد نفوذ الجنوب بفعل نسبة الثلاثة أخماس. كتب قائلا: «إذا لم يتمّ فورا عقد سلام مع إنجلترا، فإنّ مسألة أصوات الزنوج لا بدّ أن تقسّم الأمّة».

كانت نهاية موريس سنة 1816 فظيعة حتّى بمقاييس ذلك الزمن. لقد عانى من انسداد في جهازه البولي وحاول تسريحه بقطعة من عظم حوت أخذها من ملابس زوجته الداخليّة. وقد وجد ميّتا بسبب تلك المحاولة.

مثل قصص الإغريق القدامى، قليلة هي الحكاياتُ التي تنافس سيرتي راتليدج وجيمس ويلسون، الرجلين اللذين كانا وراء تحالف الولايات الكبرى والولايات العاملة بنظام العبوديّة. كانا عضوين رفيقين في لجنة التفصيل ومندوبين بارزين بلا نزاع. لقد عيّن واشنطن كلا الرجليْن في أوّل محكمة عليا، لكنّ كليهما أنهى أيّامه الأخيرة على نحو من الخزي لم يسمح أبدا بترميم سمعتهما.

تعود جذورُ سقوط راتليدج إلى سنة 1792، حين توفيت زوجته وأمّه بطريقة مفاجئة بفارق أسابيع بينهما. لقد أغرق موتُهما الكارولينيَّ الجنوبي في حالة من الاكتئاب. وكان قد استقال من المحكمة العليا في السنة السابقة ليعمل قاضيا أوّل في محكمة كارولينا العليا. وقد روى أحد أصدقائه أنّه بالرغم من استمراره في شغل كرسي القضاء بولايته فإنّ «عقله كان مضطربا جدّا في عديد الأحيان إلى درجة أنّه فقد إلى حدّ كبير السيطرة على حواسه». كان راتليدج يعيشُ من مداخيله الخاصّة خلال سنوات العمل العمومي، وكان أيضا يغرق في الديون.

جمع سقوط راتليدج بين الغطرسة والابتذال. فلمّا علم سنة 1795 أنّ جون جاي سيتقاعدُ من منصبه باعتباره قاضيا أول في المحكمة العليا، كتب إلى الرئيس واشنطن طالبا أن يخلف جاي. وبعد يوم من تلقّي تلك الرسالة، ردّ الرئيس بتعيينه بصفة أوّليّة في هذا المنصب. وقبيل الردّ على تلك المراسلة، ألقى راتليدج خطابا عنيفا أدان فيه المعاهدة المبرمة مع بريطانيا العظمى والتي كان جاي قد فاوض عليها باسم الرئيس واشنطن. لقد عضّ راتليدج بقسوة اليد التي كانت تحاولُ إطعامه.

خلال خريف مؤلم، وفيما كان راتليدج يتصرّف باعتباره قاضيا أوّل جديدا، تزايد الاعتراض على تعيينه. وقد ذكر الخصوم خطابه بشأن معاهدة جاي[1] وحالته العقليّة. وفي 15 ديسمبر، رفض مجلس الشيوخ تعيينه، وكانت تلك أوّلَ ممارسة لنفوذه من هذا النوع.

(1) تسمّى أيضا بمعاهدة لندن، وقد وُقّعت في 19 نوفمبر 1794 بين الولايات المتّحدة وبريطانيا العظمى من أجل فضّ بعض الخلافات بينهما الناجمة عن حرب الاستقلال الأمريكيّة (م).

ذات صباح وبعد عيد الميلاد مباشرة، غادر راتليدج بيته في شارلستون «خفية»، وسار نحو جسر جيبس على نهر آشلي. ثمّ مشى داخل النهر إلى أن غمر الماء رأسه. ومثلما وُصف في رواية حديثة، أنقذت أيادي العبيد المُدافعَ عن العبوديّة:

كانت فتاة زنجيّة قرب النهر، وقد صُدِمت لذلك المشهد غير المألوف، فنادت بعض الزنوج الذين كانوا على ظهر مركب، فأسرعوا بفضل حضور بديهتهم إلى راتليدج بكلاّبة قارب وأمسكوا بذراعه. اعترض عليهم بعنف، فسحبوه خارج النهر، واحتجزوه بقوّة، ثمّ صاحوا طلبا للنجدة فيما كان هو يلعنهم ويؤذيهم ويحاول إبعادهم عنه.

استعاد راتليدج نوعا من التوازن بعد الحادثة، وعاش خمس سنين أخرى حياة خاصّة هادئة.

إنّ ميل التاريخ إلى تجاهل دور راتليدج في المؤتمر قد يعودُ جزئيّا إلى انقطاعه للدفاع عن مصالح الجنوب. وعلى خلاف الفرجينيّين الواعين بضرورة ترك أثر للأجيال اللاحقة، لم يخلّف إلاّ نزرا قليلا من المراسلات التي توفّر نظرة حميمة لاستراتيجيّاته وآماله وتقديراته. ورغم تلك العوامل، نزّلته أحداث 1795 مكانا مشرّفا بمضرح عظماء الأمّة الأمريكي. ومثلما تكهّن أحد أجواره بعد محاولته الانتحار: «فَقَدَ راتليدج بسبب سلوكه في المدّة الأخيرة أكثر ممّا سيستردّه بفضل الخدمات التي قدّمها طيلة حياته».

بقدر ما كانت معاناة جيمس ويلسون ذاتيّة كانت مؤلمة. لقد أُشيد به باعتباره أكثر قضاة المحكمة العليا الجديدة دراية، ولكنّه لم يقنع بالمناصب العليا وبالشرف الرفيع. ففي أعماقه كانت هناك حاجة محرقة لأن يكون غنيّا. لقد حَلُم بتحقيق أرباح واسعة من الأراضي الحدوديّة في الغرب. ومنذ بواكير 1785، استحثّ المستثمرين إلى عقد صفقة أراض «مربحة جدّا». وعد ويلسون مسؤولا هولنديّا «بمراكمة سريعة للثروة تتجاوز كلّ حدود نسب الفائدة»، مضيفا إنّ «سرعة هذه المراكمة كثيرا ما تفاجئ أولئك الذين لم تتكوّن آراؤهم إلاّ على أساس ما يحدث في بلدان عرفت الاستقرار منذ أمد بعيد».

بحلول 1794، كان ويلسون يترنّحُ بفعل الديون المتأتّية من تطوير مدينة جديدة تُسمّى

ويلسونفيل على ضفاف بحيرة ولاّن بوباك في شمال شرقي بنسلفانيا. لقد خطّط ويلسون لبناء معامل نِشارة ومصانع قطن ومنشآت صباغة. غير أنّ التكاليف تجاوزت بسرعة موارده الماليّة. وفي سنة 1797، هرب من فيلادلفيا لتحاشي دائنيه متّخذا لنفسه ملجأ في بيت لحم. وحين اضطرّ إلى السفر إلى نيوجيرسي في إطار قضيّة تتعلّق بأعماله، أوقف وسُجن بسبب ديونه.

هرب ويلسون مجدّدا بعد أن أطلق ابنه سراحه بكفالة، فحطّ رحله هذه المرّة في إيدنتون بنورث كارولينا قرب منزل قاضي المحكمة العليا جيمس إيردل. فاكتشف في إيدنتون أنّ أحد دائنيه الرئيسيّين كان مندوبا سابقا، وهو الرائد بتلر مندوب ساوث كارولينا الذي كان يملكُ 200,000 دولار من سندات ديون ويلسون. وفي مايو من سنة 1798، كتب باتلر لمحاميه إنّه كان قد «انتظر إلى حدّ الآن بصبر» شديد مستحقّاته، لكنّه أصبح الآن «مجبرا رغم أنفه على التحرّك ضدّ ويلسون».

عندما قبض أعوان بتلر على ويلسون في إيدينتون، وافقت العدالة على أن يبقى ويلسون محجوزا في فندق هورنبلو إذا لم يقع سجنه. وفي فترة وجيزة، أصيب ويلسون بمرض الملاريا ثمّ بجلطة قلبيّة. ويبقى قاضيَ المحكمة العليا الوحيد الذي توفّي وهو هارب من العدالة. وعند وفاته، مثّل ولسون مصدر إحراج على نطاق وطني، إذ لم تتعاف سمعته قطّ، تماما مثل راتليدج، بسبب المعرّة التي لحقت به في أيّامه الأخيرة.

كانت العلاقات الشقيّة بين الفيرجينيّين الذين سافروا إلى فيلادلفيا لرئاسة المؤتمر، وهم ماديسون وراندولف ومايسون والجنرال واشنطن، أقلّ كارثيّة وإن ظلّت مؤلمة.

توفّي مايسون أوّلا، وهو أكبرهم سنّا، مبعَدا عن الآخرين. ورغم أنّ معارضته للدستور انبنت على أساس المبدأ لا على أساس الشخصيّة، لم يكن من الهيّن الفصل بينهما. لقد جُنّ الرجل العجوز بسبب تغيير راندولف موقفه في اللحظة الأخيرة، ودعمه للدستور في مؤتمر فرجينيا للتصديق، وقد نعته بـ«أـ د الصغير». ورغم أنّ المقارنة ببينيديكت أرنولد[1] لم تكن

(1) ولد سنة 1741 وتوفّي سنة 1801. كان قائدا في الجيش القارّي خلال حرب الاستقلال الأمريكيّة. واشتهر بصفة خاصّة بخيانته للولايات المتّحدة ومحاولته تسليم حصن ويست بوينت للإنجليز أثناء تلك الحرب (م).

قطّ إيجابيّة، فقد كانت بالنسبة إلى الجيل الثوري أقذع عمليّة شتم.

أصبحت علاقات مايسون بواشنطن وماديسون جليديّة. فبعد شهر من انعقاد المؤتمر، سعد ماديسون بإرسال نسخة من اعتراضات مايسون على الدستور إلى الجنرال وقال بتشفّ: «إنّها ليست متعة هيّنة أن تجده [مايسون] وقد آل إلى مثل هذا البلاء بسبب تلميع ذاتي» لمعارضته. وفي سنة 1791، قال مايسون لتوماس جيفرسون إنّه قلق بسبب «البرودة» بينه وبين ماديسون، «فهو من الرجال القلائل الذين أقدّرهم حقّا نظرا إلى معرفتي العميقة والجيّدة به».

على أنّ الأمر الأشدّ قسوة على مايسون هو خسارته «الصداقة التي كانت قائمة منذ مدّة طويلة (منذ بواكير شبابنا فعلا) بين الجنرال واشنطن وبيني». وحين لم يقدر مايسون على مساعدة ابن صديق له على تحديد موعد مع الرئيس، قال مفسّرا:

تعرف أنّني أعتقد أنّ الرجال الذين وضع فيهم واشنطن ثقة كبرى قلّة، ولكن من الجائز أن تكون معارضتي للحكومة الجديدة بصفتي في آن عضوا في المؤتمر الوطني وفي مؤتمر فرجينيا قد غيّرت من الوضع.

لقد تغيّرت بالفعل مشاعر الرئيس الجديد تجاه مايسون كثيرا. فبعد تسلّمه السلطة، كتب واشنطن قائلا: إنّه يتوقّع من مايسون «أن يبدي معارضته للحكومة الجديدة بثبات على المبدأ». ولم يكن هذا الثبات على المبدأ ليُعجب الرئيس:

إنّني على يقين من أنّ الكبرياء من ناحية، والافتقار إلى الصراحة الرجوليّة من ناحية أخرى لن يسمحا لمايسون بالاعتراف بخطأ آرائه في الدستور، بالرغم من أنّ ذلك الاعتراف يجب أن يتجلّى في ذهنه تجلّي شعاع من الضوء.

في سنة 1790، رفض مايسون الذي كان ما زال مشدودا إلى العائلة ويتعلّل بالمشاكل الصحية، قرار مجلس فرجينيا بتعيينه في مجلس شيوخ الولايات المتّحدة. كان قد أمضى في فيلادلفيا من الوقت قدر ما كان يريد، وكان يستطيع أن يستحضر بفخر الأعمال الكثيرة التي

أنجزها لصالح المجتمع. فقد ساعدت قرارات فيرفاكس سنة 1774 على إيقاد جذوة الثورة، وشكّل إعلانُ فرجينيا للحقوق المسوّدةَ الأولى لإعلان الاستقلال. كما مهّدت الاتفاقيّة التي أبرمها مع مريلاند سنة 1786 طريق الأمّة إلى المؤتمر الدستوري. وكان هو من بدأ القوّة الدافعة نحو وثيقة الحقوق. غير أنّه كان يستطيع أن يكتب على نحو يمكن قبوله: «كان أطفالي طيلة حياتي هم مصدر متعتي الوحيدة ورضاي، وكانت كلّ أفكاري منصبّة على تحقيق الخير والسعادة لهم».

تعرّض مايسون الذي لم يكرَّم كثيرا في سنواته الأخيرة، لكثير من النسيان منذ ذلك الوقت. ففي حديث على انفراد جرى قبل بضعة أشهر من وفاة مايسون في ديسمبر 1792، وصفه واشنطن بـ«جاري وصديقي السابق»، إذ أنّ الجنرال واشنطن لن يغفر لمايسون ولن تفعل الأمّة ذلك أيضا.

اشتغل إدموند راندولف في حكومة الرئيس واشنطن مدّعيا عامّا في مرحلة أولى، ثمّ كاتب دولة بعد ذلك. وقد دفعت تصرّفاته غير الحكيمة مع ديبلوماسي فرنسي إلى استقالته من المكتب سنة 1795، وعسّرت علاقاته مع الرئيس، وهكذا انتهت مسيرته العموميّة. وبوفاته سنة 1813 كانت علاقاته مع مايسون ودّيّة، لكنّه اضطرّ إلى بيع عبيده لتسديد الديون.

عندما غادر ماديسون وواشنطن فيلادلفيا في سبتمبر 1787، كان تحالفهما أقوى من أيّ وقت مضى، ولكن لن يكتب له الدوام. فقد عملا عن كثب خلال عمليّة التصديق، وعوّل واشنطن في السنوات الأولى من رئاسته على الفيرجيني الصغير، لكنّه بدأ يعوّل أكثر على هاملتون، وزير خزانته الموهوب الذي أدّت تقويته للحكومة إلى صدّ ماديسون وكاتب الدولة توماس جيفرسون.

حين استقال جيفرسون من الحكومة مع نهاية ولاية واشنطن الأولى، عرض الرئيس المنصب على ماديسون الذي رفض. وقد انسحب جيفرسون وماديسون معا لإنشاء حزب سياسي جديد سيجرف كلاًّ منهما إلى الرئاسة. كان واشنطن يعرف أنّه قد تمّ التخلّي عنه. وبعد انسحابه إلى ماونت فيرنون سنة 1797 «لم يذكر الجنرال مرّة أخرى ماديسون حتّى

بالاسم في رسائله وكتاباته)).

وبوفاة واشنطن أواخر 1799، كان قد فقد أو ازدرى صداقة كلّ من القائدين الفيرجينيّين البارزين في مؤتمر فيلادلفيا ودعمهما. وبالنسبة إلى واشنطن الصارم، كان الحفاظ على الصداقات أصعب –أو أقلّ أهمّية– من الحفاظ على موقعه في التاريخ.

يعكس تأثير واشنطن في المؤتمر كلاًّ من زعامته اللافتة وصعوبة إبلاغها بالكلمات. فقد استهلكت ملاحظاته خمس جمل من مدوّنات ويلسون ولكن لم يحضر أيّ مندوب بنصف أهمّيته. إنّ خصاله غير المدركة تطوف برداءة عبر القرون، عكس الكلمات الجيّدة للشخصيّات الأدبيّة المرموقة والعمل الفكري المتقن للعلماء. إلاّ أنّه في زمان ومكان يعجّ بالأمريكيّين الموهوبين والطموحين، لم يتصوّر شخص واحد أن يكون منافسا لواشنطن.

بلغ الجنرال خمسة وستّين عاما حين انسحب إلى ماونت فيرنون وقد سئم القنص السياسي وحمل هموم الأمّة. ورغم الإنجاز المذهل الذي حقّقه طيلة حياته، كان هناك همّ آخر من هموم أمريكا يؤنّبه باستمرار وهو العبوديّة. إنّه لم يتحدّ هذه المسألة أبدا باعتباره قائداً للجيش أو رئيسا لمؤتمر فيلادلفيا أو أوّل رئيس. كان يعتقد أنّ الأمّة لن تقبل بهذا التحدّي. ولكنّ جريمة العبوديّة تهمّه شخصيّا لأنّه كان مالكا للعبيد. وفي آخر أيّامه صمّم على القيام بحركة أخيرة.

في صيف 1799، كتب واشنطن وصيّته. لقد أعطى توجيهاته بأن تمنح الحرّية لعبيده. وبسبب التزاوج بين عبيده، وعبيد زوجته الذين لم يكن قادرا على تحريرهم من العبوديّة، نصّص على أن يعتق عبيده عند وفاة زوجته. ووجّه أمواله لمساعدة العبيد المحرّرين الذين تقدّموا في السنّ ولم يعودوا قادرين على العمل والإنفاق على تعليم الآخرين. وبمرور سنتين على وفاته، نال كلّ العبيد في ماونت فيرنون، عبيده وعبيد زوجته، حرّيتهم، غير أنّ الأمّة لن تنسج على منواله لستيّن سنة أخرى.

الفصل الحادي والعشرون

إدخال التعديلات

لم تنته قصّة الدستور في 17 سبتمبر، 1787 أو في 4 يوليو 1788. فمن جملة ملاحظات جورج مايسون الحادّة لم يكن أيّ منها أشدّ بلاغة من إلحاحه على أنّ تنقيح الدستور ينبغي أن يكون يسيرا لأنّ «الخطّة التي ستُشَكَّل الآن ستكون بالتأكيد منقوصة». لم يكن لدى الجيل الأوّل أيّ أوهام بشأن كمال الدستور، فقد تبنّوا خلال الخمس عشرة سنة الأولى اثني عشر تعديلا، بدءا بوثيقة الحقوق.

أنقذ التعديل الثاني عشر الانتخابات الرئاسيّة من الفوضى التي خلقها المندوبون. بدأت المشكلة بالظهور مع الانتخابات الأولى، وهي حدث سيكون من الصعب على الناخب الحديث التعرّف عليه. فقد سمحت خمس ولايات فقط لمواطنيها بالتصويت لناخبي الرئاسة؛ وفي ثلاث ولايات عاد الاختيار إلى الهيئة التشريعيّة فيها؛ وتولّى نيوجيرسي ومجلسها التنفيذي اختيار ناخبِي تلك الولاية، في حين زاوجت ماساتشوستس بين الانتخابين الشعبي والتشريعي. (أمّا نورث كارولينا ورود آيلند فلم تصوّتا، بما أنّهما لم تصدّقا على الدستور بعدُ، بينما حرم المأزق السياسي نيويورك من المشاركة).

باختيار الجنرال واشنطن رئيسا أصبحت موافقة جون أدامز من ماساتشوستس على احتلال منصب نائب الرئيس نتيجة محتومة، موفّرا بذلك توازنا جهويّا. وفي بدايات 1789، انزعج هاملتون في رسالة إلى جيمس ويلسون من إمكانيّة تعرّض الانتخابات للتلاعب لأنّ كلّ ناخب يدلي بصوتين للرئيس. فلو «غدر» قليل من الناخبين بواشنطن «وحجبوا» عنه أصواتهم وصوّت الجميع لأدامز فسيكون النيوإنجلندي هو الرئيس. ولتجنّب مثل هذه النتيجة المزعجة شجّع هاملتون بعض الناخبين على «أن يَصْرِفوا قليلا من الأصوات إلى...

أشخاص لا يفكّرون في انتخابهم لو لم يُطلَب منهم ذلك».

كانت مناورة هاملتون محفوفة بالمخاطر. فكلّ الناخبين أدلوا بأصواتهم بالاقتراع السرّي في الولايات التي يقيمون بها في الوقت نفسه بالضبط، بحيث كان بالإمكان التعرّض لخطر مؤامرة مضادّة أو بإمكان الناخبين الكبار أن يغيّروا آراءهم الانتخابيّة. ومع ذلك نجحت المناورة بالنسبة إلى تلك الانتخابات الأولى، فجاء أدامز في المركز الثاني بعيدا عن الجنرال.

تقيّح الجرح مع الانتخابات الرئاسيّة المطعون فيها لسنة 1796. فقد تجابه جيفرسون وأدامز على رأس حزبين سياسيّين تنقصهما التجربة. سمّى أنصار جيفرسون أنفسهم جمهوريّين، بينما قاد أدامز الاتّحاديّين. ومرّة أخرى كان هاملتون رأس المتلاعبين. لم يكن هاملتون سعيدا باحتمال أن يكون أدامز رئيسا فرغب في تخطّيه بالتحالف مع المرشّح الاتّحادي لنيابة الرئيس توماس بينكني (شقيق الجنرال بينكني).

حثّ هاملتون الناخبين الجنوبيّين على حجب أصواتهم الثانية عن أدامز. ولكن لكلّ حركة ردّ فعل. فحجب ناخبو نيوإنجلند أصواتهم الثانية عن بينكني. وبالنتيجة نجح أدامز في انتخابات الرئاسة، لكنّ جيفرسون أزاح بينكني وجاء ثانيا في الترتيب. وهكذا ثقل الحمل على أدامز بسبب اجتماع خصمه ونائبه عليه. وقد سلّطت مسألة خلافة الرئيس الضوء على شذوذ هذه النتيجة. فلو تُوفّي أدامز وهو في منصبه لصار خصمه رئيسا.

في انتخابات سنة 1800 انعرج الصدع في النظام الانتخابي باتّجاه جديد. كانت المواجهة الثانية بين أدامز وجيفرسون متقاربة إلى حدّ أنّ أيّ ناخب جمهوري لم يفكّر في تبديد صوته الثاني. ما النتيجة؟ جيفرسون وهارون بور مكتبلين في القمّة بأعلى نسبة من الأصوات. فآل اختيار واحد منهما إلى مجلس النوّاب، مع إدلاء كلّ ولاية بصوت مفرد.

وبالرغم من توقّع الكثيرين في المؤتمر من المجلس أن يقرّر في شأن الطعون الرئاسيّة، فإنّ مخاطر العمليّة لم تَرُقْ لهم. في فبراير 1801 هيمن الاتّحاديّون الشيوخ على الكونغرس، ومع ذلك كان عليهم أن يختاروا من بين جمهوريَّيْن. وبعد خمسة وثلاثين اقتراعا على مدار خمسة أيّام طاحنة لم يتوصّل المجلس إلى انتخاب أيّ رئيس. كانت الأزمة الدستوريّة

حقيقيّة. فماذا لو لم يستطع الكونغرس الحسم قبل موعد انتهاء صلاحيّاته في 3 مارس؟ من سيكون الرئيس عندئذ؟ ومن سيختار الرئيس الجديد؟

تجنّب عضو الكونغرس الوحيد من ديلاوار الضئيلة الأزمة. ولأنّ كلّ ولاية كانت تدلي بصوت واحد فقط سيطر النائب جيمس بيارد شخصيًا على تصويت ديلاوار. وقد أطلقت حركته نحو جيفرسون توزيعا جديدا للأصوات جعل من الفرجيني رئيسا.

كان الشرخ الانتخابي قد أصبح غير محتمَل. ومن أجل رتقه وافق الكونغرس سنة 1803 على التعديل الثاني عشر الذي صدّقت عليه الولايات في غضون ستّة أشهر. وابتداء من انتخابات 1804 أدلى كلّ ناخب بصوت واحد للرئيس وبصوت ثان لنائب الرئيس. لن يكون هناك أيّ تلاعب هاملتوني، وسيرمي عدد أقلّ بكثير بأصواتهم نحو المرشّحين الأقلّ وزنا، ولن يكون هناك خصوم يُنتخبون في منصب نائب الرئيس، ولن يحدث إلغاء للتصويت في صفوف الأصدقاء المتنافسين.

رغم الإصلاحات الأساسيّة التي تضمّنها التعديل الثاني عشر كانت حيرة المؤتمر بشأن الانتخابات الرئاسيّة لا تزال ماثلة في الانتخابات القوميّة المتنازَعة وفي الرئاسيّات المحسومة لصالح الأقلّيّة. ففي أربعة من خمسة انتخابات رئاسيّة حتّى سنة 1803 نصّب النظام الانتخابي رئيسا كسب أصواتا أقلّ ممّا كسبه المرشّح «الخاسر» (وقع تفسير هذا الأمر بإسهاب في الملحق 1).

لم تكن الانتخابات هي مشكلة الرئاسة الوحيد. فقد تناول تعديلان أنجزا في القرن العشرين بنية هذه المؤسّسة. وحصر التعديل الثاني والعشرون الرئاسة في فترتين، بينما أقرّ التعديل الخامس والعشرون طريقة نقل السلطة من رئيس عاجز.

ترتّبت على توافقات المندوبين في موضوع العبوديّة نتائج أعظم من ذلك أصلا. فقد كانت المحافظة على تجارة الرقيق تعني في أجلى صورها الاستيراد المتواصل لعدّة آلاف من الأفارقة المكبّلين. وقد أعطت فقرة العبد الآبق مالكي العبيد أداة خطيرة لفرض هيمنتهم على الناس الذين كانوا مستعبدين بأيديهم.

كانت قضيّة نسبة الثلاثة أخماس تعتمل طيلة عقود رغم أنّها كانت من حيث التأثير أقلّ وضوحا. فبمنحها مزيدا من التمثيل المستند إلى العبيد عزّزت تلك الفقرة سلطة الجنوب على نحو ما تعكسه عدّة إجراءات.

- عشرة من بين أوّل خمسة عشر رئيسا كانوا مالكي عبيد.
- كان جون أدامز سيفوز بولاية رئاسيّة ثانية لولا اثنا عشر صوتا انتخابيّا أُدْلِيَ بها لصالح جيفرسون (وبور) تُمثِّل عبيد الجنوب (محسوبين على أساس ثلاثة أخماس عددهم الحقيقي).
- في سبعة وعشرين عاما من الأعوام الخمسة والثلاثين الأولى من عمر الدولة احتلّ جنوبيّون منصب الناطق باسم مجلس النوّاب.
- تسعة عشر من بين أوّل أربعة وثلاثين قاضيا بالمحكمة العليا كانوا مالكي عبيد.

بسب نسبة الثلاثة أخماس كان لفرجينيا في تسعينات القرن الثامن عشر ستّة أعضاء بالمجلس أزيد ممّا كان لبنسلفانيا حتّى وإن كان لكلتيهما العدد نفسه من السكّان الأحرار تقريبا. لقد أعطت نسبة الثلاثة أخماس الولايات العاملة بنظام العبوديّة أربعة عشر مقعدا إضافيّا في المجلس سنة 1793، وسبعة وعشرين سنة 1812، وخمسة وعشرين سنة 1833.

عنت تلك الأصوات الإضافيّة أنّ مالكي العبيد كانوا، حين أصابت الأزمات نظام العبوديّة في سنوات 1820 و1850 و1856، في وضع قوّة موقنين بأنّ النظام السياسي لم يكن يتحدّى الاسترقاق البشري. لقد سمحت مقاعد المجلس التي أنشأها ترتيب الثلاثة أخماس بقبول ولاية ميسوري سنة 1820 ولاية عاملة بنظام العبوديّة، وضمنت سنّ قاعدة سنة 1840 المكمّمة للأفواه والتي خنقت العرائض المناهضة للعبوديّة الموجّهة إلى الكونغرس.

كما وقعت الإشارة إليه في عمل حديث لأخيل ريد أمار، عزّزت نسبة الثلاثة أخماس سلطة مالكي العبيد داخل ولاياتهم أيضا. فقد آلت المقاعد الإضافيّة في مجلس النوّاب إلى مناطق مالكي العبيد بفرجينا والكارولينتين، ولم تؤل إلى المقاطعات الغربيّة حيث كان العبيد

قلّة. وعندما تبنّت الولايات الجنوبيّة النسبة للعمل بها في مجالسها التشريعيّة الخاصّة كانت مناطق مالكي العبيد مجدّدا هي الرابحة، كاسبة السلطة في تلك المجالس.

تختلف آراء المؤرّخين في الصفقات البغيضة التي عقدها المؤتمر بشأن العبوديّة. يشير البعض إلى أنّ المندوبين فعلوا أفضل ما في وسعهم في تلك الظروف. قالوا إنّ أمريكا لم تكن جاهزة لتحرير العبيد. كان المندوبون محتاجين إلى تكوين حكومة جديدة. وكان يجب تقديم تنازلات في موضوع العبوديّة من أجل الحفاظ على تماسك الاتّحاد. واختصّ بعض المؤتمرين مندوبي كونكتكوت بالثناء، إذ وجدوا حنكة سياسيّة في فعل إعطاء الولايات العاملة بنظام العبوديّة ما كانت تريده، وفي حذف لفظ «عبوديّة» من الدستور بعد ذلك، وهو ما حال دون تلطيخ الوثيقة بهذه اللفظة في وقت كان فيه الملايين يعيشون حياتهم تحت ذلك الظرف.

ردّ آخرون بأنّ المندوبين الشماليّين استسلموا بسهولة مفرطة لتهديدات الجنوبيّين بترك الاتّحاد. كانت جورجيا محاطة بكنفدرالية الكريك من خلفها وبالإسبان بجوارها. وكانت ساوث كارولينا في ضائقة اقتصاديّة رهيبة، رهينة للأسواق الخارجيّة في مادّتي الأرزّ والنيلة. لم تعد تانك الولايتان تستطيعان التعويل على نفسيها على غرار ولايتي ديلاوار ورود آيلند. ربّما لم يكن العتق التامّ ممكنا عمليّا، ولكن ما الداعي إلى جعل نظام العبوديّة أقوى بتوسيع تجارة الرقّ واستعمال نسبة الثلاثة أخماس في زيادة النفوذ السياسي للعبوديّة؟

ولأنّ جميع المندوبين كانوا موضوع احتفاء فإنّهم يتحمّلون مسؤوليّةً عن كونهم قاموا بتحصين العبوديّة أعمق من أيّ وقت مضى، ولم يبادروا حتّى بالتعبير عن رفضهم لها. لقد أنشأوا حكومة متدثّرة بالعبوديّة إلى حدّ أنّ داعية العتق جون براون كان بوسعه أن يكتب في بيان إعدامه إنّ «خطايا هذا البلد الآثم لا يمكن تطهيرها بغير الدم». ورغم اجتماعهم من أجل تكوين حكومة يمكنها أن تُجَنِّب التمرّداتِ، مثل ذلك الذي قاده شايز، كان الإرث الذي تركوه يتضمّن مسؤوليّة عن ويلات الحرب الأهليّة العظمى التي تفوق الوصف.

ظلّت اعتذارات المؤرّخين وإداناتهم، رغم ذلك خارج الموضوع. فقد ضمنت طبيعة المؤتمر أن تكون العبوديّة مثبّتة في الدستور.

سافر المندوبون إلى فيلادلفيا لتكوين حكومة جمهوريّة قويّة. وأظهر وفد كلّ ولاية حضر المؤتمر ومكث خلال الصيف تعهّده بذلك الهدف الأسمى. إنّ عنصرا أساسيّا من ذلك الالتزام المشترك هو إدراك أنّ كلّ فصيل أو مصلحة قد يتطلّب تقديرا لأدقّ حاجياتها. وقد ألحّت الولايات الصغرى على تساوي التصويت في مجلس الشيوخ. وبالرغم من انتهاك هذا المبدأ للنظريّة الديمقراطيّة وإغاظته الولايات الكبرى، فقد تمّ تبنّيه.

طالب الجنوبيّون بتأمين نظامهم للعبوديّة وبحدود خاصّة لقوانين الملاحة. فمنحتهم الولايات غير العاملة بنظام العبوديّة نسبة الثلاثة أخماس في التمثيل، ثمّ تراجعت فجأة عندما استجابت لجنة راتليدج لكامل قائمة رغبات الجنوب. كان على الجنوبيّين أن يتنازلوا عمّا كان يهمّ الشمال أكثر، وهي قوانين الملاحة، وأن يقبلوا مهلة عشرين عاما لتجارة الرقّ. ولكن بسبب بقائهم في القاعة الشرقيّة من دار الولاية –وبعبارات راتليدج، لأنّهم تكاتفوا لإعداد الأساس من أجل إمبراطوريّة عظمى– عرفوا أنّهم أهل للتقدير بفضل نظام العبوديّة الذي أنشأوه. وقد نالوا ذلك.

بعد الحرب الأهليّة وافقت الأمّة على التعديلات التي محت وصمة العبوديّة من الوثيقة وشرعت في محوها من حياتها. حظر التعديل الثالث عشر العبوديّة؛ وضمن التعديل الرابع عشر حماية متساوية للقوانين؛ وحمى التعديل الخامس عشر حقّ التصويت. وقد اتّسعت تعديلات القرن العشرين لتشمل حقوق التصويت للنساء، وسمحت للشعب (وليس للهيئات التشريعيّة للولايات) بانتخاب أعضاء مجلس الشيوخ، وألغت ضريبة الرأس التي كان الجنوبيّون يستعملونها لإيصاد صناديق الاقتراع أمام نسل العبيد.

حتى الآن، عدّل الأمريكيّون الدستور سبعا وعشرين مرّة. ويمنع التغيير الأحدث من دخول أيّ تعديل على أجور أعضاء الكونغرس حيّز التنفيذ إلاّ بعد الانتخابات النصفيّة التالية. ومن اللافت أنّ الكونغرس أقرّ ذلك النصّ سنة 1789، لكنّ الولايات لم تصدّق عليه حتّى سنة 1992، أي بعد ذلك بأكثر من قرنين.

لا تزال عدّة تعديلات أقرّها الكونغرس تنتظر التصديق. أشدّها إزعاجا إجراء تمّ تبنّيه قبل

يومين من أداء أبراهام لينكولن قَسَم الرئاسة سنة 1861، يمنع الحكومة الفدرالية من أيّ تدخّل في قضيّة العبوديّة. وافق لينكولن نفسه على النصّ. ولم تصدّق سوى ولايتين على ذلك النصّ الذي وقع نسخه على أيّة حال بحظر التعديل الثالث عشر للعبوديّة.

لا تزال كلّ دورة من دورات الكونغرس تأتي بطائفة من المقترحات للتعديل. وستحظر أكثر المقترحات الحديثة وضوحا إحراق العلم، وستمنع الزواج المثلي.

وهكذا، كما قصد المندوبون، تتواصل قصّة الدستور. إنّ الدستور، هذا المولود في السرّ، طفل المثاليّة النبيلة والمساومات السياسيّة الخشنة، قصّة ستستمرّ باستمرار الأمّة.

الملحق 1

نظام الناخب

حتّى بعد الإصلاح الأساسي الذي أنجزه التعديل الثاني عشر كان نظام الناخب لا يزال قادرا على هزم الإرادة الشعبيّة. وتخلص بعض التحليلات إلى أنّ النظام يبالغ في تأثير الولايات الكبرى، وأنّه فضّل عبر التاريخ تسمية مرشّحين من تلك الولايات. كان أربعة من الرؤساء الخمسة الأوائل من فرجينيا الولايةِ الأكثر كثافة سكّانيّة في المراحل الأولى من قيام الجمهوريّة. ومن 1840 إلى 1920 انتخبت أمريكا سبعة رؤساء من أوهايو، في حين كسب النيويوركيّون والكاليفورنيّون تسعة انتخابات رئاسيّة في القرن العشرين.

إلا أنّ إصرار الولايات الصغرى في المؤتمر جعل نظام الناخب يمنحها أصواتا انتخابيّة إضافيّة. ولأنّ مجموع الأصوات الانتخابيّة لكلّ ولاية يرتكز على عدد نوّابها وشيوخها فإنّ النظام يميل إلى صالح المصوّتين في الولايات الصغرى.

في انتخابات 2004 مثلا، تحصّلت كاليفورنيا على صوت انتخابي عن كلّ واحد من نوّابها وشيوخها، أي 55 صوتا انتخابيّا. وبتصويت أكثر من 12,4 مليون كاليفورني لصالح الرئيس، مثّل كلّ واحد من أصوات كاليفورنيا الانتخابيّة زهاء 225,000 مصوّت. وفي تلك السنة كان لألاسكا ثلاثة أصوات انتخابيّة فحسب (لنائب واحد وشيخين). وبتصويت 312,000 ناخب ألاسكي فحسب، حظيت الولاية بصوت انتخابي واحد عن كلّ 104,000 ألاسكي شارك في الاقتراع. وهكذا وزن كلّ صوت من ألاسكا أزيد من ضعف وزن صوت كاليفورني واحد.

وتبرز دلالة هذا الانحياز في إسناد حصص الأصوات الانتخابيّة عندما ترجّح الولايات الصغرى بصورة غير متناسبة كفّة مرشّح في سباق متقارب. ويزداد الأمر خطورة بسبب

قاعدة «الفائز يحصد كلّ الأصوات» التي تبنّتها عمليًا كلّ ولاية، مانحة المترشّحَ الحاصلَ على أعلى مجموع أصوات كلّ أصواتها الانتخابيّة. يعني ذلك أنّ الانتصارات الضيّقة في كثير من الولايات الصغرى يمكن أن تؤدّي إلى فوز صوت انتخابي على مترشّح كسب التصويت الشعبي في المستوى القومي بفوارق عريضة في الولايات الكبرى. وقد حدث ذلك ثلاث مرّات.

- في 1876 فاز الديمقراطي صموئيل تيلدن بحوالي 52 بالمائة من التصويت الشعبي، لكنّه أخفق في الحصول على أغلبيّة أصوات الناخبين حين حرمته دعاوى التزوير من احتساب الأصوات في ثلاث ولايات جنوبيّة. وقد نظرت لجنة أنشأها الكونغرس في دعاوى التزوير. وبتصويتها على أساس التمايز الحزبي (8–7)، منحت اللجنة كلّ صوت انتخابي متنازع عليه لروذرفورد هايز الذي فاز في العدّ الانتخابي النهائي بـ 184–185.

- في انتخابات 1888 خسر بنجامين هاريسون الانتخابات الشعبيّة بـ 90,000 صوت لصالح منافسه الديمقراطي غروفر كليفلاند، لكنّه فاز بسهولة في انتخابات المجمع الانتخابي بنتيجة 233–168.

- في سنة 2000 خسر جورج دبليو. بوش في تعداد عامّ للأصوات بفارق نصف مليون صوت، لكنّه فاز في المجمع الانتخابي بنتيجة 271–266. ومنعت المحكمة العليا محاكم ولاية فلوريدا من النظر في دعاوى الديمقراطي ألبرت غور القائلة بأنّ عدّ الأصوات كان خاطئا وذلك بالرغم من فوز بوش في فلوريدا بفارق 537 صوتا فقط من مجموع 5,9 مليون صوت تمّ الإدلاء بها.

ثمّة آفات أخرى أصابت نظام الناخب. ففي انتخابات المترشّحين الأربعة لسنة 1824 اختار مجلس النوّاب جون كوينسي أدامز بالرغم من أنّ خصمه الرئيسي أندرو جاكسون جذب في الانتخابات العامّة أكثر من 30 بالمائة من الأصوات (113,122–151,271) أزيد من خصمه، وكذلك أكثر أصواتا انتخابيّة (99–84).

وفي ثماني مناسبات رفض ناخبون «غير أوفياء» التصويت لصالح المترشّح الذي تعهّدوا بتأييده، بينما ولّدت تحرّكات احتجاجيّة في ولايتين جنوبيّتين سنة 1960 ناخبين «ناكثين للعهد» أملوا في مقايضة دعمهم بمكاسب سياسيّة. وفي انتخابات حديثة ركّزت الحملات الانتخابيّة بهوس على ساحات الصراع في الولايات حيث كان تغيير وجهة بضعة آلاف من الأصوات بوسعه أن يجنح بالأصوات الانتخابيّة للولاية إلى هذا الجانب أو ذاك، وتجاهلت تلك الحملات ولايات أخرى. ونادرا ما يكون الناخبون أنفسُهم «جماعةً من الرجال الحكماء والكبار ذوي الاطّلاع الواسع» مثلما ينتظر منهم مندوبو المؤتمر، فقد وسمتهم إحدى الدراسات بـ«مجموعة منتقاةٍ ولايةً ولايةً من البرذونات السياسيّة والقطط السمينة».

تبنّى المندوبون النظام الانتخابي في 1787 بسبب الحواجز المادّيّة التي كانت تحول دون إجراء انتخابات الرئاسة في عموم الوطن. وبسبب خشيتهم من ألا يحصل الناخبون على المعلومات المتعلّقة بالمترشّحين، لم يكونوا قادرين على تخيّل التدابير اللوجستيّة اللازمة لتنظيم انتخابات قوميّة. وبعد مائتين وعشرين سنة لم تعد تلك المبرّرات الحائلة دون انتخاب شعبي للرئيس سارية.

الملحق 2

دستور عام 1787

نحن، شعب الولايات المتّحدة، سعيا منّا إلى إنشاء اتّحاد أكثر كمالاً، وإرساء العدالة، وضمان الاستقرار الداخلي، وتوفير أسباب الدفاع المشترك، وتنمية الرفاه العامّ، وتأمين نِعَم الحرّية لنا ولذرّيّتنا، نقدّر هذا الدستور ونضعه للولايات المتّحدة الأمريكيّة.

البند. I.

الفقرة. 1.

تناط جميع السلطات التشريعيّة الممنوحة هنا بكونغرس للولايات المتّحدة، يتكوّن من مجلس للشيوخ ومجلس للنوّاب.

الفقرة. 2.

المادّة 1: يتركّب مجلس النوّاب من أعضاء يتمّ اختيارهم كلّ سنتين من قبل الشعب في مختلف الولايات، ويجب أن تتوفّر في الناخبين في كلّ ولاية المؤهّلات المطلوبة في ناخبي أعضاء أكثر مجلسي الهيئة التشريعية في تلك الولاية عدداً.

المادّة 2: لا يصبح أيّ شخص نائباً ما لم يكن قد أدرك الخامسة والعشرين من العمر وما لم تكن قد مضت عليه سبع سنوات وهو أحد مواطني الولايات المتّحدة، وما لم يكن وقتَ انتخابه قاطنا بالولاية التي يتمّ اختياره فيها.

المادّة 3: يقسّم النوّاب والضرائب المباشرة بين مختلف الولايات التي قد يشملها هذا

الاتّحاد بناء على عدد السكّان في كلّ منها، ويتحدّد هذا العدد بأن يضاف إلى جملة عدد السكّان الأحرار ومِنْ ضمنِهم أولئك الملزَمون بالخدمة لعدد من السنين، مع استثناء الهنود الذين لا يخضعون للضريبة، ثلاثةُ أخماس من كلّ الآخرين. ويجري التعداد الفعلي للسكّان في غضون ثلاث سنوات بعد انعقاد أوّل اجتماع لكونغرس الولايات المتّحدة، وبعد ذلك في غضون كلّ فترة عشر سنوات لاحقة، وذلك بالطريقة التي يضبطها القانون. وينبغي ألاّ يتجاوز عدد النوّاب نائبا واحدا عن كل ثلاثين ألف نسمة، ولكن يتوجّب أن يكون لكلّ ولاية نائب واحد على الأقلّ؛ وإلى أن يتمّ إجراء مثل هذا التعداد السكّاني يحق لنيوهامشاير اختيار ثلاثة نوّاب، ولماساتشوستس ثمانية، ولرود آيلند وبروفيدنس بلنتايشن واحد، ولكونكتكوت خمسة، ولنيويورك ستّة، ولنيوجورسي أربعة، ولبنسلفانيا ثمانية، ولديلاوار واحد، ولمريلاند ستّة، ولفرجينيا عشرة، ولنورث كارولينا خمسة، ولساوث كارولينا خمسة، ولجورجيا ثلاثة.

المادّة 4: عندما تشغر بعض مقاعد النوّاب في أيّ ولاية تصدر السلطة التنفيذيّة فيها مرسوما بإجراء انتخابات لملء مثل هذا الشغور.

المادّة 5: يختار مجلس النوّاب رئيسه والمسؤولين الآخرين، وللمجلس وحده سلطة توجيه الاتّهام النيابي.

الفقرة. 3.

المادّة 1: يتألّف مجلس شيوخ الولايات المتّحدة من شيخين عن كل ولاية تتولّى الهيئة التشريعيّة في تلك الولاية اختيارهما لمدّة ستّ سنوات، ويكون لكل شيخ صوت واحد.

المادّة 2: فَوْرَ اجتماع أعضاء مجلس الشيوخ نتيجة الانتخاب الأوّل، يقع تقسيم هؤلاء

الأعضاء إلى ثلاث مجموعات متساوية قدر الإمكان. تشغر مقاعد شيوخ المجموعة الأولى بانقضاء السنة الثانية، ومقاعد شيوخ المجموعة الثانية بانقضاء السنة الرابعة، ومقاعد شيوخ المجموعة الثالثة بانقضاء السنة السادسة، وذلك حتّى يتسنّى اختيار الثلث مرّة كل سنتين؛ وفي حال حصول شغور ناجم عن الاستقالة أو ما عداها من الأسباب خلال عطلة الهيئة التشريعيّة لأيّ ولاية، فإنّ السلطة التنفيذيّة في تلك الولاية يمكنها أن تُجري تعيينات مؤقّتة إلى أن ينعقد الاجتماع التالي للهيئة التشريعيّة التي تتولّى عندئذ ملء هذه الشغورات.

المادّة 3: لا يصبح أيّ شخص عضواً في مجلس الشيوخ ما لم يكن قد أدرك الثلاثين من العمر وما لم تكن قد مضت عليه تسع سنوات وهو أحد مواطني الولايات المتّحدة، وما لم يكن عند انتخابه قاطنا بالولاية التي يتمّ اختياره لتمثيلها.

المادّة 4: يكون نائب رئيس الولايات المتّحدة رئيسا لمجلس الشيوخ، إلا أنه لا يدلي بصوته إلاّ إذا تعادلت الأصوات.

المادّة 5: يختار مجلس الشيوخ مسؤوليه الآخرين، ويختار أيضا رئيسا مؤقّتا في صورة غياب نائب الرئيس أو في صورة اضطلاع نائب الرئيس بمهامّ رئيس الولايات المتّحدة.

المادّة 6: لمجلس الشيوخ وحده سلطة إجراء المحاكمة في جميع قضايا الاتّهام النيابي. وعند التئام مجلس الشيوخ لهذا الغرض ينبغي أن يكون أعضاؤه تحت القسم أو الإقرار. وعندما يخضع رئيس الولايات المتّحدة للمحاكمة، ينبغي أن يترأّس الجلسات رئيس المحكمة العليا؛ ولا يُحكَم بإدانة أيّ شخص دون موافقة ثلثَيْ الأعضاء الحاضرين.

المادّة 7: لا تتعدّى الأحكام في حالات الاتّهام النيابي حدّ العزل من المنصب، وإسقاط الأهليّة لتولّي أيّ منصب شرفي أو أيّ منصب يقتضي الثقة أو يدرّ ربحا في ظلّ الولايات المتحدة، والتمتّع به؛ لكنّ الطرف المدان يبقى مع ذلك قابلا وموضوعا

للاتهام والمحاكمة والحكم عليه والمعاقبة وفقا للقانون.

الفقرة. 4.

المادّة 1: مواعيد انتخابات الشيوخ والنوّاب وأماكنها وطريقتها تَضبطها في كلّ ولاية هيئتُها التشريعيّة. إلاّ أنّه يمكن للكونغرس أن يسنّ في أيّ وقت قانونا يُنشئ بمقتضاه مثل هذه الأنظمة أو يعدّلها، باستثناء ما يتعلّق بدوائر اختيار الشيوخ.

المادّة 2: يجتمع الكونغرس مرّةً واحدة على الأقلّ كلّ عام، ويكون موعد اجتماعه أوّل يوم اثنين من ديسمبر، ما لم يعيّن الكونغرس، بقانون، يوما آخر.

الفقرة. 5.

المادّة 1: يكون لكلّ من المجلسَيْن سلطة الحكم بشأن انتخابات أعضائه ونتائجها ومؤهّلاتهم. وتشكّل الأغلبية في كلّ منهما النصاب القانوني لأداء أعمالهما، ولكن يمكن لعدد أقلّ أنْ يؤجّلَ الجلساتِ من يوم لآخر، وأنْ يُخَوَّلَ سلطةَ إجبارِ الأعضاء المتغيّبين على الحضور بالطريقة التي يراها كلٌّ من المجلسين وبمقتضى العقوبات التي ينصّان عليها.

المادّة 2: يمكن لكلّ من المجلسين تحديد قواعد نظامه الداخلي ومعاقبة أعضائه بسبب سلوكهم غير النظامي، ويمكنه أيضا عند موافقة الثلثين، طرد أحد الأعضاء.

المادّة 3: يحتفظ كلّ من المجلسين بسجلّ لمحاضر جلساته، ينشرها من وقت لآخر، باستثناء تلك الأجزاء التي يقدّر أنها تستوجب السرّيّة؛ ويتمّ إدراج تصويت أعضاء أيّ من المجلسين بالموافقة أو الرفض في أيّ مسألة في سجلّ المحاضر إذا رغب في ذلك خُمُس الأعضاء الحاضرين.

المادّة 4: لا يحقّ لأيٍّ من المجلسين، خلال انعقاد دورة الكونغرس، رفع جلساته لأكثر من ثلاثة أيّام من دون أن يكون المجلس الآخر موافقا على ذلك. كما لا يحقّ لأيّ منهما أن ينقل جلساته إلى أي مكان آخر غير المكان الذي يكون فيه المجلسان منعقدين.

الفقرة. 6.

المادّة 1: ينال الشيوخ والنوّاب مكافأة لخدماتهم يضبطها القانون، تُدفع من خزينة الولايات المتّحدة. ويتمتّعون في كلّ الحالات، باستثناء حالات الخيانة وارتكاب الجنايات والإخلال بالأمن، بامتياز عدم الاعتقال أثناء حضورهم جلسات المجلس الذي ينتمون إليه وذهابهم إليه وعودتهم منه، ولا يُسألون في أيّ مكان آخر عن أيّ خطاب يُلقى أو مناقشة تُجرى في أيّ من المجلسين.

المادّة 2: لا يحقّ لأيّ شيخ أو نائب أن يسمَّى أثناء الفترة التي انتُخِب لها في أيّ منصب مدني تحت سلطة الولايات المتّحدة يكون قد أُحْدِث أو تكون عوائده قد رُفِّعت أثناء تلك الفترة؛ كما لا يحقّ لأيّ شخص يحتلّ أيّ منصب تحت سلطة الولايات المتّحدة أن يكون عضوا في أيّ من المجلسين أثناء مزاولته لمنصبه.

الفقرة. 7.

المادّة 1: تصدر عن مجلس النوّاب جميع مشاريع القوانين الخاصّة بتحصيل المداخيل؛ ولكن يحقّ لمجلس الشيوخ أن يقترح أو يوافق على تعديلات كما هو الشأن في مشاريع القوانين الأخرى.

المادّة 2: كلّ مشروع قانون يحظى بموافقة مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ ينبغي أن يُعرض، قبل أن يصبح قانونا، على رئيس الولايات المتّحدة؛ فإذا أقرّه وقّع عليه، ولكن

إذا لم يُقِرَّهُ أعاده مقرونا باعتراضاته إلى المجلس الذي صدر عنه، وعلى المجلس أن يُدرِج مُجْمَل الاعتراضات في سجلّه، ثم يشرع في إعادة النظر في المشروع. فإذا وافق، بعد إعادة النظر، ثُلُثا أعضاء ذلك المجلس على إقرار مشروع القانون، أُرْسِل مرفوقا بالاعتراضات إلى المجلس الآخر حيث يعاد النظر فيه كذلك، فإذا أقرّه ثلثا أعضاء ذلك المجلس أصبح قانونا. ولكن في كلّ مثل هذه الحالات يجب أن تحدَّد أصوات أعضاء المجلسين بالتصويت بنعم أو لا، وتدرج أسماء المصوّتين بالموافقة وبالمعارضة على المشروع في محاضر كلّ من المجلسين على التوالي. وإذا لم تتمّ إعادة أيّ مشروع قانون من قِبَل الرئيس في ظرف عشرة أيّام (دون احتساب أيّام الأحد) ابتداء من تاريخ عرضه عليه، صار مشروع القانون ذاك قانونا كما لو أنّه وقعه، إلا إذا حال الكونغرس جرّاء تأجيله لجلساته دون إعادته. وفي مثل هذه الحالة لا يكون المشروع قانونا.

المادّة 3: كلّ أمر أو قرار أو تصويت يستلزم موافقة مجلس الشيوخ ومجلس النواب (باستثناء موضوع رفع الجلسات) ينبغي عرضه على رئيس الولايات المتّحدة؛ وقبل أن يصبح نافذ المفعول يجب أن يحظى بموافقته، فإذا لم يوافق عليه وجب إعادة إقراره من قبل ثُلثي أعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب حسب القواعد والقيود المحدَّدة في حالة مشروع القانون.

الفقرة. 8.

المادّة 1: يتمتّع الكونغرس بسلطة فرض الضرائب والرسوم والعوائد والمكوس وجبايتها، لتسديد الديون، وتوفير أسباب الدفاع المشترك والرفاه العامّ للولايات المتحدة؛ غير أنّه يجب أن تكون جميع الرسوم والعوائد والمكوس موحّدة في جميع أنحاء الولايات المتّحدة؛

المادّة 2: اقتراض المال لفائدة الولايات المتّحدة؛

المادّة 3: تنظيم التجارة مع البلدان الأجنبية، وبين مختلف الولايات، ومع القبائل الهنديّة؛

المادّة 4: إرساء نظام موحّد للتجنيس، وقوانين موحّدة بشأن حالات الإفلاس في جميع أنحاء الولايات المتّحدة؛

المادّة 5: ضرب العملة، وتنظيم قيمتها وقيمة العملات الأجنبيّة، وضبط معايير الموازين والمقاييس؛

المادّة 6: إرساء الأحكام التي تعاقب على تزوير سندات الولايات المتّحدة الماليّة وعملتها.

المادّة 7: إنشاء مكاتب وطرق للبريد؛

المادّة 8: تنمية تقدّم العلوم والفنون المفيدة بضمان حقوق المؤلّفين والمخترعين الحصريّة في كتابات كلّ منهم واكتشافاته على حدة لمُدَد محدّدة؛

المادّة 9: إنشاء محاكم أقلّ رتبة من المحكمة العليا؛

المادّة 10: تحديد أعمال القرصنة والجنايات المرتكبة في عرض البحر وانتهاكات القانون الدولي، والمعاقبة عليها؛

المادّة 11: إعلان الحرب، والتفويض بردّ الاعتداء والاستيلاء على السفن والبضائع، ووضع قواعد تتعلّق بالاحتجاز في البرّ والبحر؛

المادّة 12: تكوين الجيوش وتأمين نفقاتها، ولكن لا يجوز أن تخصّص اعتمادات ماليّة لهذا الغرض لفترة تزيد على سنتين؛

المادّة 13: تكوين قوّة بحرية وتَعَهُّدُها؛

المادّة 14: وضع قواعد لقيادة القوّات البرّيّة والبحريّة وتنظيمها؛

المادّة 15: وضع أحكام لدعوة المليشيا إلى تنفيذ قوانين الاتّحاد، وقمع أعمال التمرّد وصدّ الغزوات؛

المادّة 16: سنّ قوانين تنظّم المليشيا وتسليحها وتدريبها، وتدير أيّ قسم منها قد يكون موظّفا في خدمة الولايات المتّحدة مع الاحتفاظ لكلّ ولاية على حِدَةٍ بحقّها في تسمية الضبّاط وبسلطة تدريب المليشيا وفقا للنظام الذي يحدّده الكونغرس.

المادّة 17: التفرّد بحقّ التشريع في كلّ القضايا مهما كان نوعها في مقاطعة (لا تتجاوز مساحتها عشرة أميال مربّعة) يمكنها أن تصبح، بحكم تنازل ولايات بعينها عنها وقبول الكونغرس، مقرّا لحكومة الولايات المتّحدة، وممارسة سلطة مماثلة على جميع الأماكن التي تُشترى بموافقة الهيئة التشريعيّة للولاية الكائنة فيها، من أجل تشييد حصون ومخازن ذخيرة وترسانات وأحواض سفن ومبان أخرى ضروريّة؛ وأخيرا

المادّة 18: سنّ جميع القوانين التي تكون ضروريّة وملائمة لوضع السلطات المذكورة آنفا وكلّ السلطات الأخرى التي يخوّلها هذا الدستور لحكومة الولايات المتّحدة أو لأيّة إدارة أو موظّف تابع لها، موضعَ تنفيذ.

الفقرة. 9.

المادّة 1: إنّ هجرة أو استقدام الأشخاص الذين ترى أيّ من الولايات القائمة حاليّا أنّ من الملائم قبولهم، لا يجوز للكونغرس أن يمنعه قبل عام ثمانية وثمانمائة وألف، ولكن يمكن فرض ضريبة أو رسم على مثل هذا الاستقدام لا تتجاوز قيمة أيّ منهما عشرة دولارات عن كلّ شخص.

المادّة 2: إنّ امتياز استصدار قرار جلب أمام القضاء لا يجوز أن يعلّق إلا إذا تطلّب الأمن العامّ ذلك في حالات العصيان أو الغزو.

المادّة 3: لا يجوز إصدار قانون بالتجريد من الحقوق المدنيّة، ولا قانون جزائي ذي مفعول رجعي.

المادّة 4: لا يجوز فرض ضرائب على الرؤوس أو أي ضريبة أخرى مباشرة ما لم تكن متناسبة مع الإحصاء أو التعداد الذي وقع التنصيص مسبقا على وجوب إجرائه.

المادّة 5: لا يجوز فرض ضرائب أو رسوم على موادّ مصدَّرة من أي ولاية.

المادّة 6: لا يجوز منح أفضليّة بمقتضى أيّ نظام تجاري أو نظام عائدات لموانئ ولاية ما على حساب موانئ ولاية أخرى، ولا حملُ السفن المتوجّهة إلى أو القادمة من ولاية ما على دخول ولاية أخرى أو تفريغ حمولتها فيها أو دفع رسوم لها.

المادّة 7: لا يجوز سحب أيّ أموال من الخزينة إلا بمقتضى اعتمادات يضبطها القانون، ويصدر بين الحين والآخر بيانات منتظمة بحساب إيرادات جميع الأموال العامّة ونفقاتها.

المادّة 8: لا تَمنح الولايات المتّحدة أيّ لقب شرفي: ولا يُسمَح لأيّ شخص يشغل لديها منصبا يخوّل كسب ربح أو يستوجب الثقة أن يقبل دون موافقة الكونغرس أي هديّة أو مكافأة أو منصب أو لقب، أيّا كانت طبيعتها، من أيّ ملك أو أمير أو دولة أجنبيّة.

الفقرة. 10.

المادّة 1: لا يجوز لأيّ ولاية أن تنخرط في أي معاهدة أو حلف أو اتّحاد، أو تفوّض بردّ الاعتداء والاستيلاء على السفن والبضائع، أو تضرب عملة أو تصدر سندات حكوميّة، أو تعتمد غير العملة الذهبيّة والفضّيّة وسيلة للوفاء بالديون، أو تصدر أيّ قانون يقضي بالتجريد من الحقوق المدنيّة دون محاكمة، أو أيّ قانون جزائي ذي مفعول رجعي، أو أيّ قانون يبطل الصبغة الإلزاميّة للعقود، أو تمنح أيّ لقب من ألقاب الشرف.

المادّة 2: لا يجوز لأيّ ولاية أن تفرض من دون موافقة الكونغرس أي رسوم أو ضرائب

على الواردات أو الصادرات، إلا ما كان منها ضروريًا بصفة مطلقة لتنفيذ قوانينها المتعلّقة بأعمال التفتيش: ويكون صافي إيرادات جميع الرسوم والضرائب التي تفرضها أي ولاية على الواردات أو الصادرات لفائدة خزينة الولايات المتّحدة؛ وتخضع مثل هذه القوانين جميعا لمراجعة الكونغرس وإشرافه.

المادّة 3: لا يحقّ لأي ولاية أن تفرض دون موافقة الكونغرس أي رسوم على حمولة السفن، أو تحتفظ بوحدات عسكريّة أو سفن حربيّة زمن السلم، أو تعقد أيّ معاهدة أو ميثاق مع ولاية أخرى أو دولة أجنبيّة، أو تنخرط في حرب، إلا إذا استُهدِفت فعلا بالغزو، أو في حالة التعرّض لخطر داهم لا يقبل التأخير.

البند. II.

الفقرة. 1.

المادّة 1: تناط السلطة التنفيذيّة برئيس للولايات المتّحدة الأمريكيّة. ويتقلّد الرئيس منصبه لفترة تستغرق أربع سنوات، ويتمّ انتخابه بمعيّة نائب الرئيس الذي يُختار للمدّة نفسها، على النحو الآتي.

المادّة 2: تعيّن كل ولاية، بالطريقة التي تضبطها هيئتها التشريعية، عددا من الناخبين يساوي مجموع عدد الشيوخ والنوّاب الذين يحقّ للولاية أن ترسلهم إلى الكونغرس؛ ولكن لا يحقّ لأيّ عضو في مجلس الشيوخ أو في مجلس النوّاب، ولا لأيّ شخص يشغل تحت سلطة الولايات المتّحدة منصبا يستوجب ثقة أو يحقّق ربحا، أن يعيّن ناخبا.

المادّة 3: يجتمع الناخبون كلٌّ في ولايته، ويصوّتون بالاقتراع السرّي لشخصين، يكون أحدهما على الأقلّ من غير سكّان الولاية التي يقطنها المقترع. ويضعون قائمة بأسماء جميع الأشخاص الذين تمّ التصويت لهم، وبعدد الأصوات التي تحصّل

عليها كلّ منهم، ويوقّعون على القائمة ويشهدون بصحّتها ويرسلونها مختومة إلى مقرّ حكومة الولايات المتّحدة، محيلين إيّاها إلى رئيس مجلس الشيوخ. ويتولّى رئيس مجلس الشيوخ، بحضور أعضاء مجلسي الشيوخ والنوّاب، فضّ جميع مظاريف القوائم، ثمّ يتمّ إحصاء الأصوات. ويكون الشخص الذي يحصل على العدد الأكبر من الأصوات هو الرئيس، إذا مثّل هذا العدد أغلبيّة مجموع عدد الناخبين المعيّنين؛ وإذا تحصّل أكثر من شخص على مثل هذه الأغلبيّة، وتحصّلوا على عدد متساو من الأصوات، عندها يتولّى مجلس النوّاب فورا اختيار أحدهم رئيسا عن طريق الاقتراع السرّي؛ وإذا لم ينل أيّ شخص الأغلبيّة، يقوم المجلس المذكور آنفا، بالطريقة ذاتها، باختيار الرئيس من بين الخمسة الحاصلين على أكبر عدد من الأصوات في القائمة. ولكن عند اختيار الرئيس يتمّ اعتماد الأصوات على أساس الولايات حتى يتمّ تمثيل كلّ ولاية بصوت واحد؛ ويتكوّن النصاب لهذا الغرض من عضو أو أعضاء من ثلثي الولايات، وتكون أغلبيّة كلّ الولايات ضروريّة للاختيار. وبعد اختيار الرئيس، يكون الشخص الحائز على أكبر عدد من أصوات الناخبين في كلّ حال هو نائب الرئيس. ولكن إذا ظلّ شخصان أو أكثر يملكان عددا متساويا من الأصوات تعيّن أن يختار مجلس الشيوخ، بالاقتراع السرّي، من بينهم نائب الرئيس.

المادّة 4: يحقّ للكونغرس تحديد تاريخ اختيار الناخبين واليوم الذي يدلون فيه بأصواتهم، وينبغي أن يكون ذلك اليوم هو نفسه في كافّة أرجاء الولايات المتّحدة.

المادّة 5: لا يحقّ لأيّ شخص إلا من كان مواطنا بالولادة أو كان من مواطني الولايات المتّحدة لحظة تبنّي هذا الدستور أن يكون مؤهّلا لمنصب الرئيس، ولا لأيّ شخص لم يدرك سنّ الخامسة والثلاثين ولم يكن مقيما بالولايات المتّحدة طيلة أربع عشرة سنة.

المادّة 6: في حال عزل الرئيس من منصبه أو وفاته أو استقالته أو عجزه عن الاضطلاع

بسلطات منصبه وواجباته، يؤول المنصب المذكور إلى نائب الرئيس، ويمكن للكونغرس أن يحدّد بمقتضى قانونٍ أحكامَ حالات عزل الرئيس ونائبه كليهما أو وفاتهما أو استقالتهما أو عجزهما، معلنا من هو المسؤول الذي يتولّى عند ذلك مهامّ الرئاسة ويستمرّ في ذلك المنصب إلى أن تنتفي حالة العجز أو يتمّ انتخاب رئيس.

المادّة 7: يتقاضى الرئيس، في مواعيد محدّدة، مكافأة عن خدماته لا يُزاد فيها ولا يُنقص منها طيلة الفترة التي انتُخب لها، ولا يحقّ له أن يتقاضى خلال تلك الفترة أي مرتّبات أخرى من الولايات المتّحدة أو من أيّ من ولاياتها.

المادّة 8: على الرئيس أن يؤدّي، قبل أن يباشر بتنفيذ مهامّ منصبه، القسمَ أو التأكيد التالي: «أقسم قاطعا أنّني سأؤدّي بإخلاص مهامّ منصب رئيس الولايات المتّحدة وأنّني سأبذل كلّ ما في وسعي لأحافظ على دستور الولايات المتّحدة وأحميه وأذود عنه».

الفقرة. 2.

المادّة 1: يكون الرئيس قائدا أعلى لجيش الولايات المتّحدة وقوّاتها البحريّة، ولمليشيات مختلف الولايات عند دعوتها إلى الخدمة الفعليّة لدى الولايات المتّحدة. وله أن يطلب من الموظّف الرئيسي في كلّ من الوزارات التنفيذيّة رأيه مكتوبا في أيّ موضوع يتّصل بمهامّ الوزارة التي تخصّه، وله أيضا أن يؤجّل تنفيذ الأحكام وأن يمنح العفو عن جرائم تُرتكب ضدّ الولايات المتّحدة، باستثناء حالات الاتّهام النيابي.

المادّة 2: تكون له، بعد استشارة مجلس الشيوخ وموافقته، سلطةُ إبرام المعاهدات شريطةَ أن يوافق عليها ثلثا أعضاء المجلس الحاضرين؛ وله أن يرشّح، كما له أن يعيّن

بعد استشارة مجلس الشيوخ وموافقته سفراء ووزراء مفوّضين آخرين وقناصل وقضاة للمحكمة العليا وسائر موظّفي الولايات المتّحدة الآخرين، الذين لا يوجد تنصيص هنا على أحكام تعييناتهم والتي سيتمّ إحداثها بقانون؛ ولكن يجوز للكونغرس حسبما يراه أعضاؤه مناسبا أن ينيط بمقتضى قانون، تعيين مثل هؤلاء الموظّفين الأدنى رتبة، بالرئيس وحده، أو بالمحاكم، أو بالوزراء.

المادّة 3: للرئيس سلطة ملء جميع الشغورات التي قد تحدث أثناء عطلة مجلس الشيوخ، وذلك بمنح تفويضات ينتهي أجلها بنهاية الدورة التالية للمجلس.

الفقرة. 3.

يَمُدّ الرئيس الكونغرس من حين لآخر بمعلومات عن حالة الاتّحاد، ويعرض على أنظاره توصيات بشأن الإجراءات التي يقدّر أنّها ضروريّة ومناسبة؛ وله في حالات استثنائيّة أن يدعو كلا المجلسين أو أحدهما إلى الانعقاد، وفي حال حدوث خلاف بينهما بشأن توقيت إرجاء الجلسات له أن يرجئها إلى الموعد الذي يراه مناسبا؛ وعليه أن يستقبل السفراء والوزراء المفوّضين الآخرين؛ وأن يحرص على أن تنفَّذ القوانين بإخلاص وأن يحيط بتكليفه جميع موظّفي الولايات المتحدة.

الفقرة. 4.

يُعْزَل الرئيس ونائب الرئيس وجميع موظّفي الولايات المتّحدة الرسميّين المدنيّين من مناصبهم إذا وُجّه إليهم اتّهام نيابي وأدينوا بالخيانة أو الرشوة أو غيرها من الجرائم الخطيرة أو الجُنَح.

البند. III

الفقرة. 1.

تُعهَد السلطة القضائيّة في الولايات المتّحدة إلى محكمة عليا واحدة ومحاكم أدنى درجة كما يقدّره الكونغرس وينشئه من حين لآخر. ويحتفظ قضاة كلّ من المحكمة العليا والمحاكم الأدنى درجة بمناصبهم ما داموا يحسنون السلوك، ويتقاضون في أوقات محدّدة لقاء خدماتهم، مكافأة لا يجوز تخفيضها خلال شغلهم مناصبهم.

الفقرة. 2.

المادّة 1: تشمل السلطة القضائيّة كلّ القضايا المتعلّقة بالقانون والعدل التي تنجم في إطار هذا الدستور وقوانين الولايات المتحدة والمعاهدات المبرمة أو التي ستُبرم بموجب سلطتها؛ وتشمل جميع القضايا التي تتعلّق بالسفراء وغيرهم من الوزراء العموميّين والقناصل؛ وجميع القضايا الداخلة في اختصاص الأميراليّة والملاحة البحريّة؛ وتشمل النزاعات التي تكون الولايات المتّحدة طرفا فيها؛ وتلك التي تنشأ بين ولايتين أو أكثر؛ وتلك التي تنشأ بين ولاية ومواطني ولاية أخرى؛ وتلك التي تنشأ بين مواطني ولايات مختلفة، وتلك التي تنشأ بين مواطني الولاية نفسها مدّعين ملكيّة أراض بموجب منح من ولايات مختلفة، وتلك التي تنشأ بين ولاية أو مواطني ولاية ودول أجنبية أو مواطني دول أجنبية أو رعايا أجانب.

المادّة 2: للمحكمة العليا صلاحيّة النظر في كلّ الحالات التي تتعلّق بالسفراء والوزراء العموميّين الآخرين والقناصل وتلك التي تكون فيها إحدى الولايات طرفا. ولها صلاحيّة النظر على وجه الاستئناف في كلّ الحالات الأخرى التي سبق ذكرها من جهتي القانون والوقائع، مع مراعاة الاستثناءات والتقيّد بالأنظمة التي

يضعها الكونغرس.

المادّة 3: تجري المحاكمة في كلّ الجرائم باستثناء قضايا الاتّهام النيابي أمام هيئة محلّفين؛ وتقام مثل هذه المحاكمات في الولاية التي تكون تلك الجرائم المذكورة آنفا قد ارتُكبت فيها؛ ولكن عندما لا تُرتكَب تلك الجرائم داخل حدود أيّ ولاية فإنّ المحاكمة تجري في المكان أو الأمكنة التي يحدّدها الكونغرس بمقتضى قانون.

الفقرة. 3.

المادّة 1: جريمة الخيانة في حقّ الولايات المتّحدة لا تتمثّل إلا في شنّ حرب عليها أو الانضمام إلى أعدائها ومدّ يد العون والمساعدة لهم. ولا توجَّه تهمة الخيانة إلى شخص إلا بناء على شهادة شاهدين بوقوع الفعل الصريح ذاتِهِ، أو الإقرار بالجريمة في محكمة علنيّة.

المادّة 2: للكونغرس سلطة التصريح بعقوبة جريمة الخيانة. ولكن لا يجوز الاقتصاص من ذرّيّة المتّهم أو من أقاربه أو تجريدهم من حقوقهم المدنيّة أو مصادرة أملاكهم إلاّ في حياة المتّهم

البند. IV.

الفقرة. 1.

ترعى كل ولاية قوانين كلّ ولاية أخرى وسجلاّتها الرسميّة وتراتيبها القضائيّة، وتعتدّ بها بصورة كاملة. ويجوز للكونغرس أن يحدّد بمقتضى قوانين عامّة الكيفيّةَ التي يتمّ بها إثبات مثل هذه القوانين والسجلاّت والإجراءات، وما يترتّب عليها.

الفقرة. 2.

المادّة 1: يتمتّع مواطنو كلّ ولاية بجميع الامتيازات والحصانات التي يتمتّع بها المواطنون في الولايات الأخرى.

المادّة 2: يسلَّم الشخص المتّهَم في أيّ ولاية بالخيانة أو بارتكاب جناية أو أي جريمة أخرى، الفارّ من وجه العدالة، والذي يُعثَر عليه في ولاية أخرى، بناءً على طلب من السلطة التنفيذية للولاية التي فرّ منها، لينقل إلى الولاية التي تمتلك صلاحيّة النظر في جريمته.

المادّة 3: لا يجوز أن يُعفَى أيّ شخص ملزَم بالخدمة أو بالعمل في إحدى الولايات طبقا لقوانينها، ويفرُّ إلى ولاية أخرى، من تأدية مثل تلك الخدمة أو ذلك العمل بموجب أيّ قانون أو إجراء لدى هذه الولاية، بل ينبغي تسليمه عند مطالبة الجهة التي تؤدَّى هذه الخدمات والأشغال لفائدتها به.

الفقرة. 3.

المادّة 1: يحقّ للكونغرس أن يسمح بانضمام ولايات جديدة إلى الاتّحاد. ولكن لا يجوز إنشاء أو إقامة أي ولاية جديدة ضمن مجال سلطة أي ولاية أخرى، ولا إنشاء أي ولاية بدمج ولايتين أو أكثر أو بدمج أجزاء ولايات، من دون موافقة الهيئات التشريعيّة للولايات المعنيّة بالإضافة إلى موافقة الكونغرس.

المادّة 2: يمتلك الكونغرس سلطة التصرّف في، ووضع القواعد والأنظمة الضروريّة بخصوص الأراضي أو الممتلكات الأخرى التابعة للولايات المتّحدة. ولا يفسَّر أيّ بند في هذا الدستور على وجه يلحق ضررا بأيّة حقوق للولايات المتّحدة أو لولاية بعينها.

الفقرة. 4.

تضمن الولايات المتّحدة لكلّ ولاية في هذا الاتّحاد حكومة ذات نظام جمهوري وتحمي كلّ ولاية من الغزو، ومن أعمال العنف الداخليّة أيضا بناء على طلب الهيئة التشريعيّة أو السلطة التنفيذية (عند تعذّر انعقاد الهيئة التشريعيّة).

البند. V.

يقترح الكونغرس تعديلات لهذا الدستور كلّما رأى ثلثا أعضاء المجلسين ضرورة لذلك، أو يدعو إلى عقد مؤتمر لاقتراح تعديلات بناء على طلب الهيئات التشريعيّة لثلثي مختلف الولايات، وتصبح التعديلات في كلتا الحالتين قانونيّة من حيث جميع المقاصد والغايات باعتبارها جزءا من هذا الدستور عندما تصادق عليها الهيئات التشريعيّة لثلاثة أرباع مختلف الولايات، أو مؤتمرات تعقد في ثلاثة أرباع الولايات أيّا كانت وسيلة المصادقة التي يقترحها الكونغرس من بين هاتين؛ على ألا يؤثّر أيّ تعديل يُقَرّ قبل سنة ثمان وثمان مائة وألف بأيّ شكل من الأشكال على المادّتين الأولى والرابعة من الفقرة الرابعة من البند الأوّل، وألا تحرم أي ولاية من دون موافقتها، من حقّ تساوي الأصوات في مجلس الشيوخ.

البند. VI.

المادّة 1: تكون كلّ الديون المتعاقد عليها والالتزامات المتّفق عليها قبل إقرار هذا الدستور قانونيّة أمام الولايات المتّحدة طبقا لهذا الدستور وطبقا لقوانين الكنفدرالية.

المادّة 2: يكون هذا الدستور وقوانين الولايات المتّحدة التي تنشأ عنه وكلّ المعاهدات المبرمة أو التي ستبرم تحت سلطة الولايات المتّحدة، القانون الأعلى للبلاد؛ ويكون القضاة في جميع الولايات ملزمين به، ولا يُعتدّ بأيّ نص في دستورِ أي ولاية أو

قوانينِها إذا كان مخالفا لذلك.

المادّة 3: يكون الشيوخ والنوّاب المشار إليهم سابقا، وأعضاء المجالس التشريعيّة لمختلف الولايات، وجميع الموظّفين التنفيذيّين والقضائيّين التابعين للولايات المتّحدة ولمختلف الولايات، ملزمين بموجب القسم أو الجزم بتأييد هذا الدستور؛ ولكن لا يجوز البتّة اشتراط اختبار ديني في التأهيل لتولّي أيّ منصب رسمي أو مسئوليّة عامّة في الولايات المتّحدة.

البند. VII.

تكون مصادقة مؤتمرات تسع ولايات كافية لإرساء هذا الدستور بين الولايات التي تقرّه.

تم وضع هذا الدستور بالموافقة الإجماعيّة للولايات الحاضرة هذا اليوم السابع عشر من سبتمبر من سنة سبع وثمانين وسبع مائة وألف للميلاد وفي السنة الثانية عشرة لاستقلال الولايات المتّحدة. وللشهادة على ذلك أدرجنا أسماءنا هنا،

جورج واشنطن، الرئيس والنائب عن ولاية فرجينيا

[وقع عليه أيضا مندوبو اثنتي عشرة ولاية]

نيوهمشاير

جون لانغدون

نيكولاس غيلمان

ماساتشوسيتس

ناثانيال غورهام

روفوس كينغ

كونكتكوت

و. صموئيل جونسون

روجر شيرمان

نيويورك

ألكسندر هاملتون

نيوجيرسي

وليام ليفنغستون

دايفد بريرلي

وليام باترسون

جوناتان دايتن

بنسلفانيا

ب. فرانكلن

توماس مفلين

روبرت موريس

جورج كلايمر

ثوس فيتزيمونس

جاريد إنغرسول

جيمس ويلسون

الحاكم موريس

ديلاوار

جورج ريد

غانينغ بدفورد الابن

ريتشارد باسيت

جاكوم بروم

بالنسبة إلى الشواهد، قمت بتطوير التهجئة، واستعملت نظام التنقيط الأحدث. أضف إلى ذلك أنّه بالرغم من أنّ المندوبين كانوا في الأغلب يشيرون إلى غرفتي الهيئة التشريعيّة الجديدة المقترحة بعبارتي الفرع الأوّل (مجلس النوّاب المستقبلي) والفرع الثاني (مجلس الشيوخ المستقبلي)، فإنّ النصّ يستعمل تسميتهما النهائيّة، وذلك للحدّ من الغموض بالنسبة إلى القارئ الحديث.

لقد تمّ تجميع كمّ هائل من المادّة الأصليّة المتعلّقة بالمؤتمر الدستوري وبالمندوبين في شكل ملائم أو وضعه في متناول القارئ على الشبكة العنكبوتيّة. اعتمدت بكثافة على الموادّ المجمّعة في المصادر التالية، وأحلت عليها على النحو الآتي:

- Max Farrand,ed,The Records of the Federnal convention of 1787(New Haven: Yale University Press, 1966; originally 1911), Vols. I-III. (مذكور تحت فرّند) .
- James Huston, ed, Supplement to Max Farrand's The Records of the Federal Convention of 1787 (New Haven: Yale University Press، 1987). (مذكور تحت هاتسن).
- Journals of the Continental Congress.

هيّأتها مكتبة الكونغرس على الموقع:

http://memory.loc.gov./ammem/amlaw/lawhome.html

(مذكورة تحت JCC).

- Letters of Delegates to Congress،

هيّأتها مكتبة الكونغرس على الموقع:

http://memory.loc.gov./ammem/amlaw/lawhome.html

(مذكورة تحت LDC).

- Correspondence of George Washington, James Madison, and Thomas Jefferson.

هيّأتها مكتبة الكونغرس على الموقع:

http://memory.loc.gov./ammem/browse/ListSome.php?category=president

(مذكورة على التوالي تحت وثائق واشنطن، وثائق ماديسون، وثائق جيفرسون).

- Diary of John Adams.

هيّأتها الجمعيّة التاريخيّة لماساتشوستس على الموقع:

http://www.masshist.org/digitaladams/aea/diary

(مذكورة تحت يوميّات أدامز).

- مناقشات مؤتمر التصديق على الولايات، مجموعة في كتاب مناقشات إيليوت،

Debates of the state ratifying conventions, gathered in Elliot's Debates.

هيّأتها مكتبة الكونغرس على الموقع:

http://memory.loc.gov./ammem/amlaw/lwed.html(مذكورة تحت ED).

الفصل 1. وفي ماونت فيرنون كانت البداية: مارس 1785

الصفحة

1 كانا قد اصطادا معاً: Kate Mason Rowland, The Life and Correspondence of George Mason, 1725-1792 (New York: Russel &Russel,1964: reprint of 1892 volume), vol, I, 120-22; Helen Hill, George Mason Constitutionalist (Cambridge: Harvard University Press, 1938), 28-29.

2 كلاهما كان زعيما محلّيّا: Both were local leader: Peter Henriques, «An Uneven Friendship: The relationship Between George Washington and George Mason», Virginia Magazine of History and Biography 97 (April 1989): 185.

2 في سنة 1774 ترأّس واشنطن: Stephen A. Schwartz, “Forgotten Founder,» Smithsonian Magazine, May 2000.

2 «امتيازات شعب حرّ»: Willard Sterne Randall, George Washington: A Life (New York: Henry Holt & Co, 1997), 265-67

2 في الثالثة والخمسين، احتفظ: George S. Wood, “The Greatness of George Washington,» Virginia Quarterly Review 68 (Spring 1992):191

2 إدمانه على القمار: Forrest McDonald, Novus Ordo Seculum : The Intellectual Originsof the Constitution (Lawrence : University Press of Kansas, 1985), 193.

2 «انفعالات لا يكاد يقوى»: Joseph Ellis, His Excellency (New York: Alfred A. Knopf ,2004), 472 (large-print (مستشهدا بمديح الحاكم موريس). إنّ مناقشة ألّيس للعناصر المتنافرة في طبيعة واشنطن مقنعة.

2 «سوف يبدو كخادم في غرفة نزل»: James Thomas Flexner, Washington: The Indispensable Man (Boston: Little, Brown & Co., 1969), 69.

2 «عينان بنّيّتان حادّتا النظر»: جاء الوصف من امرأة شابّة التقت مايسن في ماونت فيرنن، إحدى الأوانس تدعى لويس من فريدريكسبورغ. Rowland, vol. II, 67.

3 حين قام توماس جيفرسون بصياغة: كانت وجوه الشبه بين الوثيقتين أكبر من ألاّ يستنتج المرء أنّ جيفرسون وضع بيان مايسون أمامه وراجعه لأغراضه الخاصّة. هكذا يبدأ بيان فرجينيا للحقوق:

أنّ كلّ الناس بحكم الطبيعة أحرار مستقلّون بالتساوي، يتمتّعون بحقوق فطريّة بمقتضاها إذا دخلوا دولة مجتمع ما لا يمكنهم باسم أيّ اتّفاق أن يحرموا ذرّيّتهم أو يجرّدوهم أساساً من التمتّع بالحياة والحرّيّة، ومن وسائل اكتساب الملكيّة وحوزها، ومن السعي إلى وتحصيل السعادة والسلامة. أنّ السلطة كلّها منوطة بـ، ومن ثمّ نابعة من الشعب: أنّ القضاة أمناؤه وخدمه، وأنّهم في كلّ وقت مسؤولون أمامه.

أنّ الحكومة مؤسّسة، أو يجب أن تُؤسَّس من أجل تحقيق المصلحة العامّة وحماية الشعب أو الأمّة أو الجماعة وضمان أمنها؛ وأن تكون الأفضل من بين مختلف أنماط الحكومات وأشكالها، وهي الحكومة القادرة على تحقيق أكبر قدر من السعادة والسلامة والمؤمَّنة أكثر بالفعل من خطر سوء الإدارة؛ وكلّما ثبت أنّ أيّة حكومة غير ملائمة لهذه الأهداف أو مضادّة لها فإنّ لغالبيّة الجماعة الحقّ الثابت وغير القابل للنزع أو الإلغاء في إصلاحها أو تغييرها أو تنحيتها، بالطريقة التي سوف يقدّر أنّها الأكثر تحقيقاً للصالح العامّ.

هذّب جيفرسون هذه الفقرة الافتتاحيّة وكثّفها محافظا على محتواها الأساسي:

نعتبر هذه الحقائق بديهيّة بذاتها: أنّ كلّ الناس يولدون سواسية، أنّ الباري حباهم ببعض الحقوق غير القابلة للنزع، وأنّ من بينها الحياة والحرّيّة والسعي إلى السعادة. وأنّه من أجل تأمين هذه الحقوق أنشئت حكومات بين البشر، تستمدّ سلطاتها العادلة من رضا

المحكومين، وأنّه كلّما أصبح أيّ شكل من الحكومة مدمّرا لهذه الغايات فإنّ من حقّ الشعب أن يغيّرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة ترتكز أسسها على تلك المبادئ وتنظّم سلطاتها على ذلك الشكل على النحو الذي يبدو لهم الأكثر رجحانا لتحقيق سلامتهم وسعادتهم.

3 بعد إصابته بداء النقرس المؤلم: Rowland, vol. I, 273 Jefferson letter); vol. I, 178 (Edmund Randolph letter)).

3 «أين رجالنا المقتدرون؟»: Washington to Mason, March 27,1779, in Washington Papers.

4 حين نشبت الخلافات: Washington to Mason, May 10, 1776, in Robert Rutland, The Papers of George Mason, 1725-1792 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1970), vol. I, 269.

4 قبل ذلك بأربعة أشهر فقط: Washington to Mason, December 13, 1784, in Rutland, vol. II,808.

4 ذكرت الرسالة أنّ الاجتماع: Rutland, vol. II, 813n

4 حدس مايسون أنّ فرجينيا: راندولف إلى ماديسون، 17 جويلية، 1785، ضمن وثائق ماديسون.

4 تأكّد مايسون من أنّهما لن: المرجع السابق.

4 حدّدت تلك الوثيقة ماريلاند: امتدّ ذلك النزاع إلى القرن الحادي والعشرين، عندما اضطُرّت المحكمة العليا أن تقرّر ما إذا كانت فرجينيا مخوّلة بسحب المياه من النهر. فرجينيا v. ماريلاند، 540، يو. س. 56 (2003).

5 لم تسلّط الوثيقة أيّ ضوء: قرارات تسمح باتّفاق بيني للولايات حول الملاحة وتقنين وضع البوتوماك، 28 ديسمبر، 1784، مضمّنة في مراسلات ماديسون إلى واشنطن، 9 جانفي،

1785، ضمن وثائق ماديسون.

5 متابعة لهذه الرؤية: Joel Achenbach, The Grand Idea (New York: Simon & Schuster, 2004).

5 بحلول شهر جانفي 1785 كان قد أقنع: Douglas Southall Freeman, George Washington, Patriot and President (New York: Chas. Scribner's Sons, 1954). Vol. VI, 28.

5 كان لا بدّ أن يقرّرا ما يتوجّب عليهما القيام به: Washington Diary, March 20-28, 1785, in Washington Papers

5 «جلبوا معهم أكثر العروض وديّة»: Mason to Madison, August 9, 1785, in Rowland, vol. II,85.

5 «نشاطه واستعجاله»: Randolph to Madison, July 17, 1785 in Madison Papers.

6 «يرسل قارورة الخمر بالمجّان تقريباً»: Achenbach. 129، quoting Robert Hunter, Jr., "Quebec to Carolina in 1785-1786: Being the Travel Diary and Observations of Robert Hunter, Jr., a Young Merchant of London," ed Louis B. Wright and Marion Timlin (San Marino, Calif,: Huntington Library, 1943),193.

6 خمسة ضيوف غير مبرمجين: Mary V. Thompson, "The Hospitable Mansion: Hospitality at George Washington's Mount Vernon" Mount Vernon Ladies' Association, November7, 2004.

7 «حكومة عرجاء»: Washington to Benjamin Harrison, January 18, 1784, in Washington Papers.

7 الاتّفاق الذي توصّلوا إليه: VA Code Ann.§ 7.1-7

7 طلب من المؤتمر: Rowland, vol,II, 379-80.

7 وسّعت ميريلاند من نطاق مقترحات مايسن: Votes and Proceeding of the House of Delegates of the State of Maryland, November Session, 1785, in James Madison, Writings (New York: Library of America, 1999).

8 عمل ماديسون في البداية مع العماد واشنطن: Stuart Leibiger, Founding Friendship (Charlottesville: University Press of Virginia, 1999), 11-12,33-58.

8 من المفارقات أنّه رعى أيضاً: Idid., 160,169.

8 فيما تبقّى من حياته: Ralph Ketcham, James Madison: A Biography, (Charlottes: Unisersity Press of Virginia, 1990), 51-52

8 في أواخر سنة 1785 اعترف ماديسون: Madison to Monore, August 7, 1785, in Madison, Writings.

8 ثلاث ولايات من نيو إنجلاند: Christopher Collier and James Lincoln Collier, Decision in Philadelphia: The Constitutional Convention of 1787 (New York: Ballantine Books, 1986), 225.

9 كلّ رجل كريم وطيّب: Robert A. Feer, "Shays's Rebellion and the Constitution: A Study in Causation," New England Quarterly 42 (1969),388, 390.

9 شجّع الفكرة: يبدو أنّ أقدم مقترح في هذا السياق قد وجد في رسالة من الإسكندر هاملتون سنة 1780. Ron Chernow, Alexander Hamilton (New York: Penguin Press, 2004), 138-39.

9 الهيئات التشريعيّة في نيويورك وماسّيتوشيتس: تساءل هوبرت: لم نكوّن اتّحادا أكمل؟

A Study of the Origin of the Constitutional Convention of 1787 (Ph. D. dissertation, Stanford University...116

9 زيارته لماونت فيرنن: Irving Brant, James Madison: the Nationalist, 1780-1787 (Indianapolis: Bobbs- Merril Co., 1941), 376; Washington Diary, October .12-14, 1787

9 إمّا أنّنا شعب متّحد: Washington to Madison, November 30, 1785, in Washington .Papers

9 «لزوم تعزيز»: Madison to Washington, December 9, 1785, in Madison, .Writing

9 مجلس فرجينيا: Chernow,223; Brant,381. I. في تقاعده تذكّر ماديسون أنّ القرار في مجلس عموم فرجينيا جاء به أوّلا جون تايلور، «الرجل الذي لم يخدم قطّ في الكونغرس، ولكنّه كان مسموعا في المجلس أكثر من أولئك الذين عرّضتهم خدمتهم للتحامل، أمثال ماديسون». Farrand, vol III, 544. . ذلك المسمّى جون تايلور كان جدّ الرئيس جون تايلور.

9 بعد ثمانية أشهر حلّ: Richard B. Morris, Witnesses at the Creation (New York: .Holt, Rinehart & Winston, 1985), 165

9 «ليس هناك شيء أسوأ»: Brant, 383, quoting Madison to Ambrose Madison, .September 8, 1786

9 لا أحد قدم من نيو إنجلاند: أرسلت رودآيلند التي قاطعت المؤتمر الدستوري مندوبين إلى أنابوليس لأنّ ذلك المؤتمر كان سيناقش موادّ تجاريّة فقط، وقد كانت مهمّة للولاية. ولكن بوصول مندوبَي رودآيلند إلى فيلادلفيا علما أنّ مؤتمر أنابوليس أنهى أشغاله، فقفلا راجعين إلى البيت. Patrick T. Conley, "First in War, Last in Peace: Rhode

Island and the Constitution, 1786-1790» (Rhode Island Bicentennial Foundation, 1987), 12.

10 وضع هاميلتون مسوّدة نداء ملتهب: Garry Wills, Explaining America: The Federalist (New York: Penguin, 1982), 11-12; Brant, 386.

الفصل 2. دماء على الثلج: شتاء 1778

الصفحة

11 كانوا يئنّون تحت وطأة «ديون قديمة»: George Richards Minot, History of the Insurrections in Massachusetts in 1786 and of the Rebellion Consequent Thereon (New York: Da Capo Press, 1971; original dated 1788), 14.

12 ثلثان منهم: David P. Szatmary, Shays'Rebellion The Making of an Agrarian Insurrection (Amherst: University of Massachusetts Press, 1980), 66.

12 أثناء تقدّمهم البطيء: Minot, 89.

12 قطع المتمرّدون الطرق: Szatmary, 100-101. وصف لتمرّد شايز مستقًى من الرواية الرائعة في كتاب ليونارل. ريتشاردز، Shays's Rebellion (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2002).

12 في إنذار أخير مرعب: Szatmary,101.

12 تجنّبا لإشاعة الجزع: JCC October 20, 1786.

12 رفضت الولايات الثلاث عشرة دفع: Szatmary, 84-85.

13 «لقد أضعت ثمانية سنين»: Shepard to Henry Knox, December 20,1786, Connecticut Valley Historical Museum.

13 انخرط بشكل فردي: Walter A. Dyer « Embattled Farmers, » New England Quarterly 4 (1931): 460,465.

13 «جنديّا شجاعا وطيّبا»: « Park Holland's Account of History » February 28,1832, in Massachusetts Historical Society.

13 هو وزوجته أبيغايل Dyer, 466.

13 «لقد كان دوما ضدّ ميولي»: Manuscript, Army Intelligence Report, December 10,1786,

13 بعث العماد شيبارد رسلا: Shepard to Governor Bowdoin, January 26, 1787, reprinted in « Documents Relating to the Shays Rebellion, » American Historical Review 2 (1896) : 693, 694 ; depositions of William Lyman (February 6, 1786) and Samuel Buffington (February 1,1786)، كلاهما ضمن كالِب سترونغ باير .بمكتبة فوربيس التذكاريّة، نورثمبتون، ماس، استفاد وصف الموقعة أيضاً من دراسات ريشارد كولتون، مؤرّخ لدى مصلحة المنتزه الوطني بسبرينغفيلد أرموري.

13 «انبطحوا أرضاً»: Diary of Daniel Stebbins، مكتبة فوربيس التذكاريّة، نورثمبتون، ماس.

14 «في مستوى الحزام»: Szatmary,102 ; Minot ,111.

14 مزّقت قذيفة ذراعَيْ: Stebbins Diary.

14 حاول شايز أن يوقف: Letter of Elnathan Haskell (DSM 02-03-06), in Connecticut Valley Historical Museum ; Minot,111.

14 «لم تطلق طلقة واحدة»: Shepard to Gov. Bowdoin, January 26, 1787.

14 «المرتفعة قدر نصف ساق»: Quoted in Szatmary,105..

14 «في شكل أعاصير وتيّارات عكسيّة»: Ibid .

15 «دخول مسالم»: Park Holland History .

15 «احتشدوا في طريق خلفيّة»: Minot,132-34.

15 لقد مات التمرّد: Szatmary,111-13 .

15 سلك طريقه: Marion L. Starkey,A Little Rebellion (New York : Alferd A. Knopt,1955), 250-51; Robert A. Gross, "The United Guest: Daniel Shays and the Constitution,» in Gross, ed., In Debt to Shays: The Bicentennial of an Agrarian Revolution (Charlottesville: University Press of Virginia, .1993),2

15 ثارت ثائرة المتمرّدين على حكومة: Massachusetts Constitution of 1780, chap. I, §II, Art. I ; Richard, 72-73 ; E. James Ferguson, The Power of the Purse .(Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1961), 245

15 «أحدث تغييرا هائلا»: Knox to Washington, December 21,1786, quoted in .Szatmary, 127

15 «إنّني أشعر بألم لا يوصف»: Washington to Harry Lee, October 31, 1786, .Washington Papers

16 «إذا لم نجر بعض التغيير»: Washington to Madison, November 5, 1786, .Washington Papers

16 «أعقد»: Chenow، 224، quoting Jacob E. Cooke, Alexander Hamilton : A .Profile (New York : Hill and Wang, 1967), xviii

الصفحة

17 وحتّى قبل أن ... دانيال شايز: فرجينيا، نيوجيرسي، بنسلفانيا، وكارولينا الشماليّة.

17 وفي مارس نقل ماديسون: Madison to Jefferson, March 19, 1787,in Madison Writings, 63.

17 «اشتكى من داء البرد»: Washington to Randolph, March 28, 1787, Washington Papers.

18 يقينا، كانت هيبته: James Thomas Flexner, George Washington and the New Nation (1783-1793) (Boston : Little, Brown & Co., 1969), 85-111.

18 «لقد حرّم الله»: Jefferson to William Smith, november 13, 1787, in Jefferson Papers.

18 «أيّ دليل أقوى»: Washington to Madison, November 5,1786, in Washington Papers.

18 «تنحو إلى الاتّحاد»: Allan Nevins, The American States During and after the Revolution, 1775-1789 (New York: Augustus M. Kelley, 1969; originally 1924), 549.

18 وكانت كلّ ولاية تفصّل نظامها الضريبي: David Brian Robertson, The Constitution and America's Destiny (Cambridge University Press, 2005), 32-33.

19 كتب جنوبي بامتعاض: William Blount to Richard Caswell, January 28, 1787, LDC.

19 «الاتّساع الترابي الضخم»: Farrand, vol. III, 103 Pierce Butler to Weedon

.(Butler, October 8, 1787

19 مندوبو المؤتمر من: Nevins, 603-4.

19 «من المؤكّد أنّ»: Monroe to Patrick Henry, August 12, 1786, LDC . قدّم مونرو إلى ماديسون تقريرا مشابها في رسالة مؤرّخة في 3 ديسمبر، 1786، ل د س.

19 «حفنة من الرمل»: Timothy Bloodworth to Richard Caswell, September 4, .1786, LDC

19 «تجزئة الاتّحاد»: Madison to Edmund Pendleton, February 24, 1787, LDC.

19 «ثلاث عشرة سيادة»: Washington to Madison, November 5, 1786, Washington .Papers

19 أنظمة الدولة: Knox to Rufus King July 15, 1787, in Charles G.P. Putnam's Sons, 1894, vol. I, 1787

20 «السبب الأوّلي لكلّ اضطراباتنا»: Ferrand, vol III, 51 (Washington to David .(Stuart, July 1, 1787

20 وبحلول جويلية من عام 1779 كان دولار أمريكي: Beatty, Why Form a More Perfect Union ?, 194; R.V. Harlow, "Aspects of Revolutionary Finance,» .American Historical Review 35 (1929): 46, 61

20 وفي 1780 كان الخروف يُشترى: Marquis de Chastellux, Travels in North America in the Years 1780-1781-1782 (New York: Augustus M. Kelley, .1970), 153

20 وبعد أن... ماديسون سنة 1786: Madison to Jefferson, August 12, 1786, in .Madison, Writing, 54

20 في فرجينيا كان يقدَّر: Achenbach, 11-12.

20 من أجل تركيز عملة أمريكيّة: Chernow, 201..

20 ولايتا نيوإنجلاند وفرجينيا: Forrest Mc Donald, We the Peaple : The Economic Origins of the Constitution (Chicago : University of Chicago Press, 1992 ; originally 1958), 385.

20 وكان يمكن أيضاً إبرام المبادلات التجاريّة: John Fiske, The Critical Period of American History, 1783-1789 (Boston: Houghton Mifflin & Co., 1876), 171-76.

20 «تزعّمهما هذه الحماقة»: Madison to Jefferson, August 12, 1786, in Madison, Writing, 53.

21 الفوضى الماليّة: Farrand, vol. III,15 (E. Gerry to J. Monroe, June 11, 1787).
لم ينزعج بن فرانكلين من تناقص قيمة الأوراق الماليّة التي كان يسمّيها «الآلة العجيبة». فمن وجهة نظره «تؤدّي دورها عندما نُصْدرها؛ تدفع أجرة الجيوش وتكسوهم وتوفّر مؤنهم وذخائرهم؛ وعندما نكون مجبورين على إصدار كمّيّات مفرطة منها تسدّد الحساب لنفسها بتخفيض قيمتها». Franklin to Samuel Cooper, April 22, 1779, in Albert Henry Smyth, ed., The Writing of Benjamin Franklin, vol.VII, 292-94.

21 عملات متنوّعة ذات قيمة مشكوك فيها: Nevins, 570.

21 البريطانيّون، وهم الذين لم يتلطّفوا: Morris, Witnesses at the Creation, 148 ; Szatmary, 19-26.

21 سادت الأحكام العرفيّة: Catherine Drinker Bowen, Miracle at Philadelphia (Boston : Little, Brown & Co., 1966), 31.

21 وصدّقت فرجينيا بانفراد: Robertson, 32.

21 والأخطر من ذلك أنّ إسبانيا لم تسمح: Brant, 403-5 ; Morris, 150-51.

21 وطيلة عام... االكنفدراليّة: Morris, 150-57.

21 فلم تفتأ الجيوش البريطانيّة تحصّن: Rufus King to Elbridge Gerry, May 14, 1786, LDC.

21 وبالرغم من وجود معاهدة: Madison to Jefferson, March 19, 1787, in Madison, Writings, 67.

21 لم يحسن الكونغرس الكنفدرالي: Richards, Shays' Rebellion, 15-16, 23-25.

21 من ماستشوستس إلى كارولينا الجنوبيّة: Nevins, 659.

22 وأعلن المستوطنون الغربيّون: Morris, 124.

22 وتصرّفت فرمونت كنوع من الولاية الحرّة: William Grayson to James Madison, November 22, 1786, LDC ; Richards, 120-24.

22 وقد خسرت الولاية دعوى لامتلاك هذه الأرض: Nevins, 586 .

22 ومكافأةً لها مُنحت كنّكتكات: Robertson, 41- 42 ; Charles Page Smith, James Wilson, 1742-1798 (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1956), 199-201.

22 عليلا ينزف من كلتا يديه: Farrand, vol. III, 542 (unpublished preface to Debates in the Convention of 1787).

22 وعلى وجه الانتقام أنشأت نيوجيرسي: Ibid ; Walter Isaacson, Benjamin Franklin : An American Life (New York : Simon & Schuster, 2003), 444 ; Nathaniel Gorham to Caleb Davis, March 1, 1786, LDC .

22 فلم يكن بمقدور أيّ ولاية أن تعترض: Nathaniel Gorham to Caleb Davis, June 15, 1786 ; LDC.

22 ما دام الكونغرس لا يستطيع حماية: Rufus King to John Adams, May 5, 1786 ; Rufus King Elbridge Geerry, May 14, 1786, LDC.

22 «اقتصادنا أفلس تقريباً»: Rufus King to John Adams, May 5, 1786, LDC.

22 وقد عرفت تلك الطلبات ردودا متفاوتة: قدّر أحد الدارسين أنّ خضوع الولايات للمتطلّبات طيلة حياة النظام الكنفيدرالي كان يتراوح بين ارتفاع 67 بالمائة بالنسبة إلى نيويورك و3 بالمائة بالنسبة إلى كارولينا الشماليّة وصفر بالنسبة إلى جورجيا. Roger H. Brown Redeeming the Republic : Federalists, Taxation, and the Origins of the Constitution (Baltimore : John Hopkins University Press, 1993),14.

22 «أبانت عن أكثر الوجوه كآبة»: Address of Rufus King, October II, 1786, LDC ; Rufus King, Memorandum of September 13, 1786,LDC.

23 وقد قرّرت عدّة حكومات أن تترك عمليّات جمع الضرائب تهوي: Brown, 108-19.

23 «لا احترام أُبدِي»: Madison to Edumund Pendleton, February 24, 1787, in Madison, Writings, 62.

23 برنستون، وهي أكبر بقليل من قرية صغيرة: June 21, 1783, JCC. يجعل تقرير الإسكندر هاملتون إلى الكونغرس حول هذا الحدث القراءة آسرة. Ibid. July 1, 1783 .

23 وبعد نوبة قصيرة في أنابوليس: E.g., ibid., August 13, 1784. (نقل وثائق رسميّة من أنابوليس إلى فيلادلفيا، استباقا للانتقال إلى ترنتون)؛ 1 نوفمبر، 1784 (دعوة إلى اجتماع بترنتون).

23 وبكسرهم نير العبوديّة البريطاني: Merrill Jensen, The Articles of Confederation (Madison : University of Wisconsin Press, 1966), 239.

24 «مجرّد جسم دبلوماسي»: Farrand, vol. I, 256 (June 16, 1787).

24 كضمان أخير: (JCC, April 17,1783 ; March 28, 1785).

24 «شرطٌ حَكَمَ بالفشل»: (Rufus King to Elbridge Gerry, May 14, 1786, LDC).

24 «شبح الحكومة الحالي»: Hutson, 14 (Nathaniel Gorham to Caleb Davis, May 22, 1787).

24 وبإلحاح من ماديسون: Brant, 394-95; Madison to Washington, November 8,1786, Madison Papers; Journal of the Verginia House of Delegates, November 9, 1786.

25 «التصرّف الفاضح»: Farrand, vol.III, 51 (Washington to David Stuard, July 1, 1787).

25 غياب المدافعين عن حقوق الولايات: Forrest Mc Donald, E Pluribus Unum (Boston: (Houghton Miffin Co., 1965), 155.

25 «إنّه فعلاً مجلس لأنصاف آلهة»: Jefferson to Adams, August 30, 1787, in Jefferson Papers.

25 «النظام الحالي»: Madison to Edmund Pendleton, February 24, 1787, in Madison, Writings, 62.

25 يشبه منزلا يحترق: Washington to Henry Knox, February 3, 1787, Washington Papers.

الصفحة

28 هنا وفي نفس اللحظة: (Pennsylvania Herald, May 16, 1787, 3.

28 أقام ماديسون: (William Peters, A More Perfect Union (New York : (Crown Publishers, 1987), 12-13,

28 «سلوكه العادي»: (Recollections of Edward Coles, quoted in Leibiger, Founding Friendship,7.

28 «سمة المفكّر»: (Fisher Ames to George Minnot , May 29, 1789, quoted in Irving Brant, James Madison : (Father of the Constitution, 1787-1800 (Indianapolis : (Bobbs-Merril Co., 1950), 261.

29 كان المقال الأوّل دراسة للجمهوريات: (Madison, « Of Ancient and Modern Confedederacies, » in Gaillard Hunt, ed., Writings of James Madison, vol. II, 369-90.

29 بلغت العيوب أحد عشر عيبا: (Madison, Writings, 69-80.

29 «كلّ المجتمعات المتحضّرة»: (Ibid., 76, 79.

29 خدم وعبيد آخرون: (Brant, James Madison : (Father of the Constitution, 16-17.

29 تباين دخوله ودخول ماديسون الهادئ: (بالرغم من غياب إشارة عند مترجمي حياة واشنطن، فإنّ الرجل كان بالتأكيد محاطاً بعناية العبيد من ماونت فيرنن. سجّل العماد في يوميّاته أنّه بعد أحد عشر يوماً فقط من وصوله، استدعى طبيباً لأنّ أحد «سائقي عربته (يدعى باريس)» كان مريضا. صُنّف باريس في قائمة واشنطن لـ«جميع زنوجي» لسنة

1786 باعتباره غلاما دائماً. وثائق واشنطن، مدخل اليوميّات لـ 18 فيفري، 1786، وخدم باريس واشنطن لاحقا في فيلادلفيا طوال مدّة رئاسته الأولى. إدوارد لولر الابن، «اعتراف بأولئك الذين خدموا جورج واشنطن في فيلي باعتبارهم أفراداً مميَّزين»، Philadelphia Inquirer (August 28, 2002. يحتمل أيضاً أنّ واشنطن اصطحب معه جايلز وأوستين، العبدَيْن الذين يعتنيان عادة بعربته. Washington Diary, February 18, 1786, in .Washington Papers

30 سَرِيّة مدفعيّة: (Pennsylvania Herald, May 16, 1787, 3.

30 لم يمكث واشنطن هناك: (Washington Diary, May 13, 1787, in Washington Papers ; Flexner, George Washington and the New Nation, 112-13; John Dos Passos, The Men Who Made the Nation (New York: (Doubleday & .Co., 1957), 123

31 وكان العرض حول التجارة الأمريكيّة: (Michel Vinson, « The Society for Political Inquiries: (The Limits of Republican Discourse in Philadelphia on the Eve of the Constitutional Convention,» Pennsylvania Magazine of .History and Biography 113 (1989): (203

31 وفي وقت لاحق أضيف اسمه إلى البعثة بالإجماع: (Max Minz, Gouverneur Morris and the American Revolution (Norman : (University of Oklahoma Press, .1970), 176 ; Smith, 217-18

32 يعود تاريخ هذا اللقب إلى: (Isaacson, Benjamin Franklin, 198 .

33 إنّ مواهبه وإنجازاته عصيّة على الاختزال: (إنّها لمهمّة صعبة أن تجاري فيض معارف فرانكلين. E.g., Page Talbott, ed., Benjamin Franklin: (In Search of a Better Word (New Haven: (Yale University Press, 2005); Isaacson; H.W. Brands,

The Fisrst American: (The Life and Times of Benjain Franklin (New York: (Doubleday & Co., 2000); Stacy Schiff, The Great Improvisation: (Franklin, France, and the Birth of America (New York; Henry Holt & Co., 2005); Gordon S. Wood, The Americanization of Ben Franklin (New York: (Penguin Books, 2004); Edmund Morgan, Benjamin Franklin (New .(Haven: (Yale University Press, 2002

34 «إنّني أخجل»: (Lettersof James Wilson, Historical Society of Pennsylvania, .Allison Landes to Wilson, March 9,1785

34 وربح المعركة القانونيّة على أرض بنسلفانيا: (Smith, James Wilson, 146-58.

34 وبصفته عضواً في المجلس الكنفيدرالي: (Feer, « Shays' Rebellion, » ,400.

34 بقامته الطويلة ولباسه المتأنّق وبنيته القويّة: (Smith, 202.

34 «لا بسحر بلاغته»: (Farrand, vol. III, 92 (Pierce)). سجّل ويليام بيرس الجيورجي، وهو رجل أعمال في السابعة والأربعين من العمر، انطباعاته المختزلة عن المندوبين الآخرين. ومع أنّ تأثيره في الدستور كان محدوداً، فإنّ وصفه للمندوبين كان عميقا ومتبصّرا.

34 «قوي ولكنّه ليس شجيّا»: (Mark David Hall, The Political and Legal Philosophy of James Wilson (Columbia: (University of Missouri Press, 1997), 128-29; Remarks of William Rawle, recorded in Lucien Alexander, "James Wilson, . Nation-Builder,» in Green Bag 19 (1907):268, 269

34 «ليست كريهة بالمرّة»: (Quoted in Alexander.

34 العواقب المطوّلة لذلك الجدل: (Geoffrey Seed, James Wilson (Millwood, .N.Y.:KTO Press,1978), 186-87

35 ممّا أصبح يعرف «بحصن ويلسن»: (Smith, 133-36. يبدو أنّ شيئاً ما في ويلسون يحضّه على ارتكاب العنف بدوافع سياسيّة. في المساء، بعد أن صدّقت بنسلفانيا على الدستور في ديسمبر 1778، تعرّض لهجوم فريق من «المعادين للفيدراليّة» أوقعوه أرضاً وأوسعوه ضربا بالهراوات. وقد تمّ إنقاذه من الإصابة بجروح خطيرة عندما رمى محارب ثوري قديم بنفسه على ويلسون لوقايته من الضربات. Wayne L. Trotta, «James Wilson, Forgotten Founding Father», Pennsylvania Heritage 18 (1992): (19.

35 لقد سمّي من قِبَل البعض بالفتى الطويل القامة: (Howard Swiggett, The Extraordinary Mr : (Morris (Garden City : (Country Life Press, 1952), 75.

35 «جعلنا في حالة ابتسام دائمة»: (Richard Brookhiser, Gentleman Revolutionary: (Gouverneur Morris, the Rake who wrote the Constitution (New York : (Free Press, 2003),65.

35 «أكثَرَ مَنْ التقيت شجاعة وجرأة»: (Quoted in Mintz, 146 (remarks of Prince de Broglie).

35 قبل سبع سنوات: (ويليام هوارد أدامز، الحاكم موريس (نيو هافن، منشورات جامعة يايل، 2003)، 126. Seven years earlier: (William Howard Adams, Gouverneur Morris (New Haven : (Yale University Press,2003),126

35 ونظراً إلى اشتهاره بالفسق: (Ibid، 127. في 1779 ذكر جون جاي موريس بصفته كان يقدّم «قرابين يوميّة لفينوس». Quoted in Swigget,66.

35 قام موريس بأداء واجبٍ: (Farrand, vol. III, 85 (undated anecdote).

35 «يحيط نفسه بنور يسحر»: (Farrand, vol. III,92 (Pierce).

37 «إنشاء تواصل مناسب»: (Farrand, vol. III, 23, 28 (Mason to George Mason, Jr., May 20 and May 27, 1787.

37 «اتّضح لمندوبي فرجينيا»: Farrand, vol. III, 549 (Madison's unpublished) « Preface to Debates in the Convention «

37 «الولايات الأساسيّة»: Farrand, vol.III, 23 (Mason to George Mason, Jr., May) .(20, 1787

37 فباستفادتهم من تحضير ماديسون: (من الأكيد أنّ مشاورات الفرجينيّين بدأت بمختصر ماديسون وانتهت إلى صيغة قريبة جدّا من تلك الخطّة. وقد ضمّت خطّة فرجينيا كما قُدّمت في بداية المؤتمر الأفكار التي اختطّها ماديسون في رسالة وجّهها إلى راندولف في أوائل أفريل، وذلك قبل وصوله بشهر إلى فيلادلفيا. Madison to Randolph, April .8, 1787, LDC

38 كان مثقّفا: (-Madison to Jefferson, June 6, 1787, in Madison, Writings, 96 .97

38 جون راتلدج من شارلستون: (Richard Barry, Mr. Rutledge of South Carolina .(New York : (Duel, Sloan & Pierce, 1942), 315-16

تضمّنت ترجمة باري بعض المزاعم التي لم يكن المؤرّخون اللاحقون قادرين على إثباتها. لكنّ الزعم بأنّ راتلدج أقام ظرفيّا مع واشنطن يتّسق مع علاقة العمل الحميمة بين الرجلين خلال المؤتمر.

38 عضواً الوفد المتبقّيان: (Pennsylvania Packet, May 28, 1787.

38 شقيقة زوجة العماد بينكني: (Malcolm Bell, Jr., Major Butler's Legacy: (Five Generations of a Slaveholding Family (Athens: (University of Georgia .Press, 1989), 19-20

كان للكارولانيّين الجنوبيّين بعض القريبات المتميّزيات. فقد أدخلت والدة شارلز كوتسوورث بينكني -أليزا لوكاش بينكني- إلى كارولينا الجنوبيّة زراعة النيلة. وباعتبارها

ابنة حاكم أنتيغا حيث كانت النيلة تُزرع، استنتجت أنّ ظروف كارولينا الجنوبيّة قد تكون ملائمة لزراعة تلك النبتة، وهو ما ثبتت صحّته. كريستوفر أ. غادسون، عظة بمناسبة وفاة العماد شارلز كوتسوورث بينكني (شارلستون: (أ. إ. ميلر، 1825). وكان جون راتلدج من جهة زوجته، أليزابيث كريمكي، عمّاً لأنجلينا وسارا كريمكي اللتيْن أصبحتا من الدعاة الأوائل لإلغاء الرقّ في الجنوب.

39 «وربّما كان أنجح محام»: (McDonald, We the People, 79 .

39 اشتكى بعضهم: Barry، 23 .

39 «مفرط السرعة في مداخلاته العامّة»: (Farrand, vol. III, 96 (Pierce).

39 «لم ير حدّة في العين»: Adams Diary, September 3,1774 .

39 «اشنقوهم»: (David Ramsay, Ramsay's History of South Carolina (New berry, S,C.: (W.J. Duffie, 1858), vol. II, 270

39 باعتباره حاكماً لولاية كارولينا الجنوبيّة: (Robert W. Barnwell, Jr., "Rutledge, the Dictator," Journal of Southern History 7 (1941): (215.

39 «كانت المحكمة وهيئة المحلّفين والحضور يرتعدون أمامه»: (Henry Flanders, The Lives and Times of the Chief Justices of the Supreme Court of the United States (Philadelphia : (Lippincott, Grambo & Co., 1855), 601.

39 ملاحظات راتلدج في المؤتمر: (Collier and Collier, Decision in Philadelphia, 197.

40 «أذكى مخلوق حي»: (Hutson, 255 (E. Gerry to Ann Gerry, September 1, 1787).

40 يغمز بمنكبيه أحياناً: (Collier and Collier, 92 .

40 حين كان في الكونغرس الكنفيدرالي: JCC (August 7, 1786) .

40 «العلاج الوحيد الحقيقي والجذري»: Speech to New Jersey Legislature, March) 16, 1786 ; « Account of a Deputation of Congress to the Assembly of New .Jersy, » American Museum 2 (1787) : (153-60

40 وصل الشابّ تشارلز: Andrew Bethea, The Contribution of Charles Pinckney) to the Formation of the American Union (Richmond: (Garrett & Massie, 1937), 35-36; Mary D. Mtthews, Charles Pinckney: (A Forgotten Founder .(Ph. D. dissertation, University of South Carolina, 2001

40 عرض تشارلز مسودّته: (سجّل يعقوب بروم من دالاوار قبل بدء المؤتمر ببضعة أيّام أنّ بينكني كانت لديه خطّة لبناء حكومة هي عبارة عن «مركّب وقع تلخيصه من دساتير بعض الولايات ومن بنود الكنفيدراليّة». Hutson, 16 (Jacob Broom to Thomas Collins, May 23, 1787.. وسجّل مندوب آخر من دالاوار يُدعى جورج ريد وكان يقيم في فندق السيّدة هاوس، مراجعة خطّة بناء حكومة كان يجب أن تكون خطّة بينكني. , Farrand .vol, 25 (George Read to John Dickinson, May 21,1787

40 إسفنجيّا منتحلا: .Brant, James Madison : (Father of the Constitution, 28)

40 لقد حجب بحثه عن المجد: (إنّ أبقى وصمة في جبين شارلز تأتي من وثيقة أرسلها إلى الأرشيف الوطني في 1819 باعتبارها خطّته الأوّليّة للدستور. تخالف وثيقة 1819 في نقاط مركزيّة الصيغة التي نشرها شارلز بنفسه في خريف 1787 بعد وقت قصير من اختتام المؤتمر.

كان الضرر الذي لحق بموقف شارلز مركّبا عندما نعى بِطَيْش ماديسون قبل وفاته، وهو ما سمح للفرجيني المسنّ بتوجيه انتقادات إضافيّة وغير مردود عليها إلى جهود الكاروليني الجنوبي بفيلادلفيا.

41 أكثر من أيّ أحد آخر: (; Bell, 77 ; e.g., Farrand, vol. I, 168 (« vehement »)
« Farrand, vol. II, 541 (« strenuous

41 تسعة على غرار ويلسون: (بناء على معاينة سجلاّت أوراق الاعتماد المقدّمة للكونغرس، شملت هذه الأخيرة أشخاصا مثل روفوس كينغ من ماستشوستس، وليام صموئيل جونسون من كنّكتكات، شارلز بينكني من كارولينا الجنوبيّة، وليام فيو ووليام بيرس من جورجيا، ماديسون ووليام بلونت من كارولينا الشماليّة، غانّيغ بادفور من دالاوار.

41 «كانت رائحة القمامة تنبعث من الشورع والأزقّة»: (Sam Bass Warner, Jr., The
.private City (Philadelphia: (University of Pennsylvania Press, 1968), 16

41 «الكلاب الميّتة والقطط والطيور الداجنة»: (Charles S. Olton, "Philadelphia's First
Environmontal Crisis,» Pennsylvania Magazine of History and Biography
98 (April 1974):99

41 الخنازير الطليقة: (J. P. Brissot de Warville, New Travels in the United states
of America, 1788, trans. Mara Soceanu Vamos and Durand Echeverria; ed
Durand Echeverria (Cambridge, Mass.: (Belknap Press, 1964; originally
.1792), 201

41 وفي يوم الأربعاء 23 ماي: ((.Hutson, 16 (Washington Diary

41 فقد ضربت الحمّى الصفراء: (J .H Powell, Bring Out Your Dead : (The Great
Plague of Yellow Fever in Philadelphia in 1793 (Philadelphia University
.of Pennsylvania Press, 1949), xiii

41 «الذي لم يصب أبداً بداء الجدري»: (Hutson, 3 (Erastus Woolcott to the Governor
and General Assembly of Connecticut, May 15, 1787

42 «معرّضة كثيراً للمرض»: (Hutson, 216 (Elbridge Gerry to Ann Gerry, Agust

.(10, 1787

42 «ليس هناك إلاّ شوارع كلّها متشابهة»: (Johann D. Schoepf, Travels in the Confederation [1783-84], Trans. And ed. Alfred J.Morrison (New York: (Bergman Publishers, 1968), vol. I, 58

42 ورغم ذلك أعجب الزائرون: (Brissot, 254.

42 ولمكافحة الجريمة: (Schoepf, vol. I, 59.

42 «مستعملين «لغة بلّينغزغايت»: (Ibid., 263 .

42 وفي شهر مارس من سنة 1787 هرب ثمانية عشرة سجينا: (A Daybook for 1787,) Bicentennial of the Constitution of the United States (Independence National Historical Park), citing Pennsylvania Herald of March I, 1787 (heeafter Daybook

42 في 12 ماي: (Pennsylvania Herald, May 16 1787; Thompson Westcott,) History of Philadelphia, 1609-1884 (Philadelphia: (L.H Everts & Co., .1884),445

42 «وكر قُطّاعِ طرق»: (Pennsylvania Journal and General Advertiser, June 20,) .1787

42 «في فيلادلفيا شيء دائماً»: (Schoepf, vol. I, 68.

42 كان كلّ شيء مسوًّى وفق ترتيب مثالي: (William Parker Cutler and Julia Perkins Cutler, Life, Journals, and Correspondence of Rev. Manasseh Cutler, LL.D. .(Cincinnati: (Robert Clarke & Co., 1888), vol. I, 271

42 «فحتّى اللحم»:Brissot, 199 .

42 تضمّنت المعروضات الراكون: (Schoepf, vol. I, 112.

42 «يعتقد المرء أنّ هذه السوق هي سوق للأشقّاء»: (Brissot, 199.

43 ففي سنة 1774، كان لفيلادلفيا: (Warner, 19.

43 وكانت الحانات الأفضل نوعاً تمتلئ: (Bowen, Miracle in Philadelphia, 50 .

43 «مكتظّة جدّاً»: (Farrand, vol. III, 25 (George Read to John Dickinson, May 21,1787.

43 «معذّبيه القدامى: (البقّ»: (John D. R. Platt, « The City Tavern, » Denver Service Center, Historic Preservation Team, National Park Service, U.S. Departement of the Interior,Denver, April 1973, 51.

43 جلب الخادم مجلّتين لندنيّتين: (Cutler and Cutler, Vol. I, 254; Platt, 49 n. 90.

43 وبالرغم من أنّ تعوّد... على شرب الخمر بحماس: (Clinton Rossier, 1787 : (The) Grand Convention (New York : (Macmillan Co., 1966), 115-16,

43 فعندما أقامت فرقة مدينة فيلادلفيا مأدبة: (Daybook, September 15, 1787. تمّ اقتناء مجلّدات مماثلة في حفل غداء نظّمته جمعيّة القدّيس أندرو في السنوات التالية. Peter John Thompson, A Social History of Philadelphia's Taverns, 1683-1800 (Ph.D.Dissertation, University of Pennsylvania, 1989), 514.

43 ويليام صموئيل جونسن: (Platt, 205 .

43 كتب مندوب عن دالاوار: (Daybook, June 30, 1787.

43 تلقّى قاضي قضاة بنسلفانيا دعوة عشاء ليوم 2 جويلية: (Ibid., July 1, 1787.

44 فمن بين الثمانية والثلاثين مندوباً: (Ibid., June 24, 1787.

44 ابنة صموئيل جونسون: (Ibid, May 29, 1787.

44 كان أكثر من نصفهم من: (Farrand, vol. III, 587-90) .

44 «على انعقاد هذا المؤتمر العظيم»: (بنسلفانيا جورنال أند جينيرال أدفرتايزر، 12 ماي، 1787.

44 «الوسيلة الوحيدة لاجتناب أفظع الشرور»: (Hutson, 13 (Knox to Governor John Sullivan of New Hampshire, May 21, 1787.

44 إنّ تأثير ما ستقترحه الحكومة: (Farrand, vol. III, 33 (Mason to George Mason, June 1, 1787.

45 «أفضل المواهب انتقاء وأنبل القلوب»: (Alexis de Tocqueville, Democracy in America (New York : (Vintage Books, 1990), vol. I,114.

45 قد تكون عُلّمت: (Hutson, 295 (Williamson to John Gray B lount, June 3, 1788

الفصل 5. فرجينيا تقود: (25 ماي – 01 جوان

الصفحة

47: «مشتكيا من حاجته إلى مؤهّلات أفضل»: (Farrand, vol. I, 3-4 (May 25, 1787

47 وبتأييده للمقترح: (Farrand, vol. I, 3 (May 25, 1787) .

48 «مقعداً قبالة العضو المترئس»: (Farrand, vol.III, 550 (unpublished “Preface to «Debates in the Convention of 1787

48 بعد المؤتمر بعدّة عقود: (James H. Hutson, « Riddeles of the Federal Constitutional Convention, » William and Mary Quarterly 44 (1987) : 411, 412-15).

49 الأكثر إرباكا: (Ibid., 412) More disturbing .

إنّ المسلك الذي وجدت من خلاله تقييدات يايتس طريقها إلى النشر غير موثوق بدرجة عالية. ففي 1808 كان حاكم نيويورك جورج كلينتون ينافس ماديسون على الترشيح في منصب الرئاسة من قبل الحزب الجمهوري. وكان أحد المؤيّدين له صهره أدموند جينات المشهور بـ«المواطن جينات» خلال تسعينات القرن 18 والذي كان قد أثار اضطرابات سياسيّة كبيرة حين كان ممثّلاً للنظام الثوري الفرنسي. ولأنّه صمّم على ألاّ يعرّض عنقه للمقصلة بالعودة إلى فرنسا في 1793، تزوّج جينات ابنة كلينتون واستقرّ قريبا من آلباني، نيويورك، التي كانت أيضاً موطنا ليايتس. في 1808 تحصّل جينات من أرملة يايتس على التقييدات التي كان زوجها قد أخذها خلال المؤتمر ناويا استغلالها سياسيّاً ضدّ ماديسون. لم تكن التقييدات قد نشرت بالفعل حتّى سنة 1821، وهي السنة التي نشرها فيها جينات. ويستمدّ ناشرو جينات حجّتهم من مقارنة الصيغة المنشورة بصفحتين من نسخة أنجزها جون لنسينغ (مندوب آخر من نيويورك). وبالرغم من أنّ ناشري جينات يبدون مخلصين فيما يتعلّق بهذه العيّنة الصغيرة، فإنّ آخرين قد يكونون تصرّفوا في الفروق الدقيقة بين النصّين، وربّما فعلوا أكثر من ذلك. James H. Hutson, « Robert Yates's Notes on the Constitutional Convention of 1787: (Citizen Genêt's Edition,» Quarterly Journal of the Library of Congress 35 (1978): (173.

50 أمْلت الجغرافيا أيضاً: (لم يكن نظام المقاعد المتّبع من قبل المندوبين معروفاً على وجه اليقين، وقد يكون تأرجح أثناء انعقاد المؤتمر. الوقائع المقبولة هي: ((1) أنّ الكونغرس اتّبع ترتيب موائد الولايات من الشمال إلى الجنوب في مناسبة واحدة مسجّلة على الأقلّ، سنة 1782 Charles Thompson announcement, in E.C. Burnett, Letters of Members of the Continental Congress [Gloucester, Mass. : (P. Smith, 1963], vol. VI, 348-50. (2) أنّ ذلك الترتيب قد أُوصِي به في تقرير لجنة لم يؤخذ به سنة 1781، (3) أنّ الكونغرس والمؤتمر سجّلا تصويت الولايات من الشمال إلى الجنوب. ومن هذه المواد

توصّل المؤرّخون والقيّمون لدى المنتزه التاريخي الوطني للاستقلال إلى «التأويل» الذي يقدّمه هذا الكتاب لترتيب المقاعد.

50 تخيّل أنّك: Hutson ; 201 (John Langdon to Joshua Bracket, August 1,) .1787

51 واشترطت نيويورك:Farrand, vol. III, 560-86 (أذون وقع تبنّيها من قبل الولايات الاثنتي عشرة التي أرسلت مندوبين إلى المؤتمر).

51 «شجبوا المقترح وأجهضوه»: .Farrand, vol. I, 8,10-11 (May 28, 1787)

51 «يمنع تسريب مداولات المؤتمر بطرق منافية للقواعد المتّبعة»: Ibid., 13 (May 28,) .1787

51 لا شيء ممّا يقال في المجلس: .Ibid., 17 (May 29, 1787)

51 وتفعيلا لهذا الإجراء: Ibid.,vol. III, 59 (Manasseh Cutler,Journal, July 13,) 1787); Paul S. Clarkson and R. Samuel Jett, Luther Martin of Maryland .(Baltimore: (Johns Hopkins Press, 1970),80

52 «كان عظيماً إلى حدّ»: Farrand, vol.III, 60 (Pennsylvania Packet and General) .advertiser, July 19, 1787

52 «احتياطا ضروريّا»: .Ibid., 33 (Mason to George M ason, Jr., June 1, 1787)

53 توقّع المندوبون مقترحاً أوّليّا: Ibid., 25 (George Read to John Dickinson, May) .21,1787

53 «الفوضى الناجمة عن تهاون الحكومة»: .Ibid, vol. I, 25-27 (May 29, 1787)

54 وعلاوة على ذلك كانت روايته للخطّة: .Ibid., vol. II, 134-37)

54 ردّ الألماني عرض غورهام: Szatmary, 82 ; Richard Krauel, «Prince Henry .)

and the Regency of the United States», American Historical Review 17
.(October 1911): (44-51

55 «يستنتج من صمت القاعة»:;Farrand, vol. I, 41 (McHenry notes, May 30
.1787

55 «غير الضروري»: (Ibid., 39 (May 30, 1787.

56 «على حياء السادة المندوبين»: (Ibid, 65 (June 1, 1787.

56 «الصمت العامّ»: (Hutson, 62 (Gunning Bedford Notes .

الفصل 6. صفقة ويلسون: (31 ماي – 10 جوان

الصفحة

59 «إقامة هرم فيدرالي شامخ»:Farrand, vol. 1, 49 (May 31, 1787 .

61 «مثل أيّ يوم آخر»:De Chastellux, Travels in North America, 97 .

61 كان المندوبون يقطنون في أماكن متقاربة: (كان دانيال كارول من ميريلاند استثناء. فبسبب خوفه ممّا اشتهرت به فيلادلفيا من أمراض مهلكة أقام في جيرمنتاون البعيدة عدّة أميال. William G. Carr, The Oldest Delegate: (Franlin in the Constitutional
.Convention (Newark: (University of Delware Press, 1990), 24

61 «يمشون معاً ويتحدّثون معاً»: (Max Farrand, "If James Madison Had a Sense
of Humor,» Pennsylvania Magazine of History and Biography 62: (136
(1938

61 وبلوغ يوم 8 جوان، كان بيرس بتلر: (Paper of Pierce Butler, Library of Congress
.Manuscript Collection (June 8, 1787

62 «فقد يكون من واجبهم»: Farrand, vol. I, 37 (May 30, 1787) .

63 فبعد أن تزعّم ديكنسون المستوطنين: James H.Hutson, « John Dickinson and the Federal Constitutional Convention, » William and Mary Quarterly 40 : (1983), 256, 257.

63 وفي اليوم الأخير من ماي: Farrand, vol. I, 48(May 31, 1787).

63 ورغم أصوله المتواضعة: (بعد اختتام المؤتمر سيتوجّب على الرئيس ذي السبعة والستّين سنة أن يأخذ بعض الحالات إلى دائرة محكمة كنّكتكات بهدف إصلاح وضعه المالي. Christopher Collier, Roger Sherman's Connecticut: (Yankee Politics and the American Revolution (Middletown, Conn: (Wesleyan University Press, 1971), 173.

63 «ضعيفاً قدر الإمكان»: Farrand, vol. I, 48 (May 31, 1787).

63 «بأن يولوا أهمّيّة لحقوق كلّ طبقة من طبقات الشعب»: Ibid., 49 (May 31, 1787).

64 «حتّى أمراض النّاس»: Ibid, 142 (June 6, 1787).

64 «فوضى الديمقراطيّة وحماقاتها»: Ibid., 51 (May 31, 1787).

64 ولكنّ أعضاء آخرين كانوا يرون أنّ الهيئات التشريعيّة: Ibid., vol. II, 291 (August 14, 1787) ; Ibid, vol. I, 150 (June 7, 1787), Robertson, 210-11.

64 «شرخا»: Farrand, vol. I, 52 (May 31, 1787).

64 «لقد رأينا كيف جُعل الفارق البسيط»: Ibid., 135 (June 6, 1787).

64 اقترح جون ديكنسون: Ibid., 156 (June7, 1787).

65 «شبّه النظام الوطني المقترح»: Ibid., 153 (June 7, 1787).

65 «ستواصل الولايات تحليقها»: Ibid., 165 (June 8, 1787).

65 «ستواصل تحليقها»: (Ibid., 177-79 (June 9, 1787.

65 لم يكن جيمس ولسون يفتقر أبداً إلى الشراسة: (Ibid., 180 (June 9, 1787. 66) هل سيكون لنيوجيرسي: (Ibid., 183 (June 9, 1787

66 أن تكون البنود قد تبنّت: (Ibid., 179 (June 9, 1787.,

67 زيادة على ذلك، كان العديد من الجنوبيّين: (;Ibid., 491 (June 30, 1787, Bedford) 561 (July 9, 1787, G. Morris

67 عقد ويلسن صفقة: (: Paul Finkelman, « Slavery and Constutional Convention (Making a Covenant with Death», in Richard Beeman, Stephen Botein, and Edward C. Carter II, eds., Beyond Confereration: (Origins of the Constitution and American National Identity (Chapel Hill: (University of .North, Carolina Press, 1987

68 ففي نهاية المطاف، كان ثلث المندوبين على الأقلّ: (McDonald, We the People، 68–69. تشمل القائمة الموثّقة لمالكي العبيد: (ويلسون وأربعة مندوبين من ميريلاند والفرجينيّين السبعة جميعاً وأربعة كاروليننيّين جنوبيّي نوثلاثة مندوبين من كارولينا الشماليّة.

68 فقد تبنّت اثنتا عشرة ولاية قرارات: (Farrand, vol. II, 559-86 (Appendix B.

68 «صافية جدّاً، بيّنة»: (Fisher Ames correspondance, quoted in Brant, James .Madison, Father of the Constitution, at 249

68 «أكثر لحظات النقاش دفءا وإثارة»: (Hugh Blair Grigsby, The History of the Virginia Federal Convention of 1787 (New York : (Da Capo Press, reissued .1969), vol. I, 96

69 لا أستطيع التفكير في معاقبته: (James Madison, Jr., to James Madison, Sr.,

.September 8,1783, Madison, Papers

69 «أن يعتمد بأقلّ قدر ممكن»: (James Madison ,The Writings of James Madison, Comprising His Public Papers, and His Private Correspondence, Including Numerous Letters and Doccuments Now for the First Time Printed (New .York: (G.P.Putnam's Sons, 1908-10), vol. II, 154

70 «لا يوجد على قيد الحياة رجل»: (Washington to Robert Morris, April 12, .1786,Washington Papers

70 حرّر جورج وايث عبيده: (Joyce Blackburn, George Wythe of Williamsburg .(New York : (Harper & Row, 1975), 123

70 «يتوجّب عليّ أن أحرّر»: (Randolph to Madison, June 30, 1789, in Madison .Papers

70 إنّ كلّ سيّد في هذا المكان: (Quoted in Schwartz, « Forgotten Founder, » 143.

70 «يخضعوا لأيّ إملاء»: (W.W. Abbot et al., Papers of George Washington, .Colonial Series, vol. 10, Washington to Bryan Fairtax (August 24, 1774

70 وهاجم آخرون تلك الفقرة: (Blackburn, 97 ; Joseph Ellis, American Sphinx : (The Caracters of Thomas Jefferson (New York: (Alfred A. Knopf,1997), .51-52

70 وايث ومايسون وجيفرسون: (Autobiography Draft, February7, 1821, in .Jefferson Papers

70 في 1787 كانت ماستشوستس وحدها: ((Commonwealth v. Jennison (unreported (1787), reprinted in Paul Finkelman, The Law of Freedom and Bondage: .(A Casebook (New York: (Oceana Publications, 1986),36-37

71 أربع ولايات أخرى: (Rossiter, 32 ; Paul Finkelman, Slavery and the Founder
(Armonk, N.Y.: (M.E. Sharpe,2nd ed., 2001), 41; Pennsylvania Acts, 1780
("An Act for the Gradual Abolition of Slavery»); Rhode Island Laws, 1784
("An Act Concerning Indian, Mulatto, and Negro Servants and Slaves»);
.Connecticut Laws, 1784

71 تبنّت نيويورك: (Arthur Zilversmit, The First Emancipation : (The Abolition
of slavery in the North (Chicago : (University of Chicago Press, 1967),
.16-17, 121-24, 150, 180-82, 193-94

71 تحت تلك الأحكام استمرّ استرقاق العبيد: (Ira Berlin, Many Thousand Come
(Cambridge, Mass.: (Belknap Press, 1998), 232-33

71 سنة 1802 سنّت فرجينيا قانونا: (Drew R. McCoy, The Last of the Fathers: (James
Madison and the Republican Legacy (Cambridge: (Cambridge University
.Press, 1989),283

71 قبل افتتاح المؤتمر بوقت قصير: (Brands, 701-4.

71 كان الجنوبيّون دون ريب غير مرتاحين: (Pennsylvania Journal and General
.Advertiser (May 23,1787

71 كان ولسون الاسكتلندي الوافد يملك: (Hall, Politics and Legal Philosophy of
.James Wilson, 30; Smith, James Wilson,367

71 عائلة الحاكم موريس: (Mintz, Gouverneur Morris,7,14-15.

71 وبضغطه لإثبات فقرة خاصّة: (Adams, Gouverneur Morris, 4-9, 81-88.

71 وكوّن «لواء أثيوبيّا»: (Henry Wiencek,An Imperfect God: (George Washington,
His Slaves, and the Creation of America (New York:Farrar, Straus &

.Giroux, 2003), 203; Berlin,257

72 «سيغادرنا، إذا اعتقد»: (W.W.Abbot, ed, The Papers of George Washington: (Revolutionary war Series (Charlottesville: (University Press of Virginia, .1985-91), vol, II, 479-80

72 استعداد واشنطن: (John C. Fitzpatrick Washington, ed., The writings of George Washington, 1745-1799, vol, XXII, 14 (Washington, D.C. : (Government Printing Office, 1931-44) (note lo letter from Washington to Lund ;(Washington, April 30, 1781

(متوفّرة من خلال مشروع مكتبة جامعة فرجينيا على الشبكة، http://etext.virginia. .edu/washington/fitzpatrick/); Wiencek,251

72 عدد العبيد بجورجيا: (برلين، 263، 304؛ Berlin, 263, 304 ; James McMillin, The Final Victims : (Foreign Slave Trade to North America, 1783-1810 .(Columbia : (University of South Carolina Press,2004),8

72 إلى أعمالهم: (Quoted in Friz Hirschfeld, George Washington and Slavery : (A Documentary Portrayel (Columbia : (University of Missouri Press, .1997),30

72 «إذا لم يؤدّ الزنوج»: (Ibid, 36.

72 بعد 1783 استأنفت ولايات الجنوب العميق: (Donald Robinson, Slavery in the Structure of America Politics (New York : (W.W.Norton & Co., 1971). .298

72 جون راتلج والعماد بينكني: (James Haw, John and Edward Rutledge of South Carolina (Athens : (University of Georgia Press, 1997), 168 ; Bell,

40; Marvin R, Zahniser, Charles Cotesworth Pinckney, Founding Father .(Chapel Hill: (University of North Carolina Press, 1967), 73, 76

73 غادر ألين تلك الجماعة اللاطائفيّة: (انبثق تأسيس الكنيسة الأسقفيّة الميثوديّة الإفريقيّة من نزاع حول التنظيم العنصري للمقاعد في كنيسة القدّيس جورج.

73 «عديمة الجدوى هي»: (Hutson, 44.

73 «أُخبِرت الجمعيّة لاحقا أنّه»: (Daybook, note to August 17, 1787.

الفصل 7. ثلاثة أخماس كائن بشري: (11 جوان

الصفحة

76 أنّ «عدالة» تلك المقاربة: (Farrand, vol. I, 196 (June 11, 1787.

77 وحذّر كينغ أيضاً: (Ibid, 36 (May 30, 1787 .

77 وبعد مراجعة آليّة حساب: ((Ibid., 197-200 (June 11, 1787. عندما «قذف فرانكلين بأفكاره» دفعة واحدة تذكّر بطبيعة الحال ملاحظاته أثناء مناقشة موضوع بنود الكنفيدراليّة، وذلك لمّا قدّم إشارة مماثلة لاندماج انجلترا وسكوتلاندا. .August 1, 1776 .JCC

77 حظي قرار ولسون بتأييد واسع، فوقع تبنّيه: (Farrand, vol. I,200 (June 11, 1787. عنى الحضور الضعيف لمندوبي ميريلاند الخمسة أنّ وفد الولاية كان منقسما غالباً إلى مندوب مؤيّد لقيام حكومة مركزيّة أقوى (دانيال من سان توماس جينيفير) وآخر متفان في حماية سلطات الولاية (لوثر مارتن). خلال أسابيع عديدة كان المندوبأن في حالة شلل اقتراعي بالرغم من أنّ وصول ميريلاندي آخر كان يمكنه أن يكسر الحلقة المفرغة.

78 كان هذا المندوب الثري من ماربلهاد: (George Athan Billias, Elbridge Gerry:

(Founding Father and Republican Statesman (New York; McGraw -Hill,1976),7; James T. Austin, The Life of Elbridge Gerry, Vol. II (New .York: (Da Capo Press, 1970), 158,308

78 «خطيب متردّد ومرهِق»: (Farrand, vol. III, 88 (Pierce.

78 عضو مراسل: (Richard S. Newman, The Transformation of American Abolitionism, Fighting Slavery in the Early Republic (Chapel Hill: .(University of North Carolina Press, 2002), 21-22

78 حين جلس ولسون: (March 18, 1783, JCC.

79 فكّرت اللّجنة لفترة قصيرة في احتساب العبيد: (,March 28, 1783; February 11 1783; February 17, 1783; March 18, 1783, JCC. تمّت مناقشة الموضوع أيضاً في الكونغرس القارّي سنة 1776. Adams Diary, July 30-31, 1776.

79 لم تعد تلك النّسبة أبداً سارية المفعول: (Finkelman, Slavery and the Founders, 13; .Bowen,95

79 وبالفعل، ففي واحدة من السخريّات اللاذعة: (,Robinson, 156-59; Farrand, vol.I .587 (July 11, 1787

79 وعلى ما في... من انحرافات: (استشهد ماديسون بهذه الفكرة بالذات في الفيدرالي، عدد 54 محتجّا بأنّ الدستور كان يعتبرهم خليطا من الآدميّة والمتاع، وتلك بالفعل هي صفتهم الحقيقيّة». واستنتج: («لندع الطرفين يتبنّيان التسوية النفعيّة الواردة في الدستور والتي تتمثّل في النظر إليهم باعتبارهم من المواطنين الذين خفّضت العبوديّة قيمتهم إلى ما دون مستوى المواطنين الأحرار الذين يعتبرون العبيد مسلوبين من خُمُسَيْ الإنسان». (التوكيد في الأصل).

80 «لن توافق الولايات الصغرى»: (Farrand, vol I, 201 (June 11,1787.

80 اقترح أن يكون لمجلس الشيوخ: (تنعكس الخاصّيّة الانتهازيّة لهذه الخطوة الأخيرة من اليوم في مشاركة هاملتون. ولم تكن هناك دلائل كثيرة على تعاون ويلسون وهاملتون في أيّ نقطة خلال المؤتمر.

80 إلاّ أنّ نسخا من خطّته الحقيقيّة: (هذا الجزء الضخم من العمل البحثي التاريخي موصوف ضمن Farrand, vol. III, 604-5, and in John Jameson, Stadies in the History of the Federal Convention of 1787 (Washington, D.C: (Government Printing .Office, 1903), 117

هذه الحجّة تدعّمت برسالة 21 ماي من جورج ريد، مندوب دالاوار الذي أقام في فندق السيّدة هاوس حيث كان جيمس ماديسون والشابّ شارلز يقيمان أيضاً. هوارد أ. أوهلاين، «النزعة الجمهوريّة والرقّ: (أصول فقرة الثلاثة أخماس في دستور الولايات المتّحدة»، William & Mary Quarterly 38 (1971) :563,568.

كتب ريد أنّه كانت لديه نسخة من «نظام فيدرالي كان يُنوَى اقتراحه». Farrand,vol. III, 25 (Read to Dickinson, May 21, 1787. ووصف الخطّة باعتبارها تشتمل على «مجلس للنوّاب... تختارهم الهيئة التشريعيّة في كلّ ولاية ويكون عددهم متناسبا مع عدد السكّان البيض وثلاثة أخماس كلّ الآخرين». من المؤكّد أنّ ريد كتب عن خطّة بينكني؛ وكان الفرجينيّون في ذلك الوقت ما يزالون يشتغلون على ملخّص خطّتهم الخاصّة، بينما كان بينكني يعرض خطّتَه على كلّ من أراد النظر فيها. وسجّل مندوب آخر عن دالاوار، يعقوب بروم أنّه راجع خطّة بينكني قبل افتتاح المؤتمر.Hutson, 17 (Jacob Broon to .Thomas Collins, May 23, 1787

علاوة على ذلك، لا يتلاءم عدد من العناصر من وصف ريد إلاّ مع خطّة بينكني، بما في ذلك انتقاء مجلس الشيوخ على قاعدة «أربع مقاطعات كبرى ستقسّم الولايات المتّحدة على أساسها». وتأتي الحجّة الرئيسيّة ضدّ أبوّة بينكني لفقرة الثلاثة أخماس من محاولات الكاروليّنيّين الشماليّين إعادة كتابة التاريخ. كان بينكني متكدّرا بوضوح لرؤيته خطّته

تأفل تماما أمام خطّة فرجينيا. ولم يحظ مقترحه حتّى بمجرّد التسجيل في الدفتر الرسمي للمؤتمر. وبعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة وفّر بينكني صيغة مفترضة لخطّته قصد حفظها بمعيّة تسجيلات المؤتمر. تصرّح تلك الصيغة لسنة 1819 بأنّ الهيئة التشريعيّة يجب أن تنتقى على أساس «عدد السكّان» في كلّ ولاية، وهي عبارة قد تشمل العبيد والسكّان الأحرار كليهما، وتنكر على بينكني فضله في صياغة ترتيب الثلاثة أخماس.Farrand, vol. III, 535-36 (Madison to W.A. Duer, June 5, 1835).

لكنّ صيغة سنة 1819 من خطّته كانت مدلّسة على الأرجح. فقد أنكر ماديسون أن تكون هي تلك التي عُرِضت في فيلادلفيا، وساق عيّنات مفصّلة من صيغة 1819 حيث قام «السيّد بينكني بتركيب... فقرات» من الدستور النهائي بما في ذلك اشتراط الانتخاب العامّ لمجلس النوّاب. أشار ماديسون أيضاً إلى التناقضات بين صيغة 1819 لبينكني وكتيّب نشره بينكني في أكتوبر 1787 يدّعي أنّه يلخّص الخطّة. إنّ ذلك الكتيّب الصادر سنة 1787 يسقط كلّ إشارة إلى نسبة الثلاثة أخماس تاركا الروايات المستقاة من وثائق ويلسون ورسالة جورج ريد باعتبارهما أهمّ الروابط بين بينكني والنسبة.

81 «تغلّبت عليه نسبيًا»: Hutson, 94 (Gorham to Theophilus Parsons, June 18, 1787).

81 «لم تستطع تحمّل الحرارة الشديدة لذلك الطّقس»: Hutson, 141(Mary Butler to Thomas Butler, July 4, 1787

81 «أدفأ مكان»: Hutson, 163 (William Paterson to Euphemia Paterson, July 11, 1787).

81 المفكّرة الناقصة لويليام صموئيل جونسون: Farrand, vol III, 552-54).

82 «فيلادلفيا تمتّعت على العموم»: Huston, appendix).

82 «أنّ الحرارة تجعل السير»: de Chastellux, 155).

82 «لا يقلّ عن ثلاثين حالة وفاة مفاجئة»: (Schoepf, vol. I, 61.

82 أنّه ليس غريبا: (de Chastellux, 155.

82 «الآثار القاتلة»: (Pennsylvania Journal and Weekly Advertiser, July 7, 1787.

82 خلال الصيف: (Hutson, 72 (June 12 diary entry); Platt, "The City Tavern,» 217.

83 وذات يوم ثلاثاء: (Hutson, 172 (July 17 diary entry

83 كان يستمتع بالتوقّف في الحقول: (Ibid, 179 (July 22 diary entry.

83 كتب واشنطن عن تناول العشاء: (Ibid., 12 (May 21 diary entry.

83 ورقة قائمة طعام: (Daybook (June 6, 1787.

83 «لقد سئمت تماماً»: (Farrand, vol. III, 28 (Mason to George Mason, Jr., May 27, 1787.

84 «أختلط بالناس»: (Hutson, 121 (Ellsworth to Abigail Ellsworth, June 26, 1787.

84 «ملطّخات بأحمر الشفاه حتّى الأذنين»: (Phyllis Lee Levin, Abigail Adams (New York: (St Martin's Press, 1987). 374.

84 «متنوّعة نفس تنوّعها تقريباً»: (Brissot, New Travels, 256.

84 «أيّا كانت أصولهم»: (Wendy Anne Nicholson, Sober Frugality and Siren Luxury: (The Transformation of Elite Culture in Philadelphia, 1750-1800 (Ph.D. dissertation, University of California at Berkeley, 1994), 203-4.

84 «من البربري حقّا: (de Chastellux, 89-90.

84 «تشجّع الاستهلاك المشطّ للكحول»: (Peter Thompson, Rum Punch and Revolution: (Taverngoing and Public Life in Eighteeth Century Philadelphia (Philadelphia: (University of Pennsylvania Press, 1999), 193.

84 «الضيوف الذكور بثبات»: (Ibid.

الفصل 8. Festina Lente: (12–19 جوان

الصفحة

87 «Festina Lente»: (Farrand, vol. III, 32 (Mason to George Mason, Jr., June 1, 1787

87 الأميال الـ 140: (Rutland , The Papers of George Mason, cxxi.

88 «الاستخفاف بالبروز»: (Rowland, vol.II, 129.

88: («رجلا ذا مواهب»: (John Jay to William Livingston (August 27, 1787), in Daybook, August 27.

88 «إنّ السيّد مايسون رجل»: (Farrand, vol. III, 94 (Pierce)).

89 يُخشى من تكتّل: (Farrand, vol, I,447-48 (June 28, 1787.

89 هل يمكن لحكومة مركزيّة: (بالرغم من أنّ المقارنة ليست مثاليّة فإنّ أصداء انشغالات واضعي مسوّدة الدستور يمكن سماعها في النقاش المعاصر في أوروبّا حول تطوّر الاتّحاد الأوروبّي الذي يتمنّى البعض أن يصبح «اتّحاد الولايات الأوروبيّة».

89 «مقامه صغير جدّاً»: (Farrand, vol, III, 90 (Pierce)) .

91 «بهدوء أكبر»: (Ibid, vol I, 151 (June 7, 1787)).

91 «سيكون بالتأكيد ناقصا»: (Ibid., 202-3 (June 11, 1787).

91 «تردّدا في الخطاب»: (Ibid., vol. III, 90 (Pierce).

92 تحت سلطة خطّة فرجينيا: (Ibid., vol.I,252 (June 16, 1787).

92 فيما يخصّه: (Ibid, 261 (June 15, 1787)..

92 «بالابن اللقيط»: (Quoted in Chernow, 522)..

93 «من غير عدد»: (Jefferson to Madison, September 21, 1795, in Jefferson Papers.

94 أعظم الرجال: (James Thomas Flexner, The Young Hamilton : (A Biography) (New York : (Fordham University Press, 1997),449.

94 «الأخطاء الفادحة»: (Chernow, 235.

94 صوت الشعب: (Farrand, vol. I, 299, (June 18, 1787).

95 «إذا كانت نتيجته»: (Ibid, 298-90 (June 18, 1787).

95 فحتّى أعضاء مجلس الشيوخ: (Ibid, 298-90 (June 18, 1787) .

بعد المؤتمر وقع دون وجه حقّ إفراده بوصمة نصير المَلَكيّة. وعندما ناقش المؤتمر بكامل أعضائه موضوع الرئاسة في أواسط جويلية اقترح الدكتور ماكلارغ من فرجينيا أن المدّة الرئاسيّة مرهونة «بحسن السيرة»، تماما كما فعل هاملتون. ورغم إدانة جورج مايسون للمقترح فإنّ ماديسون قدّم تشكيلة مربكة من الحجج المغالطة تتعلّق بالقرار، ليست هي بالمعارضة ولا المؤيّدة له. وبالرغم من أنّ ماديسون سجّل بأمانة ازدواجيّة كلامه الشخصي فإنّه أكّد في أحد الهوامش أنّه كان يحاول «يكيل اللوم ليسقط على الأرجح في مقترح الدكتور ماك كلارغ الذي كان ج. م. ينظر إليه بتقدير خاصّ». Farrand, vol.II, at 34n.

كان حرج ماديسون نتيجة الحادثة بالغا: (فقد صوّت بالفعل وفد فرجيني يضمّ واشنطن وماديسون لصالح قرار الدكتور ماكلارغ المؤيّد للمَلكيّة. وحذت ثلاث ولايات حذوهم أيضاً ممّا دفع ماديسون إلى إسقاط هامش آخر يؤكّد هذه المرّة أنّ تلك الأصوات ينبغي ألاّ «تُؤخذ على أنّها فهرس للآراء موثوق بأيّ حال»، ولكن تؤخذ على أنّها محاولة «لإنذار أولئك الحريصين على أن تكون الهيئة التنفيذيّة تابعة للهيئة التشريعيّة، ومن ثمّ تسهيل وقوع بعض الترتيبات النهائيّة في الاتّجاه المضادّ». وأضاف أنّه لا يوجد أكثر من ثلاثة مندوبين أو أربعة يساندون حقّا فترة رئاسة يميّزها حسن سلوك الرئيس. ولو تمّ الكشف عن هذا الأمر في حياة ماديسون لكان تصويته لصالح رئاسة مدى الحياة تطلّب تفسيراً مسهبا.

95 «لحم خنزير غير مخلّل»: (Farrand, vol.I, 301 (June 18, 1787).

95 «الجميع مدح هاملتون»: (Ibid, 363 (June 21, 1787).

96 بالإضافة إلى ذلك، بدأ هاملتون يتراجع: (Ibid., 323 (June 19, 1787)..

96 لقد فازت مجموعته: (Ibid., 321 (June 19, 1787) .

96 كان طويل القامة: (Collier, Roger Sherman's Connecticut, 10.

96 «مظهر شيرمان الخارجي»: (Quoted in Julian Boyd, « Roger Sherman : (Portrait of a Cordwainer Statesman, » New England Quarterly 5 (1932) : (221, 226, (September 15, 1775 entry

97 «أكثر الناس غرابة في المظهر»: (Farrand, vol.III, 88 (Pierce)..

97 «إنّه ماكر كالشيطان»: (Ibid.,34 (Jeremiah Wadsword to King, June 3, 1787).

98 «لا يوجد بشر يملك قلباً طيّباً مثله»: (Ibid., 89, (Pierce)..

98 «لم يقل في حياته أبداً شيئاً سخيفاً»: (Boyd,221)..

98 إذا كنت أقليّاً فتكلّم: (Clarkson and Jet, Luther Martin, 87.

98 إنّنا نتقدّم ببطء: (Hutson, 97 (William R. Davie to Richard Caswell,June 19, 1787).

98 «كلفة الحياة منخفضة»: (Farrand, vol, III, 24 (Mason to George Mason, Jr.,May 20, 1787

98 مندوبون من نيوجيرسي وكارولينا الشماليّة: (Huson, 34 (Richard Dobbs Spaight to John Gray Blout, May 30, 1787); Huston, 40 (David Brearly,William Houston, William Paterson to the Council and General Assambly of New Jersey, June I, 1787

98 وبحلول شهر جويلية شرع الفرجينيّون: (Farrand, vol. III,57 (Edmund Randolph to Beverly Randolph, July 12, 1787.

98 طلب مندوب ماستشوستس مساعدة عاجلة: (Hutson, 199 (Caleb Strong to Alexander Hodgden, July 30, 1787.

98 ويليام صموئيل جونسون: (Daybook, July 18.

98 طلب مندوب ماستشوستس مساعدة عاجلة: (Rutledge to John F. Grimké, July 18, 1787, South Caroliniana Library, University of South Carolina.

98 قبل أسبوعين من نهاية المؤتمر في سبتمبر: (Hutson, 256 (Spaight to John Gray Blout, September 2, 1787.

الفصل 9. إلى شفير الهاوية: (21 جوان – 10 جويلية

الصفحة

102 «المرح الضريف»: (Henry Adams, John Randolph (Boston : (Houghton
.Mifflin, 1893), 141

102 «بذيئا وغير لائق»: (Clarkson and Jett, 311 (reprinting from Memoir of Roger
.Brooke Taney, L.L.D

102 إنّه يعمل بجدّ: (Joseph Story, ed Life and Letters of Joseph, Story (Boston :
.(C.C.Little & J.Brown, 1851), 162

102 ظلّ يخطب: (Farrand, vol.437-38 (June 27,1787.

102 مسهبة وفي عديد من الأحيان كثيرة الاستطراد: (Ibid., 438-39 (June 27, 1787.

102 طيلة شهرين: (Ibid, vol. III, 271 («The Landholder», February 29, 1788. في شجبه لثرثرة مارتن الأبديّة، كتب ألسوورث إنّ المندوبين «كانوا يتهيّئون للسبات عندما ينهض مارتن للكلام».

103 وعلى أيّ حال قال مندوب ىخر موافقاً: (Farrand, vol. I, 452 (June 28, 1787.

103 انظروا إلى الأصوات: (Ibid., 476 (June 29, 1787.

104 التمثيل في فرع واحد: (Ibid., 486-87 (June 30,1787.

104 بتقدّم الصيف: (Ibid., (July 13, 1787.

105 «في شؤون الولايات المتّحدة»: (Ibid., vol . III, 94 (Pierce .

105 الحادية والسبعين: (McDonald, Novus Ordu Seculum, 208-9 ; quoted in David Brian Robertson, « Madison's Opponents and Constitutional .Design,» American Political Science Review 99 (2005):225

105 «من صنع عقل واحد»: (Farrand, vol.III,533, (Madison to William Cogswell,
,(March 10, 1834

105 مسحاجه: (June 30, 1787) Ibid, vol.I, 499 .

106 «وحشا برمائيّا»: (June 30, 1787) Ibid, 490 .

106 «أكبر خطاب عاصف»: (John P. Nields, Gunning Bedford, Jr.(Wilmington, 1907),12

106 «إنّني لا اثق بكم أيّها السادة»: (June 30, 1787) Farrand, vol.I, 500.

106 «تلجأ إلى حليف أجنبي»: (June 30, 1787) Ibid, 502.

107 يومين أو ثلاثة: (Farrand, vol.III, 50 (Mason to Beverley Randolph, June 30, 1787.

108 سيعودون إلى ولاياتهم: (Ibid.، 188 («معلومة موثوقة» زُوّد بها مجلس ماريلاند في 29 نوفمبر، 1787.

108 حسب تقرير: (Ibid, 467 (William Steele to Jonathan D.Steele September 1825.

109 كان بالدوين وأوليفير ألسوورث قد أقاما: (William R. Casto, Oliver Ellsworth and the Creation of the Federal Republic (New York: (Second Circuit Committee on History and Commemorative Events, 1997), 47.

109 في فترة لاحقة خلال شهر جويلية: (Hutson,193 (Baldwin to Joel Barlow, July 26, 1787.

109 نوح ويبستر: (The Autobiographies of Noah Webster, ed. Richard M.Rollins (Columbia : (University of South Carolinan Press, 1989), 243 (July 4, 1787), 246 (September 11, 1787).

109 جماعة كنّكتكات: (E. Merton Coulter, Abraham Baldwin : (Patriot,

Educaror, and Founding Father (Arlington, Va.: (Vandamere Press, 1987), .97

109 «كان شديد الأمّية»: (Adams to Benjamin Rush, March 19, 1812, in Gordon S. Woo, Revolutionary Characters: (What Made the Founders Different .(New York: (Penguin Press, 2005),33

109 لم يكن للعماد غزارة الأفكار: (Jefferson to Walter Jones, January 2, 1814, in .Jefferson Papers

110 رفض السماح: (Farrand, vol.III, 188 (Martin's « Genuine Information)) ». في 1785 استضاف واشنطن جينيفير طيلة مؤتمر ماونت فيرنن. في نفس الوقت تقريباً انخرط العماد في صفقة معقّدة مع جينيفير حول قدرة هذا الأخير كوكيل على مداخيل ميريلاند (المسؤول الولائي الرئيس عن الجباية). رغب العماد في صرف بعض سندات القروض التي كانت قد اشتريت باسمه سنة 1779 وحصل لغط بشأن كلّ من نسبة فائدتها وتحويلها من الدولار إلى الجنيه الإسترليني. جينيفير إلى واشنطن، 28 فيفري، 1785، وواشنطن إلى جينيفير، 12 أفريل، 1785، ضمن وثائق واشنطن.

110 مع انقلاب التيّار: (Farrand, vol. I ,511-16 (July 2,1787.

110 في ذلك المساء، تناول واشنطن عشاءه: (Hutson, 143 (Washington Diary, July2, 1787

110 على درجة من الخطورة تهدّد: (Farrand, vol. III, 263 .

111 «عصبة مستمسكة»: Ibid, 190 .

111 اقترح ترتيبا: (نسب ماديسون الاقتراح في صلب اللجنة إلى الدكتور فرانكلين (Farrand, vol I, 526 (July 5, 1786 ؛ مثلما فعل لوثر مارتن، ibid., vol. III, 190 (« Genuine Information», November 29, 1787.

111 أكثر ارتياحاً بكثير: .Isaacson, Benjamin Franklin, 447)

112 عرض يومي: .Farrand, vol.III, 33 (Rush to Richard Price, June2, 1787)

112 «عمليّة الذهاب والعودة»: Ibid,. 98 (Franklin to Jane Mecom, September .20, 1787

112 خلال الصيف:; E.g, ibid 21 (Franklin to Thomas Jordan, May 18, 1787) ibid, 59 (Manasseh Cutler diary entry for July 13, 1787); Hutson, 268 .(Washington Diary, September 12, 1787

112 «قصير القامة بدين شيخ طاعن مترهّل»: . Cutler and Cutler, vol.I,267)

112 أوّل خطاب هامّ له: .Farrand, vol.I, 81-85 (June 2, 1787)

112 «من الثابت أنّ»: Ibid, vol.III, 91 (Pierce)

112 «أكثر الرجال اقتدارا في المهنة»: . Ibid, vol.I, 120 (June 5, 1787)

112 «يروي القصّة»: Ibid, vol.III, 91 (Pierce)

113 نظام للحكم: .Pennsylvania Herald, July 7,1787)

113 زار العماد واشنطن: Hutson, 145 (Washington Diary, July 4, 1787) ; Carr,) .The Oldest Delegate, 23

113 ضبّاط ميليشيا بنسلفانيا: Packet, July 6, 1787. Pennsylvania)

113 «علم إدارة الحكم»: Charles Warren, The Making of the constitution () .Boston : (Little, Brown & Co., 1928), 269

114 «لم يوافقوا إلاّ بشروط»: Farrand, vol. I, 527 (July 5,1787)

114 «ممثّلاً للإنسانيّة بأسرها»: Ibid, 530 (July 5,1787)

114 تمّ التفكير بجدّ في إرجاء المؤتمر: Ibid, vol. III, 423 (Autobiography of William) .Few

114 «فيض من همهمات»: Billias, Elbrige Gerry, 7; Farrand, vol. III, 271 («The) Landholder» essay of February 29, 1788 by Oliver Ellsworth, With his .trademark thumping sarcasm

115 غير ملائم لأيّ من السادة قدر ما كان لمايسون: Farrand, vol.I, 533 (July 5,) .1787

115 المتعدّدة والمتناقضة تقريباً: Ibid, vol. III, 55 (Hugh Williamson to James Iredell,) .July 8, 1787

115 يتقدّم خطوة واحدة: Hutson, 163 (King to Knox, July 11, 1787).

115 «لم نحرز»: Hutson, 167 (Jonathan Dayton to William Livingston ; July) .13, 1787

116 عجز وفدي ولايتين عن الوصول إلى اتّفاق: Farrand, vol. I,50-51 (July 7, 1787)

116 «تتجاوز مستوى التكهّن بقليل»: Ibid, 559 (July 9, 1787)

116 إنّه لا يستطيع النظر: Ibid, 559 (July, 1787)

117 إنّ مجرّد قدرة الزوجات: Joan Hoff, Law, Gender and Injustice : (A Legal) History of U.S Women (New York: (University Press, 1991), 98-103; Marlene Stein Wortman, Women in America Law (New York: (Holmes & Meier Publisher, 1985), vol,I, 13-15,62.. تمّ إلغاء تصويت النساء بنيوجيرسي كجزء من إصلاحات وهميّة وقع تبنّيها بعد انتخابات مزوّرة شهيرة في مقاطعة إيسكس.

118 «الرجال الذين يعارضون حكومة قويّة ونشطة»: Farrand, vol. III, 56, 57)

.(Washington to Hamilton, July 10, 1787

118 فعلى امتداد خمس من الليالي الستّ القادمة: (Huston, 162-71.

الفصل 10. الولايات الصغرى تفوز: (11–17 جويلية

الصفحة

119 «المناشدات البلغة»: (Farrand, vol. III, 500 (Madison to Jared Sparks, April .8, 1831

119 لاحظ دايفي: (Ibid., vol. I, 593 (July 12, 1787.

120 هذه الحادثة محيّرة بما يكفي: (تتبع الشكوك بشأن تسجيل ماديسون للتجاذب اللفظي الحاصل في 12 جويلية جزئيّا من ملاحظته المدوّنة التي تقول إنّه «صحّح» تقييداته الخاصّة بهذا اليوم في ثلاث مناسبات (اثنان منها حصلتا بعد سنوات، وواحدة «معاصرة»)، Ibid.، 593 . لكنّنا لا نعرف شيئاً ملموسا نفسّر به فَوْرة الكارولينيّين الجنوبيّين ولا الوقع القوي الذي أحدثته هذه الملاحظة.

120 قيل: (Ibid., 593 (July 12,1787

121 ملكيّة العبيد: (Ibid., 594 (July 12,1787

122 «أن يخشى كلّ شيء»: (Ibid., 597 (July 12,1787.

122 «الأمن الذي تريده الولايات الجنوبيّة»: (Ibid., 605 (July 13,1787.

123 «ما هي الآمال التي يحملها ناخبونا»: (Ibid., vol,II, 4 (July 14,1787.

124 «في كلّ الحالات»: (Ibid., 8-9 (July 14,1787.

124 جاءت الأصوات الإيجابيّة من: (كان هامش الانتصار من أجل التسوية لا يعدو حدّ الشعرة. وكان تحوّل مندوب واحد من ماستشوستس عن موقفه سينقل تلك الولاية إلى وضع معيق عن التصويت، وسيُفشل التسوية. وبالمثل تألّف هامش الانتصار من كارولينا الشماليّة التي لم تدعم التصويت بحسب الولاية في الانتخابات المبكّرة. وقد بقي ذلك التحوّل بدون تفسير. McDonald, Novus Ordo Seculum, 237 and n.42.

124 لم يستطع راتلدج رؤية أيّ فرصة للتسوية: (Farrand, vol. II, 19 (July 16, 1787

125 مرّت العواصف الرعديّة: (Hutson, 332 (weather records.

125 «لو تفرّق المؤتمرون»: (Farrand, vol. III, 249 (January 16, 1788

125 «لكان تفرّقهم بسبب هذه النقطة»: (Ibid ,333 (June 20, 1788

125 «لا يضاهي إعجابي سوى»: (Ibid, 102 (« Adress to a Meeting of the Citizens (of Philadelphia on October 6, 1787 ») (the « State House yard » speech

126 «مصالحة الولايات الكبرى»: (Farrand vol. III, 483 (Madison to James Hillhouse, May 1830.

الفصل 11. لمسة ريشة: (9-14 جويلية

الصفحة

127 إنّ إحدى الاستراتيجيّات لتسديد الديون: (William Pierce to William Short, July 25, 1787, LDC.

127 أسّس مواطنون مرموقون اتّحادات: (Brant, James Madison : (The Nationalist, 90

129 كان هناك تسعة مندوبين على الأقلّ: (شملت قائمة المندوبين المضاربين غورهام وجيري

من ماساشوسيتس، دايتون من نيوجيرسي (بالنسبة إلى دايتون، سمّي عن أوهايو)، وليامسون وبلونت من كارولينا الشماليّة، مايسون من فرجينيا، ويلسون وفيتزيمنس من بنسلفانيا. McDonald, We the People, 41-77. وامتلك راتلدج من كارولينا الجنوبيّة أكثر من 70000 أكرة من الأرض في ولايته. Haw, 177-78. وفي أوقات مختلفة امتلك روبرت موريس عمليّاً كلّ غرب ولاية نيويرك؛ وفي 1795 امتلك أكثر من ستّة ملايين أكرة أرض (ما يوازي ولاية ميريلاند) في كنتاكي وغرب بنسلفانيا وكارولينا الشماليّة وكارولينا الجنوبيّة وجورجيا. Ellis P. Oberholter, Robert Morris : (Patriot and Financier (New York : (Chelsea House, 1983; originally 1903), 301-4, .312-13

129 كان عديد المستوطنين مجرّد محتلّين لأراض: (كانت رحلة واشنطن إلى الغرب سنة 1784 تهدف جزئيّا إلى طرد المستحلّين من أرضه في غرب بنسلفانيا، كانت معركة قانونيّة أخذت منه عدّة أشهر. Achenbach, The Grand Idea, 6-7, 85.

129 عبّر روفوس كينغ سنة 1786 عن خشيته: (King to Elbridge Gerry, June 4, 1786. .LDC

129 «مصالح الغربيّين متناقضة»: (James Monroe to Thomas Jefferson, January 19, ,1786, LDC

129 لست في حاجة لأبيّن لكم: (Washington to Benjamin Harrison, October 10, .1784, in Washington Papers

130 «جاراً مرعباً خطيراً»: (Washington to Henry Knox, December 5, 1784, in .Washington Papers

130 الرئيس المستقبلي أندرو جاكسون: (Arthur Preston Witaker, The Spanish American Frontier, 1783-1795 (Lincoln: (University of Nebraska Press,

.1969; originally 1927), 111-12

130 عقد مستوطنو كنتاكي مؤتمرين: (Richard B. Morris, The Forging of the Union,
.1781-1789 (New York : (Harper & Row, 1987), 225

130 ادّعى ويلسون تمثيل كنتاكي: (Robert V. Remini, « The Northwest Ordinance
of 1787: (Bulwark of the Republic,» Indiana Magazine of History 84
.(March 1988): (19-21

130 ذكر عضو الكونغرس أنّه في مقابل: (Whitaker, 80 .

130 أدان الجنوبيّون بشدّة: (Morris ,Witnesses at the Creation, 151-59 .

131 خلال طفولة ماديسون: (Ketcham, 14-16.

131 بعض المندوبين من جورجيا وكارولينا الشماليّة: (أبراهام بالدوين ووليام فيو الجيورجي، الإسكندر مارتن وهاغ وليامسن الكاروليني الشمالي (بالرغم من أنّ وليامسن قد وُلد بنسلفانيا ولم يعش في كارولينا الشماليّة إلاّ مدّة سبع سنوات).

131 لوثر مارتن مندوب ميريلاند: (Erwin Neal Southard, Reprobate Genius : (Luther
Martin, Attorney- at-Law (Ph.D, dissertation, Ohio State University, 1941),
27, 74-76 ; Henry P. Goddard, Luther Martin: (The “Federal Bull-Dog»
.(Baltimore: (Maryland Historical Society, 1887), 12

131 مجرّد نفق: (Achenbach, 59, 61.

131 «إنّ الهنود عموما مكروهون»: (Schoepf, vol, I, 277-78.

131 «أشرار تقريباً»: (Achenbach، 91، quoting William Winas from Thomas
P. Slaughter, The Whisky Rebellion (New York: (Oxford University Press,
.1986), 64

132 كان البعض فارّا من العدالة: (Schoepf, vol. I, 261 ; Brissot, 264.

132 «الماكر السفّاح»: (Archer Butler Herbert, The Ohio River : A Course of Empire (New York: G.P. Putnam's Sons, 1966), 88.

132 «غالباً في حالة حرب مثلى»: (J. Hector St. John de Crevecoeur, Letters from an American Farner (New York: A. & C. Boni, 1925; originally 1782), 42-43

132 ولعا بالهجرة: (Brissot, 269.

132 ففي سنة 1787 حمل كثر من 900 قارب: (Bowen, 171.

132 في تعداد 1790: (Cencus of 1790 ; Rossiter, 2828 .

132 أكّدت ستّ ولايات ادّعاءات متداخلة: (إنّ ادّعاء ملكيّة أراض تصل إلى حدود بحر الجنوب والمعتمدة على ميثاق فرجينيا الاستيطاني قد تأكّدت في مناقشات الكونغرس القارّي منذ بدايات سنة 1776. August 2, 1776, JCC .

132 مع التسليم بهيمنة الإيروكوا: (Jack N. Rakove, « Ambiguous Achievement : The Northwest Ordinance, » in Frederick D. Williams, Northwest Ordinance: Essays on its Formulation, Provisions, and Legacy (East Lansing: Michigan State University Press, 1988.)

132 تعبيراً عن رضاها صدّقت ميريلاند: (Jensen, The Articles of Confederation, 235-38.

133 كان بإمكان كلّ ولاية الانضمام إلى الكنفيدراليّة: (March 1, 1784, JCC

133 تعطّل تشريع جيفرسون: (September 19, 1786, JCC

133 تشكّل النصاب القانوني: (صموئيل هولتن وناثان داين (ماستشوستس)؛ ميلنكتن

سميث وجون هارينغ وأبراهام يايتس (نيويورك)؛ أبارهام كلارك وجيمس شورمان (نيوجيرسي)؛ دايا كيرني وناثانيل ميتشل (دالاوار)؛ ويليام كريسون وريشارد هنري لي وإيدوارد كارينغتن (فرجينيا)؛ ويليام بلونت وبنيامين هاوكينز (كاروليناالشماليّة)؛ جون كين ودانيال هاغر (كارولينا الجنوبيّة)؛ ويليام فيو وويليام بيرس (جورجيا).

133 يتزايد عجزه: (Schoef, vol.I, at 387 .

133 في 6 جويلية حذّر روفوس كينغ: (Farrand, vol. I, 541 (July 6, 1787.

134 قد «تفوز» يوماً ما «في الانتخاب بأكثريّة الأصوات على الولايات الواقعة على المحيط الأطلسي»: (Ibid, 560 (July 9, 1787

134 الاحتفاظ بأغلبيّة من الأصوات: (Ibid, 571 (July 10, 1787

134 ينبغي أن نضحّي: (Ibid, 578-79 (July 11, 1787

134 الأعضاء القادمين من الجبال: (Ibid, 583 (July 11, 1787 .

134 «يحدّد شخصيّة الإنسان»: (Ibid, 584 (July 11, 1787

135 ستنضمّ الولايات الجديدة إلى الاتّحاد: (July 11, 1787 JCC

135 أغلبيّة الناس: (Farrand,vol.I, 604-5 (July 13, 1787

136 بفارق شعرة رفضت الولايات الثلاث عشرة: (Ibid, vol II., 3 (July 14, 1787

136 وفي موضوع العبوديّة: (Gordon T. Steward, «The Northwest Ordinance and the Balance of Power in North America», Northwest Ordinance.

الفصل 12. معجزة إبسويتش: (13 جويلية

الصفحة

138 درس القانون: (دلّ كتلر على حصّته من إيبسويش بانفصاله عن بقيّة المدينة في أوائل تسعينات القرن 18. فأعيدت تسميتها بـ«هاملتون» على اسم أمين الخزينة آنذاك الذي كان الأب كتلر معجبا به إعجاباً عظيما.

138 عند انتهاء الحرب: (Cutler and Cutler, Life, Journals, and Correspondence of .Rev. Manasseh Cutler, vol. I, 159-60 .

139 كانت شركة أوهايو ترمي إلى شراء: (اختيرت ماريانا، وهو ترخيم لاسم ماري أنطوانيت، اعترافا بجميل الفرنسيّين للمساعدة التي قدّموها طيلة الثورة.

139 كان الأب كتلر رجلاً طويل القامة كامل الجسم: (Elisa Poole Wheeler, « Memoires .of our Grandparents, » at Hamilton Historical Society

139 ممثّل مدينته الأصليّة: (يظهر داين في يوميّات كتلر لسنة 1777 مديرا لمدرسة بإبسويش. .Cutler and Cutler, vol, I, 159-60

139 نيوإنجلاندي منفتح صريح ونزيه: (Ibid, 302 .

139 يتذكّر أحد افراد عائلته: (Wheeler .

139 في بداية شهر ماي انكبّت لجان الكونغرس: (May 1787, 9, JCC.

140 النفاق: (Cutler and Cutler, vol, I, 230-37.

140 لحسن الحظّ: (Richard Henry Lee to Francis Lightfoot Lee, July 14, 1787, n.2, LDC ; Francis S. Philbrick, The Rise of the West (New York: (Harper

& Row, 1965), 124-25. لم تشتر بالفعل وكالة دوور قطّ أيّ أرض في أوهايو ولا استوطنتها، وفي الأخير قذفت بخمسمائة مستوطن فرنسي في أوهايو. ووفّرت وكالة أوهايو الأرض لهؤلاء النازحين المغرّر بهم.

140 بعض المستثمرين الراجعين بالنظر إلى لجنته: (Cutler and Cutler, vol, I, 343-44. Staughton Lynd, Class, Conflict, Slavery, and the United States Constitution (Indianapolis: (Bobbs-Merril Co.1967), 198-99.

141 غادر جيري إقامة عائلته: (Cutler and Cutler, vol, I, 254-55.

141 تخيّلت نفسي: (Ibid, 257 .

142 من المؤسف أنّ أحد الحاضرين: (Ibid, 268.

142 مثل آخر يوم من جمع التبرّعات: (Ibid, 271-72 .

142 إحدى الفرضيّات: (يُتيح بوين، 281—84، هذا التفسير. وليام بلونت الكاروليني الشمالي، ووليام بيرس ووليام فيو الجيورجي.

144 في الأسبوع الأوّل من شهر جويلية: (ويليام بلاونت مندوب كارولينا الشماليّة وويليام بيرس وويليام فيو مندوباً جورجيا.

144 ربّما يكون الخبر: (Alfred W. Blumrosen and Ruth G. Blumrosen, slave Nation : (How Slavery United the Colonies and Sparked the American Revolution (Naperville, III : (Sourcebooks, 2005), 189-225.

144 على سبيل التنازل لمالكي العبيد: (صيغة مبكّرة من هذا النصّ المتعلّق بالعبد الآبق وقع اقتراحها في أفريل 1785. April 5, 1785, JCC.

145 حين سحبت المرسوم: (Dane to Rufus King, July 16, 1787, LDC

146 مستوطني ولاية نيوإنجلاند أساسا: (Nathan Dane to Daniel Webster, March 26,

.1830, in Lynd, 193-94

146 يستوطنها بلا ريب: (Dane to Rufus King, July 16, 1787, LDC.

146 للجنوبيّين في الكونغرس: (Blumrosen and Blumrosen, 218-19.

146 أن نعاني من استمرار: (King, ed., Life and Correspondance of Rufus King, vol, I, 285 (March 6, 1785.

146 بهدف منع زراعة التبغ: (Crayson to Monroe, August 8, 1787, LDC.

147 بقبولهم إلغاء الرقّ: (Lynd, at 194-98

147 خلق الإجماع الكبير: (Lynd, 189, quoting Edward Coles, History of the Ordinance of 1787 (Philadelphia, 1856), 28-29.

148 أنّ الأمور سارت على وجه أفضل بكثير: (Cutler and Cutler, vol, I, 301; Morris, The Forging of the Union, 228-29.

148 للوصول إلى: (Cutler and Cutler, vol, I, 303-297

الفصل 13. اللخبطة الرئاسيّة: (17–26 جويلية

الصفحة

152: (Hutson, 193 (Abraham Baldwin to Joel Barlow, July 26, 1787.

152: (Farrand, vol. III, 64 (Hamilton to John Auldjo, July 26, 1787), Chernow, 238.

152: (Hutson, 263 (Hamilton to Duche, September 8, 1787); Hutson , 250 (Benjamin Ruch to Timothy Pickering, August 30, 1787

153: (Farrand,vol.I, 65, (June 1, 1787.

153: (Ibid, vol II, 32 (17 July, 1787

153: (Ibid vol. III, 302 (Butler to Weedon Butler, May 5, 1788.

153: (Nathaniel Gorham to James Warren, March 6, 1786, LDC

154: (اختارت الهيئات التشريعيّة حكّام كارولينا الجنوبيّة وميريلاند وكارولينا الشماليّة وديلاوار ونيوجيرسي وفرجينيا. وسادت الانتخابات الشعبيّة ماستشوستس ونيويورك وجيورجيا.

154: (Farrand,vol.III, 132 (Madison to Jefferson, October 24, 1787.

154: (Ibid, 166 (Remarks in Pennsylvania Convention, December 11, 1787.

154: (Ibid, vol.II, 65, (July 20, 1787

155: (Ibid, 31 (July 17,1787

155: (Ibid, 53 (July 19, 1787

155: (Ibid, vol. I, 80, (June 2, 1787

155: (Ibid, vol.II, 57, (July 19, 1787

156: (Ibid, 64, (July 20, 1787

156: (Ibid, 100-101, (July 24, 1787

157: (Ibid, vol.I, 346) (ويليام دافي بكارولينا الشماليّة مصدّقا على المؤتمر، 26 جويلية، 1788.

157: (Ibid, vol.II, 65, (20 July, 1787

158: (Ibid, 108-9 (25 July, 1787

«Ibid, vol.III, 94 (Pierce) :158

Brant, James Madison, Father of the Constitution, at 261-62 (Fisher) :158
Ames to George Minot, May 18, 1789

.Farrand, vol.II, 114 (July 25, 1787) :158

Rossiter, 1787, 35) :159

Rowland, vol.I 273 ،:159

.Farrand, vol.II, 118-21 (July 26, 1787) :160

الفصل 14. راتلدج يختطف الدستور: (27 جويلية – 6 أوغسطس

الصفحة

.Farrand,vol.III, 193 (Abraham to Joel Barlow, July 26, 1787) :163

.Ibid, 61 (Hugh Williamson to James Iredell, July 22, 1787) :163

.Haw, John and Edward Rutledge, 107-10, 118) :164

Ibid, 276-77 (quoting contemporary accounts) :164

William Garrott Brown, «A Continental Congressman: (Oliver Ellsworth,) :165
.1777-1783», American Historical Review 10 (1905): (769, 773-73

Jack N. Rakove, « The Great Compromise : (Ideas, Interests, and the) :166
Politics of Constitution Making, » William and Mary Quarterly 44 (1987) :
.(437

Farrand, vol. III, 92 (Pierce) :167

167: (الشاهد منسوب إلى خطاب 1824 لويليام راول، وهو محام من بنسلفانيا، ضمن:
Alexander, James Wilson, Nation-Builder, 269)

William Garrot Brown, The Life of Oliver Ellsworth (New York :) :167
.(Macmilan Garrot Co., 1905), 224-25

.Casto, Oliver Ellsworth and the Creation of the Federal Republic, 14) :167

. Ibid., 55) :167

Ibid., 55; Roland John Lettieri, Connecticut's Young Man of the) :167
Revolution: (Oliver Ellsworth (Hartfor: (American Revolution Bicentennial
.Commission of Connecticut, 1978), 79

.Hutson, 177 (Oliver Ellsworth to Abigail Ellsworth, July 21, 1787) :168

John J. Reardon, Edmund Randolph : (A Biography (New York :) :168
.(Macmillan Co., 1974), 189

William Cabell Bruce, John Randolph of Roanoke (New York : (Octagon) :168
.Books, 1970; originally 1922), vol.II, 202

Quoted in Rowland, vol. II, 210) :168

.McDonald, E Pluribus Unum, 158) :168

Farrand, vol. III,88 (Pierce) :168

.James Monroe to Thomas Jefferson, July 16, 1786, LDC) :168

. Farrand, vol.II, 137) :169

Ibid, 163) :169

Ibid, 169) :169

Ibid, 186) :169

Ibid, 180) :170

Ibid, 290 (August 14, 1787) :170

.Ibid, vol.I, 53 (May 31, 1787) :170

Ibid, 60 (31 May, 1787) :170

هذه واحدة من تلك النقاط غير الموفّقة التي لم يوافق عليها المدوّنون تماما. يسجّل ماديسون أنّ راندولف متنصّل من أيّ نيّة لمنح الحكومة القوميّة «سلطات لامحدودة»، بينما يسجّل ويليام بيرس الجيورجي عن راندولف قوله إنّ جردا كاملا للسلطات كان مستحيلا. إلاّ أنّه بالإمكان المواءمة بين هاتين الروايتين لو كان تقرير راندولف يتمثّل في أنّ الحكومة القوميّة ينبغي أن تُمنح سلطات محدودة وإن لم تكن خاصّة. وكان بإمكان مثل هذا التقرير الذي كان مرنا سياسيّاً أكثر ممّا كان منسجما فكريّا، أن يكون متّسقا مع أداء راندولف في المؤتمر.

Ibid, vol.II, 17 (16 Juillet, 1787) :171

Ibid, 21 (17 July, 1787) :171

E.D, vol.IV, at 312 (Rutelge's statement in South Carolina House of) :171
.Representatives, January 18, 1788

Hutson, 282 (Rufus King and Nathaniel Gorham, «Response to Elbrigie) :171
Gerry's Objections», (November 3, 1787); Farrand, vol. III, 268 (statement
.(of Rufus King in Massachusetts ratifying convention, January 24, 1788

Farrand, vol. II, 168) :172

172: (جيمس ويلسون، «تقديرات في موضوع مصرف شمال أمريكا»، ضمن بيرد ويلسون، منشورات، أعمال الموقّر جورج ويلسون، ل. ل. د. (فيلادلفيا، 1804)، مج. 3، 406–7؛ هال، 18. The Works of the Honourable James Wilson, L.L.D.

172: (Farrand, vol. II, 169

172: (Ibid, 169

173: (Robinson, Slavery in the Stucture of American Politics, 218

يصف مؤرّخ مرموق آخر تقرير لجنة راتلدج بكونه محاولة لتأمين عدّ شامل للعبيد لغايات تمثيليّة بالرغم من الرفض السابق للمؤتمر لتلك المقاربة. Don E. Fehrenbacher, The Slaverholding Republic (Oxford University Press, 2001), 61.

173: (Collier and Collier, 223-24.

173: (Oliver M. Dickerson, The Navigation Acts and the American Revolution (New York : (A. S. Barnes & Co., 1963). 173: (Farrand, vol. II, 95 (July 23, 1787)

174: Ibid., vol. I, 580, 587 (July 11, 1787.

174: (تأبين الدكتور توماس ويلش في ذكرى السيّد الموقّر ناثانيل غورهام، 19 جوان 1796، in Massachusetts Historical Society, 12.

175: (Hutson, 199-200 (Washington Diary.

175: (Collier, Roger Sherman's Connecticut, 234n.*

175: (Extracts from the Diary of Jacob Hiltzheimer of Philadelphia, ed. Jacob Cox Parsons (Philadelphia: (William F. Fell & Co., 1893), 129.

الصفحة

Farrand, vol. III, 276 (Luther Martin's Reply to the Landowner, March) :177
.3, 1788

.Ibid, vol.II, 176 (August 6, 1787) :177

.Ibid, 189 (August 6, 1787) :178

Rutledge to John F. Grimké (July 18, 1787), South Caroliniana Library,) :178
.University of South Carolina

Farrand, vol.II, 301 (August 15, 1787) :178

Ibid, 328(August 18, 1787) :178

Ibid, 406 (August 24, 1787) :179

.Ibid, vol.III, 67-68 (W.R. Davie to James Iredell, August 6, 1787) :179

.E.G, Ibid, 68 (R. Spaight to James Iredell, August,12, 1787) :179

Ibid, 69, (Madison to James Madison, Sr., August 12, 1787) :179

Ibid, 70 (Washington to Knox (August 19, 1787) :179

David Bernstein, « The Constitutional Convention : (Facts and Figures, ») :180
History Teacher 21 (1987): (11, 12 Thought the Virg inia delegation
started out with seven members, James MacClurg and George Wythe did
.not attend in August or September

.Farrand, vol.III, 273 (« The Landholder, » February 29, 1788) :180

181: Philip A. Crowl, « Anti-Federalism in Maryland, 1787-1788, » William) and Mary Quarterly 4 (1947) : (454 ; Bernard C. Steiner, The Life and Correspondence of James McHenry (Cleveland: (Burrows Brothers Co., .1907), 97

181: Bernard C. Steiner, « Maryland's Adoption of the Federal Constitution, ») ,American Historical Review 5 (1899) : (22,25

182: Farrand, vol.III, 93 (Pierce)

182: .Carr, Oldest Delegate, 24)

182: Farrand, vol.II, 190 (August 6, 1787)

182: Ibid, vol.I, 461, (June 29, 1787), 313 (June 19, 1787)

182: .Ibid, vol.III, 93, (Pierce notes)

184: .Ibid. vol. II, 209 (August 7, 1787)

184: Ibid, 481 (Daniel Carroll, August 31, 1787)

184: (بالرغم من أنّ ميرسر غادر فيلادلفيا نهائيّا في 17 أوت، مشاركاً بذلك في عشر دورات فقط من دورات المؤتمر، فقد أفلح في لفت الانتباه إليه. جاء بيانه الأوّل خلال المناقشات في 8 أوت عندما أعلن تبرّمه بكامل خطّة مسوّدة الميثاق، التي تنبّأ بأنّها «لن تنجح أبدا». Ibid, 215 (August 8, 1787

وخلال الأيّام السبعة المتبقّية في فيلادلفيا كان ميرسر مشاركاً فعّالا في المناقشات، ولم يكن دائماً سلبيّا. ومع ذلك شكّلت مغادرته بالتأكيد مصدر ارتياح لأولئك الذين نجحوا في القيام بعملهم خلال الصيف دون أن يأخذوا تعليماتهم من هذا الأرستقراطي ذي الثمانية والعشرين عاما.

.Steiner, Life and Correspondance of James McHenry, 106) :185

.Farrand, vol.II, 202-6 (August 7, 1787) :185

Ibid, , 216 (August 8, 1787) :186

.Ibid, 39- 235 (August 9, 1787) :186

.Ibid, 69- 268 (August 13, 1787) :186

.Ibid, 91- 390 (August 23, 1787) :187

.Ibid, 430 (August 27, 1787) :187

Thornton Anderson, Creating the Constitution: (The Convention of 1787) :187 and the First Congress (University Park: (Pennsylvania State University Press, 1993), 149-50

خلال مدّته القصيرة في المؤتمر اعترض ميرسر على المراجعة القضائيّة من قبل المحاكم القوميّة الجديدة، ووافقه جون ديكنسون من دالاوار على ذلك. -Farrand, vol. II, 298 99 (August 15, 1787). ومع ذلك لم يحصل مزيد من النقاش للموضوع.

.Farrand, vol. II, 309-10 (August 16, 1787) :187

.Ibid, 439 (August 28, 1787) :188

Juilliard v. Creenman, 110 U.S. 421 (1884) « The Legal Tender) :188 « Cases

.Farrand, vol. II, 224 (August 8, 1787) :188

189: (يستمدّ أغلب طلبة الحقوق الصيغة المباشرة لإدراكهم من تقرير أوليفر واندل هولمز الابن: («لم تتأسّس حياة القانون على المنطق؛ بل على التجربة». انظر: (,O.W.Holmes Jr., The Common Law (New York : (Little, Brown & Co. 1984; originally

.1880), 1

.Farrand, vol. II, 309-10 (August 16, 1787) :189

الفصل 16. لعنة السماء: (8–29 أوت

الصفحة

191 «هي الحالة الأكثر إزعاجا»: (Farrand, vol. II, 220 (August 8, 1787.

191 «شيء قوي وثري على نحو متميّز»: (Ibid, vol.III, 87 (Pierces notes.

192 «أن يتمّ على الأقلّ تحديد الفترة الزمنيّة»: (Ibid, vol.II, 220 (August 8, 1787.

192 «الأراضي القاحلة في فرجينيا»: (قدّم الرحّالة الأوروبّيون الملاحظة نفسها. كتب ألماني أنّه عند الولوج إلى فرجينيا من ناحية الشمال «كان موضوعا لقدر غير قليل من الدهشة أن ترى هذا القدر الهائل من الأرض القاحلة أو المجرّدة حديثاً إذا قدمت للتوّ من مناطق بنسلفانيا وميريلاند المستوطنة والمزروعة بشكل جيّد جدّاً. ونعت الفرجينيّين بكونهم «تلقائيّين جدّا وأزواجا مهملين» ووصف أبنيتهم بأنّ لها «هيكل بيت من ورق وصلابته». Schoepf, vol,2,31-33.

194 لم تصوّت بنعم سوى نيوجيرسي: (Farrand, vol. II, 221-24 (August 8, 1787.

194 وحشيّة الانتقال: (McMillin, The Final Victims, 103-8 ; David Brion Davis, The Problem of Slavery in the Age of Revolution , 1770-1823 Ithaca : (Cornell University Press, 1975), 47 ; Richards, The Slave Power, 34, Hugh Thomas, The Slave Trade (New York: (Simon & Schuster, 1997),311, 414-15, 425-27.

194 تموّج البحر: (American Museum, June 1787, 432.

195 قبل انطلاق المؤتمر بثلاثة اسابيع بالضبط: (Pennsylvania Evening Chronicle, May
.1, 1787

195 عندما هبطت اسعار النيلة: (McMillin, 79.

195 من أجل إصلاح: (Haw, 19.

195 طالما ظلّت هناك اكلة واحدة: (E.D, vol. IV, at 285 (January 17, 1788.

196 الولايات الخمس العاملة بنظام العبوديّة: (Farrand, vol. II, 359-63 (August 21,
.1787

197 إذا تركت «الولاية وشأنها»: (Ibid, 364-65 (August 21, 1787

197 بما أنّ الأمم لا يمكن أن تكافأ: (Ibid, 370 (August 22, 1787

199 «صريح ورجولي وتحرّري: (Alexander Garden, Eulogy for General Charles
.Cotesworth Pinckney (Charleston, S.C: (A. E. Miller, 1825), 29

200 إثر مناقشات اليوم المكثّفة: (Hutson, 232 (John Fitch to William Samuel
.Johnson, August 21, 1787

200 «أغطية أسلحة»: (Hutson, 231 (Nathaniel Gorham to Nathan Dame, August
.20, 1787

200 وفيما يتعلّق بالبواخر: (Andrea Sutcliffe, Andrea Sutcliffe, Steam: (The Untold
Story of America's First Great Invention (New York: (Palgrave Macmillan
., 2004), 30, 40-42

201 الحاكم راندولف وبعض: (Quoted in Sutcliffe, 103-4 ; Hutson, 232-33 (Fitch
to William Samuel Johnson, August 21, 1787). Sutcliffe relates Fitch's
.Sisyphean labors in developing his steamboat

201 وفي 1790 سيّر فيتش: (Sutcliffe,94.

201 كان ليفنغستون قد انضمّ: (Chernow, 216

201 لا تنسجم بالمرّة مع المبادئ: (Carl E. Prince, William Livingston: (New Jersey's First Governor (Trenton: (New Jersey Historical Commission, 1975), 20;

201 الولايات الشرقيّة: (Farrand, vol.III, 210-11 (« Genuine Information »,) November 29, 1787.

202 أمهلونا بعض الوقت: (ED, vol. IV, 285-86 (January 17, 1787.

202 شرط أغلبيّة الثلثين: (Farrand, vol, II, 400 (August 24, 1787

203 أجّل المؤتمر: (Ibid, 415-17 (August 25, 1787.

203 استقبل المندوبون: (Ibid, 443 (August 28, 1787.

203 كانت له هو نفسه: (Ibid, 449 (August 29, 1787

204 جدّد الرائد بتلر: (Ibid, 449-54 (August 29, 1787.

204 كانت تلك الفقرة الوحيدة: (ما يقارب ذلك إلى حدّ ما هو الفقرة الواردة في البند 5 والتي تنصّ على أنّه لا يمكن إنكار حقّ أيّ ولاية في تصويت مساو مع غيرها في مجلس الشيوخ دون رضاها.

204 لقد أمّنّا: (E.D, vol. IV, 286 (January 17, 1788. في رسالة مصاحبة إلى حاكم ولايتهم، كان مندوبو كارولينا الشماليّة إيجابيّين بالقدر نفسه تجاه الفقرات المؤيّدة للرقّ في الدستور. Farrand,vol. III,83 (Letter to Governor Caswell, September 18, 1787.

204 تضع الأساس لطرد العبوديّة: (Farrand,vol. III,161 (Pennsylvania Ratifying Convention, December 4 ; 1787.

205 «رجّحت كفّة»: Ibid, 399-400 (Rufus King to Col Pickering, November
4, 1803.

205 غير أنّ الحكومة القوميّة: Ibid, 428-30 (Rufus King in the Senate, March
1819.

205 «إذا كان هذا الشرّ عظيما»: Ibid., 325 (Virginia Ratifying Convention, June
17, 1788.

205 أبدى ماكهنري نفس الملاحظة: Ibid., 144-50 (James McHenry, before the
Maryland House of Delegates, November 29, 1787.

205 هي وجهة نظر عكسها ماديسون: Ibid, 436 (Madison to Robert Walsh,)
November 27, 1819.

205 كانت كارولينا الجنوبيّة قد استوردت 75000 إفريقيّا: (McMillin, 48, 86.

205 وفي سنة 1819 رسم ماديسون المتقاعد: Madison to Robert J. Evans, June 15,)
1819, In Madison, Writings.

206 في سنة 1833 حين بلغ الثمانين من عمره: McCoy, The Last of the Fathers, 301)

206 وقبل ثماني سنوات من ذلك التاريخ، استحدث كينغ، وكان آنذاك عضواً في مجلس الشيوخ: Annals of Congress, 1824-25, February 18, 1825, 623 ; see)
Joseph L. Arbena, " Politics or Principle? Rufus King and the Opposition
to Slavery, 1785-1825,» Essex Institute Historical Collections 101 (1965):
56).

206 نحن أبناء الجيل الثالث: Diary of Charles Francis Adams, April 18, 1861,)
reel 76, quoted in Doris Kearns Goodwin, Team of Rivals: (The Political
Genius of Abraham Lincoln (New York: (Simon & Schuster, 2005), 352.

الفصل 17. رئاسة ديفيد بريلي: (24 أوت – 7 سبتمبر

الصفحة

207 الجدل حول كلّ بند قد استؤنف من جديد: Farrand,vol.III,73(Brearley to) .William Paterson, August 21,1787

208 ولّما يئس المؤتمر من جدوى المقترحات: Ibid, vol. 2, 402-4 (August 25, 1787).

208 إنّه بالكاد شخصيّة متألّقة: Ibid, vol.III, 90 (Pierce) Richard P McCormick,) Experiment in Independance (New Brunswick, N.J : (Rutgers University .Press, 1950), 156-57

208 جلاء الحجّة: New Jersey Journal, December 26, 1787, in Merrill Jensen, ed.,) The Documentary History of the Ratifiction of the Constitution (Madison: .(State Historical Society of Wisconsin, 1978). Vol.III, 94

208 لا يملك في مجال الخطابة شيئاً كثيراً: Farrand, vol.III, 90 (Pierce)

209 أطول خطاب ألقاه بريرلي: Ibid, vol.I, 177 (June 9, 1787)

209 وقد عاش إلى ان رأى ابناءه: Donald Scarinci, David Brearley and the Making) of the United States Constitution (Trenton: (New Jersey Heritage Press .2005), 35-41

210 مثّل هذا القرار المرّة الأولى: Ibid, at 103- 115)

discussing Holmes v Walton ; Austin Scott, « Holmes vs, Walton : (The New .Jersey Precedent : (A Chapter in the Historical Review 4 (1899) :456

210 كان عليهم أن يواصلوا تقدّمهم: Farrand, vol.II, 427 (August 27 1787)

210 من زمان يتمنّى انعقاد مؤتمر آخر: (Ibid, 479 (August 31 1787

211 القاعة الشرقيّة يوم الثلاثاء 4 سبتمبر: (Ibid, 493 (September 4 1787

211 جون ديكنسون هو الوحيد الذي ترك: (Hutson, 300-301 (Dickinson to George Logan, January 16, 1802.. لدينا روايتان مباشرتان فقط من اللجنة دون اعتبار تقريرها الخاصّ. سلّم جورج مايسون إلى بعض أعضاء اللجنة قائمة من الفقرات الدستوريّة التي ينبغي تضمينها، لكنّ واحدة منها فقط تناولت موضوع بالرئيس: (وهي وجوب ألاّ يسمح بانتخابه لولاية رئاسيّة ثانية. Hutson, 251-52. واحتفظ الرائد بتلر بما دوّنه من ملاحظات تنصّ على مواصفات ممكنة للمترشّحين للرئاسة، لكنّها لم تكن ذات صلة بالقضايا الرئيسيّة موضوع النزاع. Hutson, 252-53.

212 في صباح الإثنين: (يصف ديكنسن أعضاء اللجنة بأنّهم رفعوا الجلسة عند وصوله وبحوزتهم تقرير كامل. بما أنّ اللجنة قد تكوّنت يوم الجمعة 31 أوت، فإنّه من غير المحتمَل أن تكون قد أنهت تقريرها في اليوم الموالي (السبت 1 سبتمبر) أو أن تكون عقدت جلسة صباحيّة يوم أحد. إنّ تنزيل الحدث في يوم الاثنين الثالث سيفسح المجال للجنة للتوصّل إلى الإجماع الذي يسجّله ديكنسون، وسيتيح الوقت أيضاً لتغيير الوجهة الذي وصفه ديكنسون قبل تقديم بريلي تقريره يوم الثلاثاء الرابع.

212 إنّه شبح: (Adams Diary, August 31, 1774.

214 تسع عشرة حالة من عشرين: (Farrand, vol.II, 500-501 (September 4, 1787

214 الرئيس لن يكون رجل الشعب: (Ibid, 522-23 (September 6, 1787

215 أنهك المندوبون فوافقوا: (Ibid, 527 (September 6, 1787. نبع المقترح جزئيّا من هاغ ويليامسن، وهو بنسلفاني المولد، تحصّل على شهادته الطبّيّة من هولندا لكنّه تخلّى عن ممارسة الطبّ عند عودته إلى فيلادلفيا في 1771. بعد قيامه ببحوث علميّة وجّهته بطبيعة الحال إلى الدكتور فرانكلين، وضع ويليامسن خبرته الطبّيّة في خدمة الثورة. عيّنته

كارولينا الشماليّة جرّاحا عامّاً لجيوشها. وبعد الحرب ترشّح لمنصب الحاكم في ولايته بالتبنّي وعمل نائبا في الكونغرس الفيدرالي قبل أن يتمّ اختياره لمؤتمر فيلادلفيا.

215 الوظيفة الأكثر تفاهة: (جون أدامز إلى أبيغايل أدامز، 19 ديسمبر، 1793 وفّرته جمعيّة ماستشوستس التاريخيّة على الموقع: (http://www.masshist.org/digitaladams/aea/ .cfm/doc.cfm?id=L17931219ja

215 وافق المندوبون وتبنّوا: (Farrand, vol.II, 550 (September 8, 1787

215 نسخة سيّئة من ملك بولوني: (David McCullough, John Adams (New York: (Simon &Schuster, 2001), 380 (quoting letter from Jefferson to John Adams, November 13, 1787

215 في المرحلة الأخيرة من الدورة: (,Farrand, vol.III, 458 (Madison to George Hay August 23, 1823

الفصل 18. المعارضة الوفيّة: (31 أوت

الصفحة

217 ما لم يدفع إلى ذلك على حين غرّة: (Farrand, vol.II, 478 (August 31, 1787

218 إلغاء الحكومات التابعة للولايات والقضاء عليها: (,Ibid,vol.III, 195 (Martin .Genuine Information , » November 29 1787

219 بلا شكّ أحد أفضل السياسيّين: (Ibid, 74 (Pierce.

219 تجمّع المنشقّين: (Ibid, 282 (Martin, « Reply to the Landholder, » from the .Maryland Journal, March 18, 1788

219 حرّا في الاحتكام: (Ibid, 135 (Madison to Jefferson, October 24, 1787.

219 يغطّي على كلّ خياراته: Reardon, Edmund Randolph, 119).

220 اليوم الأخير من المؤتمر: McDonald, Novus Ordo Seculu, 202, and wn 21 ;) Collier and Collier, 340.

220 لدينا مشاكل عديدة وهائلة: Farrand, vol.II, 278-79 (August 13, 1787).

220 صفات: Ibid, 451 (August 29, 1787).

220 «رجال معوزون»: Ibid, vol.I, 132 (June 6, 1787).

221 في بداية الحرب: Ibid, 393 (June 23, 1787).

221 الأرستقراطيّة الكاملة: Ibid, vol.II, 286 (August 14, 1787).

222 فكّ أسر عبيد: Ibid, 317 (August 17, 1787).

222 تأكيدا ممتازا: Collier and Collier, 324, citing Samuel E. Morison, The) Oxford History of the American Praple (New York: (Oxford University Press, 1965), 308-9.

222 قلّة هم العزّاب المسنّون: Cutler and Cutler, vol I, 255)

222 ألاّ يغزو عدوّا أجنبيّا: Hutson, 229 (anecdote)

222 «(entre nous) إذا قلت لك إنّني لا أتوقّع»: Ibid, 234 (Gerry to Ann Gerry,) August 21, 1787.

222 «نظام للاستبداد»: Farrand, vol.II, 385 (August 13, 1787)

222 فلندمّر فورا: Farrand, vol.II, 388 (August 23, 1787).

222 «إنّي مغتمّ للغاية»: Hutson, 241 (Gerry to Ann Gerry, August 26, 1787).

222 «لقد كنت متفرّجا»: Ibid, 247 (Gerry to Ann Gerry, August 29, 1787).

223 «أمنع زملائي»: Ibid, 254 (Gerry to Ann Gerry, September 1, 1787).

223 الجسم الأرستقراطي: Farrand, vol.II, 224 (August 8, 1787).

223 هل يتوقّع: Ibid, 251 (August 29, 1787).

224 التحالف بين نيوإنجلاند: (Ibid، vol. III) 367 George Mason's Account of Certain Proceedings in Convention» notes in Jefferson's hand, dated September 30, 1792, Gunston Hall

224 «سدّدت ضربة شجاعة للملكيّة»: Farrand, vol.II, 513 (September 5, 1787).

224 «يفضّل حكومة بروسيا»: Ibid, 515 (September 5, 1787).

224 اعترض مايسون وجيري: Ibid, 515 (September 5, 1787),588-89 (September 12, 1787

224 «الجرائم الخطيرة والجنح»: Ibid, 551 (September 8, 1787), 588-89 (September 12, 1787.

224 ها أنّ المندوبين أضافوا: Ibid, 558 (September 10, 1787)

225 «في حالة مزاجيّة سيّئة للغاية»: Ibid, vol.III, 135 (Madison ti Jefferson, October 24, 1787

225 تمنّى لو تمّ التمهيد للخطّة: Ibid, vol.II, 587-88 (September 12, 1787)

225 كانا يدركان أنّه من الممكن إعدادج وثيقة: Ibid, vol.III, 992 (Luther Martin's) Reply to the Landholder, » March,29,1788

226 «سيعدّ إسقاطا متعمّدا»: Ibid, 143 ("Pennsylvania Ratifying Convention,) November, 1788

226 إذا كانت وثيقة للحقوق غير ضروريّة: Marc W.Kruman, Between Authority)

and law: (State Constitution Making in Revolutionary America (Chapel .Hill: (University of North Carolina Press, 1997), 37

226 مايسون لم يستطع هضم: (عرض جيري مبرّراته في خطاب ألقي في 15 سبتمبر، Farrand, vol. II, 632-33. وفي رسالة مؤرّخة في 18 أكتوبر 1787، إلى رئيس مجلس شيوخ ماستشوستس وإلى المتكلّم في مجلس ماستشوستس،Ibid, vol III, 128 . عدّد راندولف مبرّراته في خطاب ألقي في 10 سبتمبر، Ibid, vol II, 563-64. وحرّر مايسون ستّة عشر اعتراضاً روّجها بعد المؤتمر في نصّ مطبوع وكانت مؤثّرة في مناقشات التصديق في الولايات، Ibid, 637-40.

226 سيادة الولايات أو حرّيّتها:. Ibid, vol II, 635 (September 15, 1787

226 سينتهي إلى حالة من الاستبداد:. Ibid, 564 (September, 1787

226 ستبدأ هذه الحكومة: (Mason's Written objections) .Ibid, 640

227 لديكم وثيقة حقوق: (E.D, vol. III, 446 (June 16, 1787

227 «التي لا يمكن لحكومة عادلة رفضها»: (Jefferson to Madison, December 20, .1787, Jefferson Papers

227 «وعلينا ان نعلن الآن»: (Farrand, vol. III, 290 (March 19, 1788.

227 عشرة منها حيّز التنفيذ: (كان التعديل الأوّل المقترح الذي لم يتمّ التصديق عليه سيحدّد عضواً واحداً في مجلس النوّاب عن كلّ 30000 ساكن إلى أن يصل العدد الجملي إلى 100 نائب. وقد تمّ التصديق بالفعل سنة 1992 على آخر تعديل اقتُرح سنة 1789، وهو الآن التعديل السابع والعشرون، وينصّ على أنّ التغييرات في تعويض أعضاء الكونغرس لا تدخل حيّز التنفيذ إلاّ بعد انتخابات السنتين القادمتين. Akhil Reed Amar, America's ..Constitution (New York: (Random House, 2005), 82, 453

الفصل 19. رغم كلّ سلبيّاته: (8–17 سبتمبر

230 «ما من أفكار بعيدة عن روح الدستور مثل أفكار»: Farrand, vol.II, 644-45) (September 17, 1787

230 «مراجعة أسلوب البنود»: Ibid, 553-554 (September 17, 1787)

230 راندولف وجيري ودايتون: Ibid, vol. III, 76 (Edmund Randolph to Beverly Randolph, September 2, 1787); Hutson, 264 (Elbridge Gerry to Ann Gerry, September 9, 1787); Farrand, vol. III, 80 (Jonathan Dayton to Elias Dayton, .(September 9, 1787

230 «إنّني أشعر بالغربة حقّاً»: Hutson, 265 (Washington to George AugustineWashington, September 9, 1787

231 فستكون مضطرّة إلى اشترائها: Ibid, 258 (Nicolas Gihan to John Sullivan,) September 11, 1787

231 «الجبال ستتمخّض قريباً»: Ibid, 259 (Livingston to John Jay, September 4,) 1787. . قلّة من أصحاب المكاتب النيوجيرسيّين يستطيعون في هذه الأيّام مضاهاة إشارة ليفنستون إلى «المسخ العظيم المروّع» في الكتاب الرابع من آينايد فيرجيل.

231 حجب بسبب: .Ibid, 267 (Livingston to John Jay, September 11, 1787)

231 أمضى العجوز روجيه شيرمان: .Daybook, September 6, 1787)

231 زار الدكتور فرانكلين: Hutson, 256, 258 (September 2 and September 3,) diary entries

231 أوّل يوم يتحرّر فيه: Farrand, vol.III, 77 (Madison to Jefferson, September) .6, 1787

232 إنّ التزام أعضاء المؤتمر بدقّة المواعيد: Pennsylvania Journal and Weekly)

..Advertiser, August 25, 1787

232 «لقد كتب الدستور بالأصابع»: Farrand, vol. III, 420 (Morris to Timothy) .Pickering, December 22, 1814

232 «بالاتّفاق الجاهز»: Ibid, 499 (Madison to Jared Sparks, April 8, 1831). ونقل لاحقا المندوب أبراهام بالدوين الجيورجي أيضاً أنّ موريس كانت له «اليد الطولى في الترتيب والتركيب الأخيرين» للدستور. Ibid, 170 (from the Diary of Ezra Stiles, .reporting on conversation with Baldwin

233 سلامة لغة: Ibid, 551 (Madison's draft « Preface to Debates in the « Convention of 1787

233 عبقريّته اللامعة: Ibid, 500 (Madison to Jared Sparks, April 8, 1831)

234 بعد أن جمّع موريس: Compare Ibid, vol.II, 566, 571 (from Committee of Detail draft) with ibid, 590-91 (consolidated revesion reported by the .(Committee of Style

235 اختيار شخص أفضل: Ibid, vol.III, 499 (Madison to Jared Sparks, April 8,) 1831

235 أدرج موريس مادّة: Ibid, vol.II, 439-40 (August 28, 1787), 597 (new) clause

235 اختارها الشعب في كلّ ولاية: Ibid, 608 (September 13, 1787)

236 كانت كلّ ولاية اقلّ تصلّبا: Ibid, 584 (September 12, 1787)

236 «إنّي لم أقبله»: Brookhiser, Gentleman Revolutionary, 92 (quoting from) .Morris's papers

236 متلهّفين لإسكات الفرجينيّين: Farrand, vol.II, 606-7 (September 13, 1787).

236 «عدداً من الأعضاء»: Ibid, 608 (September 13, 1787).

237 سلطة الكونغرس: Ibid, 618 (September 14, 1787).

237 هذه التصريحات الصادرة عن أعضاء: Ibid, 631 (September 15, 1787).

237 عمود الدكتور فرانكلين الكهربائي: McCullough, 420 (quoting letter from Adams to Benjamin Rush).

238 مثلما كتب مندوب من كارولينا الشماليّة: Hutson, 60 (W.R. Davie to James Iredell, July 17, 1787).

238 دعا جورج مايسون: Farrand, vol.II, 542 (September 7, 1787).

239 يدهشني إذن: Ibid, 642-43 (September 17, 1787).

239 «صريحا وملمّحا»: Ibid, 649 (September 17, 1787).

239 إنّني لا أملك بهذه المناسبة سوى التعبير: Ibid, 643 (September 17, 1787).

240 بهذه الطريقة: Ibid).

240 فقد أعلن جيري وراندولف: Ibid, 646-47 (September 17, 1787).

240 لقد وقع تبنّي المقترح: Ibid, 643-44 (September 17, 1787).

241 11 ولاية والعقيد هاملتون: Ibid,vol.III, 81(Washington Diary, September 17, 1787).

241 لم يحضر سوى أربعة مندوبين من دالاوار: Ibid, 81 (Dickinson to George Read, September 15, 1787).

241 «إنّني أضع موقفي موضع شكّ»: Ibid,vol.II, 649 (September 17, 1787).

241 «لقد أنجز الدستور بالمساومة والتسوية: Ibid, 82 (Nicolas Gilam to Joseph) Gilam, September 18 1787

241 دون أن يتمكّن من القول إنّ: Ibid, 648 (September 18, 1787)

241 توماس فيتزيمونس مندوب بنسلفانيا: Jensen, Documentary History, vol.II, 58-) .60

242 كان الدكتور فرانكلين سيرفع تقريرا: Rolins, ed., The Autobiographies of Noah) .Weber, 246 (diary entry for September 18, 1787

242 بعث فيتزيمونس نسخة إلى نوح ويبستر: .Ibid, (entry for September 15, 1787)

242 وفي الطريق إلى ذلك المكان: John H. Rhodehamel, « The Renowned Don) Quixote, » 1983 Annual Report, The Mount Vernon Ladies' Association of .the Union, 13-15

243 «تأمّل العمل الجسيم»: .Farrand, vol. III,81 (September 17, diary entry)

الفصل 20: (4 جويلية، 1788

الصفحة

245 وبعد ثلاثة أسابيع فقط: Ibid, 101-2 (James Wilson, Adress to a Meeting of) .the Citizens of Philadelphia, October 6, 1787

245 ساحة دار الولاية لويلسون: .State-House Yard » Speech : (Bowen, 275 »)

246 رغم اعتراض المندوبين الشايزيّين: Szatmary, 133 ; Richard, 150 ; Richard D.) Brown, « Shays's Rebellion and the Ratification of the Federal Constitution in Massachusetts, » in Richard Beeman, Stephen Botein and Edward C.

Carter II, eds., Beyond Confederation: (Origins of the Constitution and American National Identity (Chapel Hill: (University of North Carolina .Press, 1987

246 اتّخذت نيوهمشاير موقعا مناسبا: (استقي الوصف التالي لليوم من طبعة جويلية 1788 لـ المتحف الأمريكي أو لمستودع القطع القديمة والحديثة المهرّبة، نثري وشعري، مجلّة فيلادلفيّة مشهورة من ذلك الزمان. تضمّنت تلك الطبعة وصفا كاملا للاحتفال بقلم فرانسيس هوبكينز رئيس لجنة الترتيبات لذلك اليوم، ونسخة من خطبة ويلسون وتعليقا إضافيّا للدكتور بنيامين راش.

246 «مهرجان الحكاية المجازيّة»: Susan G.Davis, Parades and Power: (Street) Theatre in Nineteenth Century Philadelphia: (Temple University Press, .1986), 117

247 «المهيبة حقّاً»: .American Musem, 76 (Dr. Rush's letter)

250 سحب المبنى الفيدرالي: Laura Rigual, « Raising the Roof' : (Authors,) Spectators, and Artisans in the Grand Federal Procession of 1788, » Theatre .Journal 48 (1996) :253

251 ضدّ وجود أيّ نائب للرئيس: .(Farrand, vol.II,537 (September 7, 1787)

251 أخفق كلّ منهما في رمياته الثلاث الأولى: John H.Wheeler, Sketch of the Life of) Richard Dobbs Spaight of North Carolina (Baltimore : (William K. Boyle, Printer, 1880); http://www.army.mil/cmh-pg/books/revWar/ss/spaight. ..htm

251 كان ويليام بلاونت عضواً في مجلس الشيوخ: Buckner F.Melton, Jr., The First) .Impeachment (Macon, Ga : (Mercer University Press, 1998

252 في غير موضعه قليلاً: (Hutson, 126 (Washinngton Diary, June 28, 1787.

252 حين نفدت الإعانة الماليّة: (Clarkson and Jett, Luther Martin, 303.

252 بدا لي وكأنّه: (Mintz, Gouverneur Morris, 238.

252 إذا لم يتمّ فورا عقد سلام: (Adams, Gouverneur Morris, 292.

252 ولد ميّتا: (Alan Pell Crawford, Unwise Passions (New York : (Simon & Schuster, 2000), 196-98.

253 أغرق موتهما الكارولنيّ الجنوبي: (Haw, 229.

253 «عقله كان مضطربا جدّاً»: (Ralph Isard to J, Read, November 17. 1795, in Maeva Marcus and James R. Perry, eds., Documentary History of the Supreme Court (New York : (Columbia University Press, 1985), vol.I, 807.

253 كانت فتاة زنجيّة قرب النهر: (Wiliam Read to Jacob Read, December 29, 1795,) South Carolina Library.

254 فقد راتلدج: (Wiliam R. Casto, The Supreme Court in the Early Republic (Columbia: (University of South Carolina Press, 1995), 95

254 مراكمة سريعة للثروة: (Wiliam Read to Jacob Read, December 29, 1795.

254 خطّط ويلسون لبناء: (James Wilson to Pieter van Beckel, March 17, 1785, in James Wilson Papers, Historical Society of Pennsylvania.

254 اضطرّ إلى السفر إلى نيوجيرسي: (Robert McCloskey, « Introduction, » in Robert Green Mc Closkey ,ed Works of James Wilson (Cambridge: (Harvard University Press, 1967), 43.

254 انتظر إلى حدّ الآن بصبر: (Trotta, « James Wilson, » 22

254 «أسد الحدث»: (Bulter to William Slade, May 26, 1798, in James Wilson Papers, Historical Society of Pennsylvania.

255 «إنّها ليست متعة هيّنة»: (Robert Allen Rutland, George Mason, Reluctant Statesman (Williamsburg : (Colonial Williamsburg, 1961), 103.

255 «فهو من الرجال القلائل»: (Farrand, vol.III, 129 (Madison to Washington, October 17, 1787.

255 تعرف أنّني أعتقد: (Mason to Jefferson, January 10, 1791, in Rutland, Papers of George Mason.

256 الكبرياء من ناحية: (Washington to James Craik, September 8, 1789. quoted in Henriques.

256 مازال مشدوداً إلى العائلة: (Mason to Beverley Randolph, March 27, 1790, in Rutland, Papers of George Mason.

256 «طيلة حياتي»: (Mason to John Mason, July 5, 1792, in ibid.

256 «جاري»: (Washington to Hamilton, July 29, 1792, in Rowland, vol.II, 361.

256 بوفاته: (Reardon, 310-14, 331-34, 363.

257 جيفرسون وماديسون معا: (Leibiger, Founding Friendship, 197-225.

257 وقبل ثماني سنوات من ذلك التاريخ، استحدث كينغ، وكان آنذاك عضواً في مجلس الشيوخ: (Ibid, 220.

257 وبمرور سنتين على وفاته: (Wiencek, 353-58.

الصفحة

259 الخطّة التي ستشكّل الآن: Farrand, vol.I, 202-3 (June 11, 1787).

259 وفي ثلاث ولايات: Connecticut, South Carolina, and Georgia.

259 كارولينا الشماليّة وروداَيلند: Tadahisa, Kuroda, The Origins of the Twelfth Amendment (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1994), 28-38.

260 فلو غدر قليل من الناخبين: Hamilton to Wilson, January 25, 1789, in Harold C. Syrett, ed., Papers of Alexander Hamilton (New York: Columbia University Press, 1961), vol. 5, 247-49.

260 مناورة هاملتون: Amar, 337.

260 وبعد خمس وثلاثين اقتراعا: Chernow, 636.

261 ابتداء من انتخابات 1804: كذلك في صورة ما إذا أحيلت الانتخابات إلى مجلس النوّاب لأنّ أيّاً من المترشّحين لم يفز بأغلبيّة الأصوات فإنّ المترشّحين الثلاثة الأوائل فقط (وليس الخمسة الأوائل) سيلتحقون بالمجلس.

262 كان جون أدامز سيفوز: Garry Wills, Negro President: Jefferson and the Slave Power (New York: Houghton Mifflin Co, 2003), 2-3

262 تسعة عشر من بين أوّل أربعة وثلاثين: Leonard Richards, The Slave Power (Baton Rouge: Louisiana State University Press, 2000), 9, 62.

262 مقاعد المجلس التي أنشأتها: Ibid., 80-82.

262 عندما تبنّت الولايات الجنوبيّة: Amar, 95-98

262 يشير البعض: Collier and Collier.

263 لم تعد تانك الولايتان تستطيعان: Gary B. Nash, Race and Revolution (Lanhm, Md: Rowman & Littlefield Publishers, 2001; originally 1990). 27-28; .Amar, 95-97

263 «خطايا هذا البلد الآثم»: Jules Abels, Man on Fire : John Brown and the Cause of Liberty (New York : Macmillan Co., 1971), 365 (reproducing .(Brown's statement

264 لينكولن نفسه: Goodwin, Team of Rivals, 296.

264 لم تصدّق إلاّ ولايتان: David C. Huckabee, "Ratification of Amendments to the U.S Constitution,» Congressional Research Service (September 30, .(1997

ملحق 1: نظام الناخب

الصفحة

265 وتخلص بعض التحليلات: Kuroda, 174; Lawrence D. Longley and Neal R. Peirce, The Electoral College Primer (New Haven: Yale University Press, .1996), 143

266 في ثماني مناسبات: Longley and Peirce, 23, 110-11.. لأنّ جون كينيدي كان يتمتّع بهذا الضرب من الزعامة القويّة في الهيئة الانتخابيّة، فإنّ الناخبين غير المتعهّدين الأربعة عشر من ألاباما والميسيسيبي كانوا غير قادرين على عقد أيّ صفقة مفيدة لمصالحهم التي تتعارض مع الاندماج.

266 «جماعةً من الرجال الحكماء»: Ibid, 98.

قراءات إضافيّة

بإمكان أولئك المتعطّشين لمزيد من الاستكشاف لمؤتمر فيلادلفيا ولتلك الفترة من حياة أمريكا أن يطّلعوا على الأعمال الإضافيّة التالية:

أمريكا في ثمانينات القرن الثامن عشر: زار أمريكا بعض الأوروبّيين خلال هذه الفترة وخلّفوا ملاحظات مرهفة: J. P. Brissot de Warville, New Travels in the United States of America, 1788 (Cambridge: Belknap Press, 1964, originally 1792); Marquis de Chastellux,Travels in North America in The years 1780-1781-1782 (New York: Augustus M. Kelley,1970 ed.); Johann D. Schoepf, Travels in the Conferation (1783-84) translated and edited by Alfred J. Morrison (New York: Bergman Publishers, 1968). . يظهر وصف ممتاز للوضع السياسي قبل المؤتمر في كتاب: Merril Jensen, The Articles of Confederation (Madison: University of Wisconsin Press, 1966. في خصوص تمرّد شايز، أنصح بكتاب: Leonard L. Richard, Shay's Rebellion (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2002).

المؤتمر: لأربعين عاماً كانت المعالجة الكلاسيكيّة للمؤتمر تنحصر في كتاب: Catherine Drinker Boen, Miracle at Philadelphia (Boston: Little, Brown، 1966). وتظهر معالجات مفيدة أخرى في: Richard Morris, Witnesses at the Creation (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1985); Clinton Rossiter, 1787: The Grand Convention (New York : Macmillan Company،1966). وعلى القارئ الجادّ في موضوع الدستور أن ينظر في كتاب: Akhil Reed Amar, America's Constitution (New york: Random House، 2005).

العبوديّة: إنّ معالجة المؤتمر لقضيّة العبوديّة مطروقة جيّداً في: Paul Finkelman, Slavery and the Founders (Armonk: M. E. Sharpe, Inc, 2001) ; Donald

Robinson, Slavery in the Structure of American Politics (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1971) . وقد تمّت تغطية كفاح جورج واشنطن الخاصّ في موضوع الرقّ في كتاب: Fritz Hirschfeld, George Washington and Slavery (Columbia: University of Missouri Press, 1997).

الأفراد المؤسّسون: في خصوص واشنطن، أقترح عملين من تأليف: James Thomas Flexner, Washington : The Indispensable Man (Boston: Little, Brown, 1974) ; George Washington and the New Nation, 1783-1793 (Boston: Little, Brown, 1970). ومن بين سيل الأعمال الحديثة عن فرانكلين أذكر المعالجة الرائعة والشاملة لـ: Walter Isaacson, Benjamin Franklin: An American Life (New York: Simon and Schuster, 2003). وأنتج رالف كتشام (Ralph Ketcham) لأولئك الذين تنقصهم طاقة الاحتمال على قراءة ترجمة ماديسون المتعدّدة الأجزاء التي كتبها إيرفينغ برانت (Irving Brant) مؤلّفا بارعا (وإن يكن مع ذلك سميكا) من مجلّد واحد: James Madison : A Biography (Charlottesville : University Press of Verginia, 1990) . بينما يفحص كتاب Stuart Leibiger, Founding Friendship (Charlottesville : University Press of Verginia, 1999) العلاقة بين ماديسون وواشنطن. قدّم الإسكندر هاملتون أداء غير مقنع في المؤتمر لكنّه حظي بالتمجيد في ترجمة ذات شأن بقلم: Ron Chernow, Alexander Hamilton (New York : Penguin Press, 2004).

وفي خصوص العَصِيّ لوثر مارتن، أُنْجِزَت ترجمة كاملة لحياته في كتاب: Luther Martin of Miriland (Baltimore : Johns Hopkins Press, 1970), by Paul clarkson and Samuel Jett. وفي خصوص الحاكم موريس، أنصحك بـ: Richard Brookhiser, Gentleman Revolutionary (New York : Free Press, 2003). في حين أنّ الموادّ المتبقّية عن جون راتلدج ضئيلة إلى درجة أنّه يلزمه تقاسم مجلّد واحد مع أخيه في كتاب: James Haw, John & Eduard Rutledge of South Carolina (Athens : University of Georgia Press, 1997). يوجد عن جيمس ويلسون كتاب فقط من تأليف: Page Smith,

James Wilson, Founding Father, 1742-1798 . (Chapel Hill : University of
.(North Carolina Press, 1956

فهرس

أرقام الصفحات بخطّ مائل تحيل على الصور[1].

(1) تحيل الأرقام المذكورة إلى الصفحات في الطبعة الأصليّة بالإنجليزيّة.

تنويه

Architect of the Capitol: 235.

License granted courtesy of The Rt Hon The Earl of Derby 2006: 143.

Emmet Collection, Miriam and Ira D. Wallach Division of Art, Prints and Photographs, The New York Public Library, Astor, Lenox and Tilden Foundations: 90, 120, 145.

From the collection of Gilcrease Museum, Tulsa, Oklahoma: 28.

HarperCollins College Division, map reproduced from The Rise of the

West, 1754-1830 by Francis S. Philbrick, 1965: 128.

Courtesy Independence National Historical Park: 48, 76, 97, 212.

Library of Congress: 14, 36, 62, 93, 193, 196, 242, 249.

Michael D. McCumber: 6.

National Portrait Gallery, Smithsonian Institution: 60, 108, 170, 181, 221.

National Portrait Gallery, Smithsonian Institution; gift of the Morris and Gwendolyn Cafritz Foundation: 111.

Ohio Historical Society: 138.

Courtesy of the Pennsylvania Academy of the Fine Arts, Philadelphia.

Bequest of Mrs. Sarah Harrison (The Joseph Harrison, Jr., Collection): 3.

Special collections and University Archives, Rutgers University Libraries: 209.

David O. Stewart: 160.

«إنّه لأمر مشجّع في زمن بدا للكثيرين أنّه زمن أفول الجمهوريّة أن نعود إلى الفجر ونرى كفاح مبدعي الدستور من أجل خلق ديمقراطيّة يمكنها أن تدوم. في صيف 1787، أعاد دايفد أو. ستيوارت خلق هذه اللحظة بأمانة وإحساس عظيم وتبصّر. إنّ كتابه يجدّد تقديرنا لإحدى روائع الحضارة الغربيّة ويذكّرنا، كما ذكّر بنيامين فرانكلين زملاءه في المؤتمر الدستوري، بأنّ بناء جمهوريّةٍ شيءٌ والحفاظ عليها شيء آخر تماماً».

ـ بتريسيا أوتول مؤلّفة عندما يُنفَخ في الأبواق:

تيودور روزفالت أمام البيت الأبيض

«في وقت يشعر فيه الكثير من الأمريكيّين بأنّهم محاصرون بعداوات داخليّة وبانعدام اليقين نحو العالم فإنّ كتاب صيف 1787 لدايفد ستيوارت يمثّل هبّة نسيم منعش مرحّب بها. إنّ هذا الكتاب المقتضب والساحر يلهمنا من جديد بتألّق الزعماء الذين ذهبوا إلى فيلادلفيا وبجَلَدهم، ويرينا خطوة بخطوة كيف أنشأوا نظام حكمنا».

ـ مايكل بشلوس، مؤلّف رباطة جأش رئاسيّة

«منذ ظهور كتاب معجزة بفيلادلفيا لكاثرين درنكر بوين سنة 1966 لم يتحدّ أيّ عمل مكانته الكلاسيكيّة. الآن، فعل عمل ستيوارت ذلك. إنّ هذا الكتاب، بأسلوب كتابته الرشيق وامتلائه بالشخصيّات العميقة والمسحة المسرحيّة، وبارتكازه الثابت على تسجيلات المؤتمر الدستوري ورسائل أعضائه، لترجمة مشرقة لعمليّة خلق الوثيقة... كتاب ممتاز».

ـ بابلشز ويكلي [ستارد ريفيو]

«أنجز السيّد ستيوارت... عملاً رائعا بتجميع تفاصيل المداولات التي أنتجت الدستور الأمريكي.... إنّه يسبك القصّة بأسلوب مسرحي ويعطي لمحات من الحياة طيلة الصيف الساخن... ويوفّر أيضاً صورا آسرة لحياة الشخصيّات... ومثل أيّ مؤرّخ جيّد ينظر ستيوارت

تحت السطح ليعثر على تلك القصّة الحقيقيّة، وهو ما يجعل من صيف 1787 إضافة قيّمة إلى الأدب المكتوب حول إنشاء الدستور الأمريكي».

ـ فيليب سايب، ذي دلاّس مورنينغ نيوز

«يستكشف كتاب صيف 1787 المفعم بالحيويّة لدايفد أو. ستيوارت زمنا توصّل فيه رجال لامعون بمعيّة زملاء لهم أقلّ نباهة ولكنّهم في الغالب أعلى صوتاً إلى وضع خطّة لقيام الولايات المتّحدة الأمريكيّة. وبواسطة نقوش ونوادر لا تُمّحِي ينبّهنا ستيورات لم لا تزال تلك الأشهر الأربعة بفيلادلفيا تستطيع هزّ العالم».

ـ أ. ج. لنغوث، مؤلّف اتّحاد 1812: الأمريكيّون الذين خاضوا حرب الاستقلال الثانية

«لقد وضّح لي دايفد أو. ستيوارت أكثر من أيّ وقت مضى التوتّرات والمساومات التي أنتجت دستورنا في مؤتمر 1787، وعلى الخصوص المساومة بشأن العبوديّة بكلّ نتائجها المروّعة والباقية. إنّها عمل مسرحي لا يقاوم».

ـ أنطوني لويس، مؤلّف بوق جدعون

«كتاب لأولئك الذين يحبّون أن يُكتب تاريخهم بأناقة سلسة وبحسّ مرهف بالدعابة... يملك ستيوارت... إدراكاً ثابتا للتشعّبات الكثيرة المربكة والمتناقضة لوثيقة البنود السبعة التي ظهرت للوجود. ويملك أيضاً نظرة ثاقبة إلى الشخصيّات الضالعة في الأحداث وهي تتصارع وتتوافق وتخلق أخيراً دستورنا الرائع... حكاية فاتنة».

ـ جيمس سرودس، محامي مدينة واشنطن

«قد يكون صيف 1787 ضارباً في ماضينا بأكثر من قرنين، لكنّ دايفد أو. ستيوارت جعله مفعما بالحيويّة بشكل رائع في هذه الرواية الغضّة الآسرة عن آلام ولادة الدستور الأمريكي. عوضا عن أنصاف الآلهة ذات الشعر الأبيض المستعار عرّفنا ستيوارت بالذكور البيض الخمسة

والخمسين الذين غرست موهبة التوافق لديهم بذور الديمقراطيّة التمثيليّة في حديقة امتيازاتهم. توفّر هذه الحكاية الترياق الأمثل لشعاراتنا الطنّانة وسياساتنا الموجّهة لخدمة فئات بذاتها».

ـ رتشد نورتن سميث، مؤلّف كتاب البطريرك:

جورج واشنطن والدولة الأمريكيّة الجديدة

«إنّ ستيوارت مؤلِّف رائع، ينفتح سرده مثل رواية حسنة البناء... فهو يري ببراعة الأدوار التي أدّاها اللاعبون الرئيسيّون وهم يتصارعون على قضايا متنوّعة تنوّع حقوق الولايات ومستقبل العبوديّة. لقد كانت العبقريّة الحقيقيّة لأولئك المؤسّسين في نظر ستيوارت هي إدراكهم أنّ الحكومة الحرّة والشعبيّة يجب أن تكون مؤسّسة على التوافق. سيجد عامّة القرّاء هذا الكتاب مثيرا».

ـ جاي فريمان، بوكلست

«إذا كان ستيوارت قد خطّط عمدا وفي الوقت المناسب لكتابة رواية عن الخمسة والخمسين رجلاً الذين قدموا من اثنتي عشرة ولاية وأنتجوا وثيقتنا الإطاريّة القوميّة فقد فاز بالضربة القاضية .... لقد أنجز ستيوارت عملاً من الطراز الأوّل مقدّماً المسرحيّة بأسلوب سردي مفعم بالحياة».

ـ ديك هيرمان، لينكولن جورنال ستار

«إنّ البراعة التي أثبتها ستيوارت في مراوحته بين السياق التاريخي والتفاصيل القانونيّة تتجلّى أيضاً في قصّته التي تحرّكها الشخصيّات .... تكشف لوحات ستيوارت الوصفيّة عن أنّ المندوبين كانوا بشكل لا لبس فيه بشرا. منح نثره المباشر والحواري تقريباً وتصويره العالي الجودة لواضعي مسوّدة الدستور ... النقاشات المتعلّقة بالتجارة البينيّة ومكائد الانتخابات الرئاسيّة عمقا عاطفيّا أوبيراليّا».

ـ كريستين غيبسون، إرث أمريكي

«حكاية عميقة -إلاّ أنّها جديرة تماما بالقراءة- عن الصراع الذي ولّد هذا الكتاب الأجدر بالثناء من بين مجموعات كتب القانون.... يضعنا ستيوارت هناك، في ذلك الصيف الحارّ من الماضي البعيد. إنّه راو قصصي حاذق تماما مثلما هو مؤرّخ محقِّق».

ـ جون دايفس، يوميّة ديكاتور (ديكاتور، أل)

«ليس في وسعك أن تتابع النقاشات حول قضايا رئيسة وتفهم كيف كُتِب دستورنا فحسب، بل يمكنك أيضاً أن تكسب دروسا قيّمة حول فنّ القيادة من السادة الموجودين بالقاعة. ستحصل أيضاً على إحساس جيّد بإيقاع مداولات الحكومة النيابيّة وهي تتداول مسائل ذات وزن. إذا كان لك أن تقرأ كتابا واحداً فقط عن الدستور، فليكن هذا الكتاب هو صيف 1787».

ـ مايكل ل. رامسي، الرونوك تايمز

«دراسة جديدة آسرة عن إنشاء دستور الولايات المتّحدة.... رواية شاملة وظريفة وذكيّة جدّا عن أهمّ حدث في تاريخنا».

ـ كندل وايلد، راتلند هيرالد (راتلند، ف ت)

«في روايته لحكاية المؤتمر الدستوري حفر ستيوارت في التقييدات المعاصرة المسجّلة في المؤتمر وفي يوميّات المندوبين ومذكّراتهم. والنتيجة هي صورة رائقة ومنتقاة لحياة ساستنا المؤسّسين».

ـ كريستين باباس، دايلي أوكلاهوما (مدينة أوكلاهوما)

«إنّ الكتابة عن المؤتمر الدستوري لسنة 1787 تُعتبر تحدّيا، فعلاً كهربائيّا عالي الضغط.... في كتاب صيف 1787، كسب دايفد أو. ستيوارت التحدّي. لقد نجح ستيوارت بقوّة نظامه ووضوح كتابته وسخريته الجافّة في الإمساك بالسلك الأدبي الرفيع بملاحظة "شكرا يا سيادةَ المحامي» ومضى وهو يحثّ الخطى.... كتاب واجب القراءة».

ـ جون رون، شينكتدي غازيت

نبذة عن المؤلف:

اشتغل دافيد أو. ستيوارت معاونا لرئيس المحكمة العليا لويس باول سنتَيْ 1979 - 1980. ولقاضِيَيْ الاستئناف ج. سكيلي رايت سنتَيْ 1978 - 1979 ودافيد بازيلون (1978). ومارس المحاماة في واشنطن دي سي أزيد من خمس وعشرين سنة مرافعا في الغالب في قضايا متعلّقة بالقانون الدستوري، ويشتغل حاليّا في مكتب روبس وغراي.

نبذة عن المترجمين:

* محمد بوهلال:

جامعي تونسي حاصل على دكتوراة الدولة في الآداب عن دراسة فكر أبي حامد الغزالي ومهتمّ بقضايا الفكر والحضارة العربيّتين.

* محفوظ العارم:

حاصل على شهادة ختم الدراسات الجامعيّة في اللغة والآداب والحضارة الإنجليزيّة ترجم عدّة نصوص فكريّة من العربيّة إلى الإنجليزيّة ومن الإنجليزيّة إلى العربيّة.

الرجال الذين اخترعوا الدستور

إنّ حكاية الدستور قصّة مشوّقة. يحملنا كتاب صيف 1787 إلي القاعة ذات الحرارة الخانقة حيث جاهد المندوب طيلة أربعة أشهر لإنتاج الوثيقة التي ستحدّد هويّة الأمة آنذاك والآن. كانت الغرفة مكتظّة بشخصيّات متنوّعة ومتحمّسة. بعضهم معروف: الإسكندر هاملتون، الحاكم موريس، أدموند راندلوف. وآخرون طواهم النسيان إلى حدّ بعيد. إنّه لأمر شيّق في بلد يجادل باستمرار حول المقصد الأصلي من الوثيقة، أن نشاهد هذه الشخصيّات القويّة تكافح للوصول إلى إجماع لكتابة وثيقة بوسعها أن تنمو مع الأمّة.

قصّة آسرة... بفضل دافيد ستيورات نملك الآن فهما مبتكرا لنقاط القوّة في دستورنا وأسباب الثغرات الكامنة فيه. «ونملك أيضاً إدراكاً متجدّدا لشخصيّة الرجال الذين كتبوه وتصميمهم».

مايرون أ . مارتي، سانت لويس بوست ديسباتش

«لقد كان تصميم الدستور واحداً من الإسهامات الأكثر إثارة للدهشة في التاريخ البشري.. إنّ كتاب دافيد ستيوارت هو في الآن نفسه رواية آسرة عن الكيفيّة التي أنجز بها ودليل مفيد إلي الكيفيّة التي يجدر أن ننظر بها اليوم إلى تلك الوثيقة الرائعة».

والتر إسحاقسن، مؤلّف كتاب بنيامين فرانكلين







